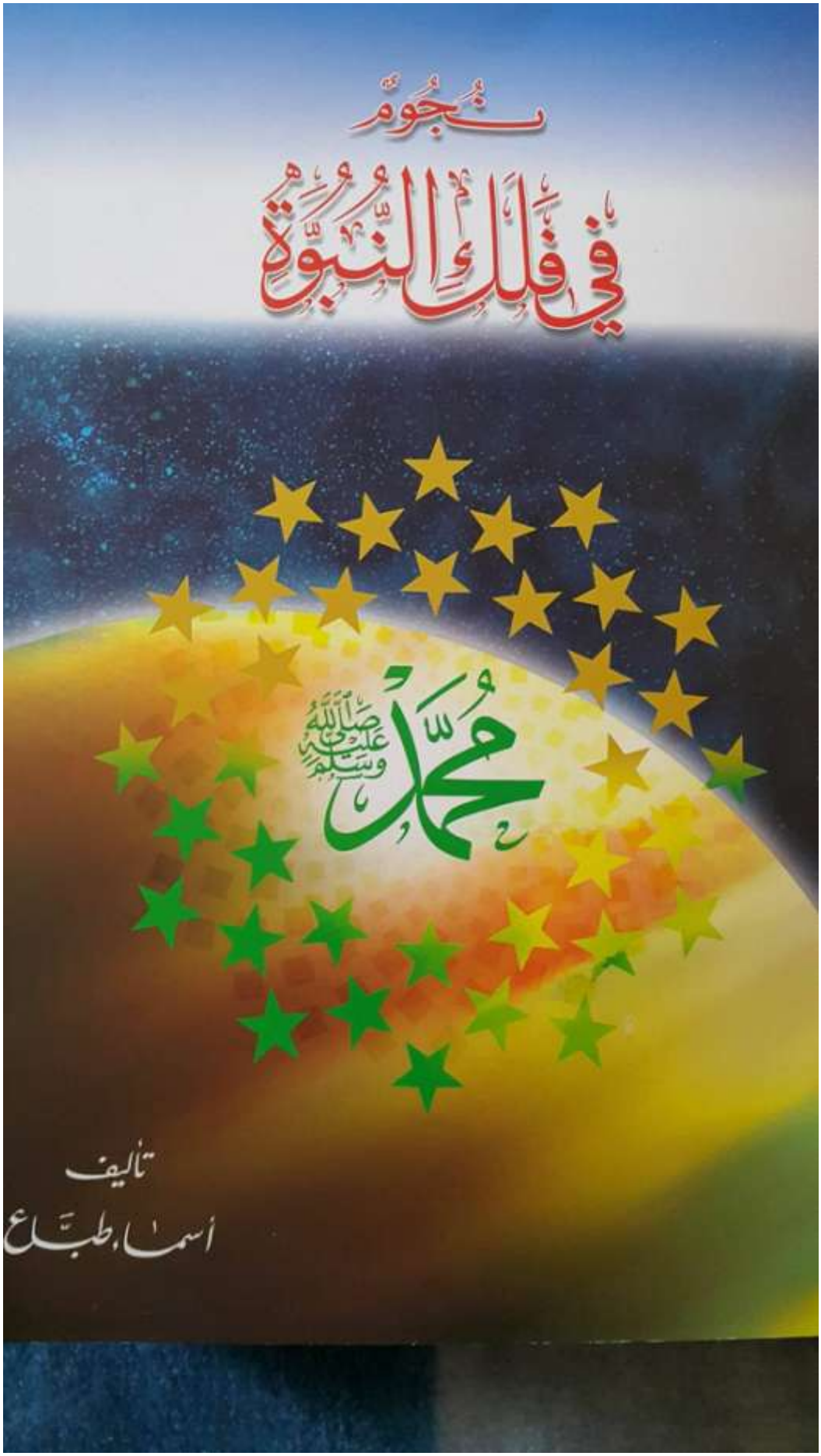
نجوم
في فلك النبوة
محمد صلى الله عليه وسلم
تأليف
أسماء طبلع

حقوق الطبع محفوظة للمؤلفة

يمنع طبع هذا الكتاب أو جزء منه بكل طرق الطبع
والتصوير والنقل والترجمة والتسجيل المرئي والمسموع
والحاسوبي إلّا بإذن خطي من المؤلفة.

موافقة برقم ٧٥٥٥٦

عدد النسخ: ١٠٠٠

قال الله تعالى :

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْـَٔايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾.

سورة الأنعام، الآية (٩٦)

﴿ وَعَلَٰمَٰتٍ ۚ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴾.

سورة النحل، الآية (١٦)

قال رسول الله ﷺ :

أَصْحَابِي كَالنُّجُومِ بِأَيِّهِم اقْتَدَيْتُم اهْتَدَيْتُم .

رواه البيهقي عن ابن عباس رضي الله عنهما

النُّجُومُ أَمَانٌ لأَهْلِ السَّمَاءِ وأَصْحَابِي أَمَانٌ لأُمَّتِي .

رواه الطبراني عن ابن عباس رضي الله عنهما

إِنَّ مَثَلَ العُلَمَاءِ فِي الأَرْضِ كَمَثَلِ النُّجُومِ يُهْتَدَى بِهَا فِي ظُلُمَاتِ البَرِّ والبَحْرِ فَإِذَا انْطَمَسَتِ النُّجُومُ أَوْشَكَ أَنْ تَضِلَّ الهُدَاةُ .

رواه الإمام أحمد عن أنس بن مالك رضي الله عنه

مُقَدِّمَة

الحمد لله ربّ العالمين، والصّلاة والسّلام على المبعوث رحمة للعالمين، ورضي الله عن آله وأصحابه أجمعين، وتابعيهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد، فقد أثنى الله تبارك وتعالى على صحابة رسول الله ﷺ، ووصفهم في القرآن الكريم بهذا الوصف الرائع: ﴿مُحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾[1].

وحلّد مواقفهم رضي الله عنهم في التجرّد والنّصرة والإيثار، فقال جلّ وعلا: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾[2]، ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ۝ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝﴾[3].

ووصفهم رسول الله ﷺ بالخيرية والأفضلية المطلقة على سائر القرون فقال عليه الصّلاة

---

(١) سورة الفتح (٢٩).

(٢) سورة التوبة (١٠٠).

(٣) سورة الحشر (٨-٩).

والسّلام : « خير النّاس قرني، ثمّ الذين يلونهم، ثمّ الذين يلونهم »[1].

هكذا يصف الله سبحانه ونبيّه ﷺ الصحبَ الكرام، الذين حازوا قَصَب السَّبق في كلّ شيء في الارتقاء الروحي والخُلقي، في النصرة والولاء، في العلم والعمل، في التضحية والفداء.. فكانوا بحقّ مشاعل نور، وأعلاماً هداة، وقدواتٍ فذّةً، في كلّ مكان وزمان. وفي الصحيح قال رسول الله ﷺ : « النّجوم أمنة السّماء، فإذا ذهبت النّجوم أتى السّماء ما تُوعد، وأنا أمنة لأصحابي، فإذا ذهبتُ أتى أصحابي ما يُوعدون، وأصحابي أمنة لأمتي، فإذا ذهب أصحابي أتى أمتي ما يُوعدون »[2].

وهذا الحفظ للأمة يعني حفظ الصحابة لدينها، فقد بلّغوا الرسالة، وأدّوا الأمانة، وحفظوا القرآن والسنة، ولو فرطوا فيهما لما وصل الدين إلينا سالماً محفوظاً بحفظ الله تعالى.

لذلك أمر رسول الله ﷺ الناس في كلّ زمان بتوقير الصحابة واحترامهم ومحبّتهم، ونهى عن أذاهم والجرأة عليهم، فقال ﷺ : « لا تسبّوا أصحابي، فلو أن أحداً أنفق مثل أُحُدٍ ذهباً، ما بلغ مُدّ أحدهم ولا نصيفه »[3].

وقد كان العلماء والمربّون - قديماً وحديثاً - يحثّون الناشئة على النظر في سيرة المصطفى ﷺ وسير أصحابه الأفذاذ، لينشؤوا على حبّ الله ونبيّه ﷺ، ويستلهموا معاني الإيثار والوفاء .. والصدق والعفاف .. والطهر والتقوى والكرم والفداء .. وهذا ما دعا إليه القرآن الكريم في إشارته الواضحة إلى ضرورة الاقتداء بالصالحين، فقال تعالى : ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ ﴾[4].

وما أحسن ما قاله ابن مسعود رضي الله عنه في هذا المجال وهو يصف أصحابه : (من كان منكم متأسّياً فليتأسّ بأصحاب محمّد ﷺ، فإنهم كانوا أبرّ هذه الأمة قلوباً، وأعمقها

---

(١) صحيح البخاري (ح٢/٩٣٨).
(٢) صحيح مسلم (ح٤/١٩٦١).
(٣) صحيح البخاري (ح٢/١٣٤٣).
(٤) سورة الأنعام (٩٠).

علماً، وأقلّها تكلّفاً، وأقومها هدياً، وأحسنها حالاً، قوماً اختارهم الله لصحبة نبيّه ﷺ وإقامة دينه، فاعرفوا لهم فضلهم واتّبعوهم في آثارهم، فإنهم كانوا على الهَدْي المستقيم).

من أجل هذا وضعنا هذا الكتاب .. وعرضنا فيه سير وأخبار بعض الصحابة الكرام، يعيش الناشئة في رحابه في حوّ الإيمان والتقوى .. والفضيلة والإخلاص .. والطهر والعفاف .. فيحفزهم ذلك على التأسي والاقتداء.

* * * * * * * * *

اخترنا ستين شخصية من الصحابة الكرام رجالاً ونساءً، بدأنا بالمهاجرين أولاً ثمّ الأنصار، ولم نفرد قسماً خاصاً للنساء، إنما تركنا الأمور تجري في الكتاب على مثل ما تجري عليه في الحياة .. لكن آثرنا أن نعرض أخبار بعض النساء اللواتي كان لهنّ أثر أو مشاركة في حياة رسول الله ﷺ أيام الرسالة وبعدها .. بغية إلقاء الضوء على دور المرأة في الإسلام ومنزلتها، والرعاية والمساواة التي حباها الإسلام إياها، حتى جعل (النساء شقائق الرجال)، لا ينهض المجتمع ولا تقوم حضارة إلّا بهما معاً .. هذه المساواة التي لم ترقَ إليها حتى اليوم أحسن النظم والقوانين في أرقى الأمم الديموقراطية المعاصرة.

وقد جعلنا ضابط التّسلسل في سرد الشخصيات، تاريخ إسلامها، بقدر ما تيسّر لنا معرفته. وحين كنا نفتقر إلى معرفة التاريخ الدّقيق لإسلام الشخصية كنا نهتدي في ترتيبها بالأحداث التي وردت حول الشخصية في كُتُب تراجم الصحابة رضوان الله عليهم.

وقد جعلنا شخصيات المهاجرين الذين وُلدوا في الإسلام، أو كانوا صغاراً في سنوات الدعوة الأولى - وهم السيدة فاطمة الزهراء، وأسامة بن زيد، وعبد الله بن عباس ﷺ - جعلناهم في الترتيب آخر المهاجرين الذين أسلموا قبل الهجرة. وأمّا الأنصار فقد جعلنا ترتيبهم حسب تواريخ إسلامهم تقريبياً، وذلك لأنّ معظم الذين اخترنا منهم أسلموا في فترات متقاربة قبل هجرة النبي ﷺ، بين بيعتي العقبة. وكذلك جعلنا الحديث عن صغار الصحابة منهم - وهم حبيب بن زيد، وزيد بن ثابت، وأنس بن مالك ﷺ - في ختام الحديث عن الأنصار الذين ثَبَتَ إسلامهم قبل الهجرة.

آثرنا في تقديم الشخصيات العرض القصصي رغبة في التشويق من غير أن نقضي على صحة الخبر، لكننا أوردنا - خلال عرض الشخصية - كثيراً من النصوص التاريخية بحرفيّتها حرصاً على ما فيها من نورٍ وجلال. وجهدنا أن تكون الأخبار جميعاً موثّقة توثيقاً دقيقاً - قدر الإمكان - من المصادر الأم المعروفة؛ فأحلنا تلك الأخبار في الحواشي على مصادرها ما كان منها ضمن سياق قصصي أم منقولاً حرفياً.

ومن حيث الأسلوب حرصنا على بساطة الأداء وسهولة اللغة وفصاحتها.

وقد آثرنا العرض الوجيز لأحداث الشخصيات وحاولنا قدر الإمكان إبراز خصوصيّتها ومواقفها في الحياة، ودورها في بناء المجتمع، وتحقيق الأمن والسّلام، ونشر الخير والهدى والصّلاح. فكان العرض إلى حدّ ما يسير وفق خط زمني يواكب الأحداث، ويُشعر كذلك بعظمة تلك الشخصيات التي لم تنجب مثلها أمة من الأمم في قديم الدهر وحديثه.

نسأل الله سبحانه وتعالى أن يجعل في عملنا هذا خيراً ونفعاً، وأن يتقبّل منّا أحسن ما عملنا ويتجاوز عن أخطائنا .. إنّه السميع المجيب.

وصلّى الله على سيدنا محمّد وعلى آله وصحبه وسلّم ..

وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين ..

٨/ رجب ١٤٢٤هـ
٤/ أيلول ٢٠٠٣م

المؤلفة

مدخـــــل تاريخـــي

هذا موجز لأهم أحداث السيرة النبوية الشريفة، يُعين على مزيد من الفهم لحياة الصحابة الكرام ودورهم في نشر الرسالة الأخيرة، والمجتمع الإسلامي الذي تمخّض عنها من خلال جهاد رسول الإسلام ﷺ ومَن آمن معه.

◆ **مولد النبي عليه الصلاة والسلام** : كان مولد خاتم الرسل عليه الصلاة والسلام في مكة المكرمة، يوم الاثنين الثاني عشر من شهر ربيع الأول من عام الفيل[1]، ويوافق ذلك سنة **٥٧٠** للميلاد.

◆ **نزول الوحي** : لما بلغ ﷺ أربعين سنة، بعثه الله بشيراً ونذيراً ورحمة للعالمين. وكانت بعثته على حينِ فترة من الرسل، وقد انتشر الضلال، وتحرّفت الديانات بالشرك والوثنية، وكان الأحبار والرهبان يتحدثون أنه آن الأوان لظهور نبي آخر الزمان.

◆ **الدعوة إلى الله** :

أولاً – المرحلة المكية :

أ– مرحلة السِّر : قام عليه الصلاة والسلام بالدّعوة إلى الله سراً، فأسلمت جماعة قليلة من الرجال والنساء، أولهم زوج النبي السيدة خديجة وآل بيته. واستمرّت الدّعوة السّرّية قرابة ثلاث سنين وكانت حصيلتها ما يقارب أربعين رجلاً وامرأة. وبرغم قلة عددهم كانوا اللبناتِ التي قام عليها صرح الإسلام العظيم.

وقد كانت تلك الدعوة عملاً إنسانياً احتضن مختلف الطبقات والقطاعات الاجتماعية، مِن فقراء وضعفاء وأغنياء وأشراف وعبيد وسادة، أصبحوا جميعاً بنعمة الله إخواناً. وكان معظمهم في بداية الدعوة شُباناً، ولا عجب .. فالشّباب أقدر على التأثر والتأثير، والمقاومة والتغيير، والتضحية والعطاء.

---

(١) وهو العام الذي ردّ الله فيه الأحباش (أصحاب الفيل) عن مكة المكرمة.

ب- **مرحلة الجهر** : (من السنة الرابعة للبعثة إلى السنة الثالثة عشرة للبعثة) ..

في نهاية السنة الثالثة أنزل الله تعالى أمره إلى النبي ﷺ أن يصدع بما جاءه من الحق ففعل. وقد لاقى عليه الصلاة والسلام وأصحابه من صنوف الأذى والعذاب من مشركي مكة ما لا يحيط به وصف ولا بيان. وكان من أبرزها **حصار** قريش للمسلمين في شِعب[1] أبي طالب في السنة الثامنة للبعثة.

وقبل ذلك كان النبي ﷺ قد أرشد أصحابه إلى أن يهاجروا إلى الحبشة فِراراً بدينهم من الأذى والتعذيب، فكانت **هجرتان** : الأولى سنة ٥ للبعثة، والثانية سنة ٧ للبعثة. وما لبث الرسول عليه الصلاة والسلام في سنة ١٠ للبعثة أن خرج إلى الطائف التماساً لنصرة ثقيف، لكن الله لم يُرِد لأهل الطائف الكرامة فقد آذوه ورفضوا نصرته، فرجع إلى مكة ودخلها بجوار أحد المشركين المطعم بن عدي.

دخلت السنة الحادية عشرة من البعثة، ورسول الله ﷺ يقوم بالدعوة إلى الله لا يفتر عن ذلك، فلما اقترب موسم الحج من تلك السنة راح عليه الصلاة والسلام يستعد لدعوة الوفود والقبائل التي ترد مكة كما كان يفعل في كل عام منذ أن جهر بالدعوة، واستمرّ على ذلك الأمر حتى تلك السنة. فكان ﷺ كلما اجتمع الناس بالموسم أتاهم يدعو القبائل إلى الله وإلى الإسلام، ويعرض عليهم نفسه وما جاء به من عند الله من الهدى والرحمة. ولقد ظلّ عليه الصلاة والسلام يبحث عن أرض يُقيم عليها دولة الإسلام حتى التقى في السنة الحادية عشرة جماعةً من أهل يثرب من الخزرج أراد الله بهم الخير، فسارعوا إلى الإيمان به وصدّقوه، ثم عادوا إلى قومهم يدعونهم إلى أمر الرسول ﷺ فاستجابوا وقدموا إلى مكة في المواسم التالية وبايعوه في العقبة مرتين.

سُميت الأولى **بيعة العقبة الأولى** وكانت في السنة الثانية عشرة للبعثة، فيها التقى رسولُ الله اثني عشر رجلاً قدموا من المدينة، جاؤوا مسلمين مُصدّقين، فبايعهم ﷺ، وكانت البيعة تدور حول محوري التوحيد والتوبة من المعاصي. فلما انصرفوا أرسل النبي ﷺ الصحابي مصعبَ ابن عمير ﷺ إلى المدينة معلماً .. وراح مصعب يدعو فيها إلى الله عاماً كاملاً حتى صار في كل

---

(١) الشِّعب : الفسحة بين جبلين.

بيت ذكر لرسول الله عليه أفضل الصلاة والسلام.

أما البيعة الثانية فكانت في السنة الثالثة عشرة للبعثة وتسمى **بيعة العقبة الثانية** وفيها خرج وفد كبير من المسلمين من المدينة بلغ ثلاثة وسبعين رجلاً وامرأتين، فالتقوا رسول الله عند العقبة وبايعوه عن قومهم على أن يهاجر هو وأصحابه إليهم ويقوموا بحمايته وحماية أصحابه، ولا شرط مقابل ذلك إلا جنة الله ورضاه.

ثانياً – المرحلة المدنية :

- **الهجرة إلى المدينة (١٤ للبعثة)** : أمر النبي عليه الصلاة والسلام أصحابه بالهجرة إلى المدينة .. ثم لحق بهم عليه الصلاة والسلام، وكان وصوله في الثاني عشر من ربيع الأول من السنة الرابعة عشرة للبعثة .. وقد اتُخذت تلك السنة فيما بعد مبدءاً للتأريخ الإسلامي.

كانت الهجرة فُرقاناً بين الحق والباطل، والضعف والقوة، مكّنت النبي عليه الصلاة والسلام، أن يقوم بإرساء أُسس أول مجتمع قائم على شريعة القرآن، ويقيم دولة العقيدة. فقد اكتملت في المدينة العبادات، ونزلت في القرآن أحكام الاقتصاد، ونظمت الأحوال الشخصية وقوانين العقوبات، ونظمت علاقات المجتمع المسلم مع سائر المجتمعات، فيما يسمى اليوم (العلاقات الدولية). وقد ساهم كل صحابي في هذا البناء المتكامل، فأدّى المهمات التي كُلّف بها، ولعب دوره المتميز .. وتباينت الأدوار وفق المواهب والظروف.[1]

- **عرض سريع لأهم الأحداث بعد الهجرة :**

١. قيام دولة الإسلام على أسس ثلاثة :

- بناء مسجد الرسول عليه الصلاة والسلام (١ للهجرة).
- عقد الإخاء بين المهاجرين والأنصار (١ للهجرة).
- كتابة (الصحيفة) أو دستور المدينة (١ للهجرة).[2]

٢. مواجهة الرسول ﷺ والمسلمين للجبهات المعادية (الوثنية واليهودية والرومانية) :

- غزوة بدر الكبرى (٢ للهجرة).

---

(١) من كتاب النفحات العطرية للدكتور نور الدين عتر، بتصرف.

(٢) انظر كتاب فقه السيرة للدكتور محمد سعيد رمضان البوطي.

- إجلاء يهود بني قينقاع (٢ للهجرة).
- غزوة أُحُد (٣ للهجرة).
- إجلاء يهود بني النضير (٤ للهجرة).
- غزوة الخندق أو الأحزاب (٥ للهجرة).
- صُلح الحديبية (٦ للهجرة).
- بدء الرسائل إلى الملوك والحكام (٧ للهجرة).
- عمرة القضاء (٧ للهجرة).
- فتح خيبر (٧ للهجرة).
- معركة مُؤتة (٨ للهجرة).
- فتح مكة (٨ للهجرة).
- غزوة حُنَيْن (٨ للهجرة).
- غزوة تبوك (٩ للهجرة).

٣. انتشار الإسلام في جزيرة العرب :

في السنة التاسعة نزلت سورة براءة تُنهي الوجود الوثني في الجزيرة وتأمر النبي ﷺ بقتالهم أو يُسلموا، وبلّغ علي ﷺ حُجّاج المشركين في منى مانزل من القرآن فبلّغوه قبائلهم، فأقبلت الوفود من مختلف أنحاء الجزيرة العربية لتبايع النبي على الإسلام، وسُمي ذلك العام عام الوفود. وكان النبي ﷺ يرسل مع الوفود من أصحابه من يُعلّمهم أمور الدين وينشر الدعوة في أرضهم. ولقد كانت السنة التاسعة دعوةً دائبة وجهوداً متكاملة لنشر الإسلام وضمان استقراره فوق الأرض وداخل النفوس.

٤. حجة الوداع (١٠ للهجرة).

◆ **وفاة خاتم المرسلين (١١ هـ) :** في أواخر صفر من السنة الحادية عشرة اختار النبي المصطفى ﷺ لقاء ربه، فأظلم في المدينة كل شيء. لكنه خلّف لأمته سر الهدى ومفاتيح الانتصار : كتابَ الله وسنة رسوله. وترك أمانة التبليغ ونشر الرسالة الأخيرة في أقطار الأرض في أعناق أصحابه ومن تبعهم بإحسان. وبايع المسلمون أبا بكر ﷺ خليفة عن رسول الله ﷺ وبدأت الخلافة الراشدة.

◆ **حَمَلَة الأمانة** : لم تمضِ فترة وجيزة على وفاته ﷺ، حتى اشتبك الإسلام في صراع رهيبٍ مع الوثنية فيما عرف بحروب الردّة[1]، وفي صراع مع الفرس والروم الذين وقفوا في وجه انتشار التوحيد خارج الجزيرة.[2] ولكن الرجال الذين رباهم المصطفى عليه الصلاة والسلام نهضوا نهوض الأبطال، فقضوا على الوثنية في جزيرة العرب، وانطلقوا ينشرون نور التوحيد والحق والعدالة في ربوع الأرض .. وما هي إلا سنوات قلائل حتى كان الإسلام ملء البر والبحر .. ولم يمضِ قرن من الزمان حتى انتشرت رسالة التوحيد لتعم قسماً كبيراً من المعمورة.

فالصلاة والسلام على رسول الله خاتم المرسلين .. والسلام على أصحابه الأطهار حملة الأمانة وقُواد النصر والفتح المبين.

---

(١) أشهر معارك الردة معركة اليمامة.

(٢) أشهر معارك الفتح مع الفرس كانت القادسية، وأشهر المعارك مع الروم كانت اليرموك.

المهاجرون من أهل مكّة

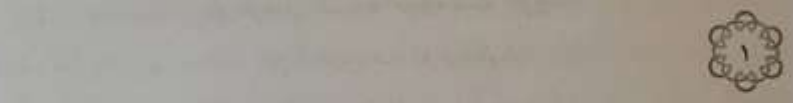

أُمُّ المؤمنين

خَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِد رضي الله عنها

سيّدة نساء العالمين

أم المؤمنين السيدةُ خَدِيجَةُ بِنتُ خُوَيْلِد[1]

ابن أسد بن عبد العزى القرشية

كم يطيب الحديث عنها وكم ترتقي الروح بذلك الحديث ..

تلك التي اختارها الله من بين نساء العالمين، لتكون إلى جانب خاتم الرسل عليه الصلاة والسلام ..

أولُ الناس إيماناً به وتصديقاً برسالته .. وأولهم حباً، وبذلاً، ونصراً ..

اختارها الله لتكون للنبي الأكرم عليه الصلاة والسلام زوجاً .. وللمؤمنين والمؤمنات أماً ..

فإذا كلُّ أيامها، وأحوالها، وحركاتها، وخطراتها تدور في فلك النبي المصطفى عليه الصلاة والسلام .. حباً، وبذلاً، ونصراً، وإيثاراً ..

وإذا كل مساعيها تُكرّس لدعم صاحب الرسالة واحتواء دعوته ..

إنها السيدة التي شرفت نساء العالمين بتقدمها الركب الذي اتبع هذا الدين العظيم ..

لا يعلم قدرها إلا الله ..

ولا يوفيها حقها من الجزاء إلا هو ..

فلنجعلها في بداية حديثنا عن الصحب الكرام، فهي الصحابية الأولى ..

رضي الله عنها وأرضاها ..

---

(١) بدأنا بالسيدة خديجة، رضي الله عنها، وإن لم تكن من المهاجرين لأنها كانت أول من أسلم.

في يوم من أيام مكة، وقبل أن تشرق شمس الإسلام بسنين، كانت نساء من قريش مجتمعات قرب البيت العتيق يتبادلن الأحاديث .. فإذا برجل يقترب منهن حتى إذا وقف أمامهن قال : يا نساء تيماء ! إنه سيكون في بلدكنّ نبيّ يُقال له أحمد يُبعث برسالة الله، فأيما امرأة استطاعت أن تكون له زوجاً فلتفعل !!.

فمنهن من ضحكت مستهزئة، ومنهن من صاحت في وجهه وأغلظت له القول، ومنهن من رمته بالحصباء حتى ابتعد ..

امرأة واحدة من بين أولئك النساء ظلّت جالسة في صمت وقور، ترقب الرجل وتفكر في كلامه .. لم تشارك صاحباتها في أقوالهن أو أفعالهن ..

كانت تلك خديجة بنت خويلد ..[1] سيدة نساء قريش .. الشريفة اللبيبة الحازمة كما وصفتها كتب السيرة، الطاهرة كما لقبها أهل مكة ..

لم تعلم يومئذٍ أنها هي من ستحظى بذلك الشرف وتلك الكرامة التي ما بعدها كرامة..

نشأت السيدة خديجة، رضي الله عنها، في أسرة عريقة من أسر قريش، وفي بيت واسع الثراء .. وعُرفت في مكة شابة راجحة العقل، كريمة الأصل. تزوّجها أبو هالة [2]، وعاشت معه فترة قصيرة رزقها الله خلالها ولداً يُقال له هند .. فلمّا توفي أبو هالة تزوّجت عُتيق بن عابد فولدت بنتاً اسمها هند أيضاً. فكانت خديجة، رضي الله عنها، تُدعى أم هند.[3]

فلمّا توفي زوجها عتيق، لم ترغب رضي الله عنها في الزواج، وتفرّغت لرعاية أولادها، والإشراف على شؤون مالها وتجارتها، لكن القدر العظيم كان بانتظارها .. ففي تلك الفترة كان الصادق الأمين محمّد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام، قد بلغ مبلغ الرجال، وكان قد بدأ يعمل في التجارة ..

---

(١) انظر: طبقات ابن سعد (ج٨/١٥).

(٢) واسمه هند بن النّباش.

(٣) انظر: طبقات ابن سعد (ج٨/١٤- ١٥).

كانت السيدة خديجة امرأة تاجرة، تستأجر الرجال في مالها لقاء سهم معلوم من الربح، وقد بلغها عن محمّد ﷺ صدقُ الحديث وعظم الأمانة، فبعثت إليه وعرضت عليه أن يخرج في مال لها إلى الشام تاجراً، على أن تعطيه أفضل ما كانت تعطي غيره، وكانت تلك فرصة طيبة، فقبل الشاب الأمين عليه الصلاة والسلام.

خرج محمّد بن عبد الله ﷺ وخرج معه غلام لخديجة، رضي الله عنها، اسمه ميسرة حتى قدما (بصرى) من أرض الشام، وهناك باع عليه الصلاة والسلام السلعة التي خرج بها، واشترى ما أراد أن يشتري .. وأعجب ميسرة بأخلاق محمّد بن عبد الله ﷺ، وأدهشه ما كان يحيط به من بركة ورعاية ربّانية .. ثم عاد عليه الصلاة والسلام إلى مكة بربح مضاعف، فسُرّت السيدة خديجة بهذا الخير .. واستمعت رضي الله عنها، باهتمام شديد إلى ميسرة وهو يحدّثها عن أخلاق محمّد عليه الصلاة والسلام وبركته المدهشة.[1] وتفيد الروايات أن تلك الرحلة لم تكن الوحيدة، فقد استأجرته أيضاً عليه الصلاة والسلام إلى سوقٍ بأرض تِهامة، ومعه رجل من قريش .. فكان النبي عليه الصلاة والسلام يذكر تلك الأيام فيما بعد ويحدث عنها قائلاً: « ما رأيت من صاحبة أجيد خيراً [2] من خديجة، ما كنا نرجع أنا وصاحبي إلا وجدنا عندها تُحفةً[3] من طعام تخبؤه لنا ».[4]

أدركت خديجة، رضي الله عنها، أن محمّداً ﷺ ليس كغيره من الناس، ولمست فيه كل صفات الكمال .. وعلى عادة العرب في الوضوح والصراحة، بعثت إليه تعرض عليه الزواج بها رضي الله عنها .. ولنترك صديقتها نفيسة بنت مُنية تحدثنا عن أم المؤمنين وتروي قصة الخطبة المباركة.

قالت نفيسة : كانت خديجة بنت خويلد امرأة حازمة، جَلْدَة، شريفة، مع ما أراد الله بها من الكرامة والخير، وهي يومئذٍ أوسط قريش نسباً، وأعظمهم شرفاً، وأكثرهم مالاً، وكل

---

(١) انظر: سيرة ابن هشام (مج١/١٨٨).

(٢) كذا في المصدر، وفي عيون الأثر : (من صاحبة لأجير حولي).

(٣) مثل الفاكهة ونحوها.

(٤) دلائل النبوة للبيهقي (ج١/٩٠).

قومها كان حريصاً على نكاحها لو قدر على ذلك، قد طلبوها وبذلوا لها الأموال، فأرسلتني دسيساً[1] إلى محمّد بعد أن رجع في عيرها[2] من الشام، فقلت : يا محمّد ! ما يمنعك أن تَزَوَّجَ؟ فقال : « ما بيدي ما أتزوج به »، قلت : فإن كُفيت ذلك ودُعيت إلى الجمال والمال والشرف والكفاءة ألا تجيب ؟ قال : « فمن هي ؟ »، قلت : خديجة، قال : « وكيف لي بذلك ؟ »، قلت : عليَّ، قال : « فأنا أفعل ».[3]

وقد جعل الله الإعجاب في قلب خديجة، رضي الله عنها، لما يريد من كرامتها، وجعل في قلب النبي الكريم عليه الصلاة والسلام الرضا والقبول ليقضي أمراً مفعولاً .. ولتقترن سيدة نساء قريش، الطاهرة خديجة، رضي الله عنها، بأشرف الخلق وخاتم الرسل عليه أفضل الصلاة والسلام، فتكونَ له السند والعون في أصعب أيام الدعوة. وتم الزواج المبارك، في البيت الذي كانت تسكنه، وكان عمر خديجة، رضي الله عنها، يومئذ أربعين سنة، وعمر النبي عليه الصلاة والسلام، خمساً وعشرين سنة.[4] وأسعدهما الله تعالى بحياة هانئة مستقرة .. وجعلت السيدة خديجة، رضي الله عنها، نفسها ومالها وحياتها وكل ما تملك وقفاً على راحة الأمين صلوات الله وسلامه عليه.

ورزقهما الله تعالى ولداً سماه النبي عليه الصلاة والسلام القاسم، فكان يكنّى بأبي القاسم .. وكَبُر الصغير، ودرج في بيت الطهر والعفاف، حتى إذا بلغ سناً تُمكّنه من المشي، شاء الله تعالى أن يتوفاه، فَالْتَاعَ قلب الوالدين الكريمين ثم استسلما لقضاء الله وقدره .. وعوّض الله الأم الكريمة فولدت طفلتها الأولى زينب، ثم رقية، ثم أم كلثوم، رضي الله عنهن جميعاً، وشُغلت سيدة الأمهات برعاية بناتها ..[5]

وفي البيت أيضاً كان يعيش غلامها الفتى زيد بن حارثة الذي كان يخدمها، فلما رأت

---

(١) الدسيس : من يُرسل سراً ليأتي بالأخبار.

(٢) العير : التجارة.

(٣) انظر: طبقات ابن سعد (ج١/١٣١).

(٤) انظر: طبقات ابن سعد (ج١/١٣٢).

(٥) انظر: طبقات ابن سعد (ج١/١٣٣).

عطف النبي ﷺ عليه وحبه له، وهبته إياه، فأعتقه عليه الصلاة والسلام وتبنّاه .. فلما صار زيد (ابن محمّد)، صار ابن خديجة أيضاً، ونال نصيبه من رعاية الأم العظيمة وتكريمها. وفي البيت أيضاً كانت تخدم بركة، أو أم أيمن، حاضنة النبي عليه الصلاة والسلام، التي جاءت لتعيش في ذلك البيت المبارك، وقد تزوجها زيد فيما بعد.

ولم يلبث النبي ﷺ أن ضم إلى الأسرة المباركة أيضاً ابن عمّه علي بن أبي طالب، وكان طفلاً صغيراً، وذلك ليخفف عن عمه من عياله في أزمة شديدة أصابت قريشاً. فتشرّف عليٌّ بالرعاية الكريمة في أشرف البيوت، وأصبحت خديجة، رضي الله عنها، له أماً ثانية، تحنو عليه كما تحنو على أولادها ..[1] وبعد عشر سنوات من الزواج الكريم وُلِدَت قرة العين، فاطمة الزهراء رضي الله عنها .. وكانت أشبه أولاد النبي ﷺ به، رضي الله عنها وأرضاها. ولم تكن مهمة الرعاية في البيت النبوي أمراً سهلاً، لكن خديجة، رضي الله عنها، تحمّلت ذلك العبء ورعت البيت وكل من يعيش فيه على تعدد منابتهم، فعاشوا في وئام، إخوةً متحابين في ظل السيدة العظيمة ورعايتها واحتوائها.

ثم حبب إلى النبي ﷺ الخلاء .. فكان عليه الصلاة والسلام يخرج من مكة، ويتّجه إلى غار في رأس جبل من الجبال المشرفة على البلد الأمين، هو غار حراء، يقصده للتحنّث .. فيتعبد متبتلاً، ويعتكف متأملاً، وينقطع عن العالم متجهاً بفؤاده المشوق إلى رب العالمين.[2] لقد كان الله تعالى يعده للرسالة، ويهيئه للقدر العظيم الذي ينتظره وينتظر العالم .. وكانت زوجه خديجة، رضي الله عنها، نعم المعين، تجهّز له ما يحتاجه من طعام وشراب ومهاد، وتحمل إليه إن طالت غيبته، فوق ما يكفيه من زاد، إذ كان يطعم من يأتيه من مساكين .. لم تُرَ يوماً عاتبة أو شاكية، بل كان كل ما يرضيه يرضيها، ولعلّها كانت تشعر أن الله تعالى يهيؤه لأمر عظيم.

ولما جاء اليوم العظيم الذي شاء الله فيه أن يرسل الصادق الأمين عليه الصلاة والسلام رسولاً إلى الناس كافة طال غيابه في الغار، وأحسّت السيدة خديجة، رضي الله عنها، المرهفة

---

(١) انظر: سيرة ابن هشام (مج١/٢٤٦).

(٢) انظر: سيرة ابن هشام (مج١/٢٣٥)، وطبقات ابن سعد (ج١/١٩٤).

أن شيئاً ما قد حدث، واشتد خوفها عليه فأرسلت رسلها في طلبه.

وعاد الأمين إلى البيت وفؤاده يرتجف من هول ما رأى وسمع، فقال : « زمّلوني .. زمّلوني ». لقد هزّ لقاء المَلَك جبريل كيانه، ولم يكن عليه الصلاة والسلام يومئذٍ يستطيع تفسير ما حدث. فلما ذهب عنه الرَوع، قصّ على خديجة، رضي الله عنها، ما حدث في الغار، وتلا عليها الآيات الأولى التي نزلت: ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝ عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝ ﴾[1] .. ثم ذكر لها كيف رأى جبريل يغطي السماء ويقول : « يا محمّد ! أنت رسول الله، وأنا جبريل ».

لم يرتجف قلبها للخبر ولم يرعها الموقف الذي يزلزل أشد الناس ثباتاً، بل قالت في ثقة ويقين : كلا والله ما يخزيك الله أبداً، إنك لتصل الرحم، وتحمل الكلّ[2]، وتكسب المعدوم[3]، وتُقري الضيف، وتعين على نوائب الحق. وسكبت كلماتها الواثقة في قلبه السكينة، فهدأ روعه واطمأن عليه الصلاة والسلام .. [4]

كان كل شيء في حياة المصطفى عليه الصلاة والسلام ينبئ بهذا القدر الجليل، وكانت خديجة، رضي الله عنها، أقرب الناس إليه، وأعرفهم به وبأنه أهل لتكريم ربه إياه، ومع ذلك فقد أرادت أن تطمئن، ويطمئن قلبه الشريف عليه الصلاة والسلام، فانطلقت به إلى ابن عمّها ورقة بن نوفل، وكان قد هجر الأوثان وتنصّر، وقرأ الكتب، وسمع من أهل التوراة والإنجيل عن قرب ظهور نبي. قالت له خديجة : يا ابن عم ! اسمع من ابن أخيك، فأخبره رسول الله عليه الصلاة والسلام خبر ما رأى، فقال ورقة : هذا الناموس الذي نزّل الله على موسى، يا ليتني فيها جَذَعٌ [5]، ليتني أكون حياً إذ يخرجك قومك، فقال رسول الله ﷺ : « أوَ مخرجيَّ هم ؟! »، قال : نعم، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عوديَ، وإن يدركني يومك

---

(١) سورة العلق (١-٥).

(٢) الكلّ : العيال أو الثقل أو اليتيم.

(٣) المعدوم : الفقير الذي صار من شدة حاجته كالمعدوم نفسه.

(٤) انظر: صحيح البخاري (ج١/٥).

(٥) أي يا ليتني أكون شاباً عند ظهور النبوة حتى أبالغ في نصرتها وحمايتها.

أنصرك نصراً مؤزراً.[1]

طابت نفسه عليه الصلاة والسلام بما سمع .. وأدرك أن الأيام القادمة ستحمل أعباءً ثقالاً. فلما نزل قول الله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝ قُمْ فَأَنذِرْ ۝ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝ ...﴾[2]، أيقن عليه الصلاة والسلام أنّ الله قد بعثه بالحق ليكون للعالمين نذيراً، وأدرك أن عهد الراحة قد ولّى، وأن الدعوة تحتاج إلى جدّ وتشمير وبذل عظيم .. فقام عليه الصلاة والسلام، وقامت من ورائه السيدة خديجة، رضي الله عنها، التي أدركت عظم المسؤولية الملقاة على عاتقه عليه الصلاة والسلام، وعظم المسؤولية الملقاة على عاتقها أيضاً .. فضاعفت رعايتها واحتواءها، وصارت للنبي عوناً ووزير صدق، تشدّ أزره وتثبته عليه الصلاة والسلام.

وظلّت مواقفها - وهي تواكب تنزّل الوحي على رسول الله ﷺ - من أشرف المواقف التي تُحمد لامرأة في الأولين والآخرين؛ طمأنته حين قلق، وأراحته حين جَهِد، وذكّرته بما فيه من فضائل، مؤكدة له أن الأبرار أمثاله لا يُخذلون أبداً .. وأن الله إذا طبع رجلاً على المكارم والمناقب السمحة فلكي يجعله أهل إعزازه وإحسانه .. وبهذا الرأي الصالح الراجح استحقت خديجة، رضي الله عنها، أن يُحيّيها رب العالمين، فيرسلَ إليها بالسلام مع الروح الأمين ..[3] فقد أتى جبريل عليه السلام رسولَ الله ﷺ فقال : « أقرئ خديجة السلام من ربها »، فقال رسول الله ﷺ : « يا خديجة ! هذا جبريل يقرئك السلام من ربك ! »، فقالت خديجة : الله السلام ومنه السلام وعلى جبريل السلام.[4]

وانساب النور إلى أهل البيت، فآمنوا جميعاً، واتّبعوا رب البيت عليه الصلاة والسلام وتحملوا معه تبِعات الدعوة .. وواكبت السيدة خديجة، رضي الله عنها، الوحي، فكانت أوّل من يسمع الآيات البينات يتلوها خاتم الأنبياء .. وحين علّم جبريل عليه السلام النبي الوضوء والصلاة، كانت رضي الله عنها أوّل المصلّين بعد رسول الله ﷺ. وعاشت الزوجة المخلصة

---

(١) انظر: صحيح البخاري (ج١/٥).

(٢) سورة المدثر (١-٣).

(٣) انظر: فقه السيرة للشيخ محمّد الغزالي (٩٣-٩٤).

(٤) انظر: سيرة ابن هشام (مج١/٢٤١)، والمستدرك (ج٣/١٨٦).

تتقن فن الكتمان والسرية والحيطة البالغة في مراحل الدعوة الأولى، وكانت إلى جانب النبي عليه الصلاة والسلام، تفرح معه كلما أسلم رجل أو امرأة وتدعو له كل حين بالحفظ والتثبيت.

ثم أذِنَ الله بأن يجهر رسول الله ﷺ بدعوته، فينذر عشيرته الأقربين، ثم يصدع بما أمره الله في مكة .. فبادر ﷺ إلى تنفيذ أمر ربه، وأعلم قومه أنه رسول من رب العالمين، إليهم خاصة، وإلى الناس عامة. وكانت خديجة، رضي الله عنها، ترقب بلهفة تَبِعات هذا الإعلان الذي زلزل مكة وأهلها .. وانقلبت الحياة من حولها، ولم يلبث المشركون أن شنّوا حرباً ضارية على النبي ﷺ وكل من تبعه، حرباً بدأت بالتنبيه ثم الإنذار، ثم صارت ألواناً من العذاب النفسي والفكري والجسدي والاضطهاد الذي لا يُطاق.

وأرادت قريش أن تؤذيَ رسول الله ﷺ في أهله وتشغله ببناته، فتولى ذلك عمّه أبو لهب. وكان أبو لهب قد زوج ولديه عُتبة وعُتيبة ابنيّ النبي ﷺ رقية وأم كلثوم قبل البعثة، فأمر ولديه أن يطلّقاهما حتى يشغل النبي ﷺ عن دعوته. فطلّق كل منهما زوجه الكريمة، ولم يكتفيا بذلك بل أغلظا للنبي في القول وشتماه ..[1] وكانت الأم المؤمنة خديجة، رضي الله عنها، ترقب ما يحدث بحسرة ولوعة بالغتين، فقد آلمها ما أصاب ابنتيها الحبيبتين، وآذاها أشدّ الأذى ما كان يلقى النبي ﷺ من قريش، ولكنها تحملت بالصبر، وواست ابنتيْها، وعلمت أن مع العسر يسراً. ولم يلبث المولى عز وجل أن عوّض رقية، فتزوجها أحد أحباب الرسول ﷺ وأنصاره، عثمان بن عفان رضي الله عنهما.

وكانت السيدة خديجة، رضي الله عنها، قد رُزقت بعد البعثة ولدها عبد الله، الذي سُمّي الطيِّب، وقد سُرّ به النبي عليه الصلاة والسلام، سروراً بالغاً، وقرت عين خديجة، رضي الله عنها .. ولكن إرادة الله سبقت فتوفي الصغير ولمّا يكمل رضاعه. ومرة أخرى كان الصبر شعار الأم المؤمنة، وكان انشغالها بأمر رسول الله ودعوته كفيلاً بأن ينسيها كل هم وغم، فقد تضاءلت في جنب هموم الرسالة كل الهموم.

---

(١) انظر: سيرة ابن هشام (مج١/٦٥٢).

ومضت السيدة خديجة، رضي الله عنها، تواكب الأحداث، حدثاً حدثاً .. ولن تفي هذه الصفحات بعرض مواقفها الجليلة ولا بوصف صبرها الجميل وهي تواجه المتاعب والآلام وتواسي رسول الله .. لقد خفّف الله بها عنه ﷺ، فكان لا يسمع شيئاً مما يكره من ردّ عليه وتكذيب فيحزنه ذلك إلا فرج الله بها إذا رجع إليها؛ تثبّته، وتخفّف عنه، وتهوّن عليه أمر الناس رحمها الله تعالى ..[1] بذلك استحقت من الله البشارة ببيت في الجنة، وأي بيت .. فقد قال ﷺ: « أُمرت أن أبشّر خديجة ببيت في الجنة من قصب لا صخب فيه ولا نصب ».[2]

ثم اشتدّ العذاب حتى أمر النبي عليه الصلاة والسلام أصحابه بالهجرة إلى الحبشة فراراً بدينهم. وودّعت الأم الصبورة ابنتها رقية التي هاجرت مع زوجها عثمان رضي الله عنهما.[3]

وفي السنة الثامنة للبعثة تنادت قريش إلى عزل النبي ﷺ وحصاره مع أهله وعشيرته من بني هاشم وبني المطلب في الشِّعْب[4]، ومقاطعتهم، فلا تبيعهم، ولا تشتري منهم، ولا تزوجهم ولا تتزوج منهم، فكانت تلك مقاطعة اقتصادية واجتماعية تهدف للقضاء على صمود المسلمين.[5] ودخلت خديجة، رضي الله عنها، الشعب مع أهل بيتها، وتحمّلت قسوة الحصار وهي السيدة المنعمة. وصارت السيدة التي كانت تطعم الناس وتشبعهم تبات جائعة، ضعيفة لا حول لها ولا قوة .. ولكن كانت قوّة إيمانها وشدّة حبها للنبي ﷺ ولدعوته فوق الوصف، فكان ذلك هو منبع صبرها والفداء. وكان أشدّ ما يؤلمها أن ترى رسول الرحمة يلقى من الأذى والعذاب .. وكانت تتمنّى لو عرف أهل مكة من النبي ﷺ ما عرفت، ولو رأوا فيه ما رأت، إذاً لاقتدوه بالأرواح والمهج ..

ومرّت سنوات الحصار الثلاث، والسيدة خديجة، رضي الله عنها، تزداد في كل يوم وهناً وضعفاً، وكانت رضي الله عنها قد قاربت الخامسة والستين من سنوات عمرها المبارك..

---

(١) انظر: سيرة ابن هشام (مج١/٢٤٠).

(٢) المستدرك (ج٣/١٨٤-١٨٥). والقصب : اللؤلؤ المجوف.

(٣) انظر: سيرة ابن هشام (مج١/٣٢٣).

(٤) الشِّعْبُ : انفراجٌ بين الجبلين.

(٥) انظر: سيرة ابن هشام (مج١/٣٥٠-٣٥١).

وكانت تسمع كلمات النبي ﷺ الواثقة الواعدة بنصر الله ولو بعد حين، فتتضاعف ثقتها ويكبر أملها.. وتتمنى لو تدرك ذلك اليوم الذي تقر فيه عين الرسول العظيم بانتشار الدعوة والنصر المبين. وكانت واثقة من قدومه ثقتها بصدق النبي الكريم عليه الصلاة والسلام .. ولكن شاء الله تعالى أن ينتهي دورها في حياة صاحب الرسالة، وأن تنتقل إلى جوار ربها بُعيد وفاة عمّه أبي طالب .. ذلك أن المسلمين ما كادوا يفرحون بانتهاء الحصار حتى أصيبوا بموت عم النبي ﷺ أبي طالب الذي أنهكه الحصار أيضاً، ففقد النبي ﷺ والمسلمون حصناً للدعوة حصيناً، فقد كان العمّ، برغم بقائه على دين قريش، يدعم ابن أخيه ودعوته ويسانده بكل ما أوتي من منصب وجاه ..

ثم جاء اليوم الحزين .. يوم ارتحال سيدة النساء وشهيدة الصبر والمصابرة، رضي الله عنها، في السنة العاشرة للبعثة .. وكان النبي الحبيب صلوات الله وسلامه عليه بجوارها، وكانت البنات من حولها يبكين الأم التي ليس لها نظير .. وفي البيت كان الذين رعتهم وأحبتهم أم المؤمنين يعمّهم الحزن أجمعين.

وانتقلت زوجة خاتم المرسلين وأولى أمهات المؤمنين إلى ربها راضية مرضية .. بعد أن أدّت رسالتها، وتحمّلت العبء الثقيل مع زوجها المبعوث رحمة للعالمين .. وكانت هي أول من شهدت تلك الرحمة وعاشت في رحابها حتى مضت راضية مرضية.

ثم أقبلت سنون أيسر من سابقتها تبدلت فيها الحال غير الحال، وجعل الله بعد عسر يسراً .. فاستقبلت المدينة النبي عليه الصلاة والسلام ودعوته، وصار للمصطفى آلاف من الأنصار والأعوان، وبدأت تباشير النصر للإسلام تلوح.

لم تشهد السيدة خديجة، رضي الله عنها، النّصر المبين في بدر .. ولا الفتح الأعظم لمكة المكرمة .. ولم تر الناس يدخلون في دين الله أفواجاً، وفيهم أولئك الذين طردوه وآذوه .. ولم تكن قريباً منه ﷺ لما أتته الوفود من كل أطراف جزيرة العرب تشهد لله بالوحدانية، وله بالرسالة، وتبايع على السمع والطاعة .. لم تشهد رضي الله عنها كل تلك المواقف، ولكنها كانت بجانبه لما كان وحيداً لا معين له ولا نصير ..

أمّا نبي الوفاء عليه الصلاة والسلام، فلم ينسها يوماً، ولم تغب عن خاطره، وكان لا يفتأ يذكرها ويقول : « قد آمنت بي إذ كفر بي الناس، وصدّقتني إذ كذبني الناس، وواستني بمالها إذ حرمني الناس، ورزقني الله عز وجل ولدها إذ حرمني أولاد النساء ».[1]

وظلّ إمام الأوفياء عليه الصلاة والسلام يواسي أهلها وأحبابها وصديقاتها ويكرمهم، ويفرح أشد الفرح كلما جاءه أحدٌ منهم زائراً ..

رحم الله المسلمة الأولى، والصحابية الأولى، وأولى أمهات المؤمنين ..

أم الزهراء، وحدة آل الرسول ﷺ الأطهار ..

من أرسل الله إليها سلاماً وبشّرها ببيت في الجنة ..

إنها سيدة النساء .. لم تزل سيرتها العطرة تزيدها القرون تألّقاً وضياءً ويقيناً بدور المرأة المسلمة في صنع التاريخ ..

نسأل الله أن يرزقنا حسن الاقتداء بها، والسير على خطاها ..

---

(١) مسند الإمام أحمد (٥/١١٦).

السيدة

زَينبُ بِنْتُ محمّدٍ ﷺ

الصابرة الوفية . . رضي الله عنها

زَيْنبُ بِنْتُ محمّد بن عبد الله

خاتم الأنبياء والمرسلين

صلوات الله وسلامه عليه

في يوم مُشرق سعيد وفي أطهر بيت على الأرض وُلدت ابنةٌ لخاتم الرسل وسيدة نساء العالمين، ابنة سمّياها زينب، كان مولدها قبل البعثة بأعوام مديدة ..

نشأت زينب، رضي الله عنها، في ذلك البيت الذي طهّره الله من رجس الجاهلية وفي رعاية خير البشر عليه أفضل الصلاة والسلام. وشهدت رضي الله عنها سُمُوّ أبيها وكرهه للأصنام، وشهدت ترفّعه وأمّها عن جاهلية القوم. فلما بلغت مبلغ الشباب خطبها ابن خالتها أبو العاص بن الربيع.[1] وكان أبو العاص عريق الأصل، كريم الخصال حتى لُقّب بالأمين، وكان من تجار مكة الأثرياء. فلما تزوجها انتقلت إلى بيته فلم تزل تعيش حياة هانئة مستقرة حتى تزلزلت مكة بالنبأ العظيم ..

كانت زينب، رضي الله عنها، تشعر أن أسرتها تتألّق بطهر فريد وأن أباها - عليه أزكى الصلاة والسلام - ليس كأحد من الناس .. وكانت تشهد تحنّثه في غار حراء، فلمّا نزل الوحي وأدرك محمّد عليه الصلاة والسلام أنه رسول رب العالمين، كانت زينب، رضي الله عنها، من المسارعات إلى التصديق والإيمان بأبيها العظيم .. كيف لا وهو الوالد الحبيب الصادق الأمين. لكن حبيباً آخر لم يسارع كما سارعت، ولم يؤمن كما آمنت .. ذاك هو زوجها أبو العاص الذي كَبُر عليه ترك دين آبائه وأجداده واتّباع دين زوجته.

ومضت سنوات شهدت فيها زينب، رضي الله عنها، تعذيب المشركين وأذاهم لكل من اتّبع الصادق الأمين عليه الصلاة والسلام. وحاولت الابنة البارّة والزوجة المخلصة أن تدعو أبا العاص إلى الإسلام .. إلى أن يهجر الأصنام كما فعل المؤمنون من قومه كابن عمه عثمان ابن عفان، وابن خاله الزبير بن العوام، وغيرهم من السابقين الأولين .. ولكنّ أبا العاص أبى إلّا أن ينظر إلى الأمر بمنظار قريش، فكان يجيبها جواب من لم يزل في الجاهلية ولم يدخل إليه

---

(١) انظر: سيرة ابن هشام (ج١/٦٥١).

نور الإسلام بعد: إن أباك ليس بمتهم .. وليس أحبَّ إليّ من متابعته، ولكني أكره أن يقال إني حذلت قومي إرضاءً لامرأتي ! وازدادت حسرة زينب، رضي الله عنها، وسيطر الحزن على قلبها التقي النقي الذي تغلغل فيه التوحيد، ولكنها ظلّت محبةً مخلصةً للزوج الوفيّ الذي ما رأت منه إلّا خيراً، وظلّت ترجو له الهداية والرشاد .. وامتدّت السنون، وقريش لا تزال تشتد في إيذاء المسلمين، حتى حاصرت المسلمين ذلك الحصار الرهيب الذي فرضته عليهم وعلى من ساندهم من بني هاشم وذلك في السنة الثامنة للبعثة .. وتضاعفت محنة زينب، رضي الله عنها، بعد انتهاء الحصار فقد خرجت أمها خديجة رضي الله عنها وأرضاها من الحصار منهكة القوى ولم تلبث أن مرضت مرضاً شديداً .. وأدركت الابنة الكبرى أن أمها راحلة عمّا قريب .. وانتقلت سيدة النساء إلى جوار ربها، وبكتها زينب وأخواتها الطاهرات رقية وأم كلثوم وفاطمة، رضي الله عنهنّ، بكاء كثيراً.

وجاءت السنة الرابعة عشرة من البعثة تحمل محنة جديدة، فقد بدأ المسلمون يغادرون مكة سراً قاصدين المدينة، دار الهجرة، وأصبحت زينب، رضي الله عنها، ذات يوم فرأت مكة قد خلت من رسول الله ﷺ ومن أخواتها، وأهلها جميعاً فقد هاجر ﷺ، ولحقته بناته رقية وأم كلثوم وفاطمة إلى المدينة .. وخلّفن الأخت الكبرى زينب، رضي الله عنها، في مكة وحيدة.

بقيت زينب، رضي الله عنها، في بيت زوجها بمكة يخيّم عليها حزن عميق وقلق لا تجد منهما مهرباً إلّا التضرع إلى الله ليلهمها الصبر. فلما كانت السنة الثانية للهجرة التقى الشرك والتوحيد في معركة بدر الكبرى، وخرج رجال مكة جميعاً وانضموا إلى جيش قريش، وخرج معهم زوج زينب، رضي الله عنها، أبو العاص .. وكتب الله تعالى للمسلمين النصر المبين، وشاء العلي القدير أن يكون زوج بنت النبي ﷺ في عداد الأسرى .. فلمّا أرسل النبي عليه الصلاة والسلام إلى أهل مكة كي يفدوا أسراهم، بعثت زينب، رضي الله عنها، في فداء زوجها بما هو أغلى من المال .. بعثت بقلادة كانت أمّها خديجة رضي الله عنها قد أهدتها إياها. فلما وقعت عينا رسول الله عليه الصلاة والسلام على القلادة رقّ لها رقة شديدة، وقال للمسلمين : « إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها وتردّوا عليها مالها فافعلوا »، فاستحاب الصحابة وقالوا : نعم يا رسول الله ! فأطلقوا أبا العاص وردّوا على زينب، رضي الله عنها، ما

بعثت به.[1]

عاد أبو العاص إلى مكة معجباً بما رآه من خُلق النبوة، ومن حسن معاملة الصحابة .. وكان النبيّ عليه الصلاة والسلام قد أخذ عليه عهداً قبل إطلاق سراحه أن يرد إليه ابنته زينب، رضي الله عنها. وبرغم الحب الشديد الذي جمع بين الزوجين، فقد أنجز أبو العاص، الذي عُرف بأمانته وصدقه، وعده .. وتجهّزت زينب، رضي الله عنها، لتلحق بالنبي ﷺ والمسلمين، حتى إذا فرغت من جهازها أخذها حموها[2] كنانة بن الربيع من مكة على بعد في وضح النهار بمرأى من قريش .. قريش التي كانت لا تزال تندب قتلاها في بدر وتحزّ مرارة الهزيمة القريبة ..

وانتشر خبر ارتحال بنت محمّد ﷺ، وغاظ المشركين أشدّ الغيظ أن تخرج ابنة عدوّهم لتلحق به عليه الصلاة والسلام، فخرج رجال من قريش في أثرها، وأدركوها بمنطقة (ذي طُوى)[3] فكان أوّل من سبق إليها هبّار بن الأسْوَد، فروّعها بالرمح وهي في هودجها، وكانت رضي الله عنها حاملاً، فطرحت ذا بطنها [4].. وهبّ حموها (كنانة) يدافع عنها وقال : والله لا يدنو مني رجل إلّا وضعت فيه سهماً، فتراجع الرجال. ولم يلبث أبو سفيان أن جاء في نفر من قريش فقالوا لكنانة : أيها الرجل ! كفّ عنّا نبلك حتى نكلّمك، فكفّ، وأقبل أبو سفيان فقال له : إنك لم تُصب؛ خرجت بالمرأة على رؤوس الناس علانية، وقد عرفت مصيبتنا ونكبتنا وما دخل علينا من محمّد ... ارجع بالمرأة حتى إذا هدأت الأصوات وتحدّث الناس أن قد رددناها فسُلّها سراً وألحقها بأبيها .. فعادت رضي الله عنها، فأقامت ليالي واستردّت بعض قواها .. حتى إذا هدأت الأصوات خرج بها كنانة ليلاً حتى أسلمها إلى زيد بن حارثة ﷺ ورجلاً من الأنصار. وكان النبي عليه الصلاة والسلام قد بعثهما للإتيان بها.[5]

---

(١) انظر: سيرة ابن هشام (مج١/٦٥٣).

(٢) حموها : أراد هنا : أخو زوجها.

(٣) موضع قرب مكة.

(٤) أي أجهضت.

(٥) انظر: سيرة ابن هشام (مج١/٦٥٣- ٦٥٥).

واجتمع شمل الأسرة المباركة، وعادت زينب، رضي الله عنها، إلى أبيها ﷺ وأخواتها لتنعم بالأمن والإيمان بعيداً عن أذى المشركين .. وقال عليه الصلاة والسلام : « هي أفضل بناتي، أصيبت فيّ ».[1] وقال في حقّ زوجها أبي العاص : « حدّثني وصدقني، ووعدني فوفى لي ».[2]

ومضت السنوات وزينب، رضي الله عنها، في المدينة معها ابنتها أُمَامة حفيدة النبي ﷺ .. وأمّا زوجها أبو العاص بن الربيع فبقيَ مع المشركين في مكة. فلمّا كانت السنة السادسة للهجرة، خرج أبو العاص في تجارة إلى الشام ومعه أموال كثيرة لرجال من قريش وكان رجلاً مأموناً. وفي طريق العودة لقيته سريّة من المسلمين فأخذوا ما معه من مال، وأفلت هو منهم وقدم المدينة ليلاً، حتى دخل على زينب، رضي الله عنها، فاستجار بها فأجارته - وكان العرب يجيرون من طلب الحماية واستجار، وظلّ مبدأ الجوار قائماً بعد الإسلام - فلمّا كان الصباح خرج النبي عليه الصلاة والسلام لصلاة الفجر، وخرجت السيدة زينب مع النساء إلى الصلاة فصاحت في المسجد : أيها الناس ! إني قد أجرت أبا العاص بن الربيع. فلما فرغ النبي ﷺ من صلاته أقبل على الناس فقال : « أيها الناس هل سمعتم ما سمعت ؟ »، قالوا : نعم، فقال عليه الصلاة والسلام : « أما والذي نفس محمّد بيده ما علمت بشيء من ذلك حتى سمعت ما سمعتم، إنّه يجير على المسلمين أدناهم ». ثم دخل ﷺ على زينب، رضي الله عنها، فقالت له : إن أبا العاص بن الربيع إن قَرُبَ فابن عم، وإن بَعُدَ فأبو ولد وإني قد أجرته. فأجاز النبي ﷺ جوارها .. وبعث إلى السرية الذين أصابوا المال، فقال لهم : « إن هذا الرجل منّا حيث قد علمتم، وقد أصبتم له مالاً، فإن تحسنوا وتردّوا عليه الذي له فإنا نحب ذلك، وإن أبيتم فهو فيء الله الذي أفاء عليكم فأنتم أحق به ». فقال الرجال يحدُوهم حب النبي ﷺ والرغبة في رضاه : يا رسول الله ! بل نردّه عليه .. فردّوا عليه المال كله.[3]

وعاد أبو العاص إلى مكة، فأدّى إلى كل ذي مال من قريش ماله، ثم قال : يا معشر

---

(١) انظر: المستدرك (ج٤/٤٣-٤٤).

(٢) صحيح البخاري (ج٣/١١٣٢).

(٣) انظر: سيرة ابن هشام (مج١/٦٥٧-٦٥٨).

قريش ! هل بقي لأحد منكم عندي مال لم يأخذه ؟ قالوا : لا، فجزاك الله خيراً، فقد وجدناك وفياً كريماً، قال : فأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمّداً عبده ورسوله، والله ما منعني من الإسلام عنده إلّا تخوّف أن تظنّوا أنّي إنما أردت أن آكل أموالكم، فلمّا أداها الله إليكم وفرغت منها أسلمْت.[1]

لقد كان الصراع بين الوثنية والإسلام طول السنوات الفائتة مشتعلاً في قلب أبي العاص حيثما حلّ وارتحل، ولكن لقاءه الأخير بالمسلمين حسم ذلك الصراع، وشرح الله صدره للإسلام. وانطلق في المحرم سنة سبع من الهجرة إلى المدينة، وحانت الساعة التي طالما انتظرتها زينب، رضي الله عنها، .. لقد أسلم أبو العاص أخيراً، وانضم ﷺ إلى ركب الصحابة، وردّ النبي ﷺ عليه زينب، رضي الله عنها، على العقد الأول وقيل : بعقد جديد .. فالتقى الزوجان على عبادة الله الواحد في ظل دين واحد.

ولكن اللقاء لم يدم طويلاً، فلم تكد السيدة زينب، رضي الله عنها، تنعم بحياة مستقرة مع زوجها في رحاب الإسلام حتى مرضت ووافتها المنية في أول السنة الثامنة .. وجهّز النساء جثمانها الطاهر للدفن، وخرج النبي ﷺ في جنازتها ومعه أصحابه .. ورأى الصحابة نبيهم الكريم كئيباً حزيناً فلم يكلّموه، فلما انتهوا إلى قبرها، نزل ﷺ فيه، ودعا للابنة الحبيبة، فلما خرج قال : « كنت أذكر ضيق القبر وغمّه وضعف زينب، فكان ذلك يشقّ علي، فدعوت الله عز وجل أن يخفّف عنها، ففعل ».[2] ولعله ﷺ في تلك اللحظة أيضاً تذكّر وهو الأب الشفيق الرفيق المحن التي مرت بها ابنته الحبيبة .. وتذكّر كم أوذيت في سبيل الله ..

وهكذا مضت بكر رسول الله عليه الصلاة والسلام السيدة زينب، رضي الله عنها، إلى ربها، بعد حياة عاصفة صاخبة، شهدت فيها صراع الإسلام والجاهلية .. ولكنّها عاشت قيم الإسلام الوضيئة وضربت مثلاً عالياً متألقاً في الصبر والوفاء ..

وكيف لا تكون صابرة وأبوها إمام الصابرين وسيد المتوكلين عليه الصلاة والسلام، وأمها أم الوفاء وسيدة النساء رضي الله عنها وأرضاها.

---

(١) انظر: سيرة ابن هشام (مج١/٦٥٨).

(٢) مجمع الزوائد (ج٣/٤٧).

زَيْدُ بنُ حَارِثَةَ رضي الله عنه

حِبُّ رسولِ الله عليه الصلاة والسلام

زَيدُ بنُ حَارِثة

ابن شُرحبيل الكلبي

في يوم من أيام الجاهلية، وقبل أن تشرق أنوار الهداية على العرب ويعمّ الأمن أرجاء الجزيرة، خرجت سُعدى بنت ثعلبة في زيارة لقومها وبين يديها ابنها الذي لم يتجاوز الثامنة من عمره .. وفي الطريق أغارت خيل لبني القَيْن فسبت الطفل زَيْداً ..

فتفطّر قلب أسرته من الأسى لفراق ابنهم وراح أبوه حارثة يجوب البلاد بحثاً عنه قائلاً:

بكَيْتُ على زيدٍ ولم أدْرِ ما فَعَلْ ... أحيٌّ فيُرْجَى أم أتى دونَه الأجَلْ

فواللهِ ما أدْري وإني لسائِلٌ ... أغَالَكَ[1] بعدي السَّهْلُ أم غالكَ الجَبَلْ

تُذكّرُنيه الشمسُ عند طُلوعها ... وتَعرِض ذكْراه إذا غَرْبُها أفَلْ

وإن هبّت الأرواحُ هَيّجْن ذِكْرَه ... فيا طُولَ ما حُزْني عليه وما وَجَلْ

وبيعَ زيد ﷺ في سوق عكاظ، وشاء الله سبحانه وتعالى أن يشتريه رجل من قريش هو حكيم بن حزام بأربعمئة درهم فوهبه لعمته خديجة بنت خويلد، ليكون ذلك قدر زيد السعيد .. بل أسعد الأقدار وأعظمها في حياته ﷺ، إذ تزوج النبي ﷺ خديجة، فأهدته زيداً.[2]

لكن حارثة كاد يقتله الغم، فلم يزل يبحث عن ولده حتى حج ناس من كلب ورأوا زيداً ﷺ في مكة فعرفهم وعرفوه وأخبروه عمّا لقي والداه من اللوعة وألم الفراق فحمّلهم رسالة سلام وشوق إليهما. وبلّغ القوم أبا زيد الرسالة وذكروا له موضعه، فشدّ الرحال مع أخيه كعب إلى مكة ليلقيا قرة العين زيداً عند رسول الله ﷺ في مكة، وذلك قبل البعثة الشريفة بسنوات .. وبقلب شفوق ولسان متوسل خاطبا إمام الرحمة ﷺ قائلَيْن : يا ابن عبد الله، يا ابن عبد المطلب، يا ابن هاشم، يا ابن سيد قومه، أنتم أهل الحرم وجيرانه وعند بيته تفكّون العاني وتُطعمون الأسير، جئناك في ابننا عندك. فامنن علينا وأحسن إلينا في فدائه، فإنا سنرفع لكَ في الفداء. قال ﷺ : « من هو؟ »، قالوا : زيد بن حارثة، فقال : « فهل لغير ذلك ؟ »،

---

(١) غالَهُ : أهْلَكه، غالتْهُ الأرض : هَلَكَ فيها.

(٢) انظر: سيرة ابن هشام (مج١/٢٤٧ - ٢٤٨).

قالوا : ما هو ؟ قال عليه الصلاة والسلام : « دَعُوه فخيّروه فإن اختاركم فهو لكما بغير فداء وإن اختارني فوالله ما أنا بالذي أختار على من اختارني أحداً »، قالا : قد زدتنا على النَّصَف[1] وأحسنت، فدعاه النبي ﷺ فقال : « هل تعرف هؤلاء ؟ »، قال : نعم، قال : « من هما ؟ »، قال : هذا أبي وهذا عمّي، قال : « فإنا مَن قد علمتَ ورأيتَ صحبتي لك، فاختزني أو اخترهما ».

هنالك قال زيد ﷺ بلا تردد : ما أنا بالذي أختار عليك أحداً، أنت منّي بمكان الأب والأمّ ! فقالا : ويحك يا زيد أتختار العبودية على الحرية وعلى أبيك وعمّك وأهل بيتك ؟! فقال ﷺ : نعم ! .. وتابع زيد مبيّناً سرّ تمسكه بصحبة رسول الله ﷺ قائلاً : إني قد رأيت من هذا الرجل شيئاً ما أنا بالذي أختار عليه أحداً أبداً.[2]

ما هذا الذي رآه زيد ؟! .. أي حبّ وأي احتواء، وأية رعاية كريمة كان يلقاها من محمّد بن عبد الله ﷺ حتى آثره على أمه وأبيه ؟! .. لم يكن زيد يعلم من أمر نبوّته عليه الصلاة والسلام شيئاً، لكنه بطهر قلبه ونقاء سريرته استشفّ أنواره ﷺ وشعر ببركات بيته الطاهر، فاختاره .. وكان هذا الاختيار سبب كل خير في حياة زيد رضي الله عنه وأرضاه.

أما نبيّ الرحمة فما كان منه لمّا سمع ردّ زيد، إلا أن أخرجه إلى الحِجْر وقال : « يا من حضر، اشهدوا أن زيداً ابني أرثه ويرثني » .. هنالك انصرف الأب والعمّ راضيين مطمئنين على زيد، فقد تركاه حراً كريماً في رعاية الصادق الأمين ﷺ. ومنذ ذلك اليوم سُمّي زيد ﷺ (زيد بن محمّد).[3]

وما هي إلّا سنوات حتى بُعث الهادي البشير إلى الأمة بدين الهدى والحق .. فكان زيد ﷺ أوّل من آمن به من الموالي، فصار سيّد الموالي .. فلم يعرف بعد ذلك إلّا الإسلام لله تعالى ولم يدن بغيره ..

---

(١) النَّصَف : الإنصاف بمعنى العدل.

(٢) انظر: طبقات ابن سعد (ج٣/٤١-٤٢).

(٣) انظر: طبقات ابن سعد (ج٣/٤٢).

ويواكب زيد ﷺ أحداث الدعوة عن قرب، فهو من أهل البيت، ويزداد يوماً بعد يوم قرباً من رسول الله ﷺ وحباً، حتى أصبح من أحبّ الناس إليه، فكان يشتاق إليه إذا غاب، ويفرح بقدومه إذا عاد .. ويشيع أمر حب رسول الله ﷺ لزيد ﷺ حتى يُطلق عليه المسلمون (حِبّ رسول الله) .. وتتجلّى مظاهر الحب في كلمات رقيقة يخاطب بها المصطفى ﷺ زيداً فيقول : « يا زيد أنت مولاي ومنّي وإليّ، وأحبّ الناس إليّ » ..[1] تلك هي المنزلة العظيمة التي حظيَ بها زيد ﷺ عند رسول الإسلام ﷺ الذي ألغى الفروق بين السيّد والمسود يوم أعلن: ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾[2].

فلما بلغ زيد ﷺ مبلغ الرجال، زوّجه النبي عليه الصلاة والسلام مولاته أم أيمن، فولدت له أسامة، فنال من الحبّ ما ناله أبوه، وورث هذا الحبّ عن أبيه فسمي الحِبّ ابن الحِبّ ..

وتبدأ مسيرة الجهاد، ويساهم ﷺ في وضع اللبنات الأولى لبنيان الدين العظيم تبعاً لأوامر سيّده ونبيّه صلوات الله وسلامه عليه .. ويلازم رسول الله ﷺ ويدفع عنه الأذى أيام المحنة في بداية الدعوة .. ويكون رفيقه إلى الطائف يمسح الدم عن وجهه الشريف ويصدّ عنه حجارة ثقيف[3]..

ويهاجر زيد ﷺ إلى المدينة مع المهاجرين، فيواخي رسول الله ﷺ بينه وبين عمّه حمزة ابن عبد المطلب ﷺ .. وفي هذا إعلان واضح عن إلغاء الإسلام لفوارق النَسَب ومقاييس الجاهلية .. ويشهد الحِبّ بدراً فيقتل فيها المشرك حنظلة بن أبي سفيان بن حرب، حتى إذا كتب الله النصر فيها للمسلمين أرسله الرسول عليه الصلاة والسلام بشيراً إلى المدينة بالظفر والنصر .. ثم يقاتل مع النبي ﷺ في أُحُد ويشهد معه كذلك الخندق وخيبر ..

ويبرز دور زيد ﷺ في ميادين الجهاد والقيادة، فيستخلفه النبي ﷺ على المدينة أحياناً إذا خرج منها، ويُولّيه أموراً على الجيش إذا بعثه فقد كان شديد الثقة به ﷺ ويراه خليقاً بالإمارة

---

(١) الإصابة في تمييز الصحابة (ج١/٥٦٤).

(٢) سورة الحجرات (١٣).

(٣) ثقيف : القبيلة التي كانت تسكن الطائف.

حتى كانت السيدة عائشة، رضي الله عنها، تقول : ما بعث رسول الله ﷺ زيد بن حارثة في سَرِيّة إلّا أمّره عليهم ولو بقي لاستخلفه ..[1]

ويزيد رسول الله ﷺ في إكرامه لزيد ﷺ وتحقيقه لقيم الإسلام النبيلة فيزوّجه من ابنة عمته زينب بنت جحش، رضي الله عنها، السيدة القرشية ذات الحسب والنسب .. ولكن الزواج لا يستمر فيطلقها زيد ﷺ ويتزوجها رسول الله ﷺ. وفي ذلك حكمة من الله تعالى هي إبطال عادة التَّبَنِّي .. فلو كان زيد ﷺ ابنه لما حل له أن يتزوج مُطَلَّقَتَهُ وأنزل الله تعالى قوله : ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾.[2]

وكان زيد ﷺ يقال له (زيد بن محمّد) كما ذكرنا، فلما نزل قول الله عز وجل : ﴿ ٱدْعُوهُمْ لِآبَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ﴾[3].. رُدّ زيد إلى اسم أبيه فأصبح يُدعى زيدَ بن حارثة، لكنه بقي حِبّ رسول الله ﷺ ومن أقرب الناس إليه، فالحادثة لم تُغير القلوب لكنها ثبّتتْ تشريعاً هاماً في الجماعة المسلمة إلى يوم الدين.

ثم يأتي اليوم المنتظر .. يوم امتحان الحبيب بفراق حبيبه .. إنه يوم مُؤْتَة .. ومؤتة هي أرض بأدنى البلقاء (دون دمشق)، وفي هذه البقعة قُتل الحارثُ بن عمير الأَزْدي رسولُ النبي ﷺ إلى ملك بصرى .. ووصل خبر مقتل الحارث إلى رسول الله ﷺ فاشتدّ عليه الأمر إذ قُتل رسوله عدواناً وظلماً، وكان مقتله بمثابة إعلان للحرب على المسلمين .. فأمر النبي ﷺ الناس أن يتجهزوا للخروج وقال لهم : « أمير الناس زيد بن حارثة، فإن قُتل فجعفر بن أبي طالب، فإن قُتل فعبد الله بن رواحة، فإن قُتل فليرتضِ المسلمون بينهم رجلاً فيجعلوه عليهم ». وعقد رسول الله ﷺ اللواء الأبيض ودفعه إلى زيد ﷺ وأمره أن يأتي مقتل[4] الحارث بن عمير فيدعو الناس إلى الإسلام فإن أجابوا، وإلّا استعانوا عليهم بالله وقاتلوهم.[5]

---

(١) الإصابة في تمييز الصحابة (ج١/٥٦٤).

(٢) سورة الأحزاب (٤٠)، وانظر الخبر في طبقات ابن سعد (ج٨/١٠١-١٠٢).

(٣) سورة الأحزاب (٥).

(٤) أي المكان الذي قُتل فيه.

(٥) انظر: طبقات ابن سعد (ج٢/١٢٨).

وخرج ﷺ مُشيعاً للجيش حتى بلغ ثنيّة الوداع، فوصّى الجند، وكان ممّا قال : « اغزوا بسم الله، في سبيل الله، فقاتلوا من كفر بالله، لا تغدروا ولا تغلّوا، ولا تقتلوا وليداً ... ».

ووقف المسلمون من خلفه يودّعون الجيش قائلين : دفع الله عنكم وردّكم صالحين غانمين.

وصل الجيش أرض المعركة، وفوجئ المسلمون بجيوش جرّارة لا قِبَل لهم بها، ونزل جيش الروم ومن انضمّ إليهم من عرب الشمال غير بعيد من المسلمين .. ورفع زيد بن حارثة ﷺ اللواء عالياً، واندفع يقاتل بسالة لا مثيل لها .. كيف لا وقد حمّله نبيه وحبيبه عليه الصلاة والسلام راية الإسلام .. وانهالت عليه الرماح من كل جانب، ولكن زيداً ﷺ لم يكن يرى أمامه إلّا جنّات عدن التي وعد الله عباده، ولم يكن يُفكّر إلّا بالنصر على الأعداء ليقر عين النبي صلوات الله وسلامه عليه .. وربما كانت كلمات النبي ﷺ : « يا زيد أنت مولاي ومنّي وإليّ، وأحبّ الناس إليّ » ترافقه وتُلهب حماسته وحبّه وفداءه ..

وقاتل حِبّ رسول الله قتال المشتاق إلى الجنة .. ولاشك أنه كان يتمنى أن يتابع مسيرة الجهاد إلى جانب الحبيب صلاة الله وسلامه عليه، ولكنّه اختار هذه المرة لقاء ربه .. فلم تمض ساعات على بدء القتال حتى سقط الأمير شهيداً .. فأخذ اللواء جعفر بن أبي طالب ﷺ، فقاتل حتى لحق بصاحبه .. ثم أخذه عبد الله بن رواحة ﷺ فناضل أبسل النضال حتى انتهى إلى ما انتهى إليه صاحباه .. هنالك اصطلح الناس على خالد بن الوليد ﷺ فانحاز بالجيش وأنقذه من الهلاك المحتم ..

أمّا النبي ﷺ فقد كان واقفاً في تلك اللحظات الصعبة على منبره في المدينة المنورة والناس حوله في المسجد، قد رُفعت له الأرض حتى نظر إلى معترك القوم .. فأخذ ينقل للناس أحداث المعركة (بثّاً حيّاً مباشراً) وينعي لهم أمراء الجيش الثلاثة وعيناه تذرفان فقال : « إنّهم انطلقوا، فلقوا العدو، فَقُتل زيد شهيداً، فاستغفروا له .. ثم أخذ اللواء جعفر بن أبي طالب فشدّ على القوم حتى قُتل شهيداً، فاستغفروا له .. ثم أخذ اللواء عبد الله بن رواحة فأثبت قدميه حتى قُتِل شهيداً فاستغفروا له، ثم أخذ اللواء خالد بن الوليد » .. ثم رفع ﷺ يديه وقال: « اللهم هو سيف من سيوفك فانصره ».[1]

---

(١) مسند الإمام أحمد (ج٥/٢٩٩)، وانظر خبر مؤتة في سيرة ابن هشام (مج٢/٣٧٣-٣٨٠).

دَفَنَ المجاهدون الأمراء الثلاثة الأبطال وكلَّ من فاز بالشهادة، في أرض المعركة .. ولم يلبث الجيش أن عاد إلى المدينة، فخرج المسلمون لاستقبالهم ..

وبكى النبي عليه الصلاة والسلام زيداً وجعفراً، رضي الله عنهما .. حِبّه وابن عمّه وهو يقول : « أخواي ومؤنساي ومحدّثاي » .. وأقبلت عليه بنت زيد وهي تجهش بالبكاء، فبكى عليه الصلاة والسلام حتى انتحب .. فسأله سعد بن عبادة ﷺ : يا رسول الله ما هذا ؟ فأجابه ﷺ : « هذا شوق الحبيب إلى حبيبه ».[1] ثم قال : « استغفروا له وقد دخل الجنة وهو يسعى ».[2]

ستبقى نذكر زيداً كلما ذُكر الحب والشوق ..

وكُلّما فتحنا المصحف الشريف وقرأنا سورة الأحزاب سيطالعنا اسم حِب رسول الله ﷺ .. فالله تعالى لم يسمّ في القرآن صحابياً باسمه إلّا زيداً ﷺ .. وذلك في قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا ﴾[3].

فهنيئاً لك يا زيد ذكر اسمك في الكتاب العزيز ..

وهنيئاً لك بحياة قضيتها حبيباً مقرباً لرسول الله ﷺ ..

وهنيئاً لك بآخرة تحياها في كنف الرحمن وجنة تدخلها وأنت تسعى ..

---

(١) انظر: طبقات ابن سعد (ج٣/٤٧).

(٢) انظر: طبقات ابن سعد (ج٣/٤٦).

(٣) سورة الأحزاب (٣٧).

أُمّ رُومـــان رضي الله عنها

امرأةٌ من الحُوْرِ العِين

أم رُومان

بنت عامر بن عويمر بن عبد شمس بن عتاب بن أُذينة

ها قد بدَتْ مكة مع إشراقة الصّباح يتوسّطها البيت العتيق الذي جعله الله مثابة للناس وأمناً .. وها هو ذا ركبٌ صغير يتّجه نحوها .. ركب مؤلف من رجل وزوجه وابنهما .. قادمين من منطقة السَّراة للإقامة في مكة المكرمة ..

أما الرّجل فاسمه (عبد الله بن الحارث بن سخيرة الأزدي) .. وزوجه هي (أم رومان) امرأة ذات جمال وأدب وفصاحة .. عُرفت بالصّلاح والصّدق والوفاء .. وعلى عادة العرب آنذاك كان لابُد لعبد الله بن الحارث أن يدخل في حِلف أحد من أهل مكة البارزين يحتمي به .. فحالف عبد الله بن أبي قحافة – أبا بكر الصدّيق – وكان النبي ﷺ لم يُبعث بعد ..[1]

ولم يمضِ وقت طويل حتى تُوفّي عبد الله بن الحارث تاركاً وراءه أم رومان وابنها .. فتقدّم أبو بكر الصدّيق خاطباً أم رومان ليخفّف عنها وعن ابنها آلام الوِحدة والغُربة فيُكرم بذلك ابن الحارث بعد مماته، وكانت تلك المروءة من شمائل العرب المعروفة .. وقبلت أم رومان، فكان أبو بكر خير زوج يحسن معاملتها ويكرمها وابنَها خير إكرام .. وأنجبَتْ منه السيدة عائشة وعبد الرحمن، رضي الله عنهما ..[2]

ثم اصطفى الله عز وجل هذه الأُسرة المباركة للدّخول في الإسلام .. فكان سيدنا أبو بكر الصديق ﷺ أوّل من أسلم من الرّجال بل كان ذا مكانة نادرة في عالم الصحابة رضوان الله عليهم وأيّنا لا يعرف مكانته.. وكان اعتناق كثير من الصحابة الأوائل للإسلام على يديه. ومُنذ أسلم أبو بكر ﷺ وهب الإسلام كل ما يملك فدعا أهل بيته إلى الإيمان فأخذ أمّه سلمى بنت صخر ـ أم الخير ـ إلى النبي ﷺ فدعا لها فأسلَمَتْ .. ودعا زوجه أم رومان كذلك فأسلَمَتْ وكانت من ثُلّة النساء اللاتي فُزن بالإسلام منذ إشراقته الأولى واتّبَعْن النبي ﷺ .. وغدت دار أبي بكر مأوىً كريماً لرسول الله ﷺ وبيتاً إسلامياً طيّباً .. وكانت أم رومان،

---

(١) انظر: الإصابة في تمييز الصحابة (ج٤/٤٥٠).

(٢) انظر: أسد الغابة (ج٥/٥٨٣).

رضي الله عنها، مِثال الزّوجة الصّالحة التي تقف إلى جانب زوجها تخفّف آلامه وتُواسيه في تلك الأيّام الصّعبة القاسية التي يمر بها المسلمون الأوائل .. فكانت تشدُّ من أزره وتُشاركه في حماسته، وما يبذله في سبيل الدعوة، من أجل نصرة الحق وتحرير الكثير من المسلمين المستضعفين .. وإلى جانب هذا وذاك كانت نِعم الأم الحانية المربّية فقد ربّت ولدَيها عبد الرحمن وعائشة أحسن تربية، ورعتهما أحسن الرّعاية ..

وكما عُرف سيّدنا أبو بكر ﷺ بالصدّيق لشدّة تصديقه للرسول ﷺ .. كانت أم رومان، رضي الله عنها، مُتمثّلة معاني الصّدق بأكملها .. بل مُتمثّلة الأخلاق العُليا وحُسن التصرف والأدب مع رسول الله ﷺ ومع زوجها .. ثم كان لأم رومان، رضي الله عنها، فضل السّبق في مِضمار الهجرة. قالت السيدة عائشة بنت أبي بكر، رضي الله عنهما : لمّا هاجر رسول الله خلّفنا، وخلّفَ بناته، فلما استقرَّ بعث زيد بن حارثة وبعث معه أبا رافع مولاه وأعطاهما بعيرين وخمسمئة درهم يشتريان بهما ما يحتاجان إليه من الظَّهر .. وبعث أبو بكر ﷺ معهما عبد الله بن أُريقط ببعيرين أو ثلاثة، وكتب إلى ابنه عبد الله بن أبي بكر أن يحمل أُمّي أم رومان وأنا وأختي أسماء، فخرجوا مصطحبين، وكان طلحة ﷺ يريد الهجرة فسار معهم وخرج زيد وأبو رافع بفاطمة وأم كلثوم وسَودة بنت زَمعة زوج النبي ﷺ وأم أيمن فقدمنا المدينة، والنبي ﷺ يبني مسجده وأبياتاً حول المسجد ..[1]

وكانت أُسرة الصدّيق قد حظيت بشرف لا يدانيه شرَف ألا وهو مُصاهرة رسول الله ﷺ ؛ فقد خَطَب النبي الكريم عائشة، رضي الله عنها. وكانت خولة بنت حكيم، رضي الله عنها، قد ذَكَرَتْها له فأرسلها عليه الصلاة والسلام إلى أم رومان، رضي الله عنها، لتخطبها.

دخلت خولة على أم رومان فقالت لها : ما أدخل الله عليكم من الخير والبركة ؟

قالت : وما ذاك ؟

قالت خولة والبِشر يملأ قسمات وجهها: أرسلني رسول الله ﷺ أخطب عليه عائشة ..

فَسَرَتْ فرحة كبيرة إلى نفس أم رومان، رضي الله عنها، فقالت : وَدِدْتُ .. انتظري

---

(١) انظر: أسد الغابة (ج٥/٥٨٣).

أبا بكر ..

فجاء أبو بكر ﷺ فقالت له : يا أبا بكر ماذا أدخل الله عليكم من الخير والبركة ؟

قال : وما ذاك ؟

قالت : أرسلني رسول الله أخطب عليه عائشة ..

فقال لها : وهل تصلح له وهي بنت أخيه ..

فرجعت إلى رسول الله فذكرت له ذلك فقال : « قولي له أنت أخي في الإسلام وابنتك تحلّ لي » ..[1] ولم تلبث أم رومان، رضي الله عنها، أن أصبحت حماة أشرف الخلق ﷺ .

وحين امتحن الله المسلمين تلك المحنة الرهيبة في حادثة الإفك[2] التي حاكها المنافقون - لعنهم الله - ليُسيئوا إلى بيت النبوة وكان على رأسهم في ذلك الحدث عبد الله بن أُبي ابن سلول وقفت أم رومان، رضي الله عنها، موقف المؤمنين الصابرين المحتسبين .. وعلى الرغم من أنها حرّت مغشياً عليها لحظة سماعها النبأ لكنّها أوكلت أمرها إلى الله الذي يتولى الصالحين وكتمت الخبر عن ابنتها إشفاقاً عليها.

ولما علمت عائشة، رضي الله عنها، النبأ ظلّت تبكي حتى كادت تنفلق كبدها وراحت تلوم أمها ؛ كيف أخفت عنها ذلك الخبر المريع والناس يتناقلونه وهي في غفلة من ذلك .. فقالت أم رومان، رضي الله عنها، تخفّف عنها : أي بنيّة ! هوّني عليك الشأن فوالله لقلّ ما كانت امرأة حسناء عند زوج يحبّها ولها ضرائر إلّا كثّرن وكثّر الناس عليها ..

ومضت أيام صعبة شاقّة من حياة المسلمين حتى نزل الوحي الأمين حاملاً البراءة لأم المؤمنين : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ..﴾[3]، وأصبحتْ هذه الآيات شهادة تُتلى في المحاريب .. وصان الله عز وجل البيت النبوي الشريف وردَّ كيد المنافقين والمرجفين إلى

---

(١) انظر: الإصابة في تمييز الصحابة (ج٤/٣٥٩-٣٦٠)، وأسد الغابة (ج٥/٥٠٢).

(٢) وذلك في السنة الخامسة للهجرة، وقيل السادسة للهجرة.

(٣) سورة النور (١١-١٩).

نحورهم وجعلهم الأذلّين ..

وظلّت أم رومان، رضي الله عنها، خلال هذه المحنة مثال المؤمنة الصابرة المحتسبة الواثقة بوعد ربها ..

وظلّت كذلك تلقى من رسول الله ﷺ كل تقدير واحترام في حياتها وعند وفاتها ..

ففي ذي الحجة سنة ست من الهجرة فاضت روحها المؤمنة .. فنزل النبي ﷺ في قبرها واستغفر لها وقال : « اللهمّ لم يخفَ عليك ما لقيَتْ أمّ رومان فيك وفي رسولك » ..[1]

وفي وداع هذه السَّيّدة الكريمة زوجة الصدّيق وأم الصدّيقة لا يسعنا سوى أن نُردّد وصف النبي ﷺ لها : « مَن سَرَّهُ أن ينظر إلى امرأة من الحور العين فَلينظر إلى أمّ رومان » ..[2]

---

(١) الإصابة في تمييز الصحابة (ج٤/٤٥١).

(٢) انظر: طبقات ابن سعد (ج٨/٢٧٧).

سعدُ بنُ أبي وَقَّاص رضي الله عنه

«اللهمّ أجِب دعوته وسدّد رميته»

(من دعائه له ﷺ)

سعدُ بنُ أبي وَقّاص

(مالك) بن أُهيب بن عبد مناف بن زُهرة بن كِلاب القرشي

استيقظ الفتى سَعْد ابن السابعة عشر من نومه على حلم غريب جميل .. فقد رأى في منامه أنه في ظلمة لا يبصر شيئاً فأضاء له قمر فاتّبعه .. ورأى أن أبا بكر وعليّاً وزيد بن حارثة قد سبقوه إلى ذلك القمر ..[1]

وقلبت تلك الرؤيا حياة سعد رأساً على عقب فقد كان النبي ﷺ هو ذاك القمر الذي أضاء لسعد حياته حين انطلق إليه وهو في (شِعب أجياد) فأسلم بين يديه .. ولم يزل سعد ﷺ يفاخر بأنه من أوائل السابقين للإسلام .. ورغم حداثة سنه فإن النبي ﷺ كان يباهي به قائلاً: « هذا خالي فليرني امرؤ خاله » ..[2] فقد كان جد سعد ﷺ (أهيب) هو عم السيدة آمنة والدة رسول الله ﷺ ..

ولقد امتحن الله قلب سعد ﷺ للتقوى منذ فجر إسلامه ولعل أول محن هذا الشاب المقدام على الإطلاق هي محنته بأهله .. بل بأكثرهم قرباً إلى قلبه وهي أمه (حَمنة بنت سفيان) .. فقد حلفت ألّا تكلمه أبداً حتى يكفر بدين محمّد وقالت له : زعمت أن الله وصّاك بوالديك، وأنا أمك وأنا آمرك بهذا، لَتدعنّ دينك هذا أو لا آكل ولا أشرب حتى أموت فتُعيّر بي فيُقال: يا قاتل أمّه ! .. فقال سعد ﷺ : لا تفعلي يا أمّه ! فإني لا أدع ديني هذا لشيء.. فمكثتْ ثلاثاً لم تأكل حتى غُشي عليها من الجَهد .. فلما رأى ذلك سعد ﷺ قال : يا أمّه ! تعلمين لو كانت لك مئة نفس فخرجت نفساً نفساً، ما تركت ديني هذا لشيء، فإن شئت فكلي، وإن شئت لا تأكلي ! .. فأكَلَتْ.[3]

لا يوجد مبدأ ولا تشريع وصّى بالوالدين كما وصى الإسلام، إلّا أنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق .. ورابطة الدين والعقيدة أقوى من كل الروابط .. ومن أجل ذلك أنزل الله

---

(١) انظر: أسد الغابة (ج٢/٢٩٢).

(٢) سنن الترمذي (ج٥/٦٠٧).

(٣) انظر: صحيح مسلم (ج٤/١٨٧٧)، وتفسير ابن كثير (ج٣/٢٩).

عـزّ وجـلّ : ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ ﴾[1].. لكن المخالفة لا تنفي حسن المعاملة لقوله تعالى : ﴿ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ﴾[2]..

وينتقل سعد ﷺ من البلاء بالأهل إلى الجهاد في سبيل الله .. لم يغب عن مشهد مع رسول الله قط .. هاهو ذا في بدر يقاتل قتال الراجل والفارس .. ويقف بين يدي رسول الله ﷺ فيضع السهم في كبد القوس ليرمي، وكان أول من رمى بسهم في سبيل الله وأول من رُمي، وكان حين يرمي يقول : اللهم زلزل أقدامهم، وأرعب قلوبهم، وافعل بهم وافعل .. والنبي ﷺ خلفه يقول : « اللهم استجِب لسعد » ..[3]

أمّا يوم أُحُد فقد كان يوماً بارزاً في حياة سعد ﷺ .. فلقد كان فيه من أشد الناس بأساً، ورمى ﷺ حتى فَنيت نَبْلُه ورسول الله ﷺ يقول : « اللهم سدّد رميته وأجب دعوته، إيهاً[4] سعد فداك أبي وأمي » .. فكان علي ﷺ يقول : ما سمعت النبي ﷺ جمع أبويه لأحد إلّا لسعد بن مالك ..[5] ولقد بلغ عدد السهام التي رمى بها سعد يوم أُحُد ألف سهم ..[6] وكان من أكثر من قاتل ودافع عن النبي ﷺ يومئذٍ طلحة وسعد ولم يبق غيرهما معه فقاتلا قتالاً منقطع النظير .. فما تركا للمشركين سبيلاً للوصول إلى النبي ﷺ .. ومنذ ذلك اليوم صار سعد ﷺ صاحب السهم الصائب والدعاء المستجاب .. سلاحان ملكهما سعد ﷺ لم يُخيّباه بفضل الله تعالى .. فسهم في العدو لا يخطئ .. ودعوة إلى السماء لا تُخطئ .. وبهذين السلاحين غدا سعد ﷺ من أوائل الذين أرسوا دعائم هذا الدين العظيم ..

وفي مجلس من مجالس النبي ﷺ مع أصحابه قال النبي لصحبه الكرام : « أوّل من يدخل من هذا الباب رجل من أهل الجنة »، والتفت الحاضرون جميعاً إلى القادم السعيد فإذا هو سعد

---

(١) سورة العنكبوت (٨).

(٢) سورة لقمان (١٥).

(٣) انظر: مختصر تاريخ ابن عساكر (ج٩/٢٦٢).

(٤) إيه: كلمة استزادة واستنطاق تقال للرجل إذا استزدته من حديث أو عمل، وإيهاً قد ترد بمعنى التصديق والرضا بالشيء.

(٥) صحيح مسلم (ج٤/١٨٧٦).

(٦) انظر: المستدرك (ج٣/٢٦).

ابن أبي وقاص ﷺ ..[1] فلما انفضّ المجلس لحق به عبد الله بن عمرو بن العاص ﷺ يسأله عن العمل الذي جعله يستحق بشارة رسول الله ﷺ .. فقال : لا شيء أكثر مما نعمل جميعاً ونتعبّد، غير أني لا أحمل لأحد من المسلمين ضغناً ولا سوءاً ..

ولعلّ سعداً ﷺ بهذه المزيّة من صفاء القلب قد صار من العشرة المتفوقين في مدرسة رسول الله ﷺ .. وفي طليعة الركب الأول الذي قاد البشرية عبر الأزمان التالية إلى سعادة الدارين ..

وقد رُوي أن سعداً ﷺ مرض عام الفتح مرضاً شديداً أشرف به على الموت .. فأتاه النبي ﷺ يعوده وهو بمكة فقال : يا رسول الله ! إنّ لي مالاً كثيراً، وليس يرثني إلّا ابنتي، أفأتصدّق بثلثي مالي ؟ قال : « لا »، قال : فبالشطر ؟ قال : « لا »، قال : فالثلث ؟ قال : « فالثلث، والثلث كثير، إنك إن تركت ولدك أغنياء خير من أن تتركهم عالة يتكفّفون الناس، إنك لن تنفق نفقة إلّا أُجرْتَ فيها، حتى اللقمة ترفعها إلى في امرأتك ».[2] أكرِم بها من مساومة غدت حكماً شرعياً : « لا وصية لوارث ولا وصية إلّا بالثلث ».[3]

رحل النبي الأعظم صلاة الله وسلامه عليه .. ولم يلبث سعد ﷺ أن تسلّم عمله في الدولة الفتيّة، فكان عاملاً للخليفة أبي بكر ﷺ على صدقات هَوازِن [4]، فلما توفي أبو بكر ﷺ وتولّى عمر ﷺ إمارة المؤمنين ظل سعد ﷺ في وظيفته .. وكانت الفتوحات الإسلامية قد بدأت خارج الجزيرة العربية لنشر هذا الدين الذي جعله الله نوراً وهدى للأمم أجمعين. وكان عمر ﷺ يهيّئ الجيوش، فكتب إلى سعد ﷺ فيمَنْ كتب إليهم من عمّاله لينتخبوا ذوي الرأي والنجدة ممن كان له سلاح أو فرس لينضم إلى صفوف المجاهدين .. فكتب له سعد ﷺ أنه ينتخب ألف فارس من أهل النجدة والرأي ومن أصحاب الحيطة ..

لما وصل كتابه إلى عمر ﷺ وافق ذلك وقتاً كان فيه عمر يبحث عن قائد لجيوش

---

(١) انظر : مسند الإمام أحمد (ج٢/٢٢٢).

(٢) صحيح البخاري (ج٦/٢٤٧٦).

(٣) فتح الباري المجلد الخامس كتاب الوصايا.

(٤) من قبائل العرب، كانت منازلها في نجد إلى الشرق من مكة.

المسلمين التي ستفتح العراق .. فقال عمر : قد وجدته .. قالوا : فمن ؟ قال : الأسَدُ عادياً، قالوا : من ؟ قال : سعد بن مالك .. وأرسل إليه يستقدمه. وقال عمر ﷺ : لأرمينَّ ملوك العجم بملوك العرب .. وقبيل انطلاق سعد ﷺ على رأس الجيش أوصاه أمير المؤمنين عمر ﷺ، فكان مما قال له : لا يغرّنك من الله أن قيل خال رسول الله ﷺ وصاحب رسول الله .. فإن الله ليس بينه وبين أحد نسب إلّا طاعته .. ثم قال : فانظر الأمر الذي رأيت النبي ﷺ عليه منذ بُعث إلى أن فارقنا فالزمه فإنه الأمر .. ثم قال له : إني قد ولّيتك حرب العراق فاحفظ وصيتي فإنك تقدم على أمر شديد كريه لا يخلص منه إلّا الحق .. فعوّد نفسك ومن معك الخير واستفتح به، واعلم أن لِكلّ عادة عتاد، فعتاد الخير الصبر ..[1]

سار سعد ﷺ بجنده إلى القادسية، ثم تتابعت الإمدادات حتى صار مع سعد نحو ثلاثين ألفاً من المجاهدين .. وظلّت المراسلات بينه وبين عمر ﷺ جارية في كل خطوات المعركة حتى تحقق النصر المبين .. وتروي لنا كتب التاريخ والمغازي أحداث معركة القادسية، وما جرى قبلها من حوار ومواقف، وكيف عرض قادة المسلمين دينهم، وما جاؤوا لأجله، على أمراء الفُرس .. وقد كان سعد ﷺ شديد الحرص على عرض الإسلام على الفُرس، وعلى الجهاد باللسان قبل السنان كما وصى النبي المصطفى عليه الصلاة والسلام .. من أجل هذا أرسل المغيرةَ بن شعبة ﷺ إلى رُستم قائد الفُرس للدعوة والتفاوض ..

وفي مثل هذه الملتقيات بين المسلمين والفُرس كانت تظهر عزّة المسلم بدينه وعقيدته، وتهافتُ أهل الدنيا وافتتانهم بالزخرف والغرور .. ها هو ذا المغيرة يتوجه إلى معسكر الفُرس ويمضي حتى دخل خيمة القائد، فجلس على سرير رستم ! فتصايح الفُرس استنكاراً ودهشة فقال لهم : إن هذا لم يزدني رفعة ولم ينقص صاحبكم .. فما كان من رُستم إلّا أن قال : صدقت ! ..[2] وهكذا تُسكِت الحجّة البالغة والمنطق المضيء العدو ..

وتتالت رُسُل سعد ﷺ قُبيل المعركة .. كل رسول منهم يحدث في نفوس الفُرس هزّة عنيفة قبل المواجهة الحربية .. ولكن الفُرس أغلقوا باب التفاوض وأصرّوا على الحرب.

---

(١) انظر: تاريخ الطبري (ج٤/٨٤-٨٥).

(٢) انظر: تاريخ الطبري (ج٤/٩٢-٩٣).

كانت معركة القادسية أعظم معارك الفتح في العراق، وحين شبّت نيران المعركة كان سعد ﷺ مصاباً بقروح في جلده تمنعه من ركوب الخيل، لكنه ظل الفكر المخطّط والعقل المدبّر والمنفّذ المتابع، وظل ﷺ الأمير الملتزم بالقيادة العامة في المدينة حيث أميرُ المؤمنين عمر ﷺ، فكان مرجعَه دائماً .. يطلعه على أدق التفاصيل، حتى قيل إن عمر بن الخطاب ﷺ في المدينة كان يعرف مكان كل جندي في القادسية ! ..

وفتح الله على المسلمين .. وأرسل سعد ﷺ بالأخبار وبالغنائم إلى أمير المؤمنين .. ثم اختطّ ﷺ مدينة الكوفة، فكانت المدينة الأولى التي بناها العرب في العراق .. وولّاه عمر ﷺ على المدائن فنزل القصر الأبيض - وهو المعروف بإيوان كسرى - فحوّله إلى مسجد. وأُرسلت الغنائم إلى أمير المؤمنين وفيها حُليُّ كسرى وتاجه وثيابه وسيوف ملوك الفُرس .. وكانت تلك ثروات هائلة لا تُقدّر بثمن ! فلما رأى أمير المؤمنين عمر ﷺ ذلك كله قال : إنّ أقواماً أدّوا هذا لذوُو أمانة.[1] وكيف لا يكونون كذلك وقائدهم صاحب النبي ﷺ المبشر بالجنة سعد ﷺ.

وفي المدائن .. شهد الناس إحدى معجزات الفتح، وكان سعد قائد الفتح المبين .. فقد اقتحمت جيوش المسلمين مياه دِجلة بخيلها، وسارت وكأنها تسير على البر، وعبرت النهر لتلقى العدو في الضفة الأخرى !! .. وجعل جنود الفُرس ينظرون إلى جيش الفتح مشدوهين، فقال بعضهم لبعض وقد استولى عليهم الرعب الشديد : والله ما تقاتلون الإنس، وما تقاتلون إلّا الجن ..[2] وصدق رسول الله ﷺ الذي قال : « نُصِرْتُ بالرّعب مسيرة شهر » ..[3]

وكان سعد بن أبي وقاص ﷺ يقطع النهر على فرسه إلى جانب سلمان الفارسي ﷺ وهو يقول : حسبنا الله ونعم الوكيل، والله لينصرنّ الله وليّه، وليظهرنّ الله دينه، وليهزمنّ الله عدوه إن لم يكن في الجيش بغيٌ أو ذنوب تغلب الحسنات ..

لقد كان سعد ﷺ يدرك أن الحسناتِ مفاتيحُ للانتصار .. وأنّ الباب الذي كان

---

(١) انظر: تاريخ الطبري (ج٤/١٧٧-١٧٩).

(٢) انظر: تاريخ الطبري (ج٤/١٧٣).

(٣) صحيح البخاري (ج١/١٢٨).

أصحاب رسول الله ﷺ يلحُون منه إلى العالم هو باب الصلاح والتقوى .. أما سلمان فكان يتأمل حيّالة المسلمين ويقول بثقة: إنّ الإسلام جديد .. ذُلّلت لهم - والله - البحور كما ذُلّل لهم البر .. أما والذي نفس سلمان بيده ليخرجُنّ منه أفواجاً كما دخلوه أفواجاً ..

وخرج المسلمون من الماء أفواجاً كما دخلوه لم يفقدوا شيئاً ولم يُصَبْ أحد منهم بأذى .. بل كانوا يتحاذبون أطراف الحديث وكأنهم يسيرون على اليابسة ! .. فلم يكن في المدائن أمر أعجب من ذلك، حتى سُمّي ذلك اليوم (يوم الماء) ..[1] إنه إكرام منه سبحانه للفاتحين المؤمنين المخلصين لربهم : سعدٍ وجنده رضوان الله عليهم .. لقد كانوا ينصرون دين الله حقاً، فكان الله ينصرهم في كل موقف ..

وبقيَ سعد ﷺ والياً على الكوفة التي بناها حتى شكاه بعض أهلها إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ زاعمين أنه لا يحسن الصلاة فيهم، فاستدعاه عمر ﷺ وسأله، فقال له سعد ﷺ: إني لأُصلّي بهم صلاة رسول الله، أطيل في الركعتين الأوليين وأقصر في الأخريين.

وإن في وصول الشكوى من الكوفة إلى المدينة، وفي استدعاء عمر لسعد ليسأله، وفي إجابة سعد، وهو الفاتح صاحب السلاحين النافذين الرمي والدعاء، مَن أجرى الله على يديه النصر العظيم مراراً .. إن في ذلك كله لتعبيراً عما وصل إليه الحكم الإسلامي من العدالة، وأين منها العدالة التي رُفعت شعاراتها في العصر الحديث وبقيت في كثير من الأحيان حبراً على ورق ..

عاد سعد ﷺ إلى المدينة ليكون إلى جوار أمير المؤمنين فجعله واحداً من ستة رشحهم للخلافة من بعده وجعله في مقدمتهم قائلاً : إن ولي سعد الإمارة فذاك وإلّا فأوصي الخليفة بعدي أن يستعمله فإني لم أعزله من عجز ولا خيانة ..[2]

بقي سعد ﷺ في المدينة حتى جاءه الأجل في السنة الخامسة والخمسين للهجرة، وكان قد تجاوز الثمانين .. وهذا ولده مصعب بن سعد يحدثنا عن تلك اللحظات قائلاً : كان رأس

---

(١) انظر: تاريخ الطبري (ج٤/١٧٢).

(٢) انظر: أسد الغابة (ج٢/٢٩١).

أبي في حجري وهو يقضي[1] .. فدمعت عيناي .. فنظر إلي فقال : ما يبكيك أي بني ؟ فقلت : لمكانك وما أرى بك، قال : فلا تبكِ علي، فإن الله لا يعذّبني أبداً وإني من أهل الجنة ..[2]

وتوفي سعد ﷺ فحُمِل على أعناق الرجال فأُدخِل المسجد النبوي وصلّى الناس عليه حتى أزواج رسول الله ﷺ.

لم يُدفَن سعد ﷺ في الأرض التي حرّرها ولا في المدينة التي اختطّها .. بل دُفن إلى جانب أصحابه الأطهار في البقيع في مدينة الرسول عليه الصلاة والسلام .. دُفِن في كَفَن من صوف كان رداءه يوم بدر .. أخرجه لما حضره الموت وقال لأولاده : كفّنوني فيها، فإني كنت فيها يوم بدر، وكنت أخبّئها لهذا اليوم ..

لقد كان سعد ﷺ - برَغم كل ما حققه في المعارك - يعلم أن النصر في بدر خاصةً كان مفتاح كل نصر .. وأعظم من كل نصرٍ أجراً عند الله سبحانه.

رحم الله المجاهد الفاتح سعد بن أبي وقاص ..

أما نحن فلنبحث عن موقف جاهدنا فيه بصدق .. أو عن عمل صالح نتقدّم به إلى الله يوم نلقاه ..

---

(١) يموت.

(٢) انظر: مختصر تاريخ ابن عساكر (ج٩/٢٧١).

٦

أبو عُبيدةَ بنُ الجرَّاح رضي الله عنه

أمينُ الأمّـة

أبو عبيدةَ بنُ الجرّاح

عامرُ بن عبد الله بن الجرّاح الفِهري القرشي

هل ترون هذا الرجلَ النحيف الجسم .. الطويل القامة .. المعروق الوجه .. الخفيف اللحية ..

هل ترون هذا الفارس الزاهد الذي يمسك النبيُّ ﷺ بيمينه وهو يقول : « إنّ لكلّ أمة أميناً، وإنّ أمينَنا - أيَّتُها الأمةَ - أبو عُبَيْدَةَ بن الجرّاح ».[1]

هل حُدِّثتم عن تاجر صاحب لأبي بكر ﷺ، أسلم مع أول خيوط نور انبثق منها فجر الإسلام قبل أن يدخل النبي ﷺ إلى دار الأرقم .. ذاك أبو عبيدة ..

أو حُدِّثتم عن (القوي الأمين) .. و(أمير الأمراء) .. أو (الأثرَم)[2] .. أو أحد (العشرة المبشرين بالجنّة) أو (صاحب الهجرتين) .. تلك كلها ألقاب لرجل واحد هو أبو عبيدة .. (عامر بن عبد الله بن الجرّاح) ﷺ الذي يلتقي نسبه مع رسول الله ﷺ في (فهر) ..

ومنذ شبابه الأول اشتهر بأبي عبيدة بن الجراح نسبة إلى جده الجرّاح، ولعلّ حكمة ذلك كانت غائبة في البداية .. فلقد كان عبد الله بن الجراح - أبوه - مشركاً وبقي كذلك حتى قُتل .. وقد سام عبد الله ابنه ألوان الأذى منذ علم أنه أسلم. لكن الابن ظلّ منذ أول مواجهة بين إيمانه وشرك أبيه قويّاً صامداً في الحق، فلم يراوغ ولم يكذب حين سأله أبوه عن شأنه. ولم يزل عبد الله يعذّب ولده حتى كادت روحه أن تزهق .. فلمّا عرف أنّه لن يفلح في ردّه إلى الوثنية خلّى سبيله وتركه وشأنه ..

وراحت قريش تؤذي المسلمين وتذيقهم ألوان العذاب والتنكيل حتى أذِنَ النبي ﷺ للمسلمين بالهجرة إلى الحبشة، فكان أبو عبيدة ممّن هاجر وعاش آمناً مطمئناً في جوار النجاشي. لكنه سرعان ما آثر أن يعود إلى مكة .. إلى ساحة الكفاح والتكليف.

---

(١) صحيح البخاري (ج٣/١٣٦٩).

(٢) الأثرم : ساقط الثنيتين.

ومضت السنوات حتى أذن الله تعالى بالهجرة إلى المدينة المنورة .. فكان أبو عبيدة ﷺ من أوائل المهاجرين وكان بذلك (صاحب الهجرتين) .. وهناك فوق ثرى طَيبة الحبيبة نادى فيهم النبي ﷺ : « تآخَوا في الله أخوين أخوين »[1] .. فتقدم سيد الأنصار سعد بن معاذ باسطاً يده، مؤاخياً أبا عبيدة، رضي الله عنهما.

وجاءت السنة الثانية للهجرة، والتقى الجمعان في بدر، قريش والمسلمون .. وارتفعت رايات النصر، وغفر الله للصحابة لأنهم كانوا على قلب رجل واحد، فكانت غزوة بدر وساماً على صدور المقاتلين المسلمين إلى قيام الساعة ..

ثم جاءت غزوة أُحُد بعد مرور أقل من عام على فرحة النصر في بدر .. وكان لأُحُد شأن آخر.. ودعونا نرفع الستار عن أُحُد، فالصحابي الجليل أبو عبيدة ﷺ كان من أبطالها ..

رمال ملتهبة تحت شمس الصحراء، وجبل كبير على مشارف المدينة هو جبل أُحُد، الذي قال عنه رسول الله ﷺ : « هذا جبلٌ يحبّنا ونحبه »[2]، فيه كان عسكر المسلمين، وتلّ مرتفع، عليه وقف الرماة يحرسون ظهورهم .. هناك دارت المعركة بين المسلمين وقريش التي جاءت حاقدة متوعدة، تريد الانتقام لقتلاها في بدر .. وتريد قتل النبي ﷺ .. لكن هيهات فالله يحميه ..

وتراصّت الصفوف، والتقى الفريقان، واشتدّ القتال .. وكان النصر قريباً من المسلمين لولا أن الرماة نزلوا عن الجبل مخالفين أمر النبي عليه الصلاة والسلام، ظانّين أن المعركة قد انتهت ! فالتفّت فرقة من المشركين من وراء الجبل يقودهم خالد بن الوليد وكان لا يزال مشركاً، وحُوصر المسلمون من كل جانب، وتشتّت صفوفهم، وكثُر فيهم القتل ..

وفي هذه الأثناء أشاع المشركون أن النبي ﷺ قد قُتِل، فخارت عزائم الصحابة المقاتلين، وانهارت قواهم .. أمّا رسول الله فقد ثبت في ساحة المعركة لم يبرح مكانه وإنّه لفي وجه العدو، والمسلمون قد انكشفوا عنه .. ولم يكن مع النبي ﷺ وقتئذٍ إلّا سبعة من الأنصار واثنان من

---

(١) سيرة ابن هشام (مج١/ص٥٠٥).

(٢) صحيح البخاري (ج٣/١٠٦٠).

المهاجرين .. فراح عليه الصلاة والسلام ينادي : « من يردّهم عنّا وله الجنة »[1]، فتقدّم الأنصار السبعة وأبلوا بلاء شديداً حتى استشهدوا جميعاً ..

وما كاد الصحابة يسمعون نداءات نبيّهم حتى أقبلوا إليه، واستماتوا في حمايته والدفاع عنه .. كلّهم يقول : وجهي لوجهك الوقاء، ونفسي لنفسك الفداء، وعليك سلام الله غير مُوَدَّع ..[2]

ولمع في هذا الموقف العصيب أبو عبيدة ﷺ كالنجم فقد كان سبّاقاً إلى فداء النبي ﷺ ولنستمع إلى أبي بكر الصدّيق ﷺ يروي لنا ما حدث : لمّا كان يوم أُحُد ورُميَ رسول الله ﷺ في وجهه حتى دَخَلَتْ في أُحْنَيْهِ حَلْقَتان من المِغْفَر[3] فأقبلتُ أسعى إلى رسول الله ﷺ وإنسانٌ قد أقبَلَ من قِبَل المشرق يطير طيراناً، فقلتُ : اللهمّ اجْعَلْهُ طاعةً، حتى توافينا إلى رسول الله ﷺ فإذا أبو عبيدة بن الجرّاح قد بَدَرني، فقال : أسألك بالله يا أبا بكر ألا تَرَكْتني فآنزِعه من وَجْنَةِ رسول الله ﷺ، قال أبو بكر : فَتَرَكْتُهُ، فأخذ أبو عبيدة بثنيّةٍ إحدى حلْقَتي المِغْفَر فنزعها، وسقط على ظهره وسقَطَتْ ثنيّةُ أبي عبيدة، ثم أخذ الحلْقة الأخرى بثنيّه الأخرى فسَقَطَتْ، فكان أبو عبيدة في الناس أثْرَم ..[4] ولعلّ هذا اللقب كان أحبّ الألقاب إلى أبي عبيدة فهو يذكّره لحظةَ التضحية والفداء بين يدي رسوله الحبيب عليه الصلاة والسلام.

ثم توالت الجولات والمواقف في حياة ابن الجرّاح، فإذا هو في ساحات الجهاد دائماً في الطليعة، لا يتخلف عن مشهد من المشاهد مع رسول الله ﷺ، وكان ﷺ موضع ثقة النبي عليه الصلاة والسلام في كل وقت وحين .. وعندما توجه عليه الصلاة والسلام بجيش الإيمان لفتح مكة، وقسّم جيشه كتائب أربعة، جعل أبا عبيدة ﷺ على أحدها وأمره أن ينصبّ بين يديه إلى مكة، فكان ﷺ من قوّاد الفتح المبين.

وجاء اليوم الذي سُلّطت فيه الأضواء على هذا الصحابي الكريم، حين شهد له النبي ﷺ بشهادة ظلّ الصحابة يغبطونه عليها حياتهم كلها؛ كان ذلك عندما أسلم أهل اليمن؛

---

(١) صحيح مسلم (ج٣/١٤١٥).

(٢) انظر: طبقات ابن سعد (ج٢/٤٦).

(٣) المغفر : زرد ينسج على قدر الرأس يلبس تحت القلنسوة.

(٤) انظر: طبقات ابن سعد (ج٣/٤١٠).

وجاء وفد نجران يسألون النبي ﷺ أن يرسل معهم رجلاً أميناً من أصحابه يُعلّمهم أمور دينهم فقال النبي ﷺ للوفد : « ائتوني في العشيّة أبعث معكم القويّ الأمين » !!، وفي رواية أنه قال لهم : « لأبعثنّ إليكم رجلاً أميناً حقّ أمين حقّ أمين حقّ أمين » ..

وتطلّع الصحابة إلى هذا المقام الكريم كلّهم يتمنى لو يكون ذلك الأمين .. حتى إنّ عمر بن الخطاب ﷺ قال : ما أحببت الإمارة قط حبّي إيّاها يومئذ رجاء أن أكون صاحبها، فلما صلّى بنا رسول الله ﷺ الظّهر سلّم ثم نظر عن يمينه وعن يساره فجعلت أتطاول لرؤيتي.. فلم يزل يلتمس ببصره حتى رأى أبا عبيدة بن الجرّاح فدعاه وقال : « اخرج معهم فاقضِ بينهم بالحقّ فيما اختلفوا فيه ».[1]

لقد كان أبو عبيدة هو الأمين، ﷺ وأرضاه .. وظلّ كذلك في حياة النبي ﷺ وبعد ارتحاله عليه الصلاة والسلام. فحين توفي رسول الله ﷺ، واهتزّت المدينة لذلك النبأ الفاجع .. وتربّص الأعداء .. وصار المسلمون كما وصفت السيدة عائشة، رضي الله عنها : كالغنم المطيرة في الليلة الشاتية لفقد نبيهم ﷺ ..[2] كان لابن الجراح موقف محمود ..

ففي تلك الساعات العصيبة الحاسمة من تاريخ الأمة كان الأمين أبو عبيدة مع الصحب الكرام قد اجتمعوا لاختيار الخليفة .. وكان لابد من اختيار سريع وقرار حاسم لضم شمل الأمة تحت قيادة واحدة .. في تلك الساعة شدّ أبو بكر على يد أبي عبيدة، رضي الله عنهما، قائلاً : هلمّ حتى أستخلفك فإني سمعت رسول الله يقول : « إنّ لكلّ أمة أميناً وأنت أمين هذه الأمة »، لقد أراد الصدّيق أن يبايع أبا عبيدة، كان يراه أهلاً للخلافة، لكن أبا عبيدة ﷺ أجاب بفهم عميق : ما كنت لأتقدم رجلاً أمره رسول الله ﷺ أن يؤمّنا ..[3]

وقف ابن الجرّاح ﷺ ذلك الموقف فكان في مقدّمة المبايعين لأبي بكر الصدّيق ﷺ لأن الأمانة عهد باقٍ، ولأن الأمين يبقى أميناً مهما تبدّلت الظروف .. ولقد كشفت تلك البيعة عمّا اتّصف به أبو عبيدة ﷺ من تواضعٍ وإخلاصٍ وأمانةٍ وحفاظٍ على كلمة المسلمين، وسجّل

---

(١) انظر: سيرة ابن هشام (مج١/٥٨٤)، وطبقات ابن سعد (ج٣/٤١٢).

(٢) انظر: سيرة ابن هشام (مج٢/٦٦٥).

(٣) انظر: تاريخ ابن عساكر (ج٣١/٢٨٩).

التاريخ موقفه في تلك اللحظات الحاسمة ..

وبقيَ أبو عبيدة مقرّباً إلى أبي بكر، رضي الله عنهما، مستشاراً لديه في الأمور السياسية والفقهية. وكان أبو بكر ﷺ إذا قدم عليه أمداد المسلمين وسألوه أن يؤمّر عليهم رجلاً قال : عليكم بالهيّن اللّين، الذي إذا ظُلِم لم يَظلِم، وإذا أُسيء إليه غَفر، وإذا قُطع وَصل، رحيم بالمؤمنين، شديد على الكافرين، أبو عبيدة !! .. تلك صفات أبي عبيدة ﷺ، فما أروعها من صفات، وتلك شهادة الصدّيق بأبي عبيدة أكرِم بها من شهادة ! ..

وتولّى أبو عبيدة ﷺ الإشراف على بيت مال المسلمين، أليس هو (أمين هذه الأمة)؟.. لكنه لم يلبث في هذه الوظيفة طويلاً، فقد لبّى داعي الجهاد وحمل لواء جيشٍ عدده سبعة آلاف وخمسمئة مجاهد، متّجهاً إلى قلب بلاد الشام لمواجهة دولة الروم .. وكان الروم أكثر عدداً وأكمل عتاداً وأعظم سلاحاً، لكن المسلمين لم ينتصروا على عدوّهم يوماً إلّا بقوة إيمانهم وتمسكهم بدينهم وعهودهم كما علّمهم رسول الله ﷺ .. لم ينتصروا إلّا لأنهم نصروا الله تعالى وهو القائل سبحانه : ﴿ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ ﴾[1].

واصل أبو عبيدة ﷺ فتوحاته بالشام، فدخل حمصَ وعامَل سكّانها المعاملة التي علّمه إياها الإسلام .. وذلك الذي دفع أكثرهم إلى اعتناق دين التوحيد مبهورين بأخلاق المسلمين .. وتزلزل قيصر الروم لنبأ انتصار المسلمين وفتحهم لمدينة حمص، فقام يُعِدّ جيشاً يزيد تعداده على مئتي ألف .. وتحرّك الجيش الروماني من أنطاكية إلى وادي اليَرْمُوك [2] .. وتحرّك جيش آخر إلى فلسطين لمواجهة الجيش الإسلامي هناك ..

علم أبو عبيدة ﷺ بزحف الرومان، فكتب إلى الخليفة أبي بكر ﷺ يُطلعه على الموقف ويطلب منه المدد، فبعث أبو بكر خالد بن الوليد ﷺ بجيشه .. فاجتمعت جيوش المسلمين في اليرموك استعداداً لمواجهة الروم بجيش إسلامي واحد ..

كان خالد بن الوليد ﷺ هو القائد العام في معركة اليرموك، وأبو عبيدة ﷺ على قلب

---

(١) سورة محمد (٧).

(٢) اليَرْمُوك : واد بناحية الشام في طرف الغور يصب في نهر الأردن.

الجيش .. والتقى الفريقان ودارت معركة رهيبة .. وقبل أن تضع الحرب أوزارها وصل كتاب من عاصمة الخلافة فيه نعيُ خليفةِ رسول الله ﷺ الصدّيق واستخلافُ عمرَ بن الخطاب ﷺ على المسلمين .. وفي الكتاب أيضاً أمْرٌ من أمير المؤمنين عمر ﷺ بعزل خالد ﷺ من قيادة جيوش الشام وتولية أبي عبيدة ﷺ مكانه .. وأحسّ أبو عبيدة أنّ الأمانة تقتضي كِتمان الأمر ريثما تنتهي المعركة مخافة أن تضعف حماسة المجاهدين بنبأ وفاة الصدّيق ﷺ وعزل قائد الجيش، فلمّا انتهت المعركة وأتمّ القائد خالد ﷺ فتحه العظيم، لم يكن بدّ من تنفيذ أمر أمير المؤمنين .. هنالك قدّم أبو عبيدة كتاب عمر إلى خالد ﷺ بأدب جمّ، فلما قرأ خالد الكتاب قال: يرحمك الله أبا عبيدة .. ما منعك أن تخبرني حين جاءك الكتاب ؟ فأجابه أمين الأمة بتواضع عظيم : كرهت أن أكسر عليك حربك، وما سلطان الدنيا نريد، ولا للدنيا نعمل، كلنا إخوة في الله. ألم نقل إن حياة أبي عبيدة ﷺ كلها مواقف .. حقاً بمثل هذه المعاني الرّاقية والدوافع النبيلة كان انتصار المسلمين وكان الفتح المبين .. وبأمثال هؤلاء الرجال ملك الإسلام القلوب.

وتوالت بعد اليرموك أنباء النصر في المعارك التي قادها (أمير الأمراء) أبو عبيدة ﷺ .. وفُتحت بلاد الشام كلّها مستقبلة دين الإسلام دين العزة، مودّعة دُل سيطرة الروم ..

ويشتاق عمر إلى أخيه أبي عبيدة، رضي الله عنهما، فيشدّ الرحال إلى الشام يريد زيارة أمين الأمة .. فلمّا وصل إليها استقبله أبو عبيدة ﷺ فصافحه وقبّل يده إخاءً وتقديراً وحباً وكرامةً .. فقال عمر: اذهب بنا إلى منزلك، قال أبو عبيدة ﷺ: وما تصنع عندي ؟ ما تريد إلّا أن تعصرَ عينيك عليّ !! فدخل منزله فلم يرَ شيئاً !! قال عمر ﷺ : أين متاعُك ؟ لا أرى إلّا لِبْداً وصحفةً وشنّاً [1] وسيفاً وأنت أمير ؟!! أعندك طعام ؟ فقام أبو عبيدة ﷺ وجاءه بكسيرات، فبكى عمر ﷺ، فقال له أبو عبيدة : قد قلت لك إنك ستعصرُ عينيك عليّ يا أمير المؤمنين !! هذا يبلّغني المقيل.

قال عمر ﷺ: غيّرتنا الدنيا كلنا غيرَك يا أبا عبيدة !! .. [2] فكان ﷺ بعد ذلك يتمنّى

---

(١) الشّنُّ : الجلْدُ البالي، والشنّة : القربة البالية.

(٢) انظر: مختصر تاريخ ابن عساكر (ج١١/٢٧٢).

أن يكون في الناس كثير مثل أبي عبيدة .. فقد رُوي أنه ﷺ قال لجلسائه مرّة : تمنّوا، فتمنّوا. فقال عمر ﷺ : لكنّي أتمنّى بيتاً ممتلئاً رجالاً مثل أبي عبيدة بن الجرّاح.[1]

وبقي أبو عبيدة ﷺ في بلاد الشام .. وفي السنة الثامنة عشرة للهجرة نزل بفلسطين داء الطاعون وفشا بين صفوف الجند، فكتب عمر إلى أبي عبيدة رضي الله عنهما: إنّي قد كان لي حاجةً إليك فلا غِنَى بي عنك فيها، إذا أتاك كتابي ليلاً فإني أعزم عليك أن تمشي حتى تركب إليّ..

لقد علم الفاروق عمر ﷺ بانتشار الطاعون فتحوّف على أبي عبيدة ﷺ أن يصيب فأرسل في طلبه .. لكن أبا عبيدة قال للرسول: قد علمتُ حاجة أمير المؤمنين التي عرضتْ، وإنّه يريد أن يستبقي من ليس بباقٍ، ثم كتب إليه : إني في جند من المسلمين لن أرغب بنفسي عنهم، وإني قد علمت حاجتك التي عرضت لك، وأنك تستبقي من ليس بباق، فإذا أتاك كتابي هذا فحلّلني من عزمتك وائذن لي في الخلوص، فلما قرأ عمر ﷺ كتابه فاضت عيناه وبكى ..[2]

أبَت الأمانة على أبي عبيدة ﷺ الرحيلَ وتركَ صفوف جيشه المصابين، وظلّ ملتزماً أمر النبي الحبيب ﷺ الذي قال : « إذا سمعتم بالطاعون بأرض فلا تدخلوها، وإذا وقع وأنتم بها فلا تخرجوا منها ».[3]

وكان ما خافه عمر ﷺ فقد أُصيب أبو عبيدة ﷺ بالطاعون، فلمّا أحس دنوّ الأجل جمع قادة جيشه فأوصاهم بتقوى الله والتزام أمره ثم قال : إنّ امرءاً لو عُمّر ألف حول ما كان له بدّ من أن يصير إلى مصرعي هذا الذي ترون، إنّ الله كتب الموت على بني آدم فهم مبتوه، وأكيسُهمْ أطوعُهم لربّه، وأعملهم ليوم معاده .. ثم قال : أقرئوا أمير المؤمنين السلام .. وأعلموه أنه لم يبق من أماتي شيء إلّا وقد قمت به وأدّيته .. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .. يا معاذ بن جبل صلّ بالناس .. ثم أخذ يردّد قول النبي ﷺ : « الطاعون شهادة

---

(١) انظر: طبقات ابن سعد (ج٣/٤١٣).

(٢) انظر: مختصر تاريخ ابن عساكر (ج١١/٢٧٣).

(٣) صحيح البخاري (ج٥/٢١٦٣).

لكلّ مسلم ».[1] لقد كان يحلم بالشهادة، فنوّله الله إياها.

وصعدت الروح إلى بارئها راضية مرضية .. وبقي الجسد الطاهر هناك تحت ثرى الأردن ..

وبقيت شهادات الصحابة الكرام فيه منارات هدى للمؤمنين إلى يوم الدين ! هذا معاذ ابن جبل ﷺ وقد قام بعده أميراً على الشام فخطب في الناس فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : ... وإنكم فُجعتم برجل، ما أزعم - والله - أني رأيت من عباد الله قطّ أقلّ حقداً، ولا أبر صدراً، ولا أبعد غائلة، ولا أشد حياءً للعاقبة، ولا أنصح للعامة منه فترحّمُوا عليه.[2]

وبعدُ .. فلو كنا متمنّين اليوم شيئاً .. هل نتمنّى كما تمنّى عمر بن الخطاب ﷺ، بيتاً مملوءاً برجال من أمثال أبي عبيدة ﷺ ؟! نعم .. ولكن، لماذا لا يكون الواحد منا كأبي عبيدة ؟! هيّناً ليّناً .. إذا ظُلم لم يَظلِم، وإذا أُسيء إليه غفر، وإذا قُطع وَصل ..

ولماذا لا يكون الواحد منا أميناً، حق أمين، كأبي عبيدة رضوان الله عليه ؟! ..

---

(١) صحيح البخاري (ج٣/١٠٤١).

(٢) انظر: الإصابة في تمييز الصحابة (ج٢/٢٥٤).

عبدُ الرّحمن بنُ عَوْف رضي الله عنه

بطلٌ في العَطاء

عبدُ الرحمنِ بنُ عَوْف

ابن عبد عوف الزهري القرشي

يقول النبي عليه الصلاة والسلام : « من تصدّق بعدل تمرة من كسب طيب - ولا يقبل الله إلّا الطيب - وإنّ الله يتقبلها بيمينه ثم يربيها لصاحبها كما يربي أحدكم فَلُوَّه[1] حتى تكون مثل الجبل ».[2] لا يُذكر هذا الحديث الشريف إلّا وتُذكر حياة عبد الرحمن بن عوف التي كانت تصديقاً لكلام النبوة .. فقد كان ﷺ من أهل الجود والكرم، فما زاده الإنفاق والعطاء إلّا غنىً .. ولقد عمّ فضله أهله وأصحابه، بل أهل المدينة المنورة جميعاً.

أما بداية المسيرة المباركة فكانت بين يدي الصدّيق أبي بكر ﷺ، فقد كان عبد الرحمن ابن عوف من أصحاب أبي بكر الذين أسلموا على يديه .. وتفيد الروايات أنه كان من الثمانية الأوائل السابقين إلى الإسلام، ومن العشرة المبشرين بالجنة .. والنبي عليه الصلاة والسلام هو الذي سمّاه عبد الرحمن بعد أن كان اسمه عبد عمرو .. ومنذ انضم عبد الرحمن بن عوف ﷺ إلى صفوف الإسلام لقي ما لقيه المسلمون الأوائل من عذاب قريش وكيدها فهاجر كلتا الهجرتين إلى الحبشة .. ثم كانت الهجرة إلى المدينة فخرج عبد الرحمن مهاجراً إليها .. وهناك آخى النبي ﷺ بينه وبين سعد بن الربيع، رضي الله عنهما .. ولا يزال الحوار الذي دار بين هذين المتآخيين يثير عجب المؤمنين في كل حين ..

قال عبد الرحمن بن عوف ﷺ : قال لي سعد بن الربيع : إني أكثر الأنصار مالاً فأقسم لك نصف مالي، وانظر أي زوجتيّ هَوِيتَ نزلتُ لك عنها فإذا حلّت تزوّجتها ! .. شكر عبد الرحمن أخاه على أخلاقه الطيبة المباركة، ولكنه آثر الاعتماد على نفسه والعمل من كسب يده برغم صعوبة ذلك، فقال له : لا حاجة لي في ذلك، هل من سوق فيه تجارة ؟.[3]

وانطلق عبد الرحمن بن عوف ﷺ يتاجر ويعمل فيربح .. ودعا له النبي ﷺ بالتوفيق

---

(١) الفَلُوُّ بتشديد الواو : المُهْرُ، ومثله الفِلْوُ.

(٢) صحيح البخاري (ج٢/٥١١).

(٣) صحيح البخاري (ج٢/٧٢٢).

حتى أصبح من أثرياء المسلمين .. يقول عن توفيق الله له : فلقد رأيتني ولو رفعت حجراً رجوت أن أصيب تحته ذهباً أو فضة .. [1] ثم راح ﷺ يجود بماله ونفسه معاً فيشهد المشاهد كلها لا تفوته غزوة قط ..

ففي بدر كان في مقدمة المقاتلين .. وفي أُحُد كان من الثابتين الصامدين حين تزلزلت الأقدام .. ولقد سأل عنه النبي ﷺ في ذلك اليوم فقال للحارث بن الصِمَّة ﷺ : « هل رأيت عبد الرحمن بن عوف ؟ »، فقال: نعم رأيته إلى جنب الجُبيل وعليه جماعة من المشركين فهوَيت إليه لأمنعه فرأيتك يا رسول الله فعدلت إليك .. فقال ﷺ : « إن الملائكة تقاتل معه » .. قال الحارث ﷺ : فانطلقت إلى عبد الرحمن فوجدت بين يديه سبعة من المشركين قد قُتلوا .. فقلت : ظفرتْ يمينُك !! أكلَّ هؤلاء قتلتَ ؟؟ فقال : أما هذان وأشار بيده إلى اثنين فأنا قتلتهما .. وأما هؤلاء فقاتلهم من لم أره !! فقال الحارث : صدق رسول الله[1] ..

وخرج ﷺ يوم أُحُد بإحدى وعشرين جراحة، وجُرِح في رجله فكان يعرج من ذلك الجرح .. وفي تبوك وهي آخر الغزوات، أمر النبي ﷺ بالنفقة لتجهيز الجيش الذي سُمّي (جيش العسرة) للظروف العصيبة التي أحاطت بتلك الغزوة فكان عبد الرحمن بن عوف في طليعة المنفقين، فقد تصدق بمئتي أوقية .. فقال عمر بن الخطاب : يا رسول الله إني لا أرى عبد الرحمن بن عوف إلّا قد اخترب، ما ترك لأهله شيئاً .. فسأله رسول الله : « هل تركت لأهلك شيئاً ؟ »، قال : نعم أكثر مما أنفقت وأطيب، قال : « كم ؟ »، قال : ما وعد الله ورسوله من الرزق والخير ..[2] هكذا كانت ثقة المسلمين بربهم وإيمانهم بأنه تبارك وتعالى يعطي المنفق خلفاً، ويُرْبي الصدقات ..

ويوم تبوك كان عبد الرحمن ﷺ على موعد مع بشارة من بشارات النبي عليه الصلاة والسلام .. وذلك حين قدّمه الصحابة للصلاة بهم ورسول الله ﷺ غائب لبعض شأنه، فلما عاد ﷺ وجد المسلمين قد شرعوا في الصلاة مقتدين بعبد الرحمن بن عوف ﷺ فائتمّ به، فلمّا سلّم عبد الرحمن ﷺ قام رسول الله ﷺ يُتِمّ صلاته فلما فرغ من الصلاة قال لأصحابه :

---

(١) انظر: طبقات ابن سعد (ج٣/١٢٦).

(٢) انظر: مجمع الزوائد (ج٦/١١٤).

(٣) انظر: مختصر تاريخ ابن عساكر (ج١٤/٣٥٤).

« أحسنتم .. وما قُبض نبيّ قط حتى يصلّي خلف رجل صالح من أمته ».[1]

فرح ابن عوف ﷺ بالبشارة، وكيف لا يفرح وقد شهد له بالصلاح رسول الله عليه الصلاة والسلام .. وإن شهادته ﷺ رأسُمال لا يقدر بثمن .. والله سبحانه يقول : ﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾[2] ..

ولقد كان النبي ﷺ حريصاً على الألفة والصفاء بين أصحابه شأنه شأن الأب الشفوق .. بلغه مرة أنه اشتجر عبد الرحمن بن عوف وخالد بن الوليد، رضي الله عنهما، وكان بينهما كلام فقال ﷺ : « يا خالد ! لا تؤذِ رجلاً من أهل بدر، فلو أنفقت مثل أحد ذهباً لم تدرك عمله !! »، ثم التفت إلى عبد الرحمن قائلاً : « لا تؤذوا خالداً، فإنه سيف من سيوف الله صبّه الله على الكفار ».[3]

ظلّ عبد الرحمن بن عوف ﷺ إلى جانب رسوله الحبيب ﷺ يتاجر مع الله ويربح .. فلما رحل عليه الصلاة والسلام، بقي عبد الرحمن ﷺ ملتزماً الجماعة المؤمنة والحضور الدائم معها في مواقع المسؤولية دون أن يمدّ عينه إلى رئاسة أو جاه .. فكان من أوائل المبايعين لأبي بكر وعمر، رضي الله عنهما .. ولقد جعله عمر من (اللجنة السداسية) التي تختار الخليفة من بعده فتخّى عبد الرحمن نفسه واختار عثمان، رضي الله عنهما ..

وفي يوم من الأيام ارتجّت المدينة المنورة بأصوات مختلطة فسألت السيدة عائشة، رضي الله عنها : ما هذا؟ فقيل لها : عِيرٌ لعبد الرحمن بن عوف قدمت من الشام تحمل كل شيء وهي سبعمئة بعير فارتجّت المدينة من صوت العير ! .. فقالت عائشة، رضي الله عنها : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « قد رأيت عبد الرحمن بن عوف يدخل الجنة حبواً » ..[4] فلما بلغ ذلك عبد الرحمن بن عوف جزِع، وخاف ﷺ أن تؤخره الأموال والثروات عن اللحاق بركب السّباقين الذين ينطلقون إلى الجنة خفافاً سراعاً .. فقال : إن استطعت لأدخلنها قائماً!،

---

(١) انظر: صحيح مسلم (ج١/٣١٨)، وطبقات ابن سعد (ج٣/١٢٩).
(٢) سورة يونس (٥٨).
(٣) انظر: مختصر تاريخ ابن عساكر (ج١٤/٣٥٤).
(٤) مسند الإمام أحمد (ج٦/٢٢٢).

فحمل العيرَ التي قدم بها جميعاً نفقة في سبيل الله بأقتابها وأحمالها !! ..[1] لقد كانت كفة الآخرة هي الكفة الراجحة دوماً في ميزان الصحابة رضوان الله عليهم .. ومن أجل تلك الآخرة كانت الدنيا تهون.

وأراد ابن عوف ﷺ أن يبرهن على وفائه وصدق محبته للرسول عليه الصلاة والسلام وأهل بيته، فكان ﷺ حريصاً كل الحرص على أمهات المؤمنين يقوم بمصالحهن ويسير في حاجاتهن .. فلما كانت السنة الثالثة عشرة للهجرة بعثه عمر بن الخطاب ﷺ أميراً على الحج .. فحج بالناس، وحجت أمهات المؤمنين معه .. فحملهن في الهوادج، وكان يسير من ورائهن على راحلته .. رضي الله تعالى عنه.[2]

ولقد وهب عبد الرحمن ﷺ أمهات المؤمنين أرضاً بيعت بأربعين ألفاً .. فقالت أم سلمة : لقد سمعت رسول الله ﷺ يقول لأزواجه : « إن الذي يحنو عليكن بعدي لهو الصادق البارّ، اللهم اسقِ عبد الرحمن بن عوف من سلسبيل الجنة » ..[3]

ولم يزل الله سبحانه وتعالى يجزيه على سخائه فيضاعف له في رزقه .. وظلّ مع ذلك متواضعاً لا يرى لنفسه الفضل على أصحابه من المسلمين الأوائل، بل كان يخشى أن يفوته شيء من أجورهم بسبب إقبال الدنيا عليه .. ولطالما ذكر الصحابيُّ الشهيد (مصعب بن عمير ﷺ) وبكى قائلاً : قُتِل مصعب بن عمير وهو خير مني كُفن في بردة إن غُطي بها رأسه بدت رجلاه، وإن غطي بها رجلاه بدا رأسه، ثم أُعطينا من الدنيا ما أعطينا، قد خشينا أن تكون حسناتنا عُجّلت لنا ..[4]

وفي العام الثاني والثلاثين للهجرة .. في خلافة عثمان ﷺ توفي عبد الرحمن بن عوف ﷺ تاركاً وراءه مالاً وثروة عظيمة لورثته .. وأوصى لأمهات المؤمنين بحديقة بيعت بأربعمئة ألف دينار، وأوصى لمن بقي من أهل بدر لكل واحد بأربعمئة دينار وكانوا مئة من البدريين،

---

(١) انظر: سير أعلام النبلاء (ج١/٧٦).

(٢) انظر: مختصر تاريخ ابن عساكر (ج١٤/٣٥٧).

(٣) مسند الإمام أحمد (ج٦/٢٩٩).

(٤) صحيح البخاري (ج١/٤٢٨).

وأوصى بخمسين ألف دينار وألف فرس في سبيل الله .. فكانت السيدة عائشة، رضي الله عنها، تدعو له : سقاه الله من ماء السلسبيل.

وصلّى عليه عثمان ﷺ .. وحمل جنازته سعد بن أبي وقاص وشيّعه فيمن شيّعه عليُّ ابن أبي طالب .. ودُفِن إلى جانب سَلَفِه الصالح عثمان بن مظعون في البقيع .. رضي الله عنهم أجمعين ..

وافتقد أهل المدينة عبد الرحمن بن عوف ﷺ فقد كان لهم بمثابة الأب الرحيم السخيّ الذي يغدق على عياله بلا حساب .. قال ابنه طلحة بن عبد الرحمن بن عوف : كان أهل المدينة عيالاً على عبد الرحمن بن عوف، ثلثٌ يقرضهم ماله، وثلث يقضي دينهم بماله، وثلث يصلهم!! ..[1]

وبذلك لقي ربه طائعاً مجاهداً منفقاً في سبيله .. ولعلّ الله قد سقاه من ماء السلسبيل فارتوى، ولا عجب .. فهو من العشرة الذين بشّرهم بالجنة الصادق الأمين ﷺ ..

رحم الله عبد الرحمن ورضي عنه ..

بطلاً في العطاء ..

وبطلاً في الثقة بأن ما عند الله خير وأبقى ..

---

(١) انظر: مختصر تاريخ ابن عساكر (ج١٤/٣٥٩).

خَبّابُ بنُ الأَرَتّ رضي الله عنه

ضعيفٌ تحدّى الأقوياء

خَبّابُ بنُ الأَرَتّ

ابن حندلة بن سعد بن خزيمة التميمي

في أيام مضيئة من تاريخ مكة المكرمة، بل في أضوأ أيام التاريخ بدأ النبي المصطفى عليه الصلاة والسلام يدعو إلى توحيد ربه سراً. كان السابقون الأولون يتسلّلون إليه ليسمعوا كلامه، وكان خبّاب بن الأرتّ ﷺ واحداً منهم، بل تروي المصادر أنه كان سادس من أسلم ! ..

ولو قُدر لك أن تعيش في مكة في ذلك العصر المبارك، وأردْتَ اقتناء سيف حاد قاطع لتجاهد به يوماً، لقصدت خبّاباً، صانع السيوف .. وصانع البطولات أيضاً ..

فليس فضله في السبق إلى الإسلام فحسب، بل في تحمّل تبعات ذلك السبق وذلك الانتساب. فخبّابٌ حين أسلم كان صادقاً في إسلامه، مخلصاً لربه، غير آبهٍ بأنه كان من الأرقّاء المستضعفين لا قوة له تحميه من عذاب أليم .. بل أظهر إسلامه معتزّاً بهذا الانتماء والنسب الشريف، مستعدّاً لكلّ صنوف العذاب .. فقد كانت مولاته (أم أنمار) سيدة شديدة البأس، شديدة الكره للإسلام، وكانت تفتنّ في تعذيبه لتصرفه عن دينه، حتى كانت تأخذ الحديدة المحمّاة بالنار فتضعها على رأسه، فلا يتراجع ﷺ ولا يلين ..

لقد كان خباب حقاً في طليعة المُعذّبين الصامدين. ولقد مرّ عليه رسول الله ﷺ يوماً فرأى ذلك العذاب فرقّ له قلبه وهو لا يقدر أن يدفع عنه .. فرفع يديه الشريفتين إلى السماء وقال : « اللهم انصر خبّاباً » ..

ومضت الأيام .. واشتكت أم أنمار رأسها، ولم يجدوا لها علاجاً سوى أن تكوي رأسها بالنار! فكان العبد خباب ﷺ يأخذ الحديدة المحماة فيكوي بها رأسها [1]، ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ ﴾ [2].

وظلّ المشركون يؤذون خباباً ﷺ لينطق بكلمة كفر تقرّ عيونهم لكنه لم يفعل؛ كانوا

---

(١) انظر: أسد الغابة (ج٢/٩٨).

(٢) سورة الزمر (٣٧).

يلصقون ظهره بالرَّضْف[1] فيذهب لحم متنه[2] وهو صامد !! ولقد حدّث خباب عمر، رضي الله عنهما، عن تلك الأيام فقال : فلقد رأيتني يوماً أحدوني وأوقدوا لي ناراً ثم سلقوني فيها ثم وضع رجل رجله على صدري فما اتّقيت برد الأرض إلّا بظهري، ثم كشف عن ظهره فإذا هو قد برص.[3]

ولما اشتدّ تعذيب قريش وبلغ من المسلمين، لا سيّما المستضعفين، كل مبلغ .. وأحسوا أن لا طاقة لهم به شكوا إلى رسول الله ﷺ، قال له خباب : ألا تستنصر لنا .. ألا تدعو لنا .. فاستمع إليه النّبي صلوات الله وسلامه عليه، وقال بحزم : « كان الرجل فيمن قبلكم يُحفر له في الأرض، فيُجعل فيه، فيجاء بالمنشار فيوضع على رأسه فيشقُّ باثنتين، وما يصدّه ذلك عن دينه، ويُمشّط بأمشاط الحديد، ما دون لحمه من عظم أو عصب، وما يصدّه ذلك عن دينه، والله لَيُتمّنَّ هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت، لا يخاف إلّا الله أو الذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون ».[4]

لقد ذكّرهم عليه الصلاة والسلام أن الإيمان سلعة الله الغالية التي لابد أن يُدفع ثمنها، وإذا كان الله قد اصطفاهم ليكونوا من السابقين الأولين، فليتحمّلوا الأذى وليصبروا، فإن الفرج آت، والأجر كبير .. والنصر قريب .. ولو بعد حين. وسمع المستضعفون مقالة نبيّهم ﷺ، ووكّلوا أمرهم إلى الله العليّ الكبير، وعادوا وهُم أكثر عزماً وتصميماً على التضحية ..

يقول خباب ﷺ : كنت رجلاً قيْناً[5] .. وكان لي على العاص بن وائل دين فأتيته أتقاضاه فقال لي : لن أقضيَك حتى تكفر بمحمّد، فقلت له : لا حتى تموت ثم تُبعث، قال : وإني لميت ثم مبعوث ؟! قلت : نعم، قال : إن لي هناك مالاً وولداً فأقضيكه ! فنزل فيه قوله تعالى : ﴿ أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ۝ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ

---

(١) الحجارة المحماة.

(٢) ظهره.

(٣) انظر: طبقات ابن سعد (ج٣/١٦٥).

(٤) صحيح البخاري (ج٣/١٣٢٢).

(٥) أي حداداً.

الرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ كَلَّا ۚ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾ وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴿٨٠﴾ ».[1]

ولقد أمضى خباب ﷺ عمره مطيعاً محبّاً لرسول الله ﷺ .. محدّثاً عنه .. متعلّماً للقرآن الكريم .. ومعلّماً .. و « خيركم من تعلّم القرآن وعلّمه »[2]، فكان ممّن اختارهم النبي ﷺ ليقرئوا الناس القرآن بمكة قبل الهجرة .. مثله مثل الأُتْرُجّة طعمها طيب وريحها طيب ..[3] وذاك مثل كل مؤمن يقرأ القرآن .. ومن بين الذين أقرأهم فاطمةُ بنت الخطاب - أختُ عمر - وزوجها. وقد باغتهما عمر في دارهما، وكان خباب معهما، فلما سمع عمر يقول بعد أن قرأ صحيفة كُتب فيها آيات من سورة طه : دلّوني على محمّد .. خرج قائلاً : أبشر يا عمر فإني أرجو أن تكون دعوة رسول الله ﷺ لك ليلة الخميس : « اللهمّ أعزّ الإسلام بعمر بن الخطاب أو بعمرو بن هشام » .. ثم دلّه على مكان الرسول ﷺ فانطلق عمر وأسلم ..[4]

ومضى خباب ﷺ في حياةٍ كلُّها جهاد حتى إنه شهد الغزوات جميعاً .. وكان إلى جانب إقدامه وفدائه تقيّاً نقيّاً شديد التواضع .. فكان أصحاب رسول الله يجتمعون في المسجد فإذا أقبل عليهم خباب قالوا له : إن أصحابك قد اجتمعوا إليك لتحدّثهم أو لتأمرهم، فيقول : بمَ آمرهم ؟ ولعلّي آمرهم بما لست فاعلاً !![5]

وعاش خباب ﷺ حياة طويلة مليئة بالصبر والجهاد، والخلق السامي النبيل .. فلما أدرك خلافة علي ﷺ وكان قد بلغ من العمر ثلاثاً وسبعين سنة، مرض مرضاً شديداً وجاء أصحابه يعودونه ويودّعونه في آخر لحظاته .. فقالوا له : أبشر أبا عبد الله تَرِدُ على إخوانك الحوض، فبكى، وهو يقلّب صفحات عمره، ويذكر كيف استشهد مصعب وما له من كفن.. ويذكر التمثيل بجسد حمزة .. وصلب خبيب على الخشب .. وطعن عمر في المسجد وهو

---

(١) صحيح البخاري (ج٤/١٣٦١)، والآيات من سورة مريم (٧٧-٨٠).
(٢) صحيح البخاري (ج٤/١٩١٩).
(٣) صحيح البخاري (ج٥/٢٠٧٠).
(٤) انظر خبر إسلام عمر ﷺ في طبقات ابن سعد (ج٣/٢٦٧-٢٦٩).
(٥) انظر: أسد الغابة (ج٢/٩٩).

يصلّي .. ومرابطة بلال على ثغور الشام .. وكثيراً من بلاء الأحباب الذين سبقوه، فقال : إنكم ذكرتم لي إخواناً مضوا و لم ينالوا من أجورهم شيئاً، وإنّا بقينا بعدهم حتى نلنا من الدنيا ما نخاف أن يكون ثواباً لتلك الأعمال ..[1]

ظلّ خباب ﷺ إذن يحاسب نفسه حتى آخر أنفاسه، وهو على فراش الموت، من أجل مال قليل .. وبيت صغير .. يخشى أن يذهب ذلك بثواب صبره واحتماله وجهاده !! .. فكان ﷺ يقول : ولقد رأيتني مع رسول الله ﷺ ما أملك ديناراً ولا درهماً، وإن في ناحية بيتي في تابوتي لأربعين ألف وافٍ[2]، ولقد خشيت أن تكون قد عُجلت لنا طيباتنا في حياتنا الدنيا.[3]

ومات خباب ﷺ، فكان أول من دُفن بظاهر الكوفة من الصحابة عام سبعة وثلاثين .. وندّع كلمات العزاء والرثاء لعليّ بن أبي طالب ﷺ فهو أحدر وأقدر وأعلم بالرجال .. فأنصتَ إليه وهو يرفع يديه يقول : رحم الله خباباً، لقد أسلم راغباً، وهاجر طائعاً، وعاش مجاهداً، وابتُلي في جسمه أحوالاً، ولن يضيّع الله أجر مَنْ أحسن عملاً .. وانظر إليه يدنو من القبر ويقول : السلام عليكم يا أهل الديار من المومنين والمسلمين أنتم لنا سلف فارط، ونحن لكم تبع عمّا قليل لاحِق، اللهم اغفر لنا ولهم، وتجاوز عنا وعنهم، طوبى لمن أراد المعاد وعمل الحسنات وقنع بالكفاف ورضي عن الله عز وجل.[4]

وهلمّ نحفظ هذه الكلمات البليغة لعلّنا نزور الكوفة وقبر خباب فيها يوماً .. فنردّدها عند قبره المبارك .. رضي الله عنه وأرضاه.

---

(١) انظر: أسد الغابة (ج٢/٩٩).

(٢) درهمٌ وافٍ: أي درهم يزن مثقالاً.

(٣) انظر: طبقات ابن سعد (ج٣/١٦٦) .

(٤) مجمع الزوائد (ج٩/٢٩٩).

عبدُ اللهِ بنُ مَسعود رضي الله عنه

«إنك غُلام مُعلَّم»

(مِن ثنائه عليه ﷺ)

عبدُ اللهِ بنُ مسعود

ابن غافل بن حبيب بن شمخ بن فار بن مخزوم الهُذَليّ

هل لك برجل شديد الحب .. شديد القرب من رسول الله ﷺ ..

رجل إذا حُجِب الناس عن رسول الله أُذن له .. وإذا غاب الناس عن أحداث بيت النبوة كان هو هناك ..

رجل رفع له رسولُ الله ﷺ الحجاب، وأطلعه على سرّه ونجواه، وأذن له أن يدخل عليه متى أراد لا يغلق دونه باب [1]، حتى صار يظنّه الناس واحداً من أهل بيت النبي ﷺ .. رجل بشره النبي ﷺ بالجنة، وشهد له بأنه يقرأ القرآن كما أنزل من السماء ؟.

ذلك هو عبد الله بن مسعود ﷺ .. رجلٌ نحيل الجسم، قصير القامة، شديد الأُدمة، دقيق الساقين، ضعيف البنية ..[2] هو من قبيلة هذيل [3]، لكنه سكن مكة .. كنّاه رسول الله ﷺ « أبا عبد الرحمن » ..[4] كان ﷺ من أجود الناس ثوباً وأطيبهم ريحاً، يُعرف بالليل من ريح الطيب .. رفعه علمه بالقرآن وحبه له ليكون من أذكياء العلماء وفقهائهم.

كان إسلام عبد الله بن مسعود مبكراً .. فكان ﷺ من السابقين الأولين. ويروي ابن مسعود قصة إسلامه ولقائه بالخير والمعجزات فيقول : كنت أرعى غنماً لعُقْبَة بن أبي مُعَيْط فمرّ بي رسول الله ﷺ وأبو بكر، فقال : « يا غلام ! هل من لبن ؟ »، قلت: نعم، ولكني مؤتمن، قال : « فهل من شاة لم يَنْزُ عليها الفحل ؟ »، فأتيته بشاة فمسح ضرعها فنزل لبن، فحلب في إناء، فشرب وسقى أبا بكر، ثم قال للضرع : « اقلص »، فقلص.[5]

ثم أتى عبد الله إلى النبي ﷺ فقال له : يا رسول الله ! علمني من هذا الكلام، أو من

---

(١) انظر: أسد الغابة (ج٣/٢٥٧)، وطبقات ابن سعد (ج٣/١٥٤-١٦٠).
(٢) سير أعلام النبلاء (ج١/٤٦٢).
(٣) طبقات ابن سعد (ج٣/١٥٠).
(٤) مسند الإمام أحمد (ج١/٣٧٩).
(٥) سير أعلام النبلاء (ج١/٤٦٥).

هذا القرآن، فمسح رأسه وقال : « إنك غُلام مُعلّم ».[1]

كان هذا هو اللقاء الأول بين خاتم المرسلين عليه الصلاة والسلام وبين هذا الغلام الأمين .. ولربما كان ابن مسعود ﷺ قد سمع عن دعوة محمّد بن عبد الله ﷺ قبل ذلك، ولكنه اليوم رأى عجباً، وشهد بركة النبوة للمرة الأولى .. أما النبي عليه الصلاة والسلام فقد رأى في هذا الفتى فطرة الله .. رأى أمانة العلماء وورعهم، وصدق المؤمنين وأدبهم .. فرآه جديراً أن يرفع له الحجاب.

ومنذ ذلك اللقاء فُتحت أبواب الخير أمام ابن مسعود ﷺ على مصراعيها .. ولم يلبث ﷺ أن تفرّغ لصحبة رسول الله وخدمته، فكان يلازمه عليه الصلاة والسلام ولا يكاد يغيب، فيشهد تنزّل الوحي الأمين، ويتلقى الآيات الكريمات من فِي رسول الله عليه الصلاة والسلام .. ثم يدفع ثمن هذه الصحبة المباركة ما يلقاه من عذاب قريش وويلاتها.

لكن ابن مسعود ﷺ كان بالحقّ مؤمناً وبالنصر واثقاً، وكان إيمانه واضحاً كوضوح ما رأى بعينه وقلبه من بركة المصطفى ﷺ، حتى هانت أمامه الصعاب .. وأورثه ذلك الإيمان تحدّياً عجيباً لا يساوي جسمه الضئيل، ففي اللحظة التي سمع فيها بعضَ الصحابة يقولون : والله ما سمعت قريش هذا القرآن يجهر لها به، فمن رجل يسمعهم ؟، هبّ ابن مسعود واقفاً وقال : أنا !.. وانطلق ﷺ إلى قريش وهي في أنديتها حول الكعبة المشرفة فوقف عند المقام .. وراح يتلو بصوت مرتفع ما تيسّر له من سورة الرحمن .. فكان ﷺ أول من جهر بالقرآن، ودُهش القوم وراحوا يتساءلون : ماذا يقول ابن أم عبد ؟!! إنه ليتلو بعض ما جاء به محمّد !! لقد غاظهم أشدَّ الغيظ أن يَصدر هذا التحدي السافر عن هذا الفتى الفقير الضعيف، فقاموا إليه يضربون وجهه وهو يقرأ ولا يبالي، حتى بلغ من السورة ما شاء الله أن يبلغ !

وعاد إلى أصحابه، وقد أثّر الضرب في وجهه، فقالوا : هذا الذي خشينا عليك، فأجاب بهدوء وثقة : ما كان أعداء الله قطّ أهون علي منهم الآن، ولئن شئتم غاديتهم بمثلها غداً ! فقال له الصحابة : حسبك لقد أسمعتهم ما يكرهون.[2]

---

(١) انظر: أسد الغابة (ج٣/٢٥٦).

(٢) انظر: أسد الغابة (ج٣/٢٥٧).

وبقي ابن مسعود مع المؤمنين في مكة، يصبر معهم على الأذى إلى أن أشار النبي عليه الصلاة والسلام بالهجرة إلى الحبشة، فهاجر إلى الحبشة الهجرة الأولى والثانية ..[1]

ولمّا اجتمع شمل الصحابة في المدينة المنورة كان ابن مسعود ﷺ مع الرسول ﷺ في الحلّ والترحال .. وقد آخى عليه الصلاة والسلام بينه وبين معاذ بن جبل، رضي الله عنهما ..[2] حتى إذا نادى منادي الجهاد، كان ابن مسعود مع نبيه ﷺ يشهد المشاهد والغزوات كلها ..

وكان نصيبه من الشجاعة والإقدام عظيماً .. ففي بدر كان ابن مسعود ﷺ ممّن ساهم في قتل أبي جهل، وأعطاه رسول الله ﷺ يومئذٍ سيفه.[3] ويوم أُحُد ثبت يدافع ويقاتل دون رسول الله عليه الصلاة والسلام حين فرّ الناس ..[4]

وكيف يبتعد عن نبيه الحبيب صلوات الله وسلامه عليه، وهو صاحب الأسرار والأنوار .. وقد كان الصحابة يسمّون ابن مسعود ﷺ صاحب السِّواد[5] .. فكان لا يغيب عنه ﷺ، يتولّى أدقّ شؤونه وأخصّها .. فيُعِدّ له طهوره وسواكهُ، ويحمل له نعليه، ويمشي أمامه، ويدخل حجرته قبله وعصاه بيده ..[6] كان بصحبته كلّما أقبل ليل وغاب نهار .. حتى كان يقول عن نفسه : كنت لا أُحبَس عن النّحوى. وذات يوم فتح له رسول الله ﷺ باب السؤال وقال له : « سل تُعطه » .. فماذا اختار ﷺ ؟ قال ابن مسعود : اللهم إني أسألك إيماناً لا يرتدّ، ونعيماً لا ينفد، ومرافقة نبيك في جنة الخلد.[7]

وقد اعترف الصحابة بفضل ابن مسعود ﷺ وكانوا يشهدون له بالمنزلة عند رسول الله عليه الصلاة والسلام .. فهذا حذيفة بن اليمان ﷺ قال : كان أقرب الناس برسول الله هدْياً وسمْتاً ودلّاً عبد الله بن مسعود حتى يتوارى منّا في بيته .. ولقد علم المحفوظون[8] من أصحاب

---

(١) انظر: أسد الغابة (ج٣/٢٥٧).
(٢) انظر: طبقات ابن سعد (ج٣/١٥١-١٥٢).
(٣) انظر: الاستيعاب في معرفة الأصحاب (ج٣/٩٩٠-٩٩١).
(٤) انظر: سير أعلام النبلاء (ج١/٤٦٧).
(٥) أي صاحب السر (الستار والعادلة).
(٦) انظر: سير أعلام النبلاء (ج١/٤٦٨-٤٦٩).
(٧) مسند الإمام أحمد(ج١/٤٤٥).
(٨) المحفوظون من الصحابة: هم الذين حفظهم الله تعالى من تحريف في قول أو فعل.

محمد ﷺ أن ابن أم عبد من أقربهم إلى الله زلفى.[1]

ولعلّ أعظم ما امتاز به عند الرسول ﷺ، ورفع شأنه بين الصحابة الكرام حاله مع القرآن. فهذا رسول الله يستمع لقراءته فيتأثر صلوات الله وسلامه عليه .. يقول ابن مسعود ﷺ : استقرأني النبي ﷺ وهو قائم على المنبر سورة النساء .. قلت : يا رسول الله أقرأ وعليك أنزل؟! قال : « إني أشتهي أن أسمع من غيري »، فقرأت حتى بلغت : ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴾[2] .. فاغرورقت عينا النبي ﷺ ..[3]

وفي حق ابن مسعود قال عليه الصلاة والسلام : « من سرّه أن يقرأ القرآن رطباً كما أُنزل، فليقرأه على قراءة ابن أمّ عبد »[4] .. فأي كرامة تلك لابن مسعود ﷺ ؟! ..

وقد روى ﷺ أيضاً أنه أخذ من فِي الرسول ﷺ سبعين سورة لا ينازعه فيها أحد ..[5] وكان يقول : والله الذي لا إله غيره، ما أُنزلت سورة من كتاب الله إلّا أنا أعلم أين أنزلت، ولا أنزلت آية من كتاب الله وإلّا وأنا أعلم فيما أنزلت، ولو أعلم أحداً أعلم منّي بكتاب الله تبلغه الإبل لركبت إليه.[6]

ومع إجلال الصحابة لعلم ابن مسعود ﷺ ومعرفتهم بقدره، ضحكوا مرّة من ضعف بنيته ودقّة ساقيه حين أمره النبي ﷺ أن يصعد شجرة فيأتيه بشيء منها، فنظر أصحابه إلى حموشة ساقيه فضحكوا .. فقال النبي ﷺ : « ما تضحكون ؟ لَرِجل عبد الله يوم القيامة في الميزان أثقل من أُحُد ».[7]

ذلك أنه ميزان مليك العدل الديّان، لا ينزل في كفتيه إلّا الأعمال والنيات .. ولا تثقّله

---

(١) انظر: صفة الصفوة (ج١/١٥٦).

(٢) سورة النساء (٤١).

(٣) انظر: صحيح مسلم (ج١/٥٥١).

(٤) مجمع الزوائد (ج٩/٢٨٧).

(٥) انظر: صحيح البخاري (ج٤/١٩١٢).

(٦) صحيح البخاري (ج٤/١٩١٢).

(٧) انظر: طبقات ابن سعد (ج٣/١٥٥).

مظاهر الدنيا وصورها ما لم يرافقها دين وعمل واتباع وتصديق ..

وتتالت سنوات الصحبة المباركة، وظل عبد الله الصحابي المُقرّب .. يشهد إذا غاب الناس، ويُؤذن له إذا مُنع الناس، واقترب عصر النبوة من نهايته .. وفي الأيام الأخيرة كان عبد الله ﷺ إلى جانب الحبيب المصطفى ﷺ وهو يعاني من الحمّى ويوعك وعكاً شديداً، فقال له يوماً متأثر بالغ : إنك لتوعك وعكاً شديداً، إن ذاك بأن لك أجرين ؟، فقال عليه الصلاة والسلام : « أجل، وما من مسلم يصيبه أذى إلّا حاتّ الله عنه خطاياه كما تحاتّ ورق الشجر ».[1]

وتوفي النبي الأعظم ﷺ .. ولوّع فراقه الصحابة أجمعين .. حتى من رآه مرة واحدة، فكيف بمن لزمه فلم يفارقه إلّا قليلاً .. ولكن عزاء ابن مسعود ﷺ كان رضا النبي وشهادته له عليه الصلاة والسلام .. وبحسبه قول النبي عليه الصلاة والسلام عنه : « وتمسّكوا بعهد ابن أمّ عبد ».[2] وقوله ﷺ : « رضيت لأمتي ما رضي لها ابن أمّ عبد، وكرهت لأمتي ما كره لها ابن أمّ عبد ».[3]

كانت أقوال النبي ﷺ فيه وساماً على صدره ﷺ .. وكذلك كان الصحابة يعرفون بمنزلته في رحاب كتاب الله وفي ميادين العلم والفقه. فكان أبو موسى الأشعري ﷺ يقول : لا تسألوني عن شيء ما دام هذا الحَبر فيكم.[4]

وظلّ ﷺ في المدينة بعد وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام يفقّه الناس ويعلّم القرآن.

وبرغم مكانته وفضله، وشهادة رسول الله ﷺ فيه ظلّ ﷺ شديد الخوف من خالقه، يغذّي ذلك الخوف ورعه وتقاه .. فكان يقول : وددت لو أني إذا متّ لم أبعث .. ويقول أيضاً : وددت لو أن الله غفر لي ذنباً من ذنوبي وأنه لا يُعرف نسبي.[5]

---

(١) صحيح البخاري (ج٥/٢١٣٨).

(٢) انظر: الاستيعاب في معرفة الأصحاب (ج٣/٩٨٩).

(٣) مجمع الزوائد (ج٩/٢٩٠).

(٤) صفة الصفوة (ج١/١٥٨).

(٥) انظر: صفة الصفوة (ج١/١٥٩-١٦٠).

ولابن مسعود ﷺ أقوال كثيرة تشهد على خوفه من مولاه .. وأنه كان دائماً بين الرجاء والخوف يتحرّى نفحات القبول والغفران في الأسحار، فيقف بين يدي الله تعالى ويدعو : اللهم دعوتني فأجبتك، وأمرتني فأطعتك، وهذا سَحَر فاغفر لي.(١)

هكذا كان ﷺ شديد المحاسبة واللوم لنفسه، يرى ذنبه وتقصيره .. فكان إذا رأى إقبال الناس عليه وإكبارهم له يقول: لو تعلمون ما أعلم من نفسي حثيتم على رأسي التراب.(٢) ذلك شأن المؤمن يعظم في عينه ذنبه وإن كان صغيراً.

وعلى مثل هذا الورع والمحاسبة للنفس كان يروي الأحاديث عن رسول الله ﷺ خشية أن يزيد في روايته أو ينقص، حتى روي أنه لم يقل (قال رسول الله ﷺ) إلّا مرّة واحدة .. يقول عمرو بن ميمون : فعلاه الكرب حتى رأيت العرق يتحدر من جبهته، ثم قال : إن شاء الله تعالى، إما فوق ذلك، وإما قريب من ذلك !.(٣)

كان ﷺ يُؤْثِر العمل على الكلام .. وكان يوصي من حوله بقول النبيّ ﷺ : ليسعك بيتك، واكفف لسانك، وابك على ذكر خطيئتك.(٤)

وقد ولّاه عمر بن الخطاب ﷺ في خلافته وزيراً على الكوفة لما رأى من تواضعه وورعه وما أوتيه من علم وقرآن، وكتب إلى أهلها إني قد بعثت عمار بن ياسر أميراً، وعبد الله بن مسعود معلّماً ووزيراً، وهما من النجباء من أصحاب رسول الله ﷺ من أهل بدر، فاقتدوا بهما، وأطيعوا واسمعوا قولهما، وقد آثرتكم بعبد الله على نفسي.(٥)

وإذا سمعت هذه القصة علمت لماذا كان الفاروق يتمنّى أن يكون عبد الله قريباً منه يحمل معه شيئاً من أعباء الخلافة، ولماذا آثر به العباد والبلاد على نفسه؛ ذُكر أن عمر بن الخطاب ﷺ لقي ركباً في سفر له، فيهم عبد الله بن مسعود ﷺ فأمر عمرُ رجلاً يناديهم : من

---

(١) انظر: صفة الصفوة (ج١/١٥٩).
(٢) انظر: صفة الصفوة (ج١/١٦٠).
(٣) انظر: صفة الصفوة (ج١/١٥٩).
(٤) انظر: صفة الصفوة (ج١/١٦٦).
(٥) انظر: أسد الغابة (ج٣/٢٥٨-٢٥٩).

أين القوم ؟ فأجابه عبد الله : أقبلنا من الفج العميق، فقال عمر : أين تريدون ؟ قال عبد الله : البيت العتيق، قال عمر : إن فيهم عالماً. وأمر عمر ﷺ رجلاً فناداهم : أي القرآن أعظم ؟ فأجابه عبد الله ﷺ : ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ ...﴾ [1] حتى ختم الآية. قال : نادهم ! أي القرآن أحكم ؟ قال ابن مسعود: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ...﴾ [2] الآية .. قال عمر : نادهم ! أي القرآن أجمع ؟ فقال ابن مسعود : ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝ ﴾[3]. قال عمر: نادهم ! أي القرآن أخوف ؟ قال ابن مسعود : ﴿ لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِىِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ ...﴾ [4] الآية .. فقال عمر : نادهم ! أي القرآن أرجى؟ فقال ابن مسعود : ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ ﴾ [5]، قال عمر : نادهم ! أفيكم ابن مسعود ؟ قال : اللهم نعم.[6]

فلما كانت خلافة عثمان بن عفان ﷺ، مرض ابن مسعود ﷺ فعاده عثمان وسأله : ما تشتكي ؟ قال : ذنوبي، قال : فما تشتهي ؟ قال : رحمة ربي. قال : ألا آمر لك بطبيب ؟ قال : الطبيب أمرضني، قال : ألا آمر لك بعطاء ؟ قال : لا حاجة لي فيه، قال : يكون لبناتك، قال : أتخشى على بناتي الفقر ؟ إني أمرت بناتي أن يقرأن كل ليلة سورة الواقعة. إني سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من قرأ الواقعة كلّ ليلة لم تُصبه فاقة أبداً ».[7]

ذلك فضل الاسترشاد بتوجيه المصطفى عليه الصلاة والسلام .. فابن مسعود ﷺ لا يخشى على بناته فقراً، لقد ترك لهن كنزاً لا ينقطع عطاؤه ما دمن متّبعات لهديه ﷺ ..

وتتوالى الشهادات بالخير والرؤى المبشرة لعبد الله بن مسعود ﷺ فقد جاء قوم علياً ﷺ

---

(١) سورة البقرة (٢٥٥).
(٢) سورة النحل (٩٠).
(٣) سورة الزلزلة (٧-٨).
(٤) سورة النساء (١٢٣).
(٥) سورة الزمر (٥٣).
(٦) انظر: صفة الصفوة (ج١/١٥٧).
(٧) انظر: أسد الغابة (ج٣/٢٥٩-٢٦٠)، وتفسير ابن كثير (ج٣/٤٢٧).

زمن خلافته فقالوا : يا أمير المؤمنين ما رأينا رجلاً كان أحسن خُلقاً، ولا أرفق تعليماً، ولا أحسن مجالسة، ولا أشد ورعاً، من عبد الله بن مسعود..

قال علي ﷺ : نشدتكم الله إنه لصدق من قلوبكم ؟ قالوا : نعم. فقال : اللهم إني أشهدك .. اللهم إني أقول فيه مثل ما قالوا أو أفضل: قرأ القرآن فأحلّ حلاله وحرّم حرامه .. فقيه في الدين عالم بالسنة.[1]

وذات يوم أتى ابنَ مسعود رجل فقال له : لقد رأيتك البارحة، ورأيت النبي ﷺ على منبر مرتفع وأنت دونه وهو يقول : يا ابن مسعود ! هلم إليّ فلقد جفيت بعدي. قال : آللهِ لأنت رأيت هذا ؟ قال : نعم. وفهم ابن مسعود أنه نعيه، وأنه سيلحق بالنبي ﷺ عما قريب ..[2] وما لبث أياماً حتى انتقل إلى رحمة ربه، ونعاه الصحابة، وقال أبو الدرداء ﷺ : ما ترك بعده مثله. وفي البقيع، دفن صاحب السّواد مع الصحابة الأطهار سنة اثنتين وثلاثين وله من العمر بضع وستون سنة ..[3]

مضى عبد الله بن مسعود ﷺ إلى ربه راضياً مرضياً، وبقي ذكره يعطّر الكلام كلّما ذُكر أصحاب النبي المصطفى عليه الصلاة والسلام .. فقد كان نصيبه من الحبّ والأدب عظيماً، وبهما حاز شرف الصحبة والقرب من رسول الله ﷺ حتى صار كأنه من أهله وإن لم تجمعه به صلة الأرحام.

فلا يزال المؤمن يذكره كلما ذكر أهل البيت .. ولا يزال يذكره كلما تلا سورة الرحمن، فيذكر أن هناك رجالاً دفعوا أثماناً غالية في سبيل أن نقرأ القرآن في أمن وأمان ..

وكلما ذُكِرَت العهود .. رأى المؤمن واجباً عليه أن يتمسّك بعهد عبد الله بن مسعود ﷺ كما وصّى عليه أفضل الصلاة والسلام، لما قال : « تمسّكوا بعهد ابن أمّ عبد » ..

إنه عهد الإسلام .. عهد الحقّ والصدق والخير في كلّ زمان ومكان ..

---

(١) انظر: طبقات ابن سعد (ج٣/١٥٦).

(٢) انظر: أسد الغابة (ج٣/٢٥٩).

(٣) انظر: أسد الغابة (ج٣/٢٦٠).

بلالُ بنُ رَبَـاح رضي الله عنه

مؤذنُ الرسول ﷺ

بلال بن رباح الحبشيّ

لو قدّر الله لك أن تسير في شوارع دمشق القديمة .. فمضيت إلى تلك الحارة المرصوفة بالأحجار عند مقبرة (باب الصغير) حيث القبابُ الخضر المتناثرة التي تزيد المكان مهابة وسكينة، فاسأل القائمين على ذلك المكان .. أين مثوى بلال الحبشي ؟ ..

ولن يعترضك شيء وأنت في طريقك إليه سوى ممرٌ قصير حداً يأخذك إلى غرفة متواضعة هيبتها من هيبة ساكنها، تهبط إليها بدرجتين ثم تدخل فترى قبراً مغطى بقطيفة خضراء وسوداء .. هنالك تجدك مطأطئاً خشوعاً .. تذرف العبرات وتقول :

السلام عليك يا صاحب رسول الله .. السلام عليك يا صاحب نبي الله .. السلام عليك يا مؤذّن رسول الله .. هناك إذَنْ يرقد سيدنا بلال ﷺ .. بلال .. الصحابي الجليل القادم من الحبشة، بل « سابِقُ الحَبَشَة »[1] كما قال النبي عليه الصلاة والسلام .. ومن هناك جلب حلته السوداء وقلبه الأبيض المستنير.

نذكره في مكة .. وفي صحرائها الحارّة وعلى رمالها المحرقة حيث كان يُعذّب. ونذكره في المدينة .. فلطالما أراح النبي وصحبه بندائه للصلاة، استجابة لأمر النبي الحبيب ﷺ : « يا بلال أقم الصلاة أرِحْنا بها »[2]. ونذكره في الشام .. نذكر رباطه على ثغورها، مجاهداً في سبيل الله يحرسها حتى أكرم الله دمشق بضم جسده الطاهر.

نذكره في أرجاء العالم الإسلامي الكبير.. بل فوق كل أرض يصدح فيها نداء (الله أكبر) ..

ودعونا ننطلق من البداية، في مكة المكرمة التي شهدت لحظة إسلام بلال ثم عذابه ..

كان بلال ﷺ عبداً أسود فقيراً مملوكاً لبعض بني جُمَح .. وحين بعث الله رسوله الكريم ﷺ أخذ صوتُ هديه المبارك يسري إلى القلوب .. فسارع بلال ﷺ وانضم إلى الثلّة

---

(١) طبقات ابن سعد (ج٣/٢٣٢).

(٢) سنن أبي داود (ج٥/٢٦٢).

القليلة المباركة التي آمنت مع رسول الله ﷺ .. فحظي عنده بمنزلة عظيمة لا تقلّ أبداً عمن سواه من الأسياد الأحرار.

هذا هو الإسلام الذي لم يجعل فضلاً لعربي على أعجمي إلّا بالتقوى .. هذا هو الدين الذي ضمّ تحت لوائه كل الطاقات والنماذج البشرية .. فَتَحْتَ راية الإسلام العالية وقف السادة من قريش ومن الأوس والخزرج .. أعرقهم نسباً وأكثرهم مالاً .. وعلى صعيد واحد وقف معهم العبيد الذين حرّرهم الإسلام، أفقر الناس حالاً وأدناهم حسباً ونسباً .. فالإسلام دين العالم أجمعين .. دين يُفضّل التقي غنياً كان أم فقيراً .. سيّداً كان أم عبداً.

وفي سبيل هذا الدين العظيم الذي يحمل أسرار سعادة البشريّة هانت على بلال ﷺ نفسه ورضيَ بهوانه على سادته من قريش، ومضى يحتمل كل مهانة وأذى. فقد دفعوه إلى الوُلدان فجعلوا يجرّونه بحبل ربطوه في عنقه، ويطوفون به في شعاب مكة، ويرمونه بالحجارة وهو يقول: أحدٌ أحدٌ ..

وكان سيّده أميّة بن خلف يُخرِجه إذا حميت الظهيرة، فيطرحه على ظهره فوق الرمال الملتهبة، ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره ويقول له : لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمّد وتعبد اللات والعزّى .. فيقول بلال : أحد أحد .. لا يحسن غيرها ! .[1]

وشاء الله تعالى أن يمرّ به أبو بكر ﷺ يوماً وهم يصنعون ذلك فقال لأميّة : ألا تتقي الله في هذا المسكين ؟ حتى متى ؟ قال : أنت الذي أفسَدته فأنقِذه مما ترى ..[2] فقال أبو بكر ﷺ : أفعلُ، عندي غلام أسود أجلد منه، وأقوى على دينك، أعطيكه به، قال : قد قبلت هو لك، فأعطاه أبو بكر ﷺ غلامه ذاك وأخذ بلالاً فأعتقه .. وقيل إن أبا بكر اشتراه بسبع أواق وهو مدفون بالحجارة يعذّب تحتها فأعتقه [3]، لذا كان عمر ﷺ يقول : أبو بكر سيدُنا وأعتق سيدَنا .. [4]

---

(١) انظر: سيرة ابن هشام (مج١/٣١٧-٣١٨)، وطبقات ابن سعد (ج٣/٢٣٢).

(٢) لأن بلالاً أسلم على يد أبي بكر.

(٣) انظر: سيرة ابن هشام (مج١/٣١٨)، وطبقات ابن سعد (ج٣/٢٣٢).

(٤) صحيح البخاري (ج٣/٣٥٤٤).

حقاً لقد أدّى الصحابة ثمن الإيمان غالياً جداً، وتحمّلوا من المشاق والصعاب ما لا يعلمه إلّا الله في سبيل أن تشرق شمس الإسلام .. ثمناً لم نؤدّه نحن أبداً .. فمن منّا أُلبس درعاً من حديد وطُرِح على الرمضاء .. وجُعِلت فوقه صخرة وهو يستعذب دين محمّد ﷺ .. يُردّد شهادة الوحدانية لا يفقه غيرها ؟! ..

لقد كان صبر الصحابة الكرام وحده نصراً للإسلام .. فكانوا بذلك الأسوة الحسنة لكل الأجيال التالية .. والقدوة المتألقة التي قال فيها النبي عليه الصلاة والسلام : « النجوم أمان لأهل السماء وأصحابي أمان لأمتي ».[1]

ومرّت السنوات وبلال ﷺ ينعم بصحبة النبي عليه الصلاة والسلام، بعد أن حرّره الصدّيق أبو بكر ﷺ .. وحان موعد الهجرة المبـــاركة إلى المدينة .. وخرج المهاجرون، تاركين الوطن والأهل والمال .. وكان بلال معهم.

وفي المدينة أصابت الحمّى معظم الصحابة رضوان الله عليهم .. تقول السيدة عائشة، رضي الله عنها : لما قدم رسول الله ﷺ المدينة قدمها وقد أصاب أصحابه بلاء وسقم، فكان أبو بكر وبلال، رضي الله عنهما، في بيت واحد، وقد أصابتهم الحمّى، فدخلتُ عليهم أعودهم وذلك قبل أن يضرب الحجاب، وبهم ما لا يعلمه إلّا الله من شدّة الوعك فدنوت من أبي بكر فقلت له : كيف تجدك يا أبت ؟ فقال :

كلّ امرئ مصبّح في أهله ... والموت أدنى من شراك نعله

فقلت : والله ما يدري أبي ما يقول، ثم دنوت إلى بلال وهو مضطجع بفناء البيت يردّد:

ألا ليت شعري هل أبيتن ليـلة ... بفجّ [2] وحولي إذْخر وجَليل

وهل أرِدَنْ يومـاً مياه مَجَنّـة[3] ... وهل يَبْدُوَنْ لي شامةٌ وطفيل [4]

فذكَرْتُ لرسول الله ﷺ ما سمعت منهم، فقلت : إنهم ليهذون وما يعقلون من شدة

---

(١) مجمع الزوائد (ج١٠/١٧).

(٢) فج : وادٍ بمكة.

(٣) سوق للعرب كان في الجاهلية بمرّ الظهران.

(٤) شامة وطفيل : جبلان في مكة.

الحمّى .. فرفع النبي ﷺ يديه الشريفتين داعياً : « اللهمّ حبّب إلينا المدينة كحبّنا مكّة أو أشدّ، اللهمّ بارك لنا في صاعنا وفي مُدّنا، وصحّحها لنا، وانقل حُمّاها إلى الجحفة ».(١)

واستجاب الله الدعاء .. فلم يلبث الصحابة أن شُفوا وهبّوا بهمة وعزيمة يبنون دولة الإسلام الأولى وبرز بلال ﷺ في ذلك المجتمع الجديد، وكانت له مهمات اختصه بها الله جلّ وعلا..

ذلك أن الناس كانوا إذا حضرت الصلاة اجتمعوا لها بغير دعوة فأهمّ ذلك رسول الله ﷺ .. فتشاور مع أصحابه .. فذكروا له بوق يهود يُنادى به للصلاة .. فقال ﷺ : « هو من أمر اليهود »، فذُكر له الناقوس الذي يدعو به النصارى لصلاتهم .. فقال : « هو من أمر النصارى »، فقالوا : لو رفعنا ناراً فإذا رآها الناس أقبلوا إلى الصلاة .. فقال ﷺ : « ذلك للمجوس »، فقال عمر ﷺ : أولا تبعثون رجلاً ينادي بالصلاة ؟ فقال رسول الله ﷺ : « يا بلال قم فناد بالصلاة »، فكانت الصلاة إذا حضرت سعى بلال ﷺ في الطريق فنادى : (الصلاةَ .. الصلاة)، فاشتد ذلك على الناس .. حتى رأى عبد الله بن زيد ﷺ الأذان في منامه.. فغدا على رسول الله ﷺ فقال له : يا رسول الله، إنه طاف بي هذه الليلة طائف، مرّ بي رجل عليه ثوبان أخضران، يحمل ناقوساً في يده، فقلت له : يا عبد الله، أتبيع هذا الناقوس؟ قال: وما تصنع به ؟ فقلت : ندعو به إلى الصلاة، قال : أفلا أدلّك على خير من ذلك ؟ قلت: وما هو ؟ قال: تقول: الله أكبر الله أكبر، الله أكبر الله أكبر، أشهد أن لا إله إلّا الله أشهد أن لا إله إلّا الله، أشهد أن محمّداً رسول الله أشهد أن محمّداً رسول الله، حيّ على الصلاة حيّ على الصلاة، حيّ على الفلاح حيّ على الفلاح، الله أكبر الله أكبر، لا إله إلّا الله.. فقال ﷺ : « إنها لرؤيا حقّ إن شاء الله، فقم مع بلال فألقِها عليه، فليؤذّن بها، فإنه أندى صوتاً منك ».(٢)

بلال ﷺ إذن بصوته الندي أجدر من يتسلم مهمة الدعوة إلى لقاء الله في الصلاة،

---

(١) صحيح البخاري (ج٢/٦٦٧). دعا عليه الصلاة والسلام أن ينتقل المرض الذي كان مستوطناً في المدينة إلى منطقة الجحفة.

(٢) انظر: سيرة ابن هشام (مج١/٥٠٨-٥٠٩).

فطالما ردّد لفظ التوحيد : أحد أحد .. هناك في البداية المحرقة على رمال مكة المحرقة ..

ومنذ أوكل النبي ﷺ إليه تلك المهمة المباركة صار أول إعلاميّ صدح بشعارات هذا الدين في دولة الإسلام .. ولا يزال يطلق اسم (بلال) في شرق آسيا على المؤذّن حتى يومنا هذا !!

ولما سمع عمر بن الخطاب ﷺ أذان بلال وهو في بيته خرج إلى رسول الله ﷺ يجرّ رداءه ويقول : يا نبي الله والذي بعثك بالحق لقد رأيت مثل ما رأى، فقال ﷺ : « فلله الحمد على ذلك ».(١)

ومنذ تسلم بلالٌ ﷺ مهمته الجديدة في دولة الإسلام صار يلازم النبي ﷺ فكان حارسه على بيت ماله، ومسؤولاً عن إكرام ضيوف النبي ﷺ في المسجد .. وتوزيع الأموال التي يأمر بها ﷺ إلى أصحابه .. ومرّة وكّله رسول الله ﷺ أن يوزّع مالاً ثم قال له : « أفَضَلَ شيء ؟ »، قال بلال : نعم ديناران، فقال ﷺ : « انظر تريحني منهما، فلست بداخل على أحد من أهلي حتى تريحني منهما »، فلم يأته أحد، فبات في المسجد حتى إذا كان آخر النهار جاء راكبان، فانطلق بهما فكساهما وأطعمهما حتى إذا صلّى رسول الله ﷺ العتمة دعا بلالاً فقال : « ما فعل الذي قِبَلك؟ »، فقال بلال : قد أراحك الله منه، فكبّر رسول الله ﷺ وحمد الله شفقاً من أن يدركه الموت وعنده ذلك !! .(٢)

ولم يكن مؤذن رسول الله ﷺ ليكتفي بهذه المهمات، ويغفل عن الجهاد في سبيل الله، فانضم ﷺ إلى جند الإسلام .. ففي السنة الثانية للهجرة خرج مع المسلمين إلى بدر ليصيبوا قافلة تجارية لقريش، ولكن الحرب ما لبثت أن اندلعت بين الطرفين، وأخذ المسلمون يقاتلون ويستسلون في سبيل الله .. وهناك في غبار المعركة وبين السيوف الملتحمة، لمحت عينا بلال أميّة بن خلف .. فانطلقت من صدره الذي طالما وضع عليه أمية الصّخر في لهيب الحرّ .. انطلقت صرخة مدوّية : يا أنصار الله رأس الكفر أميّة .. لا نجوت إن نجا ..

---

(١) انظر: سيرة ابن هشام (مج١/ج٩٠-٥-٥١٠).

(٢) انظر: حياة الصحابة (ج٢/٣٧٥-٣٧٦).

فأقبلت السيوف المسلمة تلبي نداء بلال ﷺ، وحاصرت أميّة بن خلف وابنه، فضرب رجلٌ رِجل ابن أمية فوقع، وصاح أميّة صيحة عظيمة قبل أن يُضرب ويسقط ميتاً على أرض بدر .. وشفى الله بهذه النهاية قلب بلال الوجيع.

وعاد المؤذن إلى وظيفته .. لا يفوته أذان .. كما لا تفوته غزوة .. ولا تفوته جلسة مع رسول الله ﷺ في المسجد ولم يزل كذلك حتى جاءته البشرى !

فذات مرّة جلس رسول الله ﷺ يحدّث أصحابه فقال : « لما أُسري بي في الجنّة سمعت خشخشة، فقلت : يا جبريل ما هذه الخشخشة ؟ قال : هذا بلال »، قال أبو بكر ﷺ : ليت أم بلال ولدتني وأبو بلال وأنا مثل بلال ..[1]

ودعا النبي ﷺ بلالاً يوماً فسأله : « يا بلال، حدثني بأرجى عمل عملته عندك في الإسلام منفعة فإني سمعت الليلة خَشْفَ[2] نعليك بين يدي في الجنّة »، قال بلال : ما عملت عملاً في الإسلام أرجى عندي منفعة من أني لا أتطهر طهوراً تاماً في ساعة من ليل ولا نهار إلا صلّيت بذلك الطهور ما كتب الله لي أن أصلّي.[3]

هكذا إذن : طهارة دائمة، وصلاة، وصلة قوية بالله سبحانه ورسوله الكريم، ثم جنّة عرضها السماوات والأرض ..

وبرغم هذه البشارة العظيمة من رسول الله ﷺ لبلال ﷺ، ظلّ بلال متحلّياً بالتواضع والأدب والاعتراف بالجميل فقد بلغه مرّة أن أناساً يفضّلونه على أبي بكر ﷺ فقال : كيف تفضّلوني عليه وإنما أنا حسنة من حسناته ..[4]

ويخطب بلال وأخوه، رضي الله عنهما، إلى أهل بيت من اليمن .. فيتقدم بلال ويعرّف نفسه قائلاً : أنا بلال وهذا أخي .. عبدان من الحبشة كنّا ضالّيْن فهدانا الله وكنّا عبديْن

---

(١) مجمع الزوائد (ج٩/٢٩٩).

(٢) الخشفة : الحس والحركة، وقيل هو الصوت.

(٣) صحيح مسلم (ج٤/١٩١٠).

(٤) انظر: مختصر تاريخ ابن عساكر (ج٥/٢٦٧).

فأعتقنا الله، إن تنكحونا فالحمد لله، وإن تمنعونا فالله أكبر ..[1] فزوّجوه، وكانت هند زوجة بلال تقول : كان بلال إذا أخذ مضجعه يقول : اللهم تجاوز عن سيئاتي، واغفرني بعلاّتي.[2]

ولقد بلغ بلال ﷺ من شدة حبه لربه ودينه أن كان يدعوه دائماً أن يقلب الأعداء الكافرين مسلمين حتى الذين عذبوه منهم .. فهذه امرأة من بني النجار تحدثنا فتقول : كان بيتي من أطول بيت حول المسجد، فكان بلال يؤذن عليه للفجر كل غداة، فيأتي بسَحَر فيجلس على البيت ينتظر الفجر، فإذا رآه تمطّى، ثم قال : اللهم إني أحمدك وأستعينك على قريش أن يقيموا على دينك، قالت : والله ما علمته كان يتركها ليلة واحدة !! .[3]

ما كان يخطر لبلال مرّة أن يدعو على قريش التي آذته كثيراً، وإنما كان بخلاف ذلك يدعو لها بالهداية .. وماذا على من أنعم الله عليه بالإيمان وقرب الرسول أن يتناسى آلامه ويعيش لنصرة عقيدته ؟.

واستجاب الله الدعاء النبيل .. وفتح على نبيّه مكة المكرمة .. فدخل إليها ﷺ واضعاً رأسه الشريف على رحله تواضعاً لله تعالى لما أكرمه به من فتح مبين .. حتى وصل إلى الكعبة والصحابة الأحباب حوله يكبّرون ويهلّلون، وأقبل ﷺ على الحجر الأسود يستلمه ثم طاف بالبيت وكلّما دنا من صنم حطّمه وهو يقول : « جاء الحقّ وزهق الباطل إنّ الباطل كان زهوقاً » ..

ثم دخل رسول الله ﷺ إلى جوف الكعبة، ومعه بلال الحبشي ﷺ فأزال الصور والأصنام التي كانت بداخلها .. وكبّر في نواحي البيت يطهره من رجز الوثن.

ثم أمر بلالاً ﷺ أن يصعد ويؤذّن على ظهر الكعبة فصعد .. نعم صعد بلال على مرأى من المشركين الذين طالما أهانوه وعذبوه، وراح يؤذّن ويملأ مكة وآذان المشركين بنداء

---

(١) انظر: حياة الصحابة (ج٣/٣٦٣).

(٢) انظر: حياة الصحابة (ج٤/٢٢٧).

(٣) انظر: سيرة ابن هشام (مج١/٥٠٩).

التوحيد الذي ظلت قريش ترفضه وتقاتل الرسول ﷺ من أجله على مدى واحد وعشرين عاماً .. على حين وقف النبي ﷺ على باب الكعبة وقد اجتمع له الناس. فراح يخطب معلناً : « ... والناس من آدم وآدم من تراب »، وتلا هذه الآية : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾[1]، يُصَحِّح بذلك قيم الكفر الزائفة ..

ثم عاد رسول الله ﷺ إلى المدينة المنورة بعد الفتح المبين، وعاد المؤذن ليلازم الرسول الحبيب ﷺ أعواماً ليست كثيرة .. فلقد جاءت لحظة الفراق الرهيبة التي لا بدّ منها واختار النبي الأعظم صلوات الله وسلامه عليه جوار ربّه .. وأظلم في المدينة كل شيء .. وحانت صلاة الظهر قبل أن يدفن رسول الله ، فقام بلال ﷺ ليؤذن ..

(الله أكبر الله أكبر .. الله أكبر الله أكبر ..) فذرفت عيناه لكنّه تحامل على نفسه وتابع أذانه .. (أشهد أن لا إله إلّا الله .. أشهد أن لا إله إلّا الله ..) فاشتد بكاؤه .. واشتد بكاء الصحابة .. فها هو ذا يُؤذن للصلاة وإمام الأمة في رقاده الأخير ..

(أشهد أن .. محمّداً .. رسول الله ..) وهنا عظم التفجّع وأجهش بلال ﷺ بالبكاء وتعالت في المسجد أصوات النحيب .. ولم يستطع بلال أن يتمّ الأذان.

وبايع الناس أبا بكر ﷺ بالخلافة، وقال الصدّيق لبلال : أذّن، فأطرق بلال لحظة ثم قال : إن كنت إنما أعتقتني لأن أكون معك فسبيل ذلك، وإن كنت أعتقتني لله فخلّني ومَنْ أعتقتني له. فقال أبو بكر ﷺ : ما أعتقتك إلّا لله، فدمعت عينا بلال وقال : فإني لا أؤذن لأحد بعد رسول الله ﷺ، فقال أبو بكر : فذاك إليك ..[2]

ومضى بلال ﷺ .. فأعدّ لنفسه زاداً .. ثم ودّع أصحابه متّجهاً إلى الشام كي يرابط ويجاهد في سبيل الله .. وفي سمعه تتردّد كلمات النبي ﷺ حين قال له : « يا بلال ليس عملٌ

---

(١) سورة الحجرات (١٣)، وانظر: سيرة ابن هشام (مج٢/٤١٢).

(٢) انظر: طبقات ابن سعد (ج٣/٢٣٦-٢٣٧).

أفضل من الجهاد في سبيل الله ».[1]

ومضت سنوات عديدة وبلال ﷺ مرابط على ثغور الإسلام يتابع مسيرة الجهاد المقدسة .. وفي ليلة من الليالي زاره النبي ﷺ في المنام وعاتبه عتاب الحبيب المشتاق فقال له : « ما هذه الجفوة يا بلال ؟ أما آن لك أن تزورنا ؟ »، فانتبه بلال من نومه على ذكريات وحنين وشوق طويل طالما حاول أن يشغل نفسه عنه .. فركب راحلته من فوره قاصداً مدينة رسول الله .. وسار حتى دخلها .. وأتى قبر النبي ﷺ فانكبّ يبكي ويمرّغ وجهه عليه، لقد طال الفراق وطال الشوق ..

وأقبل الحسن والحسين، رضي الله عنهما .. فراح يضمّهما ويقبّلهما .. كأنما وجد فيهما شيئاً من ريح الحبيب عليه الصلاة والسلام .. فقالا له : نشتهي أن تؤذن في السحر ؟! فألحّا عليه .. فعلا بلال ﷺ سطح المسجد .. فما قال : الله أكبر الله أكبر .. حتى ارتجّت المدينة لصوت بلال ..

فلمّا بلغ قوله : أشهد أن محمّداً رسول الله .. خرج الرجال وخرجت النساء من خدورهن .. يمشون في شوارع المدينة حسرة على النبي ﷺ .. فما رؤي يوم أكثر باكياً في المدينة من ذلك اليوم ..[2] وأقسم بلال ﷺ أن لا يؤذن بعد ذلك أبداً، فعاد إلى ثغور الشام وقضى بقية حياته هناك .. وشهد فتح القدس مع أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ ..

وفي يوم من أيام دمشق، سنة عشرين للهجرة .. فاضت روح بلال ﷺ، وهو يردّد في سعادة غامرة :

غداً نلقى الأحبّة محمّداً وصحبه

وامرأته تبكي وتقول : واويلاه .. وبلال يبتسم ويردّد : وافرحاه ..[3]

فيا لفرح بلال ﷺ وطربه وقد لقي الأحبة، محمّداً وصحبه .. سلام الله عليهم أجمعين.

---

(١) انظر: أسد الغابة (ج١/٢٠٨).

(٢) المصدر السابق.

(٣) انظر: مختصر تاريخ ابن عساكر (ج٥/٢٦٧)، وسير أعلام النبلاء (ج١/٣٥٩) وفيه : (محمّداً وحزبه).

١١

جعفرُ بنُ أبي طَالبٍ رضي الله عنه

أولُ مُعرِّفٍ بالإسلام في القارّة الإفريقية

جعفرُ بنُ أبي طالبٍ

ابن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف القرشي

بارك الله أسرة فَتِيّة من آل بيت النبي ﷺ، وزوجين طاهرين .. سبّاقين إلى النبي ﷺ. سبّاقين إلى الهجرة .. سبّاقين إلى الطاعة. إنهما جَعْفَر بن أبي طالب، ابن عم النبي ﷺ، وأخو عَلِيّ كرّم الله وجهه .. وزوجه أسماء بنت عُمَيْس، رضي الله عنهما ..

أسلم جعفر وأسماء، رضي الله عنهما، قبل دخول النبي ﷺ دار الأرقم [1] .. وانضمّا بحبّ عظيم إلى الكوكبة المؤمنة .. ونالا نصيبهما من اضطهاد قريش الذي لم يَسْلَمْ منه أحد من المسلمين حتى أذن الله بالهجرة إلى الحبشة، فتجهز المسلمون لهذه الرحلة الصعبة واختار النبي عليه الصلاة والسلام جعفراً أميراً عليهم .. [2] وأدرك عليه الصلاة والسلام عظم المسؤولية التي تنتظر جعفراً، فعليه ستقع مهمة تبليغ الدعوة وعرض الإسلام لأول مرة خارج مكة، بل خارج بلاد العرب. فلما آن أوان الرحيل ودّعه النبي ﷺ وعلّمه دعاء ليكون له زاداً في الحل والترحال : « اللهم الطُف بي في تيسير كلّ عسير، فإنّ تيسير كلّ عسير عليك يسير، وأسألك اليسر والمعافاة في الدنيا والآخرة » [3]، وانطلق الركب في رعاية الله حتى وصل إلى الحبشة.

انتشر نبأ المهاجرين في مكة، فلم تلبث قريش أن أرسلت وفداً إلى النجاشي محمّلاً بالهدايا الثمينة والأمتعة النفيسة تحاول بذلك رد المسلمين أذلّة صاغرين، واختاروا لهذه المهمّة رجلين من ألمع العرب ذكاءً .. عمرو بن العاص [4] وعبد الله بن أبي ربيعة .. فلما التقى الرجلان البَطَارِقَة [5] دفعا إلى كل منهم هدية لاستمالة قلوبهم، ثم حاولا إقناعهم بضرورة طرد

---

(١) هي دار الصحابي الأرقم بن أبي الأرقم، وفيها صار النبي ﷺ يجتمع بالمسلمين الأوائل سراً وذلك في نهايات المرحلة السرية للدعوة.

(٢) المقصود هنا الهجرة الثانية للحبشة في السنة السابعة للبعثة.

(٣) مجمع الزوائد (ج١٠/١٨٢).

(٤) أسلم عمرو بن العاص في السنة الثامنة للهجرة.

(٥) القساوسة.

المسلمين وإعادتهم إلى مكة.

وحان موعد لقاء الملك، ودخل الرجلان القرشيان البلاط .. فإذا النَّجاشي[1] جالس على عرشه وحوله الرهبان والقساوسة والخدم، فقدما له الهدايا والديباج وقالا له : أيها الملك! إنه قد ضوى إلى بلدك غلمان سفهاء، فارقوا دين قومهم ولم يدخلوا في دينك، وجاؤوا بدين ابتدعوه لا نعرفه نحن ولا أنت، وقد بعثنا إليك أشراف قومهم من آبائهم وأعمامهم وعشائرهم لتردّهم عليهم، فهم أعلى بهم عيناً، وأعلم بما عابوا عليهم وعاتبوهم فيه .. فقال بعض البطارقة : صَدَقا أيها الملك .. قومهم أعلم بهم، فأسلمهم إليهما لتردّهم إلى بلادهم وقومهم.

لكن عدل النجاشي وعقله الراجح أبيا عليه أن يطلق الأحكام جزافاً، لذلك غضب من كلام البطارقة، وأقسم ألّا يسلم من لجأ إلى بلاده حتى يدعوهم فيسألهم عن أمرهم.

وفي البلاط المَهيب، جلس النجاشي ليحكم بين الفئة المسلمة الصادقة وعليهم أميرهم جعفر ﷺ، وبين الخصمين عمرو بن العاص وعبد الله بن أبي ربيعة .. ووجّه النجاشي سؤاله إلى المسلمين : ما هذا الدين الذي قد فارقتم فيه قومكم ولم تدخلوا في دينا ولا في دين أحد من هذه الملل ؟!

كان ذلك السؤال فرصة سانحة لعرض الإسلام العظيم .. ولكنّ اللقاء تسوده الغربة ونظرات العداوة والتحدي ..

تُرى لو طُلِبَ منك أن تُعرِّف دينك ببضعة أسطر وتدعو إليه في مثل ذلك الموقف .. فتقف بين يدي الحاكم لتحاجّ أعداء الإسلام الظالمين وتردّ عنه المظلمة .. هل تستطيع ذلك ؟ هل تستطيع في بضع دقائق أن تفعل ما فعله جعفر ﷺ ؟

إن صعُب عليك ذلك فانظر إليه كيف قام ﷺ، وهو الشاب الذي لم يكن قد تجاوز العشرين من عمره ؛ قام ليقف أمام الجمع الغفير ويتحدّث باسم الإسلام .. ولعله كان يردّد في قلبه الدعاء الذي علّمه إيّاه رسول الله ﷺ : « اللهم الطُف بي في تيسير كلّ عسير » ..

---

(١) النجاشي : لقب لملوك الحبشة.

قال جعفر ﷺ : أيّها الملك ! كنّا قوماً أهل جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، ويأكل القوي منّا الضعيف، فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولاً منّا، نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله لنوحّده ونعبده ونخلع ما كنّا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم وحسن الجوار والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش، وقول الزور، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنات، وأمرنا أن نعبد الله وحده ولا نشرك به شيئاً وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام - فعدّد عليه أمور الإسلام - فصدّقناه وآمنّا به واتبعناه على ما جاء به من الله، فعبدنا الله وحده فلم نشرك به شيئاً، وحرّمنا ما حرّم علينا، وأحللنا ما أحلّ لنا، فعدا علينا قومنا فعذّبونا وفتنونا عن ديننا ليردّونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله تعالى، وأن نستحلّ ما كنّا نستحل من الخبائث، فلما قهرونا وظلمونا وضيّقوا علينا وحالوا بيننا وبين ديننا خرجنا إلى بلادك، واخترناك على من سواك، ورغبنا في جوارك، ورجونا ألّا نُظلم عندك أيّها الملك.[1]

أضاءت كلمات جعفر ﷺ المكان .. وملأته حكمة ونوراً، فرحبت كفة المسلمين. كيف لا وجعفر أشبه الناس برسول الله خَلْقاً وخُلُقاً، بذلك شهد النبي عليه الصلاة والسلام الذي قال : « أشبه خَلقك خَلقي، وأشبه خُلُقك خُلُقي، فأنت مني ومن شجرتي »[2].

لقد عرض جعفر ﷺ صورة الجاهلية أولاً، واستطاع إقناع الحاضرين بأنها صورة مظلمة تشمئز منها النفوس، ثم رسم صورة المُنقِذ .. إنه الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام ورسالته المشرقة. وراح ﷺ يبين وجوه الإصلاح والخير التي حملتها الرسالة الجديدة .. ثم بيّن موقف قريش ووضّح بالحجة البالغة أنه عدوان في عدوان .. وأنهم من أجل ذلك اختاروا الحبشة وملكها العادل مأوى يحميهم من أذى قريش.

عرضٌ موفق حقاً، قال النجاشي على إثره وقد بدا عليه الاهتمام : هل معك مما جاء به عن الله من شيء ؟ فقال جعفر ﷺ : نعم، فقال له النجاشي : فاقرأه عليّ، فبدأ جعفر يتلو

---

(١) انظر: سيرة ابن هشام (ج١/٣٣٦).

(٢) مسند الإمام أحمد (ج٥/٢٠٤).

عليه مطلع سورة مريم ﴿ كٓهيعٓصٓ ۝ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ۝ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ۝ ... ﴾ ..

وغرق المكان في سكون عميق فرضه جلال القرآن الذي تلاه جعفر ﷺ.. فبكى النجاشي حتى ابتلّت لحيته، وبكت أساقفته، ثم قام إلى جعفر وقال له : إن هذا والذي جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة، وأقبل على عمرو بن العاص وعبد الله بن أبي ربيعة فقال : انطلقا فلا والله لا أسلمهم إليكما، ولا يُكادون.[1]

وانتهت المناظرة الأولى وامتلأت نفس عمرو بن العاص غيظاً، ورفض أن يقبل الهزيمة فقال لصاحبه : والله لآتينه غداً عنهم بما أستأصل به خضراءهم، وكان عمرو معروفاً بالدهاء، فقال له عبد الله بن أبي ربيعة : لا تفعل، فإنّ لهم أرحاماً وإن كانوا قد خالفونا، لكن عَمْراً أصرّ على رأيه .. فلما كان الغد قال عمرو للنجاشي : أيها الملك إنهم يقولون في عيسى ابن مريم قولاً عظيماً فأرسل إليهم فسلهم عمّا يقولون فيه ..

وأرسل النجاشي إلى المسلمين يسألهم ففزعوا، ولكنهم عزموا على قول الحق مهما كلفهم ذلك. فلما دخلوا على النجاشي ابتدرهم بسؤاله : ما تقولون في عيسى ابن مريم ؟ فقام أمير القوم جعفر ﷺ، وقال بثقة وإيجاز بليغ : نقول فيه الذي جاءنا به نبينا ﷺ: هو عبد الله ورسوله وروحه وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول .. هنالك ضرب النجاشي بيده الأرض فأخذ منها عوداً ثم قال : والله ما عدا عيسى ابن مريم ما قلت هذا العود .. فغضب البطارقة حوله فقال : وإن نَخَرْتُم[2] والله .. ثم أقبل على جعفر وأصحابه فقال لهم : اذهبوا فأنتم شُيُوم[3] بأرضي من سبّكم غرم، من سبّكم غرم، من سبّكم غرم، ما أحب أن لي دَبْراً[4] مِنْ ذهب وأني آذيت رجلاً منكم .. ثم قال لبطارقته : ردّوا عليهما هداياهما، فلا حاجة لي بها.. فخرج مبعوثا قريش من عنده مقبوحين مردوداً عليهما ما جاءا به. وأقام المسلمون عنده

---

(١) انظر: سيرة ابن هشام (مج١/٣٣٦-٣٣٧).

(٢) تَناخَر : تكلّم، وكانه كلام مع غضب ونفور. والنَّخير : صوت الأنف.

(٣) الشُّيوم : الآمنون بلسان الحبشة.

(٤) الدَّبْرُ : الجبل بلسان الحبشة.

بخير دار مع خير جار ولعلهم انتشروا في أرض الحبشة للعمل والدعوة إلى دينهم الجديد.[1]

ويروى أن النجاشي قد أسلم بعد ذلك اللقاء، لكنه خاف بطش أهل الحبشة بتحريض من الأساقفة فكتم إسلامه .. وتوطدت علاقة قوية بينه وبين مبعوث الرسول جعفر ﷺ .. جعفر الذي أدى مهمته أروع أداء، فكان عند حسن ظن نبيّه عليه الصلاة والسلام. لقد دافع عن المسلمين، وردّ كيد المشركين الحاقدين، وكسب ودّ الملك وقلبه واحترامه حتى أسلم على يديه .. فكان النبي ﷺ يذكر النجاشي ويدعو له، فلما مات استغفر له وصلّى عليه.[2]

وانتشر ذكر الدعوة الجديدة في الحبشة، حتى قدم وفد إلى مكة قاصدين النبي عليه الصلاة والسلام، وكانوا عشرين رجلاً من النصارى، دخلوا على النبي ﷺ وهو جالس عند الكعبة .. فلما سمعوا القرآن فاضت أعينهم من الدمع، واستجابوا لله وآمنوا به، وعرفوا منه ما كان يوصف لهم في كتابهم من أمر نبي آخر الزمان .. وفيهم نزل قوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ۝ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ۝ ﴾.[3]

ومرّت سنوات، وعاد من الحبشة من عاد .. وجعفر باق هناك بأمر النبي عليه الصلاة والسلام. وتتابعت الأحداث العظيمة .. فهاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة المنورة ثم قاتل في بدر وأُحُد والخندق .. وعقد بعد ذلك صلح الحديبية .. وجاءت السنة السابعة بعد الهجرة وأذن الله أن ينتصر المسلمون على اليهود انتصاراً نهائياً في خيبر .. كل هذا وجعفر ﷺ يتابع الأحداث من بعيد، مرابطاً على الثغر كما أراد نبيه عليه الصلاة والسلام .. يتحمل آلام البعد عنه وعن إخوته في الله.

وأخيراً أذن الله أن يعود المهاجر، وأن يعود معه من كان بأرض الحبشة من أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام .. فقد بعث النبي ﷺ إلى النجاشي عمرو بن أمية الضمري ﷺ وكتب معه إليه أن يرسل من بقي عنده من أصحابه، فرجعوا جميعاً مع أولادهم الذين ولدوا

---

(١) انظر: سيرة ابن هشام (مج١/٣٣٧-٣٣٨).

(٢) انظر: سيرة ابن هشام (مج١/٣٤١).

(٣) سورة القصص (٥٢-٥٣)، وانظر الخبر في تفسير ابن كثير (ج٣/١٨).

على الأرض السمراء وتربّوا على حبّ الله ورسوله ولم يروه بعد .. ولنا أن نتصور أشواق العائدين ولهفتهم للقاء الرسول عليه الصلاة والسلام.

وصل هؤلاء العائدون إلى خيبر، وكان رسول الله فيها قد افتتح حصونها وطهّر أرضها من كيد اليهود.[1] أما جعفر ﷺ فكانت أشواقه تسبقه .. وامتلأت عيناه بشراً وإشراقاً برؤية النبي ﷺ .. وتصف كتب السيرة كيف حَجَلَ[2] ﷺ إعظاماً منه لرسول الله ﷺ، مقلّداً في ذلك أهل الحبشة .. فتلقاه عليه الصلاة والسلام وقام له فرحاً فقبّله بين عينيه واعتنقه قائلاً : « ما أدري بأيّهما أنا أسرّ : بفتح خيبر أم بقدوم جعفر ؟ ».[3]

ومسحت كلمات النبي ﷺ وجمال اللقاء عن قلب جعفر ﷺ آلام الفراق وعذاب الغربة الطويلة ..

لم يكن سرور النبي بفتح الحصون أكبر من سروره بقدوم جعفر ﷺ ! كيف لا وقد فتح جعفر قلوب العباد في أرض الحبشة وفتح أبواب الدعوة إلى الله بين النصارى حتى أسلم على يديه ملك تلك البلاد .. ولقد جاهد ﷺ طويلاً باللسان، وآن الأوان أن يجاهد بالسنان..

ولاشك أنه كان يغبط الصحابة الذين حملوا السيوف في سبيل الله، فراح ينتظر الفرصة لكي يعبّر عن حبّه وصدق إيمانه في ساح القتال ..

وشاء الله ألّا يطول انتظار جعفر ﷺ، فبعد أقلّ من عام أعلن النبي ﷺ الحرب على أكبر قوة عظمى آنذاك .. على دولة الروم في غزوة مُؤتة .. ولبّى جعفر داعي الجهاد وإنّ شوقه إلى الجنة لعظيم.

كانت مؤتة أضخم حرب دامية خاضها الصحابة، رضي الله عنهم، في حياة رسول الله ﷺ .. وتهيأ الجيش العظيم، وجعل النبي عليه الصلاة والسلام زيد بن حارثة أميراً عليه ثم قال : « إن قُتل زيد فجعفر بن أبي طالب على الناس، فإن قُتل جعفر فعبد الله بن رواحة على الناس،

---

(١) كانت غزوة خيبر سنة ٧ هـ.

(٢) أي مشى على رجل واحدة.

(٣) انظر: سيرة ابن هشام (مج٢/٣٥٩).

فإن قُتل فليرتضِ المسلمون بينهم رجلاً فيجعلوه عليهم » .. ثم أخذ عليه الصلاة والسلام يعلّمهم آداب القتال .. فأوصاهم بتقوى الله، وأن يغزوا باسم الله، ولا يقتلوا امرأة ولا طفلاً صغيراً، ولا كبيراً فانياً، ولا يقطعوا شجرة أو نخلة، ولا يهدموا بيتاً ..

ثم ودّع النبي ﷺ والناسُ معه جنود الإسلام .. وانطلق جيش الأمراء الثلاثة على بركة الله إلى أرض العدو وعسكر في مؤتة .. والتقى الجمعان، ونشبت الحرب ضارية رهيبة .. واستبسل زيد بن حارثة ﷺ ومضى يقاتل واللواء في يمناه .. ولكنه كان مع الشهادة على موعد فسقط ﷺ، وتلقّى الراية جعفر ﷺ ومضى يقاتل .. واشتدّ القتال فلما أحسّ أن الركوب يعوقه نزل عن فرسه فَعَقَرَها[1] خوفاً من أن يأخذها جنود الروم فيقاتلوا عليها المسلمين .. ثم أقبل يضرب بسيفه مستنشقاً عبير الجنّة تحت ظلال السيوف الملتحمة .. وتعالى صوته معبّراً عن شوقه الطويل ..

يا حبّذا الجنّـة واقترابهـا طيبة وبارداً شرابها
والروم روم قد دنا عذابها كافرة بعيدة أنسابها
عليّ إذ لاقيتها ضِرابُها

ومضى ﷺ وأرضاه والطعنات تمزّق الجسد، والدم الزكي يقطر حتى ضربه رجل من الروم فقطع يمناه، فتلقّى الراية بشماله ورفعها عالياً، ولكن ضربة ثانية قطعت يسراه، فاحتضن راية الإسلام بعضديه مخافة أن تسقط .. ومرّت اللحظات الأخيرة من العمر المبارك وفتحت الجنّة أبوابها لجعفر ﷺ .. وأبدله الله باليدين جناحين يطير بهما مع الملائكة في الجنة حيث يشاء، فنِعْمَ أجر العاملين ..

استشهد البطل الطيّار وهو في الثالثة والثلاثين، وفي جسده بضع وتسعون طعنة برمح ورمية بسيف ليس فيها شيء في دبره ..[2] إنها شهادة شجاعة وإقدام وبطولة تليق برجل يشبه النبي ﷺ ..

في تلك اللحظات الصعبة كان النبي عليه الصلاة والسلام على منبره في المدينة المنورة

---

(١) أي ضرب قوائمها.

(٢) صحيح البخاري (ج٤/١٥٥٤).

ينعي لأصحابه أمراء الجيش الثلاثة وعيناه تذرفان .. ثم أطلع الله سبحانه نبيه على ما حدث بعد استشهادهم، فراح ﷺ يذكر مراتبهم وهم أحياء عند ربهم يرزقون .. قال عليه الصلاة والسلام : « لقد رُفعوا إليّ في الجنّة، فيما يرى النائم على سررٍ من ذهب »، ثم قال عن جعفر : « استغفروا لأخيكم جعفر فإنه شهيد، وقد دخل الجنة وهو يطير فيها بجناحين من ياقوت حيث شاء من الجنة »[1].

ولم يلبث رسول الله ﷺ أن دخل على أسماء بنت عميس زوج جعفر رضي الله عنهما، فأخبرها خبر جعفر وصاحبيه ، رضي الله عنهما.. ثم وضع عبد الله ومحمّداً ابني جعفر على فخذه وهو يتشمّمهم ويمسح رؤوسهم وعيناه تذرفان ثم رفع يديه وقال : « اللهم إنّ جعفراً قد قدم إليك إلى أحسن الثواب، فاخْلُفْه في ذرّيته بخير ما خلفت عبداً من عبادك الصالحين في ذريته » .. ثم التفت إلى السيدة أسماء وهي تبكي فقال لها : « يا أسماء لا تقولي هُجْراً[2]، ولا تضربي صدراً » .. والسيدة فاطمة، رضي الله عنها، تبكي وتقول : واعمّاه، فقال عليه الصلاة والسلام : « على مثل جعفرٍ فلتبكِ الباكية » ..[3] وأخذت أسماء، رضي الله عنها، تذكر يتم أطفالها فقال ﷺ : « العيلةَ تخافين وأنا وليّهم في الدنيا والآخرة؟ » .. ثم أخذ عليه الصلاة والسلام بيد عبد الله بن جعفر فقال : « اللهم اخلف جعفراً في أهله، وبارك لعبد الله في صفقة يمينه ».[4] ثم قال : « هنيئاً لك يا عبد الله بن جعفر أبوك يطير مع الملائكة في السماء ».[5] فكان عبد الله بن عمر إذا سلم على عبد الله بن جعفر قال : السلام عليك يا ابن ذي الجناحين .. وكان عبد الله ﷺ لا يبيع شيئاً ولا يشتري إلّا بورك له فيه، فقد أجاب الله دعوة النبي عليه الصلاة والسلام ..

ثلاثة أيّام مضت مليئة بالعبرات حزناً على جعفر ﷺ .. بكاه النبي ﷺ، وأسرته، وأصحابه في الهجرة، وكثير من الفقراء والمساكين، فقد كان جعفر خير الناس للناس حتى سمّاه

---

(١) انظر: طبقات ابن سعد (ج٤/٣٧-٣٨)، وسيرة ابن هشام (مج٢/٣٨٠).

(٢) الهُجْر : القبيح من الكلام.

(٣) انظر: طبقات ابن سعد (ج٤/٤٠) و(ج٨/٢٨٢).

(٤) مسند الإمام أحمد (ج١/٢٠٤).

(٥) مجمع الزوائد (ج٩/٢٧٣).

رسول الله ﷺ أبا المساكين ..

ومضت السنوات وامتدت الفتوحات .. ودخل الإسلام الحبشة .. ولن ينس التاريخ أن أول من تحدّث باسم الإسلام وصدح بالقرآن في القارة السمراء هو ابن عم النبي ﷺ جعفر رضي الله عنه وأرضاه ..

أما جعفر ﷺ، ففي الجنة يطير ويحلّق عالياً .. مثلما حلّق في حياته فوق متاع الدنيا وأهواء النفس .. ومثلما حلّق في سماء التضحية والعطاء.

صُهَيْبُ بنُ سِنان رضي الله عنه

التاجر الرابح

صُهَيْبُ بنُ سِنان

ابن مالك النمري

ها هو ذا النبي ﷺ جالساً مع الصحب الأوائل في دار الأرقم المباركة .. يتلو عليهم ما نزل من آيات ربهم .. ويزكّيهم ..

وفي الطريق المؤدية إلى دار الأرقم .. أطلّ رجل أحمر شديد الحمرة .. أقرن الحاجبين .. كثير الشعر ليس بالطويل ولا القصير، رجل طالما قلبته أقدار الحياة حتى رمت به أخيراً على عتبات دار الأرقم ..

هنالك التقى عمّارَ بن ياسر الذي ابتدره بالسؤال : ما تريد ؟ فأجابه : ما تريد أنت ؟ فقال عمّار : أردتُ أن أدخل على محمّد فأسمع كلامه، قال : وأنا أريد ذلك، فدخلا وعرض عليهما النبي ﷺ الإسلام .. فأجابا سريعاً ..[1] ونطق عمّار ﷺ بشهادة الحق بلغته العربية الصحيحة الفصيحة، ونطق بها صاحبنا بلُكنته الأعجمية، لكن جوهر تلك الكلمات قد حُفر في قلوبهما حفراً عميقاً، كما في قلب كلّ من تيقّن بحقيقة وجود الله تعالى ورسالة نبيّه ﷺ.

فمَن ذلك الذي دخل مع عمّار ؟! مَن ذلك الذي ينطق بالعجمة في مكة !! ولماذا ؟! إن شئتَ نادِه أبا يحيى أو صُهَيْب بن سِنان ﷺ .. ولا تظن أنه أعجمي غريب، بل هو عربي من جذور عربية أصيلة، لكنه عاش طفولة ملوّنة بالمشقة .. فقد كان والده سِنان بن مالك عاملاً لكِسْرى على الأُبُلّة[2] .. وكان منزلهم بأرض المَوْصل في قرية قرب شط الفُرات .. فأغارت عليهم الرُّوم يوماً، فانتزعت الغلام الصغير صهيباً من أحضان أسرته، ورمته في بلاط الروم عبداً رقيقاً، فتربّى بينهم ومن هناك أخذ لكنته الأعجمية .. ولم يزل يباع وينتقل من سيد إلى سيد حتى اشتراه رجل من أهل مكة اسمه عبد الله بن جُدعان .. فأعجب به وعلّمه التجارة فبرع فيها وأتقنها .. فأعتقه ابن جُدعان ثم والاه .. وأقام صهيب معه حتى مات ابن جُدعان.[3] ولقد كان وصول صهيب ﷺ إلى مكة بتوفيق من الله وعناية، فقد سمع عن رسول

---

(١) انظر: طبقات ابن سعد (ج٣/٢٢٧).

(٢) الأبلة: بلدة على شاطئ دجلة مما يلي البصرة.

(٣) انظر: طبقات ابن سعد (ج٣/٢٢٦).

الله ﷺ وسارع إلى الإسلام، فكان في طليعة السابقين الأولين.

مكث صهيب وعمّار، رضي الله عنهما، في دار الأرقم ذلك اليوم حتى حلّ المساء فخرجا مستخفيين في عتمة الدروب وسكونها ..

لقد طوى صهيب ﷺ صفحات الماضي منذ لحظة سماعه صوت الحقّ والهدي المبين .. واعتنق هذا الدين دون تردّد، واضعاً على عتبة الإسلام كل أوزار الجاهلية وكل أعراف الروم البالية، فامتلأ إيماناً صادقاً بعقيدته وحباً لله ورسوله .. ومضى يتحمّل في سبيل ذلك العذاب الكثير، فقد كان من المسلمين المستضعفين في مكة، الذين ليس لهم قبيلة تحميهم وتدفع عنهم أذى قريش ..

فلما أذن الله بالهجرة .. شرع الصحابة يهاجرون تباعاً .. ثم هاجر النبي ﷺ وصاحبه الصدّيق إلى المدينة المنورة .. وفي كلّ يوم ..كان صهيب ﷺ يحاول الفرار بدينه مهاجراً .. لكنّ فتيان قريش كانوا يصدّونه ويمنعونه عن اللحاق بالركب المبارك .. وأخيراً نجحت المحاولة فكان من أواخر الصحابة الكرام هجرة ولحاقاً بالنبي ﷺ في المدينة ..

وفي الطريق إلى المدينة عقد صهيب ﷺ إحدى صفقاته التجارية الرابحة .. ولا عجب، فقد كان بارعاً في التجارة كما ذكرنا .. لكن .. من البائع ؟! ومن المشتري ؟! وما الثمن !! وما البضاعة ؟! هذا سعيد بن المسيب يحدّثنا عن ذلك فيقول : أقبل صهيب مهاجراً نحو المدينة، واتبعه نفر من قريش، فنزل عن راحلته وانتثل ما في كنانته، ثم قال : يا معشر قريش لقد علمتم أني من أرماكم رجلاً، وايمُ الله لا تصلون إليّ حتى أرمي بكل سهم معي في كنانتي، ثم أضربكم بسيفي ما بقي في يدي منه شيء، فافعلوا ما شئتم أو إن شئتم دللتكم على مالي وخلّيتم سبيلي ؟ قالوا : نعم، فدلهم على ماله فانطلقوا إليه وتركوه وشأنه ..

في تلك اللحظات المباركة التي اشترى فيها صهيب ﷺ هجرته من الكفار في مكة كان الله تعالى قد أنزل على نبيه ﷺ في المدينة قوله: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾[1]. لكنّ صهيباً لم يكن يعلم بعد أنّ الله قد أنزل في شأنه قرآناً يُتلى

---

(١) سورة البقرة (٢٠٧).

إلى يوم القيامة ليُشهد المسلمين في كل عصر على رواج تلك التجارة وقبولها، فلما وصل إلى المدينة .. استقبله وجه الحبيب محمّد ﷺ ليبشره بأنجح وأسعد صفقة عقدها في حياته قائلاً له : « ربح البيعُ أبا يحيى ! ربح البيع » ..[1]

أبو يحيى .. تلك هي الكنية التي كنّاه إياها النبي ﷺ في ذلك الموقف المبارك .. وهل حياة المرء إلّا مواقف ؟! ولربَّ موقف واحد يرجح في ميزان العبد يوم القيامة فيدخل به الجنة.. فكيف بمن كانت حياتهم سلسلة متتابعة من مواقف التضحية والعطاء ؟! أولئك هم الصحابة الكرام .. وصهيب واحد منهم ..

ولنسمعه الآن يحدّثنا عن تلك العيشة الهنية في ظلّ من أحبّ : لم يشهد رسول الله ﷺ مشهداً قط إلّا كنت حاضره، ولم يبايع بيعة قط إلّا كنت حاضراً، ولم يسرِ سريّة قطّ إلّا كنت حاضرها، ولا غزا غزاة إلّا كنت فيها عن يمينه أو شماله ... وما جعلتُ رسول الله ﷺ بيني وبين العدوّ قطّ حتى توفي.[2] عاش صهيب ﷺ في المدينة إذن يصحب النبي ﷺ صحبة مباركة، ويلازمه ملازمة عقيدة وحب ومناصرة، والتقاء دائم على الحق الذي عاشوا لأجله وماتوا لأجله ..

صدق صهيب ﷺ فيما قال، فقد شهد المشاهد كلّها .. وكان النبي ﷺ يقول : « السُّبّاق أربعة : أنا سابق العرب، وصهيب سابق الروم، وسلمان سابق الفرس، وبلال سابق الحبش ».[3] ما سرّ هذا السبق يا ترى، وما سرّ هذا الحضور المتألّق الدائم .. لا شكّ أنه حبّ الله ورسوله وقوة العقيدة ووضوحها .. ولا شكّ أيضاً أن من كان هذا شأنه كان جديراً بأن يُحَبّ، من أجل هذا أمرنا النبي ﷺ بأن نحب صهيباً فقال : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليحبّ صهيباً حب الوالدة لولدها »[4]. ولعلّ هذا التوكيد النبوي على وجوب حب صهيب ﷺ سببه أنه قد حُرم أهله وهو غلام فأصبح المسلمون هم أهله وعشيرته ..

---

(١) انظر: طبقات ابن سعد (ج٣/٢٢٨).

(٢) انظر: الإصابة في تمييز الصحابة (ج٢/١٩٦).

(٣) أسد الغابة (ج٣/٣١).

(٤) انظر: الاستيعاب في معرفة الأصحاب (ج٢/٧٢٩).

ولئن كان النبي ﷺ محباً لأصحابه جميعاً .. شديد الحرص على مشاعرهم وصفاء قلوبهم .. فإن نصيب صهيب ﷺ من ذلك الحب والحرص كان عظيماً، فنحن نراه بعد إحدى المعارك جالساً في المسجد وقد مرّ أبو بكر الصدّيق ﷺ بأسير له يستأمن له من رسول الله ﷺ، فقال صهيب لأبي بكر : من هذا معك ؟ قال : أسير لي من المشركين أستأمن له من رسول الله ﷺ، فقال صهيب : لقد كان في عنق هذا موضع للسيف [1]، فغضب أبو بكر، فرآه النبي ﷺ فقال : « ما لي أراك غضبان ؟! »، قال : مررت بأسيري هذا على صهيب فقال لي : لقد كان في رقبة هذا موضع للسيف، فقال النبي ﷺ : « فلعلّك آذيته ؟ »، قال أبو بكر : لا والله .. فاطمأن النبي ﷺ وقال : « لو آذيته لآذيت الله ورسوله ».[2] هنيئاً لك أيا صهيب منزلتك في قلب رسول الله ﷺ ..

وقد عُرِفَت لصهيب ﷺ دعابة وفكاهة .. فمرة قال عمر للرسول ﷺ : ألا ترى صهيباً يأكل الرطب وهو أرْمَد، فقال له النبي ﷺ ذلك، فأجابه صهيب : إنما آكل على شق عيني الصحيحة، فضحك النبي ﷺ ..[3] وكذلك كان الصحابة رضوان الله عليهم يسعون لإدخال السرور على قلب المصطفى ﷺ ..

وعلى مثل ما كانت لصهيب ﷺ لدى الرسول ﷺ منزلة، كانت له لدى الصحابة منزلة.. فها هو ذا عمر ﷺ واقفاً مع صهيب يقول له : ما فيك شيء أعيبه إلّا ثلاث خصال!! قال صهيب : وما هنّ ؟ قال : أراك تنتسب عربياً ولسانك أعجمي، وتكنى باسم نبي، وتبذّر مالك، قال : أمّا تبذيري مالي فما أنفقه إلّا في حقّ، وأمّا كنيتي فكنّانيها النبي ﷺ، وأما انتمائي إلى العرب فإن الروم سبتني صغيراً فأخذت لسانهم.[4]

مضى عصر النبوة المبارك، وصهيب ﷺ المتاجر مع الله على عهده ووعده .. وحين طعن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ في المسجد، وأخذت روحه تفيض طلب صهيباً

---

(١) يقصد أنه كان يجب أن يقتل، ولا يؤخذ أسراً.

(٢) انظر: مختصر تاريخ ابن عساكر (ج١١/١١٨).

(٣) سير أعلام النبلاء (ج٢/٢٤).

(٤) انظر: الإصابة في تمييز الصحابة (ج٢/١٩٥).

فأوصاه أن يصلّي عليه إذا مات .. وأن يصلّي بالناس حتى يجتمع المسلمون على إمامهم الجديد ..

عُمّر صهيب ﷺ حتى جاوز السبعين .. ثم هاجر هجرته الثانية من الدنيا الفانية إلى الآخرة الباقية عام ثمانية وثلاثين للهجرة .. ولعلّ النبي ﷺ استقبله هناك على مشارف الجنّ وهو يردّد ثانية : « ربح البيع أبا يحيى .. ربح البيع صهيب ».

رحم الله صهيباً ..

وهنيئاً له التجارة الرابحة، وهنيئاً له منزلة في قلب رسول الله ﷺ .. وهنيئاً له منزلة في قلوب الصحابة الكرام، رضوان الله عليهم أجمعين.

زَيدُ بنُ الخطّاب رضي الله عنه

المنتظرُ للشهادة

زَيْدُ بنُ الخطّاب

ابن نُفَيْل بن عبد العُزّى بن رياح العَدَويّ القُرَشيّ

كان طويلاً بائن الطول، أسمر اللون ..[1] يحمل في قلبه حباً عظيماً للنبي عليه الصلاة والسلام، وعزماً مشهوداً على نصرة الإسلام، وشوقاً عظيماً للشهادة ..

كان يُشبه أخاه عمر بن الخطاب ﷺ في صدقه وإقدامه، لكنه سبق عمر ..

سبقه إلى الدنيا .. وسبقه إلى النبي ﷺ .. وسبقه إلى الجنة ..

ذلك هو زَيْد بن الخطاب ﷺ، الذي كان أسنّ من عمر [2]، وكان يكنّى بأبي عبد الرحمن ..

أسلم زيد مبكراً هو وأخته فاطمة، رضي الله عنهما، أما أخوهما عمر فقد تأخر عنهما قليلاً، ثم أقبل ﷺ ليأخذ مكانه في الصف الأول قرب النبي عليه الصلاة والسلام. ولاشك أن عمر كان يدرك أن كل دقيقة من السبق لها وزنها عند الله تبارك وتعالى لاسيما في سنوات الدعوة الأولى، ولهذا بقي يغبط أخاه زيداً الذي سبقه.

عاش زيد ﷺ أحداث الإسلام في مكة والمدينة .. وشهد المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ ..[3] وظل شوقه للشهادة يهوّن عليه الدنيا ويدفعه لكل المكرمات .. ويوم بدر قال له عمر ﷺ : البَس درعي، فأجابه بعزم وصراحة : إني أريد من الشهادة ما تريد ! ..[4] وقاتل الأخوان بلا دِرع! وكذلك أمضى زيد ﷺ حياته مقبلاً على الله، دون تردّد أو تلفّت أو خوف .. وظلّ حلم الشهادة يراوده حتى جاء يوم اليمامة ..

كان المسلمون إذّاك لازالوا يحملون جراح الفراق الأليم لنبيّهم وحبيبهم وقائدهم عليه الصلاة والسلام .. ولكن الأحداث لم تنتظر، وكان لابد من إجابة داعي الجهاد وقتال

---

(١) انظر: سير أعلام النبلاء (ج١/٢٩٨).

(٢) انظر: الاستيعاب في معرفة الأصحاب (ج٢/٥٥٠).

(٣) أسد الغابة (ج٢/٢٢٩).

(٤) انظر: سير أعلام النبلاء (ج١/٢٩٨).

المُرتدّين قبل أن تقوى شوكتهم ويهدّدوا دولة الإسلام الفتية. وكانت اليمامة المعركة الفاصلة بين المسلمين بقيادة خالد بن الوليد ﷺ، وبين مسيلمة الكذاب ومَنْ معه من بني حنيفة وعلى رأسهم الرجّال بن عنفوة.

وكان زيد في طليعة المجاهدين، وكان ﷺ يحمل راية المسلمين ..[1] وحُقّ لمثله أن يحمل راية الحق في ساح القتال بعد أن حملها في قلبه مذ شهد شهادة التوحيد .. وكان دوره في المعركة عظيماً بقدر صدقه ورغبته في نصرة الإسلام.

قاتل بنو حنيفة قتالاً ضارياً، في تلك المعركة الضروس يدفعهم حب جارف للدنيا وطمع في الجاه والسلطان، ورجحت كفّتهم أول الأمر، فتساقط شهداء المسلمين .. وانتشر الفزع في صفوف المجاهدين الذين خرجوا ليطفئوا نيران الردة، ولكنهم فوجئوا بجيش يفوقهم عدّة وعتاداً .. ورأى حامل اللواء زيد ما حلّ بإخوانه، فجعل يصيح بكل ما أوتي من قوة : أما الرجال فلا رجال وأما الفرار فلا فرار .. اللهم إني أعتذر إليك من فرار أصحابي وأبرأ إليك مما جاء به مسيلمة ومُحكم اليمامة.[2]

وراح يخترق صفوف الأعداء باحثاً عن عدوّ من أعداء الله قد عزم على قتله .. ذاك هو الرجّال بن عنفوة. وكان الرجّال هذا قد أسلم وبايع النبي عليه الصلاة والسلام، ولم يرجع إلى قومه بني حنيفة إلّا بعد وفاة رسول الله ﷺ. فلما رجع إليهم وجدهم قد ارتدّوا وتبعوا مسيلمة، فانضم إليهم ظناً منه أن الغلبة ستكون لهم لما رأى من كثرتهم وقوتهم. وصار خطر الرجّال عظيماً لأنه استغل إسلامه السابق، وراح يحدّث الناس أنه سمع النبي عليه الصلاة والسلام يقول إنه أشرك مسيلمة في الأمر ! .. كانت المعركة قد بلغت أشدّها لما أبصر زيد عدو الله الرجّال، فظل يتربّص به حتى ضربه بالسيف فقتله ..[3]

هنالك دبّ الرعب في نفس مسيلمة وصاحبه المحكم بن طفيل، ثم في جيش الكفار .. وبذلك مهّد زيد ﷺ طريق الانتصار على جيوش الردة في تلك المعركة الفاصلة. واطمأنّ قلبه

---

(١) انظر: صفة الصفوة (ج١/١٧٧).

(٢) انظر: أسد الغابة (ج٢/٢٢٩).

(٣) المصدر السابق.

الكبير الذي كان يتحرّق دوماً لنصرة الإسلام، ومضى ليلاقي مصيره العظيم .. لقد آن لجسده أن يتحقّق، وآن لروحه التي اشتاقت إلى الجنة أن تصل إليها.

مضى زيد ﷺ يضرب بسيفه .. ولم يكن يبحث هذه المرة عن عدوّ ليقتله، بل كان ينتظر أن يحين الأجل فيصعد في قافلة الشهداء ويتحقّق الحلم المقدّس.

وعاد الجيش منتصراً .. وفي المدينة كان أخوه عمر مع الخليفة أبي بكر، رضي الله عنهما، ينتظران عودة المجاهدين .. لكن زيداً ﷺ لم يكن مع العائدين. وعزّى الصحابة عمر ﷺ .. فما كان منه إلّا أن قال : رحم الله أخي .. سبقني إلى الحسنيين، أسلم قبلي، واستشهد قبلي.[1]

ظلّت ذكرى زيد عميقة في قلب عمر، رضي الله عنهما .. وظلّ وجع الفراق وحرّ الشوق يؤرّقانه ﷺ .. ولقد قال مرّة لمتمم بن نويرة وكان شاعراً مُجيداً قد رثى أخاً له بأبيات صادقة : يرحم الله زيد بن الخطاب، إني لأحسب أني لو كنت أقدر على أن أقول الشعر لبكيتُه كما بكيتَ أخاك .. فقال له : يا أمير المؤمنين لو قُتل أخي يوم اليمامة كما قُتل أخوك ما بكيته أبداً ! فقال عمر ﷺ : ما عزّاني أحد بأحسن ما عزّيتني به.[2]

ومع ذلك ظلّ الفاروق عمر يذكر زيداً، رضي الله عنهما، ويقول : إن الصبا لتهب .. فتأتيني بريح زيد بن الخطاب ..[3]

وكذا ذكرى كلّ عظيم تهبّ نسماتها على القلب فتهيّج فيه مشاعر الصدق والعزم وحبّ الارتقاء ..

---

(١) انظر: الاستيعاب في معرفة الأصحاب (ج٢/٥٥٣).

(٢) انظر: طبقات ابن سعد (ج٣/٣٧٨)، والاستيعاب في معرفة الأصحاب (ج٢/٥٥٣).

(٣) انظر: طبقات ابن سعد (ج٣/٣٧٨).

سَالِمٌ مَولى أبي حُذَيفة رضي الله عنهما

رقيقٌ نافسَ السّادة

سالمٌ مولى أبي حُذَيفة

يقول النبي عليه الصلاة والسلام : « الماهر بالقرآن مع السَّفَرة الكرام البَرَرَة » ..[1]

هكذا كان سَالِم مولى أبي حذيفة، رضي الله عنهما .. ماهراً بالقرآن، يتلوه آناء الليل وأطراف النهار، والعجيب أن هذا الرجل الذي أتقن تلاوة الكتاب الذي أُنزل قرآناً عربياً غير ذي عوج، لم يكن عربياً !!

فَمِنْ أرض فارس جاء سالم .. من اصطخر، دفعته المقادير ليصبح رقيقاً في جزيرة العرب يتربّى بين أهلها ويستقيم لسانه بلغتها .. كتب الله تعالى عليه الرقّ والعبودية .. فكان ذلك الرقّ خيراً ! كما يقول تعالى: ﴿ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾[2] .. فقد تربّى بمكة، وسمع خبر رسول الله ﷺ فكان من المسارعين والسابقين الأولين ..[3] وكان من تمام فضل الله عليه أن مولاته وزوجها أسلما أيضاً. وكانت مولاته امرأة من الأنصار يقال لها ثبيتة بنت يعار الأنصارية، وزوجها رجل شريف من قريش هو أبو حذيفة بن عُتْبَة بن رَبيعة، وكان سالم بينهما بمنزلة الولد منهما ..[4]

فلما أن سرى الإسلام حباً وعدلاً وتسامحاً في القلوب التي رضيت بالله ربّاً وبمحمّد عليه الصلاة والسلام نبيّاً ورسولاً، أعتقت ثبيتة مولاها سالماً وحرّرته لوجه الله، فتبنّاه أبو حذيفة ﷺ وألحقه بنسبه فصار يدعى بسالم بن أبي حذيفة [5]، ثم زوّجه بابنة أخيه فاطمة بنت الوليد بن عتبة .. وهكذا عاش سالم عيشة الأحرار والأبرار، يسمو به خلقه وحسن خصاله فكان من فضلاء الصحابة وكبارهم قدراً وشرفاً ومكانة.

ومضت سنوات الدعوة الأولى، وسالم في كنف أسرته المسلمة، ينعم بصحبة رسول الله

---

(١) صحيح مسلم (ج١/٥٥٠).

(٢) سورة البقرة (٢١٦).

(٣) انظر: سير أعلام النبلاء (ج١/١٦٧)، والإصابة في تمييز الصحابة (ج٢/٦).

(٤) انظر: طبقات ابن سعد (ج٣/٨٥).

(٥) انظر: طبقات ابن سعد (ج٣/٨٦)، وسير أعلام النبلاء (ج١/١٦٧).

ﷺ، ويصبر مع أبي حذيفة على أذى قريش وكيدها، فأبو حذيفة هو ابن عتبة بن ربيعة، الذي كان من كبار سادات قريش المجاهرين بالظلم والإيذاء. ونحمّل سالم ﷺ نصيبه من ذلك، لكن الله تعالى آواه إلى ظلال القرآن، فصارت الآيات واحة يأوي إليها من هجير الشرك وقسوة التعذيب. فكان ﷺ يمضي الساعات الطويلة في رحاب كتاب الله يتلو ويحفظ .. حتى إذا أذن الله بالهجرة وتنوّرت المدينة بقدوم رسول الله ﷺ وانتقال الصحابة الكرام إلى هذا الموطن الجديد، كان سالم ﷺ يؤم المسلمين ويقرأ عليهم القرآن في مسجد قُباء [1]، أولِ مسجد بُني في الإسلام ..

ثم ائتلف الجمع المبارك من مهاجرين وأنصار حين آخى النبي بينهم، وكان ﷺ قد آخى أيضاً بين المهاجرين أنفسهم على الحقّ والمواساة، فتآخى أبو عبيدة بن الجراح وسالم، رضي الله عنهما [2]، وظلّت أخوّة الإسلام ورابطة العقيدة فوق روابط الدم والنسب.

وشهد سالم ﷺ غزوة بدر في السنة الثانية للهجرة .. فكان من الذين قال في حقّهم النبي ﷺ : « لعلّ الله اطّلع إلى أهل بدر، فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم ». [3]

ثم جاءت السنة الثالثة للهجرة، وخرجت قريش تحزّ مرارة الحقد وتريد الانتقام، والتقى الجمعان في أُحُد. وخالف الرماة أمرَ نبيهم وقائدهم عليه الصلاة والسلام، فتركوا أماكنهم، وانكشف ظهر المسلمين، فانقضّ خيّالة المشركين عليهم يُعملون فيهم قتلاً وجرحاً، هنالك هرب من هرب وثبت من ثبت .. وكان سالم مع الثابتين رضي الله عنهم ..

وكان مِنْ فضل الله عليه أن كان قرب نبيّه الكريم ﷺ لما تشتّتْ صفوف المسلمين .. وعندما شُجّ وجه رسول الله ﷺ، وكُسِرت رباعيته عليه الصلاة والسلام، جعل سالم ﷺ يمسح الدم عن وجهه الشريف ويغسله، والنبي ﷺ يقول : « كيف يفلح قوم خضبوا وجه نبيّهم وهو يدعوهم إلى الله تعالى ؟ ». [4]

---

(١) انظر: سير أعلام النبلاء (ج١/١٦٨).

(٢) سير أعلام النبلاء (ج١/١٦٩).

(٣) صحيح البخاري (ج٤/١٤٦٣).

(٤) انظر: البداية والنهاية (ج٤/٢٤).

ومضت السنة الثالثة والرابعة، وسالم ﷺ مع المصطفى عليه الصلاة والسلام في مواطن الجهاد أو جلسات العلم والذكر، يعرفه الصحابة بسالم بن أبي حذيفة .. حتى أنزل الله تعالى على نبيّه قرآنه الكريم مشرعاً إبطال التبنّي القديم، وآمراً بردّ كلّ متبنًّى إلى نسبه القويم، بقوله عز وجل : ﴿ ٱدْعُوهُمْ لِآبَآئِهِمْ ... ﴾[1].

ذلك أن الإسلام دستور الحقّ والصدق يأبى أن تختلط الأنساب وتضيع الحقوق .. وكان أول الطائعين إمام المرسلين الذي ردّ زيداً متبنّاه إلى اسم أبيه فصار يُدعَى زيد بن حارثة بعد أن كان يُعرَف بزيد بن محمّد ﷺ .. أما سالم ﷺ، فإلى من سيُرد ؟ .. وهو الذي لا يعرف له أب ولا أم .. وصار بعضهم يسمّونه سالماً من الصالحين ! .. ولكن أولى الناس بسالم أبو حذيفة، فصار يُعرف بسالم مولى أبي حذيفة.[2] وهكذا كان ﷺ يُعدُّ أنصارياً مهاجرياً .. فهو من الأنصار لأن مولاته التي أعتقته أنصارية، وهو من المهاجرين لأنه والى أبا حذيفة القرشيّ ﷺ. ولكن نسبه الحقيقي كان الإسلام .. كان الإسلام أباه وأمه وأهله وعشيرته، وكان انتسابه الأول للقرآن، لأنه كان بحقّ من أهل القرآن الذين وصفهم النبي الأعظم عليه الصلاة والسلام: « أهل القرآن هم أهل الله وخاصته ».[3] ولقد كان ﷺ - كما وصفه المؤرخون - بمودع[4] الكتاب ناطقاً وفي العبادة مخلصاً واثقاً.[5]

ولم يزل سالم ﷺ كلما ذُكر القرّاء في عهد الوحي يتصدّر الأسماء .. كيف لا وقد أمر رسول الله ﷺ أصحابه أن يأخذوا القرآن من أربعة : ابن مسعود، وسالم مولى أبي حذيفة، وأُبي بن كعب، ومُعاذ بن جبل ..[6] فأولئك هم أساتذة القرآن على عهد رسول الله عليه الصلاة والسلام .. بل هم أساتذة الأساتذة بعد نبيّهم الكريم عليه أفضل الصلاة والسلام، وهم شيوخ كلّ من تعلّم القرآن وعلّمه من الصحابة والتابعين ومن أخذ عنهم إلى يوم الدين..

---

(١) سورة الأحزاب (٥).

(٢) انظر: أسد الغابة (ج٢/٢٤٥-٢٤٦).

(٣) مسند الإمام أحمد (ج٣/١٢٧).

(٤) كذا في المصدر. ولعلّ الصواب : مَوْدِع الكتاب، بمعنى أن القرآن الكريم جُعل عنده وديعة، لشدّة حفظه له.

(٥) انظر: حلية الأولياء (ج١/١٧٦).

(٦) صحيح البخاري (ج٣/١٣٧٢).

كان سالم ﷺ يعيش مع القرآن ويستعذب التلاوة، وكانت لتلاوته حلاوة تأسر من يسمعها .. وذات يوم كان قائماً في المسجد يصلّي، فسمعته السيدة عائشة، رضي الله عنها، فجلست تستمع إليه حتى استبطأها رسول الله ﷺ .. ولما سألها عن السبب الذي حبسها أخبرته أن في المسجد لأحسن من سمعت صوتاً بالقرآن .. فأسرع ﷺ وأخذ رداءه ليسمع هذا الصوت، فلما وجد أنه سالم مولى أبي حذيفة قال: « الحمد لله الذي جعل في أمتي مثلك ».(١)

ولكنّ سالماً ﷺ حامل القرآن لم يلزم مسجده ومصلاّه، ولم يعتزل حياة المسلمين التي أهبها الجهاد، بل شهد المواقع كلها مع رسول الله ﷺ .. وبعد الفتح الأعظم - فتح مكة - الذي كان سنة ثمانٍ للهجرة، شهد السرايا التي بعثها النبي عليه الصلاة والسلام إلى القبائل حول مكة تدعوها إلى الله عز وجل .. وكان ممن بعث خالدُ بن الوليد ﷺ على رأس سرية إلى بني جذيمة بأسفل مكة، وانضم سالم ﷺ إلى هذه السرية، وحفظ عن النبي ﷺ وصيته ولم ينس أنهم خرجوا دعاة لا مقاتلين، وكانوا نحو ثلاثمئة وخمسين رجلاً. لكن الأمور سارت على غير ما يرضي رسول الله ﷺ، فالقوم حملوا السلاح في وجه المسلمين، ولم يعطهم خالد ﷺ الفرصة الكافية، وعندما أظهر بعضهم الإسلام صاروا يقولون : صبأنا .. صبأنا .. ولم يقولوا أسلمنا ! فقاتلهم خالد ﷺ وأصاب منهم إذ كان يظنّهم لا زالوا مشركين. ووصلت الأخبار إلى رسول الله ﷺ فتألّم لما حدث .. وقال : « هل أنكر عليه أحد ؟ » .. فقال الرجل الذي جاء إليه بالخبر : نعم، ووصف له رجلين اعترضا على فعل خالد، كان الأول عبد الله بن عمر بن الخطاب، وكان الثاني سالماً مولى أبي حذيفة، رضي الله عنهم أجمعين .. أما عبد الله فزجره خالد وأسكته، وأما سالم فأنكر عليه فعله وراجعه فاشتدت مراجعتهما.

ثم بعث النبي ﷺ عليّ بن أبي طالب ﷺ إلى بني جذيمة فوَدَى لهم الدماء وما أصيب لهم من الأموال، وقال عليه السلام : « اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد بن الوليد ».(٢)

لم يخش سالم ﷺ من قول الحقّ، فهكذا علّمه الإسلام، وخالد ﷺ بشر يخطئ

---

(١) مسند الإمام أحمد (ج٦/١٦٥)، وانظر: أسد الغابة (ج٢/٢٤٥-٢٤٦).

(٢) انظر: سيرة ابن هشام (مج٢/٤٢٩-٤٣١).

ويصيب. فلم يمنع سالماً من مراجعته أن كان قائداً، وإنما القائد والجنود جميعاً شركاء في المهمة التي بعثهم بها نبيّهم الكريم عليه الصلاة والسلام.

ولما توفي الرسول ﷺ، واشتعلت حروب الرِّدَّة، سارع سالم مع مولاه أبي حذيفة رضي الله عنهما، لقتال مسيلمة الكذّاب في اليمامة .. وقد سجّل التاريخ أن معركة اليمامة كانت من أشرس المعارك التي خاضها المسلمون، وكان سالم ﷺ حامل راية المهاجرين في ذلك اليوم الرهيب. فتقدّم ﷺ الصفوف بقلب دخله القرآن فأخرج منه كل خوف .. وعندما انحسر المسلمون وتفرقوا صاح صيحته ليتجمّعوا فقال: ما هكذا كنّا نفعل مع رسول الله ﷺ. وحفر حفرة لنفسه وقام فيها يقاتل[1]، فناداه المسلمون أن دونك اللواء احفظه كيلا نُهزم أو نُؤتى من قِبلك، فصاح : بئس حامل القرآن أنا إن أُتيتم من قِبلي ..[2]

ومضى يضرب بسيفه أولئك الذين أرادوا أن يطفئوا نور الله، ورفع اللواء عالياً، وإنّ من حمل القرآن لجدير أن يحمل راية الحق .. وانهالت عليه سيوف الشرك، فقُطعت يمينه، فتلقى اللواء بيسراه فقُطعت .. فاعتنقه وهو يقرأ : ﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَـٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴾.[3] لقد كان ﷺ، يقاتل وطيف رسول الله ﷺ ماثل أمامه، وآيات الله التي احتواها صدره تستنهض كل ذرة في كيانه .. وظلّت سيوف المشركين تنهال عليه حتى سقط. وبقيت الأنفاس الضعيفة تتردّد في صدره حتى شارفت المعركة على الانتهاء واطمأنّ ﷺ إلى النصر المبين. وبينما المسلمون يتفقّدون الضحايا والشهداء كان سالم في النزع الأخير.. ولم يكن يشغله إلّا شيء واحد : مصير أبي حذيفة ﷺ .. فسألهم عنه ماذا فعل ؟ فقيل له : إنه قُتِل، فأشار عليهم ﷺ أن يضجعوه ويدنوه منه، وكانت تلك كلماته الأخيرة قبل أن يسلم الروح .. وضمّت الأرض الأخوين اللذين عاشا معاً، واستشهدا معاً، وسيبعثان معاً.[4]

---

(١) انظر: طبقات ابن سعد (ج٣/٨٨)، وسير أعلام النبلاء (ج١/١٦٩).

(٢) انظر: صفة الصفوة (ج١/١٧٧).

(٣) سورة آل عمران (١٤٦)، وانظر الخبر في أسد الغابة (ج٢/٢٤٦).

(٤) انظر: سير أعلام النبلاء (ج١/١٦٩)، وطبقات ابن سعد (ج٣/٨٨).

ويمقتل سالم ﷺ نقص عدد القراء إذ قتل كثير منهم في حروب الردة، مما دفع عمر بن الخطاب ﷺ ليسرع إلى الخليفة أبي بكر ﷺ فيقنعه بضرورة جمع القرآن من الألواح والسعف والجرائد، حتى لا يذهب بذهاب حفاظه ..

وبعث الخليفة أبو بكر بميراث سالم إلى مولاته لتأخذه، فأبت - بعد أن أعتقته لله - أن تكون له وارثة، أو أن تعيد أمجاد الجاهلية التالفة .. ولما انتقلت الخلافة إلى عمر بن الخطاب بعد وفاة أبي بكر، رضي الله عنهما، عرض عمر عليها الميراث، فرفضت ثانية، فوضعه في بيت المال.[1] وعندما طُعِنَ عمر ﷺ قيل له : لو استخلفت من بعدك، فقال : من لي بمحبّ أمين .. لو كان ابن الجرّاح حيّاً لاستخلفته ففيه قال رسول الله ﷺ : « أمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجرّاح » .. ولو كان سالم مولى أبي حذيفة حيّاً لاستخلفته وإذا سألني ربي قلت : إني سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إنّ سالماً شديد الحبّ لله عزّ وجلّ ».[2] وقد سمّى عمر بن الخطاب ولده سالماً حباً به وتيمناً أن يكون مثله رضي الله عنهما.[3]

فبشراك يا سالم .. يا من مسحت الدم عن وجه الحبيب.

يا من رفعت الراية والموت قريب.

يا من علوت بالقرآن والنسب غريب.

---

(١) انظر: الإصابة في تمييز الصحابة (ج٢/٨).

(٢) انظر: حلية الأولياء (ج١/١٧٧).

(٣) سير أعلام النبلاء (ج٤/٤٥٩).

مُصْعَبُ بنُ عُمَيْر رضي الله عنه

الدّاعيةُ الشابّ

مُصْعَبُ بنُ عُمَيْر

ابن هاشم بن عبد مَناف العَبْدَرِيّ[1] القُرشيّ

إذا مشيت في دروب مكة الحبيبة .. وتنشّقت نسيماً يحمل عطراً وطيباً .. فاعلم أنّ أعطر أهل مكة من أصحاب رسول الله - مُصْعَب بن عمير - ﷺ قد مرّ يوماً من هنا، مصعب الذي كان أنعم الفتيان وأكثرهم ترفاً ودلالاً على أبويه، وأحسن الشباب حلّة وثوباً، ولعلّه إن مشى في الطرقات لفت إليه الأنظار .. وشغل الناس بالحديث عنه .. لم يكن ينقصه من متاع الدنيا شيء !! وقد جمع إلى ذلك كله العقل الراجح رغم حداثة سنّه.

فهل تُصدّق أن مصعباً ﷺ ترك تلك الحياة المترفة، واستغنى عن الجاه والثراء .. واختار لنفسه طريقاً واحداً هو طريق دار الأرقم .. لقد ساقه عقله المستنير إلى هناك ليمنح نفسه فرصة الاستماع إلى رسول الله ﷺ، فوجد ما كان ينقصه حقاً .. ففي القلب فراغ لا يملؤه إلّا الله .. وفي القلب شعث لا يلمّه إلّا الله .. فأسلم على يديه راغباً طائعاً.

نعم إنّ النسب والمال موارد للقوة والغنى، لكنها لا تجلب للنفس السعادة ولا السكينة.. وإنّ حُلَل الثياب زينة، لكنها لا تُدخِل إلى القلب رونقاً ولا إشراقاً .. وللعطور شذى فوّاح .. لكنّ شذى الإيمان أقوى وأبقى .. تلك قشور الدنيا التي نتركها هنا .. دون أن نصحب منها شيئاً في رحلتنا إلى الآخرة ..

وحدَه الإيمان هو الذي يُدخل إلى القلب الأمانَ والطمأنينة .. ويُلبسنا حلّة الجاه والوقار.. ويفجّر طاقاتنا ويعلي منزلتنا .. وهل كان العالم يذكر العرب أو يقتدي بهم يوماً لولا هذا الدين ؟!

كانت مكة قد انقلبت رأساً على عقب برسالة محمّد ﷺ .. ورغم أن النبي لم يكن قد جهر بالدعوة بعد، إلّا أن حديث الدعوة الجديدة كان يدور في أندية قريش، وكانت العيون الحاقدة تراقب الدروب ..

---

(١) نسبةً إلى عبد الدار.

وها هو ذا مصعب يدخل دار الأرقم يغلق الباب وراءه بحذر .. وهناك خلف الباب .. كانت تُهدم قيم الجاهلية في النفوس، وتبنى قواعد الإسلام بيدي النبوة الشريفة .. في ذلك البيت المبارك انقلب الفتى المدلّل شاباً يحمل هدفاً ومبدأ وعقيدة .. خرج من زيف الدنيا ورولها إلى نعيم الآخرة وبقائها .. وسرعان ما ترك كل شيء لله .. ليعوضه الله خيراً مما ترك..

ومضت أيامٌ ومصعب ﷺ يتردّد إلى دار الأرقم .. يكتم إسلامه عن أمّه خاصة، أمّه خناس بنت مالك التي عرفت بشدة البأس والتعلّق بدين الآباء .. لقد كان مصعب ﷺ يهابها ويخشى غضبها إن علمتْ بهجره للآلهة التي تعبدها .. ولكن الله أبى إلّا أن يواجه مصعب أمّه بالحقّ الذي عرف، فقد رآه عثمان بن طلحة يوماً يتسلل خفية إلى دار الأرقم فغضب أشد الغضب، وتذكر أمّه وكُرْهَها لمحمّد فطار إليها بالخبر، فهي أقدر من يمنعه ويثني عزيمته عن المضي في الدين الجديد ..

وفي ذلك اليوم رجع مصعب ﷺ آخر النهار مشرقاً بإيمانه .. فرحاً بما حفظ وتعلّم من رسول الله ﷺ وما يدري أن أمّه قد مَلّكها الغضب الشديد، فلم تهيئ له هذه المرّة طعاماً ولا متاعاً .. بل قيوداً وآلاماً لن تنتهي حتى يعتذر إلى أكوام الحجارة والخشب عمّا فعل !!

كانت تظن أن المدلّل سيبكي متاعه وعطوره الفاخرة، وسيردّه العذاب عن الإسلام .. ولكنّ مصعباً ﷺ لم يفعل ذلك، فقد غيّره الإسلام وقلب مفاهيمه وأنضج فكره وشعوره بعد أن أصبح من أوائل التلاميذ في مدرسة محمّد ﷺ .. وفيها حفظ أنه « لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق »[1] ..

حاول مصعب ﷺ أن يُلَيّن قلبها ويدعوها إلى الحق .. فازداد غضبها .. وحبسته مكبّلاً بالحديد وأجاعته وجرّدته من عطائها، ونقلته إلى عتمة الدار، لكن القلب كان قد امتلأ بالنور.. واستعدّ للجهاد فداءً لهذا الدين ..

ولم يلبث مصعب ﷺ ـ وقد ازدادت عزيمته صدقاً وازداد شوقه لمواصلة المسير إلى الله

---

(١) مجمع الزوائد (ج٩/١٨٧).

حرارة - أن استغفل العيون الحارسة، وكسر الأغلال وتجاوز القضبان وهرب من قبضة أمّه ليهاجر مع أصحابه الكرام من مكة إلى الحبشة نجاة بدينهم .. عابرين الصعاب والصحراء والبحر .. إلى ملكها الذي لا يُظلم عنده أحد .. النجاشي.[1]

ولم يهاجر مصعب ﷺ هجرة واحدة إلى الحبشة بل هجرتين، وذلك أن الذين هاجروا إلى الحبشة أول مرة ما لبثوا أن بلغهم أن أهل مكة قد أسلموا، فلما رجعوا وجدوا الخبر باطلاً، بل وجدوا أن قريشاً أشدّ ما تكون خصاماً للمسلمين، فلمّا اشتدّ عليهم البلاء أشار عليهم الرسول ﷺ بالهجرة مرّة أخرى إلى الحبشة، وكان مصعب أيضاً مع المهاجرين، رضي الله عنهم. وفي السفر تنكشف أخلاق الرجال .. فظهرت أخلاق مصعب ﷺ النبيلة، ورقّة طبعه، وحسن معاملته لصحبه من المهاجرين معه إلى الحبشة، فأُعجِبُوا به وأحبوه. قال عبد الله ابن عامر بن ربيعة ﷺ : كان مصعب بن عمير لي خِدْناً [2] وصاحباً منذ يوم أسلم إلى أن قُتل رحمه الله بأُحُد، خرج معنا إلى الهجرتين جميعاً بأرض الحبشة، وكان رفيقي من بين القوم، فلم أرَ رجلاً قط كان أحسن خلقاً ولا أقل خلافاً منه ..[3]

تلك شهادة صديق حميم في خُلُق مصعب ﷺ ولينه ولطف معشره .. وإنها لخصال راجحة في ميزان القرب من النبي ﷺ، الذي جعل أقربنا منه مجلساً يوم القيامة أحاسننا أخلاقاً.

رجع مصعب ﷺ إلى مكة وقد تبدّلت حاله كثيراً .. وخرج يوماً يمشي في الطرقات التي طالما عطّرها بشذاه .. لكنه كان هذه المرّة لا ينشر عطراً ولا يجرّ ثوباً ولا يلبس نعلاً .. بل عليه بردة غليظة مرقوعة، فلما رآه رسول الله ﷺ ذرفت عيناه .. وقال لأصحابه حوله : « انظروا إلى هذا الذي نوّر الله قلبه، لقد رأيته بين أبوين يغذوانه بأطيب الطعام والشراب، ولقد رأيت عليه حلّة شراها أو شُريت له بمئتي درهم فدعاه حبّ الله وحبّ رسوله إلى ما ترون ».[4]

---

(١) انظر خبر مصعب ﷺ في طبقات ابن سعد (ج٣/١١٦-١١٧).

(٢) صديقاً.

(٣) طبقات ابن سعد (ج٣/١١٧).

(٤) انظر: حياة الصحابة (ج٢/٤٥١).

هذه شهادة الرسول الأعظم عليه الصلاة والسلام .. ولكن ترانا نظن أن حب الإسلام والتزام شرائعه يعني التخلّي عن متاع الدنيا كلّها، لا بل إن الله سبحانه ينكر علينا هذا الفكر ويقول في كتابه العزيز : ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ﴾[1] .. لكن مصعباً ﷺ عاش أيام المحن التي تعرض لها الإسلام والتضحيات الأولى، أيام كان اتّباع الحقّ يعني الاستغناء عن الدنيا وترك الغالي في سبيل الأغلى.

وفي كل الأحوال فالتجارة مع الله هي التجارة الأربح .. لقد ضحى مصعب ﷺ بجاهه في المجتمع الجاهلي، لكنه ربح جاه الانتساب لرسول الله .. ثم اختاره عليه الصلاة والسلام لأشرف مهمة .. اختاره سفيراً إلى يثرب التي ستصبح بعون الله وبجهود مصعب مدينة الرسول وعاصمة الدولة الجديدة.

فها هي ذي ثلّة من الأنصار استمعوا لرسول الله ﷺ، واطمأنّوا إلى دعوته، فصدّقوه وآمنوا به، ثم رجعوا إلى طَيبة المباركة بعد أن بايعوه في العقبة الأولى .. وما إن عادوا إلى قومهم حتى كتبوا إليه : أن ابعث إلينا رجلاً من قِبلك يفقّهنا في الدين ويقرئنا القرآن .. ويدعو الناس بكتاب الله .. فإنه جدير بالاتّباع ..

لقد آن أوان نشر الإسلام خارج مكة، ترى من يصلح لهذه المهمة مثلما يصلح لها مصعب ؟ لقد اختارته عين النبوة المستنيرة .. إذ كان شاباً مشرق الإيمان .. ناصع العقيدة .. ليّن الجانب .. أهلاً للثقة .. وقبل كلّ شيء كان ذا قلب مرتبط بالله .. متعلّق برسوله ..

لبّى مصعب ﷺ نداء الله ورسوله ﷺ، وتسلّم مهمته في مرحلة هامة من مراحل الدعوة: إنها مرحلة بناء (دولة الإسلام) على أرض المدينة. هاجر ﷺ إلى المدينة، ونزل ضيفاً على أسعد بن زرارة ﷺ، أحد أشرافها الذين أسلموا بين يدي رسول الله. وأخذ مصعب ﷺ بعدّ الدعامة التي سيبني عليها رسول الله ﷺ دولة الإسلام، بعد أن أنجز عليه الصلاة والسلام في مكة مرحلة صياغة (الإنسان المسلم) .. وراح مصعب ﷺ يدعو الناس إلى الإسلام سرّاً مقتدياً بنهج رسول الله ﷺ في الدعوة المكيّة. فكان يأتي الأنصار في دورهم فيقرأ عليهم

---

(١) سورة الأعراف (٣٢).

القرآن، فيسلم الرجل والرجلان حتى لم تبق دار من دور الأنصار إلّا أسلم فيها رجل أو امرأة .. ثم أسلم الأشراف وكُسرت الأصنام ولُقّبَ مصعب ﷺ هناك بالمقرئ .. فكان صوت حقّ من الله ورسوله ﷺ في الأرض .. وانتشر أمره .. فلم تعد دعوته سرّاً .. وأقبلت الجموع المسلمة تريد أن تتعلّم وتسمع المزيد ..

وكان ممّن علم بأمره وأراد مقاومته وإخراجه من المدينة : سيّدا بني عبد الأشهل .. سعد بن معاذ وأُسَيْد بن الحُضَيْر، فعرض عليهما مصعب ﷺ الإسلام بالحكمة والمنطق الذي يقبله كل عاقل ..

قال مصعب لسعد : أوَ تجلس فتسمع فإن رضيت أمراً قبلته، وإن كرهته كُفّ عنك ما تكره .. فسمع سعد ورضي بالإسلام ثم انطلق إلى قومه بغير الوجه الذي ذهب به فوقف عليهم وقال : يا بني عبد الأشهل ! كيف تعلمون أمري فيكم ؟

قالوا : سيدنا وأفضلنا رأياً ..

قال : فإن كلام رجالكم ونسائكم عليّ حرام حتى تؤمنوا بالله ورسوله ..

فما أمسى في دار بني عبد الأشهل رجل ولا امرأة إلّا مسلماً أو مسلمة، فكانت هذه أول دار من دور الأنصار يسلم أهلوها جميعاً ..[1]

ولم تلبث المدينة كلها أن غدت موكب نور .. وراحت تنتظر بلهفة قدوم النبي الحبيب ﷺ، فلطالما حدّثهم عنه مصعب ﷺ دون أن يروه .. ولطالما أوقد فيهم شعلة حبه والشوق إليه قبل أن يروه ..

فهل تُراك يا أخي تُتقن يوماً حرفة مصعب ﷺ .. حرفة الدعوة إلى الله لتكون صوت الإسلام تنشر دينك، وتعلّم القرآن، وتحرث تربة الأفئدة بمحراث الإيمان .. فيسلم على يديك أناس يكونون أنصاراً للنبي ﷺ ..

أم تظن أنّ مصعباً ﷺ مسؤول وحده عن هذا الدين العظيم ؟!! غداً لن تزول قدما

---

(١) انظر: سيرة ابن هشام (ج١/٤٣٦-٤٣٧)، وطبقات ابن سعد (ج٣/٤٢٠).

عبد حتى يسأله الله عن عمره فيمَ أفناه .. وعن شبابه فيمَ أمضاه ..

السؤال واحـد، وما أكثر الإجابـات .. فهل تقارب إجابتـا إجابة مصعب ﷺ يومئذ ؟ ..

هل صنعت رجالاً ونساءً وأطفالاً يقفون على أسوار المدينة ينتظرون قدوم النبي عليه الصلاة والسلام ؟! كما صنع مصعب ﷺ.

تعال وانظر : هاهم أولاء خمسمئة من الأنصار كلّهم أسلموا بدعوة مصعب ﷺ !! وقفوا يستقبلون النبي ﷺ يوم دخل المدينة مهاجراً حاملين مشاعل الابتهاج والشوق الشديد والحفاوة البالغة ..

صعدوا على سطوح المنازل وتسلّقوا جذوع النخيل ينشدون .. وهم يرددون : الله أكبر جاء رسول الله، جاء محمّد ﷺ ..

فما فرح أهل المدينة في حياتهم كلها بشيء مثل فرحهم برسول الله ﷺ، لقد آن للمدينة أن تفتح أبوابها لتؤوي رسول الهدى على أرضها، فيقيم الدين والشريعة الجديدة .. وآن للحبيب المصطفى ﷺ أن يفرح بعد عام الحزن وأعوام الابتلاء ..

أما مصعب ﷺ يومذاك فلا تَسَل عن حاله .. لقد وقف بين جموع الأنصار .. يغمره فرح لا يوصف، إنها لحظة اللقاء التي طالما سعى من أجلها .. لقاء النبي ﷺ والأنصار في المدينة.

ومضى عام .. ومصعب مع الصحب الكرام يواصلون مسيرة الإيمان والتضحية مع النبي ﷺ حتى كانت غزوة بدر .. وكان مصعب ﷺ فيها حامل لواء المسلمين وممّن أبلوا البلاء الحسن حتى علت رايـات المسلمين مؤذنة بالنصر المبين. فلما انتهت المعركة قـال رسـول الله ﷺ : « استوصوا بالأسارى خيراً » .. فكان الصحابة رضي الله عنهم يأكلون التمر ويطعمون أسراهم الخبز طاعة لرسول الله ﷺ [1] ..

ولقد مرّ مصعب بن عمير ﷺ بأسرى المشركين، وفيهم أبو عزيز بن عمير أخو مصعب بن عمير لأبيه وأمه، فوقف مصعب عنده وقال للأنصاري : شُدّ يديك به .. فإن أمه

---

(١) سيرة ابن هشام (مج١/٦٤٥).

ذات متاع لعلّها تفديه منك .. فقال له أبو عزيز : يا أخي ! هذه وَصاتك بي؟! فأجابه مصعب ﷺ (مشيراً إلى الأنصاري) : إنّه أخي دونك.[1]

لقد رفع الإسلام روابط العقيدة والحب في الله فوق روابط الدم والنسب .. فابحث لك يا أخي عن أخ مخلص في الله من هذا المجتمع العُلوي الرّاقي ليكون لك ذخراً في الآخرة .. ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ۝ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ۝ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ۝ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ۝ ﴾[2] .. هنالك يذكر المسلم قول الله عز وجل : ﴿ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴾[3] .. ويتذكّر أن « المرء مع من أحبّ »[4] .. فلا تصحب إلّا من ينهضك حاله ويدلّك على الله مقاله ..

ومضى عام بعد بدر .. وخرجت قريش لقتال المسلمين ثأراً لقتلاها في بدر .. وهناك على أرض أُحُد عبّأ النبي ﷺ جيشه وأعطى اللواء لمصعب بن عمير ﷺ .. وهاهو ذا مصعب قد استعدّ ولبس ثياب الحرب .. وكان مصعب ﷺ يشبه النبي ﷺ إذا لبس لأمَته[5] ..

وخطب رسول الله ﷺ في الجيش، وبثّ فيهم روح الشجاعة والإقدام .. وحرّضهم على إحدى الحسنيين : النصر أو الشهادة ..

واصطفّت الصفوف .. وعلى جبل صغير مرتفع .. وقف خمسون رامياً بأمر من النبي ﷺ : « لا تبرحوا ! إن رأيتمونا ظهرنا عليهم فلا تبرحوا وإن رأيتموهم ظهروا علينا فلا تعينونا ».[6]

وحميت الحرب واشتدّ القتال .. ولاحت تباشير النصر للمسلمين حين فرّ المشركون من ساحة الوغى .. فظنّ الرماة أن المعركة قد انتهت، فوضع أكثرهم السلاح، ونزلوا عن

---

(١) انظر: سيرة ابن هشام (مج١/٦٤٥-٦٤٦).

(٢) سورة عبس (٣٤-٣٧).

(٣) سورة الزخرف (٦٧).

(٤) صحيح مسلم (ج٤/٢٠٣٤).

(٥) لباس الحرب.

(٦) انظر: سيرة ابن هشام (مج٢/٦٥-٦٦)، وصحيح البخاري (ج٤/١٤٨٦).

الجبل .. ومن بعيد كان يرقبهم خالد بن الوليد - وكان يومئذ مشركاً - فكرّ عليهم بالخيل، وقُتل الرماة الباقون على الجبل، وتجدَّدت المعركة، وطوّق المشركون المسلمين وأحاطوا بهم من كل جانب.. فثبت الصحابة وثبت حامل اللواء - مصعب بن عمير ﷺ - وأخذ يقاتل دون رسول الله ﷺ .. فلم يعد النصر هو الهدف فقط .. بل حماية النبي ﷺ وسط حصار المشركين وسيوفهم الحاقدة ..

وثبت مصعب ﷺ واستبسل .. وراح يقاتل دون رسول الله بيد، ويحمل اللواء باليد الأخرى.. فأقبل رجل مشرك يُدعى (ابن قَمِئَة) على فرسه فضرب يد مصعب اليمنى فقطعها وسقط اللواء .. وهرع مصعب إلى اللواء الملقى على أرض المعركة .. لم تشغله يده المقطوعة، ولم يصرخ ألماً أو يطلب نجدة وغوثاً .. بل حمله بيسراه وهو يقول : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ...﴾ [1] ..

فضرب ابن قَمِئَة يد مصعب اليسرى فقطعها .. فما كان من مصعب ﷺ إلّا أن حنا على ركبتيه .. وحنا على اللواء وضمّه إلى صدره بعضديه .. هنالك حمل ابن قمئة عليه برمحه فطعنه به فوقع شهيداً وسقط اللواء فوقه .. [2]

وراح ابن قمئة يصرخ بأعلى صوته : قتلت محمّداً - للشبه الذي بين رسول الله ﷺ وبين مصعب - ودعا رسول الله ﷺ على ابن قمئة فقال : « أَقْمَأَكَ [3] الله عزّ وجلّ » .. فاستجاب الله دعوة نبيّه ﷺ .. فقد انصرف ابن قمئة من ذلك اليوم إلى أهله فخرج على غنمه يتفقّدها فسلّط الله عليه تيساً .. فلم يزل ينطحه حتى قطعه إرباً.

وعندما انتهت المعركة الأليمة ووضعت أوزارها .. أقبل النبي ﷺ والصحابة يتفقّدون الشهداء .. ويدفنون أجسادهم الطاهرة في أرض أُحُد .. أما الأرواح فصارت في أجواف طير خضر ترِد أنهار الجنّة، وتأكل من ثمارها، وتأوي إلى قناديل من ذهب في ظلّ العرش ..

وجاء الصحابة بأكفان مصعب ﷺ وما هي إلّا بردة إذا غطّوا بها رأسه خرجت

---

(١) سورة آل عمران (١٤٤).

(٢) انظر: طبقات ابن سعد (ج٣/١٢٠).

(٣) أي أذلّك.

رجلاه، وإذا غطّوا رجليه خرج رأسه، فقال رسول الله ﷺ : « غطّوا بها رأسه، واجعلوا على رجله الإذْخر »، فلما انتهوا وقف النبي ﷺ والصحابة حوله يودّعون مصعباً، فقال ﷺ : « لقد رأيتك بمكّة وما بها أحد أرقّ حلّة ولا أحسن لمة منك، ثم أنت شعث الرأس في بردة »، ثم تلا قوله تعالى : ﴿ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴾[1].

ولما فرغ رسول الله ﷺ من دفن الشهداء وقف عليهم وقال : « أشهد أنّكم أحياء عند الله، فزوروهم وسلّموا عليهم، فوالذي نفس محمّد بيده لا يسلّم عليهم أحد إلّا ردّوا عليه إلى يوم القيامة ».[2]

فلا تنس يا أخي أن تنفّذ وصيّة رسول الله ﷺ إذا زرت المدينة المنورة يوماً .. توجّه إلى أُحُد .. ستجد تلك الأرض التي دارت فوقها المعركة .. وسترى جبل الرماة .. وسوراً أبيض مرتفعاً يحيط بقبور شهداء أُحُد .. فنادهم ! السلام عليكم يا شهداء .. السلام عليكم يا نقباء ..

ولا تنس أن تسلّم على مصعب ﷺ فتقول : السلام عليك يا حامل اللواء .. يا مقرئ القرآن .. يا من كتب الله لك حياة قصيرة .. لكنها كانت مباركة وعظيمة ومديدة النفع .. حياة جديرة أن تُذكر وتكون فخراً لنا ولكل الأجيال.

---

(١) سورة الأحزاب (٢٣). وانظر الخبر في المستدرك (ج٣/٢٠٠)، وطبقات ابن سعد (ج٣/١٢١-١٢٢).
(٢) مجمع الزوائد (ج٦/١٢٣)، وانظر : المستدرك (ج٣/٢٩)، واللفظ للمجمع.

أُمُّ المؤمنين

أمُّ سَلَمَة رضي الله عنها

المهاجرةُ المباركة

أم المؤمنين السيدةُ أمُّ سَلَمَة

هند بنت أبي أُمَيّة بن المُغِيرَة المخزومية القرشية

هل تفكّرت عندما زرت مسجد النبي عليه الصلاة والسلام معتمراً أو حاجاً في الأحداث التي دارت فيه .. وهل لامسَت قلبك التجلّيات التي غمرت أهله وزوّاره أيام التنزيل ؟ وهل علمت أن هذا الصرح ضمّ نساء راويات للحديث ثِقات [1]، كان الرجال من الصحابة والتابعين يأتون إليهن ليأخذوا منهن الفقه والحديث ..

أم سَلَمَة، رضي الله عنها وأرضاها، واحدة من أفراد هذا البيت المبارك .. راوية محدثة فقيهة .. حالفها الحظ العظيم واختارها المولى الكريم لتكون زوجاً لنبيّه ومصطفاه ﷺ وأماً للمؤمنين والمؤمنات ..

كانت أم سلمة، رضي الله عنها، سيدة قرشية مخزومية ذات شرف رفيع وكرامة .. عُرف والدها (بزاد الراكب) لكثرة كرمه وجوده فكان إذا سافر معه أحد لم يضطر لحمل شيء من الزاد لأنه كان يكفيه ذلك ..[2] وكانت قبل أن تتزوج الرسول عليه أفضل الصلاة والتسليم زوجة لابن عمها أبي سلمة بن عبد الأسد ابن عمة الرسول وأخيه بالرضاعة ..[3] فولدت : سلمة الذي كانت تكنى به في الحبشة، ولما هاجرت إلى المدينة ولدت عمر، وزينب، ودرة ..[4] أسلمت وزوجها وكانا من السابقين الأولين، وهاجرت معه الهجرتين إلى الحبشة.. وهناك في أرض الحبشة كان لأم سلمة، رضي الله عنها، شأن، وأيُّ شأن .. فهي التي نقلت لنا ما حدث في بلاط النجاشي بين وفد المسلمين المهاجرين ومبعوثَيْ قريش عمرو بن العاص وصاحبه اللذين جاءا ليعيدا المسلمين أذلاء صاغرين إلى مكة ..

نقلت لنا السيدة أم سلمة، رضي الله عنها، تفاصيل تلك الحادثة بدقة الراوي المتقن[5]،

---

(١) كأمثال السيدة عائشة، رضي الله عنها.

(٢) انظر: الإصابة في تمييز الصحابة (ج٤/٤٥٨). وهي بنت عم خالد بن الوليد.

(٣) انظر: سيرة ابن هشام (مج٢/٩٦).

(٤) سير أعلام النبلاء (ج٢/٢٠٦)، والإصابة في تمييز الصحابة (ج٤/٤٥٨).

(٥) بلغ عدد الأحاديث التي روتها، رضي الله عنها، ثلاثمئة وثمانية وسبعين حديثاً.

والتزام الشاهد الصادق، ووعي المسلم الفطن، لتبقى بين أيدينا وثيقة تاريخية يعود إليها الكُتّاب المؤرخون والدارسون الباحثون ..

لم تكن رضي الله عنها لتلتفت إلى شيء من مظاهر الدنيا في قصر النجاشي، ولم تكن في أرض الهجرة والغربة ظِلاً تكمل به زوجها، ولا كانت فرداً يزداد به جمع المسلمين، بل كانت المسلم الذي عرف هدفه وأدرك دوره، ولا فرق هنا بين ذكر وأنثى مادام القلب عامراً بالإيمان والتقوى ..

ورجعت أم سلمة، رضي الله عنها، من الحبشة مع من رجع، فلما كانت الهجرة إلى المدينة كانت مع المهاجرين .. وهنا نقرأ صفحة أخرى في سجل مواقفها وتضحياتها لنعلم أي صنف من النساء يختار الله عز وجل لنبيّه ومصطفاه ﷺ.

خرجت رضي الله عنها برفقة زوجها على هودجها لتكون من المهاجرات الأول إلى المدينة .. تلفحها الرمال المستعرة بلهيب الصحراء، وكان معها ابنها سلمة الذي ضمّته لتقيه ببرودة يقينها وثقتها بربها عناء الحر ومشاعر الخوف، التي حرّكتها رؤية رجال من قومها بني المغيرة قد لحقوا بها وبزوجها. وفرّق الرجال بين الزوجين المهاجرين إلى الله بالقوة والجبروت ومنعوا أبا سلمة ﷺ أن يسير بها في البلاد .. وردّوا أم سلمة وولدها، فغضب قوم زوجها بنو عبد الأسد وقالوا : لا والله لا نترك ابننا عندها إذ نزعتموها من صاحبنا، فتجاذبوا الطفل الصغير بينهم حتى خلعوا يده .. فانخلع قلب الأم التي أضحت كالأسيرة عند قومها .. بعيدة عن زوجها الذي انطلق إلى المدينة فاراً بدينه، وعن ابنها الذي انتزع من على صدرها .. كانت أم سلمة، رضي الله عنها، تصف حالها بعد ذلك فتقول :

فكنتُ أخرج كل غداة فأجلس بالأبطح، فما أزال أبكي حتى أمسي .. سنة أو قريباً منها إلى أن مرّ بي رجل من بني عمّي..

لقد بقيت الأم الصابرة والزوجة الوفية تنتظر حتى مرّ بها ذاك الرجل من أهلها فآلمه ما أصابها ، وأقنع القوم بإطلاق سراحها فقالوا لها : الحقي بزوجك إن شئت.[1]

---

(١) انظر: سيرة ابن هشام (مج١/٤٦٨-٤٦٩).

وأعيد الطفل إلى أمه، وأكملت الصابرة الصادقة هجرتها، واجتمع الشمل في رحاب المدينة المنورة .. وقرّت العين بلقاء النبي عليه الصلاة والسلام وصحبته من جديد.

تروي أم سلمة، رضي الله عنها، أنها قالت لرسول الله ﷺ يوماً : يا رسول الله ! لا أسمع الله ذكر النساء في الهجرة بشيء .. فأنزل الله تعالى : ﴿ فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَـٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ﴾.(١)

إن أم سلمة، رضي الله عنها، لم يمنعها الحياء من أن تسأل عن حقّ النساء .. فوجدن في تنزيل القرآن خير عزاء، وأيقنت أنها تؤمن بدين لا يفرق بين ذكر وأنثى في الجزاء ..

مضت السنة الأولى للهجرة وجاءت موقعة بدر، وشارك أبو سلمة ﷺ في القتال .. ثم جاءت أحد وأبو سلمة مع المجاهدين. ولكنه أصيب ﷺ بجرح بليغ لم يلبث أن شفي منه وبرئ، فبعثه رسول الله ﷺ في سرية إلى أرض بني أسد، فلما عاد انتقض جرحه وأبى أن يلتحم، فكانت الشهادة جزاءه الكريم، وغلب على أم سلمة، رضي الله عنها، البكاء والحزن وفاءاً لأبي سلمة وتقديراً لجهاده.

وتذكرت الأرملة الصابرة - وهي تبكي زوجها - حديثاً دار بينها وبينه يوماً عندما قالت له: تعال أعاهدك ألّا تزوّج بعدي ولا أتزوّج بعدك ! فقال : أتطيعيني ؟ قالت : نعم .. فقال أبو سلمة : إذا متّ تزوّجي، ودعا: اللهم ارزق أم سلمة بعدي رجلاً خيراً مني لا يحزنها ولا يؤذيها.(٢) ولكن من لها بخير من أبي سلمة ؟! وهو الذي دعا له النبي ﷺ فقال : « اللهم ! اغفر لأبي سلمة، وارفع درجته في المهديّين ».(٣)

وعظمت الفجيعة على أم سلمة، رضي الله عنها، وفي غمار الحزن والحسرة تذكّرت قول النبي عليه الصلاة والسلام : « من أصابه مصيبة فلْيقل : إنّا لله وإنّا إليه راجعون، اللهم عندك أحتسب مصيبتي فأجُرْني فيها، وأبْدِلْني خيراً منها » .. تذكّرت أم سلمة، رضي الله

---

(١) سورة آل عمران (١٩٥)، وانظر الخبر في المستدرك (ج٢/٣٠٠).

(٢) انظر: سير أعلام النبلاء (ج٢/٢٠٣).

(٣) صحيح مسلم (ج٢/٦٣٤).

عنها، ذلك، فأرادت أن تقول العبارة النبوية، ولكن القلب يأبى أن يصدّق أن هناك أفضل من أبي سلمة .. ثم غلبتها التقوى فطبّقت الوصية.. وهذه أم سلمة، رضي الله عنها، تروي لنا ما كان من أمرها ذاك فتقول : وكنت إذا أردت أن أقول : فأبْدِلْنِي خيراً منها، قلت في نفسي : مَن خير من أبي سلمة ؟ .. ثم قلتها .. فأخلف الله لي رسول الله ﷺ.[1]

وقد روي أن رسول الله ﷺ أرسل إليها من يخطبها، فخافت أن تؤذيه بغيرتها، فقالت له : لكني امرأة فيَّ غيرة شديدة، فأخاف أن ترى مني شيئاً يعذّبني الله به، وأنا امرأة قد دخلت في السنّ وأنا ذات عيال، فقال عليه الصلاة والسلام : « أمّا ما ذكرت من الغيرة فسوف يُذهبها الله عزّ وجلّ منك، وأما ما ذكرت من السنّ فقد أصابني مثل الذي أصابك، وأمّا ما ذكرت من العيال فإنما عيالك عيالي »، فقالت رضي الله عنها، سلّمت لرسول الله .. فتزوّجها عليه الصلاة والسلام .. وكانت أم سلمة، رضي الله عنها، تقول : أبدلني الله بأبي سلمة خيراً منه : رسول الله ﷺ.[2]

وهكذا حازت أم سلمة، رضي الله عنها، بصبرها وصدقها وخصالها الحميدة فضل الانتقال إلى بيت النبوة .. وشهد أهل المدينة لهذه العروس المباركة شهادة نادرة، فكانوا يقولون دخلت أيِّم العرب على سيد الإسلام والمسلمين أول العشاء عروساً، وقامت من آخر الليل تطحن، وهي أم المؤمنين رضي الله عنها.[3]

وعاشت أم سلمة، رضي الله عنها، في كنف النبوة يَزِيْنُ حياتَها حبُّ المصطفى عليه الصلاة والسلام، ذلك الحب المقدس الذي كان يدفعها للمكرمات، فكانت تشتري الرقيق ثم تعتقهم وتشترط عليهم خدمة رسول الله ..

وكانت تنازع الناس فضل وضوئه لتتبرك به .. وكانت تحتفظ بشعرات مباركات من شعره عليه الصلاة والسلام في إناء من فضة تريه لكلّ عزيز ومحبّ، وتنقعها في ماء تعطيه للمرضى الذين يرغبون في التبرك بتلك الشعرات ..

---

(١) انظر: المستدرك (ج٢/١٧٨).

(٢) مسند الإمام أحمد (ج٤/٢٧).

(٣) سير أعلام النبلاء (ج٢/٢٠٥).

وبدافع من ذلك الحب جلست تبكي عندما خصّ رسول الله ﷺ علياً وفاطمة وولديهما الحسن والحسين ﷺ بالدعاء ووصفهم بأهل البيت .. ولم تكفكف الدموع حتى قال لها الحبيب ﷺ : « وأنت إلىّ خير ».[1]

ولكن الحبّ له تبعات وغيرة وأوجاع، فكانت أم سلمة، رضي الله عنها، تغار من ضرائرها ويغرن منها .. لكنّ قلباً طهّره الإيمان لا يفتح للشيطان باباً إذا هبّت عليه عواصف الغيرة، فعندما سُئلت أم سلمة عن ضَرتها زينب بنت جحش، رضي الله عنهما، ما منعها غيرتها من أن تنصفها، وهي الراوية الصادقة التقية، فقالت عنها : كانت امرأة صالحة، صوّامة قوّامة، صَنّعاً تتصدّق بذلك كلّه على المساكين ..[2]

هكذا كانت أم سلمة، رضي الله عنها، تتزين بالأخلاق الحميدة، وكانت تجمع إلى كل ذلك الحكمة وعلوّ الهمة والتدبير وحسن التقدير .. فقد رُوي أنه عندما خرج رسول الله ﷺ إلى غزوة (دُومَة الجَنْدَل)، عاد فوجدها قد بنت بيتاً من لبن لتكف أبصار الناس ..[3]

وتلاحقت الأيام والسنوات وأم المؤمنين إلى جانب رسول الله ﷺ، تشهد أحداث الرسالة المباركة وترافقه عليه الصلاة والسلام في بعض غزواته كغزوة الطائف وخيبر ..

وفي يوم الحديبية بدا من حكمتها ما غلبت به الرجال، ففي ذلك اليوم أمر رسول الله ﷺ صحابته أن يتحللوا من الإحرام للعمرة فينحروا ويحلقوا، وذلك بعد أن رفضت قريش أن يدخلوا مكة ذلك العام وتأهّبت لقتالهم .. لكن رسول الله عليه الصلاة والسلام صالحهم، وكان من شروط الصلح أن يعود المسلمون إلى المدينة ويأتوا للعمرة في العام التالي، وقد عظم هذا الأمر على الصحابة، فلم يستجيبوا لأمر رسولهم الكريم .. وكانت أم سلمة، رضي الله عنها، تعيش أحداث الإسلام بفكرها وقلبها وضميرها .. فلما رأت حال المسلمين أشارت على رسول الله ﷺ أن يخرج إليهم ثم لا يكلّم أحداً منهم حتى ينحر بُدْنَه[4] ويدعو حالقه

---

(١) انظر: سير أعلام النبلاء (ج٣/٢٨٣)، والمستدرك (ج٢/٤١٦).

(٢) انظر: طبقات ابن سعد (ج٨/١٠٣). وصَنّعاً : أي حاذقة ماهرة بعمل اليدين.

(٣) انظر: طبقات ابن سعد (ج١/٤٩٩). ودُومَة الجَنْدَل : مكان في شمال الجزيرة جنوب الشام.

(٤) البُدْن : جمع البَدَنة وهي الناقة أو البقرة تُنحر بمكّة.

فيحلق له .. لقد أدركت رضي الله عنها أن الصحابة الكرام سيتابعون رسول الله ﷺ إذا قام فتحلّل، ولن تطاوعهم أنفسهم إذا رأوه تحلّل ألّا يفعلوا .. فلما بدأ عليه الصلاة والسلام بالتحلّل، قاموا فنحروا وحلقوا ..[1]

وكان من فضل أم سلمة، رضي الله عنها، أن نقلت لنا من بيت النبوة نفحات الهداية والنور .. نقلت لنا منه أقوالاً وأفعالاً ومشاهد تبعث في النفس الفهم والقرب والسرور .. فروت لنا كثيراً من أحاديث شمائله عليه الصلاة والسلام .. وعن عظيم كرمه وهلعه عليه الصلاة والسلام يوم نسي سبعة دنانير في فراشه، فبات دون أن ينفقها .. وعن أحب الأعمال إليه .. وعن أخبار توبة الله على الصحابة ..

كما نقلت أخبار الحزن والفاجعة عندما فارقهم النبي عليه الصلاة والسلام واختار الجنات .. وغير ذلك من الأحاديث الشريفة .. فمن ذلك ما روته لنا عن جسده الشريف ﷺ كيف كان يرشح عطراً إلى يوم فارق الدنيا فقالت : وضعت يدي على صدر رسول الله ﷺ يوم مات فمرَّت لي جُمَع آكل وأتوضأ وما يذهب ريح المسك من يدي ..[2]

مضى عصر الرسالة .. وصارت أم المؤمنين مقصد الصحابة والتابعين بحكمتها وصدقها وقربها من المصطفى ﷺ .. يسمعون منها طيب الكلام عن نبيّهم الكريم عليه الصلاة والسلام، ويستشيرونها في أمور الفقه .. وكان عمر بن الخطاب ﷺ في خلافته يخصّها بالعطاء ويقول : فليأت الذي يستعتب بأمٍ مثلِ أمِّ سلمة فأُعتِبَه.[3]

وظلّت أم سلمة، رضي الله عنها، منبعاً للعطف والحنان لم يجف بتقدّم سنها .. فقد رُوي أن الحسن البصري إمامَ أهل البصرة في العراق ومجدّد الدين في الآفاق، قد تربّى في منزلها .. إذ كان أبوه مولىً لزيد بن ثابت وأمه مولاة لها. روي أن أمه تركته يوماً لأمر فأخذ يبكي بكاء تفطّر له قلب أم سلمة، رضي الله عنها، فدرّ له لبنها، فأخذته في حضنها تعلّله بثديها حتى تعود أمه. ولعلّ هذا اللبن الممزوج بحب النبي ﷺ وأهل البيت، وبالتقوى والحكمة

---

(١) انظر : صحيح البخاري (ج٤/١٤٨٦).

(٢) البداية والنهاية (ج٥/٢١١).

(٣) أعتبه : أزال عتباه.

والورع والذكاء قاد الحسن البصري ليصل إلى ما وصل إليه من علم ومكانة ..[1]

وعاشت أم سلمة، رضي الله عنها، محلّقة في سماء المكرمات حتى ولاية يزيد بن معاوية .. فكانت آخر أمهات المؤمنين لحاقاً بالنبي عليه الصلاة والسلام .. لقيت ربها زمن يزيد بن معاوية سنة ثنتين وستين للهجرة [2]، تاركة وراءها سيرة وضاءة ونهج عزّ وامتنان تفخر به كلّ مسلمة في كلّ زمان ..

فلا تنس إذا ما زرت المدينة المنورة أن تُعرّج على البقيع .. لتسلّم على أمنا وأم جميع المؤمنين والمؤمنات، أم سلمة، رضي الله عنها وأرضاها ..

ثم توسّل إلى الله بالدعاء أن يجعلنا أبناءً بارين بها، سائرين على نهجها .. نهج المصطفى إمامنا وقدوتنا .. صلوات الله وسلامه عليه.

---

(١) انظر: حلية الأولياء (ج٢/١٤٧).

(٢) مجمع الزوائد (ج٩/٢٤٦).

عَبدُ اللهِ بنُ حُذافةَ السَّهْميّ رضي الله عنه

ليتَ لي مئةَ ألفِ نفسٍ تموتُ في سبيل الله !

عبدُ الله بنُ حُذافةَ السَّهْميّ

ابن قيس بن عدي بن سعد السهمي القرشي

يطلع علينا هذه المرة رجل من قريش .. من أوائل السابقين إلى الإسلام الذين شهدوا انبثاق خيوط الفجر الأولى لهذا الدين العظيم في مكة المكرمة وكان من المهاجرين الأولين إلى الحبشة [1]، ثم إلى المدينة المنورة حيث انضم فيها سريعاً إلى كتيبة المجاهدين مع رسول الله ﷺ فنال وسام الشرف (بدريّ) [2] وأيُّ وسام !! وقال ﷺ في حملة ذلك الوسام : « لعلّ الله اطّلع إلى أهل بدر فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم ». [3]

وقد كان لعبد الله بن حُذَافَة ﷺ دعابة شُهر بها، فقد روي أن النبي عليه الصلاة والسلام قد أمّره ذات مرة على سرية .. فأمر عبد الله جنده أن يجمعوا حطباً ويوقدوا ناراً .. فلما أوقدوها أمرهم بالدخول فيها .. فأبى الجند .. فقال لهم : أليس لي عليكم السمع والطاعة ؟ قالوا : بلى، قال : فإني أعزم عليكم بحقّي وطاعتي إلّا توالبتم .. بمازحهم بذلك .. فأخبروا رسول الله ﷺ فقال : « من أمركم منهم بمعصية فلا تطيعوه » .. [4]

وشكا بعض الناس ابن حذافة إلى رسول الله ﷺ أنه صاحب مزاح فقال عليه الصلاة والسلام : « اتركوه فإنّ له بطانة يحبّ الله ورسوله » [5]، فماذا عليه بعد شهادة الرسول ﷺ لو مازح أو داعب.

ومن ثم نراه يتألق - برغم دعابته - في ميادين الجهاد والدعوة إلى الله لشدة حبه لله ورسوله ﷺ، وما كان يتصف به من إيمان عميق وشدة إخلاص لله سبحانه .. لذا نراه رضوان الله عليه وقد اختاره النبي صلوات الله وسلامه عليه رسولاً يحمل كتابه إلى كسرى كي يدعوه

---

(١) الهجرة الثانية في السنة السابعة من البعثة.

(٢) أي شهد بدراً.

(٣) صحيح البخاري (ج٤/١٤٦٣).

(٤) سير أعلام النبلاء (ج٢/١٣)، أخرجه الإمام أحمد (ج٣/٦٧).

(٥) انظر: حياة الصحابة (ج٣/١٩).

إلى الإسلام .. لكن كسرى مزق الكتاب. فلما بلغ الخبر رسول الله ﷺ قال : « اللهم مزّق ملكه ».[1] وقد سلّط الله على كسرى ابنه شيرويه فقتله سنة سبع للهجرة ..[2]

أما الموقف الذي سجله له التاريخ بإكبار وإعزاز .. فذلك حين وجّه عمر بن الخطاب ﷺ جيشاً إلى الروم وفيهم عبد الله بن حذافة ﷺ .. فأسره الروم .. فذهبوا به إلى ملكهم .. فنظر إليه الملك فرآه شاباً مرحاً قوي النفس لم ير على وجهه أثر ملاقاة الأسير للملك .. فلا خضوع ولا استكانة ولا ذلّ ولا صَغَار .. وقد كان يسمع عن أصحاب محمّد ﷺ وما لهم من قوة الروح وعظمة النفس والزهد في الدنيا والثبات على المبدأ ما جعله يشتاق لرؤياهم .. فأراد أن يختبر عبد الله ليرى مقدار اعتزازه بدينه، وثباته على مبدئه ..

فقال الملك : يا عبد الله ؟ تنصّر أشركك في ملكي ولك ما تحب وتختار !! وظنّ أنه يقدر أن يشتري ضمير بعض تلاميذ محمّد عليه الصلاة والسلام بأغلى لمن يُدفع، لكن سهمه قد أخطأ المرمى ..

فقد أبى عبد الله ﷺ أن يبيع دينه ومبدأه .. وأنّى لمؤمن أن يتّجر في دينه ووطنه وقد ترك وراءه الدنيا بحذافيرها .. فأشار عبد الله برأسه : لا ! و (لا) هذه عظيمة القدر في هذا الموطن الذي ستزهق فيه الروح ..

فلما رأى الملك فيه تلك النفس الأبية والروح السامية الزكية، عمد إلى الترهيب بعد الترغيب .. فأمر بأن يصلب على جدار ويرمى بالسهام حتى تفارق روحه الحياة .. فلم يجزع عبد الله ﷺ و لم يتحرّك له لسان و لم يختلج له جنان .. بل بقي مبتسماً .. كأنما هو مقبل على حبيب قد اشتد شوقه إليه .. فغاظ الملكَ ما رأى من عبد الله ومن ثباته .. فقال في نفسه : لأعذّبنّه عذاباً لم أعذّبه أحداً من قبل ..

فأمر بقدر عظيمة فصبّ فيها الماء وأجّج تحتها النيران حتى غَلَتْ وفارت .. وأمر بإلقاء أسير كان قد أحضره من أسارى المسلمين وعرض عليه ما عرض على عبد الله فأبى .. وأثر

---

(١) انظر: الاستيعاب في معرفة الأصحاب (ج٣/٨٨٩).

(٢) انظر: فتح الباري (ج٨/١٢٨).

الموت في سبيل الله على الحياة في غضب الله .. وآثر جهنم الدنيا على جهنم الآخرة ..

قال عبد الله ﷺ : وقد كنت بجانبه أنظر إليه حينما ألقوه في القدر، فما برح والله إلا لحظات وإذا بعظامه فائرة تلوح على وجه القدر .. وذاب ما بقي منه كما يذوب الملح في الماء ..

فالتفت الملك إلى عبد الله ﷺ وظنّ أنه قد قطع نِيَاط[1] قلبه بما فعل .. وأن عبد الله يرهبه الموت كما يرهب الناس .. فقال : يا عبد الله .. إما أن تتنصّر وإما أن تكون مرافقاً لأخيك في هذه القدر .. فأبى عبد الله ولم تتغير له عزيمة ولا ارتاب .. وبقي رابط الجأش غير خائف ولا هياب .. فأمر جنده أن يلقوه في غيابة القدر وله أسوة بمن سلف ..

فلما ذهبوا به انحدرت دموعه على خدّيه تتقاطر كحبّ الغمام .. ففرح الملك وظنّ أنه وصل إلى ما يتوقّعه ويتمنّاه .. فقال : ردّوه .. ثم قال له هازئاً مستخفاً : لم بكيت يا عبد الله؟ ألزوجة تحبّها ؟ أم لبنين وبنات قد بعدت عنهم ؟ أم لدنيا ستفارقها عن قريب عاجل ! فكفكف عبد الله دموعه براحتيه، وأجاب بكلمة سطّرها له التاريخ في سجل الخلود، وذهبت مثلاً أعلى لمن بعده من الأجيال :

والله أيها الملك : ما بكيت زوجة ولا ولداً ولا دنيا ولا وطناً، وإنما بكيت أن لي نفساً واحدة تذوب على هذا اللهب، ليت لي مئة ألف نفس تموت هذه الميتة في سبيل الله، على مثل هذا أبكي وأنوح ..

سمع الملك تلك الكلمة الصادرة من قلب مؤمن قد امتلأ عفّة وثباتاً .. فملكت عليه مشاعره، وامحت من نفسه عزّة الملك، وعَظُم في عينه ثم عَظُم .. وصغر الملك في نفسه ثم صغر .. ونظر إلى عبد الله مكبّلاً مغلولاً فرآه في عينه ملَكاً سماوياً له عظمة الملك وهيبة السلطان .. يأمر ولا يُؤمر عليه .. ويُطاع ولا يطيع .. فارتاعت نفسه الخاسرة الأمّارة بالسوء أن تتقرب من تلك النفس الزكية المطمئنة !..

قال الملك : يا عبد الله ! أتُقبّل رأسي وتذهب طليقاً وأخلّي عنك السبيل ؟!

---

(١) نِياط : عرق متصل بالقلب إذا قطع مات صاحبه.

ومن لا يطمع قبلة على جبين ملك مسيطر غاشم ثم ينجو بعد ذلك من موت محتم قادم ؟! إلّا أن نفس عبد الله السامية العظيمة التي رَوِيَت من معين الإسلام وغُذّيت بحب التضحية الصحيحة أبت أن تنجو وحدها .. أن تعيش بصفاء وهناءة وتترك إخوانها مقرّنين بالأصفاد يسامون سوء العذاب .. فقال عبد الله - والملك ينتظر ما يقول وقد ظنّ أنه رضي - : أتخلّي عني وعن جميع أسارى المسلمين ؟

فعَظُم عبد الله في نفس الملك أكثر من ذي قبل، ودهش مما سمع، وقال في نفسه : ما هذا بشراً إن هذا إلّا ملك معصوم ! وفي الحقيقة : إن الإيمان قد جعل الأسير ملكاً يأمر وينهى.. وجعل الخصم عبداً صاغراً بعد أن كان ملكاً مسيطراً ..

فقال الملك : نعم أنت وجميع من عندي من أسارى المسلمين .. ولو طلب فوق ذلك لأداه عن طيب نفس وهو مجبور .. فكأن عبد الله سلب منه ثوب الملكية وألبسه ثوب العبودية بإيثاره وتضحيته وثقته بالله .. وقبّل عبد الله ﷺ جبين الملك، فرضي وخلّى عنه وعن جميع أسارى المسلمين.

وانطلق عبد الله ﷺ بمن معه من المسلمين إلى عمر بن الخطاب ﷺ .. فلما قدموا عليه وأخبروه قصتهم .. قام عمر ﷺ إلى عبد الله بن حذافة فقبّل رأسه إكراماً وإجلالاً له قائلاً : حقاً على المسلمين أن يقبلوا رأس عبد الله، حقاً على المسلمين أن يقبلوا رأس عبد الله ..[1]

وامتد عمره إلى خلافة سيدنا عثمان، رضي الله عنهما .. ثم توفي في السنة الثامنة والعشرين .. مسلماً روحه إلى بارئها مخلداً وراءه ذكراه المشرقة الناصعة ..

هذا هو عبد الله بن حذافة.. تلميذٌ تخرّج من مدرسة محمّد ﷺ. رَوِيَ من مَعين الإيمان فيها، وأصبح مثلاً أعلى لمن بعده .. وشقّ الطريق لمن أراد أن يضحي في سبيل عقيدته.. وزرع في قلوب الشباب بذور الإيمان الصادق بصدق إيمانه وثقته المطلقة بالله عزّ وجلّ ..[2]

---

(١) انظر خبر قصته مع ملك الروم في حياة الصحابة (ج١/٢٨١-٢٨٢) ، وتهذيب التهذيب (ج٥/١٨٥).

(٢) من كتاب نفحات الخلود للشيخ محمّد صالح الفرفور (ج١/١٥) بتصرف.

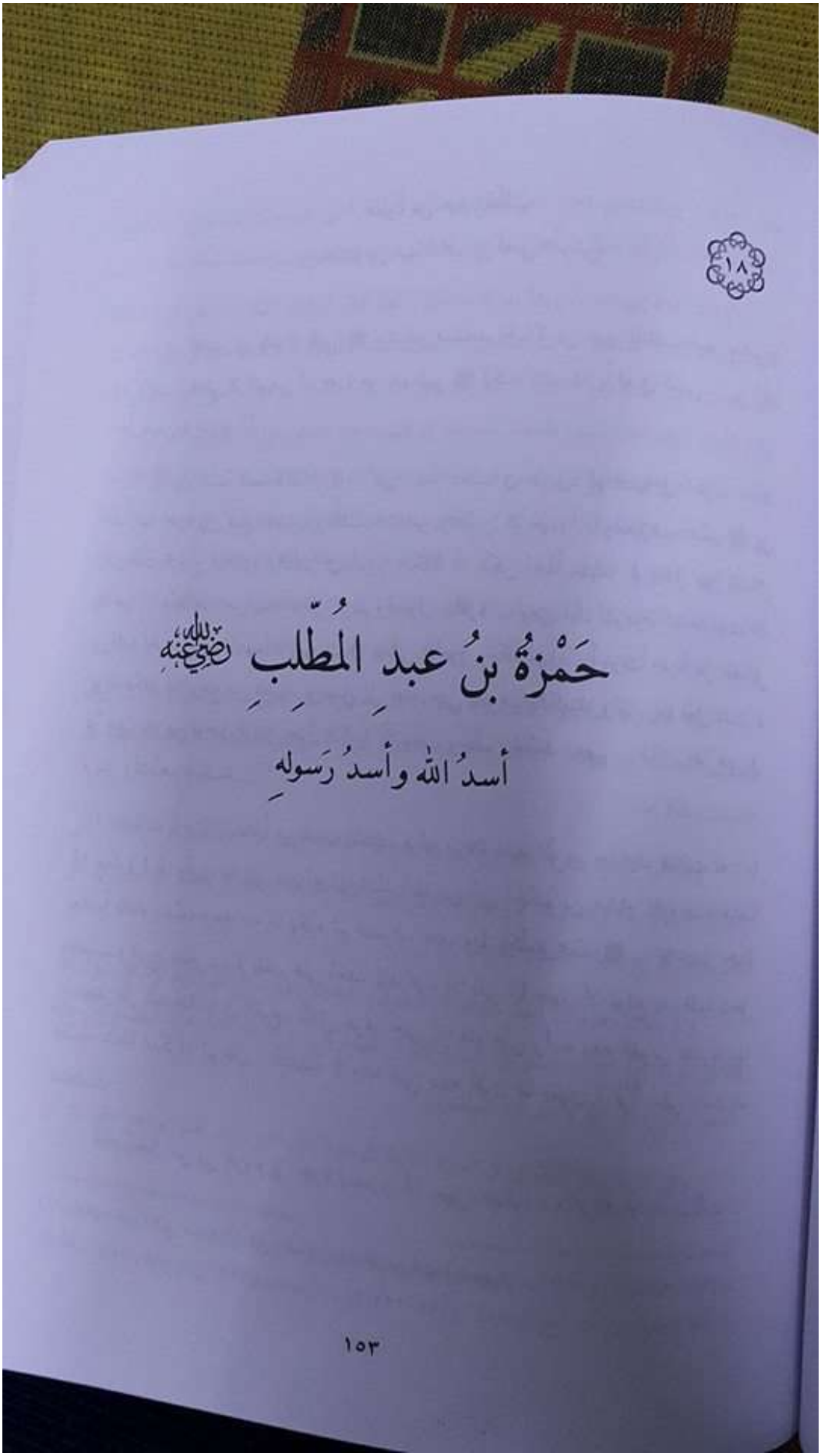
١٨
حَمْزَةُ بنُ عبدِ المُطّلِبِ رضي الله عنه
أسدُ الله وأسدُ رَسولِهِ
١٥٣

حَمْزَةُ بنُ عبدِ المطّلب

ابن هاشم بن عبد مَناف بن قُصَيّ القُرشيّ

إن بحثت في طفولة النبي ﷺ وشبابه فستجد لحَمْزَة بن عبد المطلب فيها مشاركة وذكرى .. فعلى الرغم من أن حمزة هو عم النبي ﷺ لكنه كان مقارباً له في السن .. بل كان أخاً له من الرضاع [1]..

وحين شبّ الصديقان افترقا .. كلّ منهما ذهب في طريق، ثم التقيا في آخره .. فقد انصرف حمزة إلى متع الصيد ورغائب الشباب ومجالس الوجهاء .. وانصرف محمّد ﷺ إلى إشراقات الروح والخلوة والتأمل في أسرار الكون .. لكن أحداً منهما لم يغفل عن فضائل الآخر .. فكلاهما من بيت عريق كريم وأصول طاهرة .. ومن آباء يقومون بخدمة بيت الله ورفادة الحجاج وسقايتهم، ويسيرون في معالي الأمور ومكارمها .. وورث حمزة من فضائل قومه فكان إذا رجع من الصيد لم يصل إلى أهله حتى يطوف بالكعبة، وكان إذا فعل ذلك لم يمرَّ على ناد من نوادي قريش حول الكعبة إلّا وقف وسلّم وتحدّث معهم .. فكان أعزّ فتى في قريش وأشدّهم شكيمة .. [2]

وذات يوم كان عائداً من قَنصه المعتاد، فرأته مولاة لعبد الله بن جدعان فقالت له : يا أبا عمارة ! لو رأيت ما لقي ابن أخيك محمّد آنفاً من أبي الحكم بن هشام !! وجده هاهنا جالساً فآذاه وسبّه، وبلغ منه ما يكره ثم انصرف عنه، ولم يكلّمه محمّد ﷺ .. فاحتمل حمزة الغضب وخرج يسعى، ولم يقف على أحد، لقد عزم إذا لقي أبا جهل أن يوقع به، فلما دخل المسجد نظر إليه جالساً في القوم، فأقبل نحوه، حتى إذا قام على رأسه رفع القوس فضربه بها فَشَجّه شجّة منكرة، ثم قال : أتشتِمُهُ ؟ وأنا على دينه أقول ما يقول ! فَرُدَّ علي ذلك إن استطعت ..

فقام رجال من بني مخزوم إلى حمزة لينصروا أبا جهل، فقالوا : ما نراك إلّا قد صبأت ..

---

(١) أرضعتهما مولاة لأبي لهب وذلك قبل إرضاع رسول الله من حليمة السعدية.

(٢) انظر: سيرة ابن هشام (مج١/٢٩٢)، والمستدرك (ج٣/١٩٢-١٩٣).

فقال حمزة : وما يمنعني وقد استبان لي منه، فوالله لا أنثني عن ذلك فامنعوني إن كنتم صادقين، فقال لهم أبو جهل : دعوا أبا عمارة، فإني والله قد سببت ابن أخيه سبّاً قبيحاً ..

وعاد حمزة إلى بيته .. وبدأ يدرك ما فعل : لقد أعلن إسلامه حميّة .. ولكن هل اطمأنّ قلبه بالإيمان ؟! لا .. فقد بدأت وساوس الشيطان تنتابه وتقول له : أنت سيد قريش، أتبعت هذا الصابئ وتركت دين آبائك ؟ لَلموت خير لك مما صنعت .. فشُبِّه على حمزة الأمر ثم قال: اللهم ! إن كان رُشداً فاجعل تصديقه في قلبي، وإلّا فاجعل لي مما وقعت فيه مخرجاً .. فبات بليلة لم يبت بمثلها من وسوسة الشيطان حتى أصبح، فغدا على رسول الله ﷺ فقال : ابن أخي ! إني وقعت في أمر لا أعرف المخرج منه، وإقامةُ مثلي على ما لا أدري ما هو أرشدٌ هو أم غَيّ شديد .. فأقبل عليه رسول الله ﷺ فذكّره ووعظه وخوّفه وبشّره .. حتى ألقى الله تعالى في قلبه الإيمان بما قال رسول الله ﷺ .. فقال : أشهد أنك لصادق ... فأظهر يا ابن أخي دينك، فوالله ما أحب أن لي ما ألمعت الشمس وأني على ديني الأول.[1]

أيّةُ طمأنينة سكبتها كلمات النبوة في قلب حمزة ﷺ حتى استقر فيه الإيمان ؟! وأيُّ انقلاب أحدثته في موقفه ؟! لقد انقلب الشكّ يقيناً .. والتردّد ثباتاً .. وانضم حمزة إلى الصحب الكرام.

وهاجر سيدنا حمزة ﷺ إلى المدينة مع من هاجر إليها من المسلمين .. وهناك آخى رسول الله ﷺ بينه وبين زيد بن حارثة مولى النبي عليه الصلاة والسلام ليثبت أن الناس في ظل الدين الجديد سواسية كأسنان المشط ..

ولم يلبث حمزة أن أخذ مكانه في صفوف المجاهدين في سبيل الله، فقد أرسله رسول الله ﷺ في سرية إلى سيف البحر في السنة الأولى للهجرة .. وكانت راية حمزة البيضاء أولَ راية عقدها رسول الله ﷺ لأحد من المسلمين.[2]

وفي غزوة بدر الكبرى في السنة الثانية للهجرة كان حمزة أول المبارزين مع علي بن أبي

---

(١) انظر: المستدرك (ج٣/١٩٣)، وسيرة ابن هشام (مج١/٢٩٢).

(٢) انظر: سيرة ابن هشام (مج١/٥٩٥).

طالب وعبيدةَ بن الحارث ﷺ، وسرعان ما قتل حمزةُ شيبةَ بن ربيعة .. فلما احتدمت المعركة كان حمزة يخترق الصفوف وفي صدره ريشة بيضاء قد أعلم بها .. كأنه جمل يحطم بناءً ..[1]

مضت أفراح بدر .. وشاء الله أن تُطوى صفحات الصحبة وتنتهي حياة العم الحبيب والصاحب القريب نهاية مشرقة في غزوة أُحُد ..

لما اشتعلت نيران المعركة كان حمزة ﷺ على رأس الحُسَّر من جيش المسلمين يقاتل بين يدي رسول الله ﷺ بسيفين .. ولنترك الحديث لوحشي بن حرب يحدثنا عن مقتل حمزة ﷺ كنت غلاماً لجُبير بن مُطْعِم وكان عمّه طُعيمة بن عَدِيّ أُصيب يوم بدر .. فلما سارت قريش إلى أُحُد قال لي مولاي : إن قتلت حمزة عمّ محمّد بعمّي فأنت عتيق .. قال : فخرجت مع الناس، وكنت رجلاً حبشياً أقذف بالحربة قذف الحبشة، قلّما أخطئ بها شيئاً ، فلما التقى الناس خرجت أنظر حمزة وأتبصّره، حتى رأيته في عرض الناس مثل الجمل الأورق، يهدُّ الناس بسيفه هدّاً ما يقوم له شيء، فوالله إني لأتهيّأ له، أريده وأستتر منه بشجرة أو حجر ليدنو مني ... وهززت حربتي حتى إذا رضيت منها دفعتها عليه ، فوقعت في ثُنّته حتى خرجت من بين رجليه، وذهب لينوء[2] نحوي، فغُلِب، وتركته وإياها حتى مات، ثم أتيتُه فأخذت حربتي ثم رجعت إلى العسكر فقعدت فيه، ولم يكن لي بغيره حاجة.. وإنما قتلته لأعتق، فلما قدمت مكة أُعتقت ..[3]

وفي نهاية المعركة جاءت هند بنت عتبة والنسوة اللاتي معها فمثّلْن بجثث القتلى من المسلمين .. وبقرت هند كبد حمزة ﷺ، فلاكتها فلم تستطع أن تسيغها فلفظتها .. ومرَّ الحُليس بن زبّان ـ وهو يومئذ سيد الأحابيش[4] ـ بأبي سفيان وهو يضرب في شدق حمزة بن عبد المطلب ﷺ برمحه ويقول: ذق عُقَق[5]، فقال الحليس: يا بني كنانة، هذا سيد قريش يصنع

---

(١) مجمع الزوائد (ج٦/٨١).

(٢) ينهض متثاقلاً.

(٣) انظر: سيرة ابن هشام (مج٢/٧١-٧٢).

(٤) بطون من القبائل العربية الضاربة حول مكة وكانت قريش استنفرتهم ليقاتلوا معها في أُحُد.

(٥) يقصد أن حمزة عقّ قومه من كفار قريش.

بابن عمه ما ترون لحماً [1]، فتحمل أبو سفيان وقال : ويحك اكتمها عني فإنها كانت زلّة!..[2]

وخرج رسول الله ﷺ بعد معركة أُحُد يبحث عن حمزة بن عبد المطلب ﷺ، فوجده ببطن الوادي، وقد بقر بطنه عن كبده ومثّل به فجدع أنفه وأذناه، فرأى رسول الله ﷺ منظراً لم يرَ قط أوجع لقلبه منه فبكى حتى شهق وقال : « لن أصاب بمثلك أبداً، ما وقفت موقفاً قطّ أغيظ إليّ من هذا »، ثم قال : « رحمة الله عليك، قد كنت وَصولاً للرحم، فعولاً للخيرات، ولولا حزن من بعدك عليك لسرّني أن أدَعَك حتى تجيء يوم القيامة من أفواه شتّى [3] »، وفي تلك الأثناء نزل جبريل عليه السلام معزّياً رسول الله ﷺ فقال : « حمزة بن عبد المطلب مكتوب في أهل السموات السبع، حمزة بن عبد المطلب، أسد الله، وأسد رسوله » ..[4]

ولمّا رأى المسلمون حزن رسول الله ﷺ وغيظه لما فُعل بعمه، قالوا : والله لئن أظفرنا الله بهم يوماً من الدهر لنمثلن بهم مُثلة لم يمثلها أحدٌ من العرب .. فأنزل الله عز وجل قوله : ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ ﴾[5]، فنهى رسول الله ﷺ عن المثلة.. وقال ﷺ : « سيد الشهداء عند الله تعالى يوم القيامة حمزة » ..[6]

وأقبلت صفية بنت عبد المطلب لتنظر إلى أخيها حمزة، رضي الله عنهما .. فقال رسول الله ﷺ لابنها الزبير بن العوام : « الْقَها فأرْجِعْها لا ترى ما بأخيها » .. فقال لها: يا أُمّه [7]! إن رسول الله ﷺ يأمرك أن ترجعي .. قالت: ولِمَ ؟ وقد بلغني أنه قد مُثّل بأخي وذلك في الله فما أرضانا بما كان من ذلك ! لأحتسبن ولأصبرن إن شاء الله .. فلما جاء الزبير إلى رسول

---

(١) أي قتيلاً لا يجيد الدفاع عن نفسه.

(٢) انظر: سيرة ابن هشام (مج٢/٩١-٩٣).

(٣) أي يتركه دون أن يدفنه فتأكله الضباع والسباع والطيور.

(٤) انظر: سيرة ابن هشام (مج٢/٩٥-٩٦)، والمستدرك (ج٣/١٩٧).

(٥) سورة النحل (١٢٦-١٢٧).

(٦) انظر: المستدرك (ج٣/١٩٩).

(٧) أي يا أمي.

الله فأخبره بذلك قال : « حلّ سبيلها » .. فأتته فنظرت إليه، فصلّت عليه واسترجعت واستغفرت له، ثم جاءته بثوبين لتكفنه .. وكان إلى جانب حمزة ﷺ شهيد آخر لا كفن له، فجعلوا أحد الثوبين له وكفّنوا حمزة في ثوب واحد .. ودُفن الشهداء في مصارعهم بدمائهم لقول رسول الله ﷺ : « ادفنوهم حيث صُرعوا » ..[1]

وظلّ رسول الله ﷺ يزور شهداء أُحُد، ويستغفر لهم، ويسلّم عليهم .. وهناك عند جبل أُحُد ريح طيبة من ريح الجنة تعبق بها قبور متواضعة لم ترتفع عن الأرض ولم تتغيّر بشيء .. لكن الزوّار المسلمين من الحجاج والعمّار يأتونهم من كل أنحاء العالم ليقدّموا أطيب التحية إلى من أرسى دعائم الإسلام في الأرض وقضى نحبه قبل أن يرى نصراً ومجداً .. فإذا قلت مع القائلين : السلام عليك يا حمزة .. يا مصعب .. يا .. اختنق صوتك بالدموع ..

ولعلّك تُردّد رثاء كعب بن مالك لحمزة، رضي الله عنهما :

بكت عيني وحُقّ لها بُكاها ... وما يغني البكاء ولا العويلُ

على أسد الإله غداةَ قالوا ... أحمزةُ ذاكمُ الرجلُ القتيلُ

أُصيب المسلمون به جميعاً ... هناك وقد أُصيب به الرسولُ

أبا يعلى لكَ الأركانُ هُدّت ... وأنت الماجد البرّ الوَصولُ

عليك سلام ربّك في جنانٍ ... مخالطها نعيم لا يزولُ[2]

---

(١) انظر: سيرة ابن هشام (مج٢/٩٧-٩٨).

(٢) أسد الغابة (ج٢/٤٨).

فاطمةُ بنْتُ أَسَد رضي الله عنها

«كُنتِ أُمّي بعد أُمّي»

(مِن كلام النبي ﷺ)

فاطمةُ بنْتُ أَسَد

ابنِ هاشم بن عبد مناف بن قُصَيّ القرشيّة

كان ذلك اليومُ يومَ حزن في مكة يومَ انتقل سيد القوم عبد المطلب إلى جوار ربه .. وربما لم يحسّ ألم الفاجعة أحد كما أحسها الطفل المبارك محمّد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه. فقد رحلت أمه قبل عامين، وهاهو ذا جدّه يموت على مرأى منه. تقول حاضنة أم أيمن، رضي الله عنها : رأيت رسول الله ﷺ يومئذٍ يبكي خلف سرير عبد المطلب.[1] لقد عرف اليتيم الكريم أنه فارق القلب الكبير الذي يحنو عليه، والركن الشديد الذي يأوي إليه.

وقدّر الله أن تنتقل كفالته عليه الصلاة والسلام إلى عمّه أبي طالب، فقد أوصاه عبد المطلب قبل وفاته أن يضم ابن أخيه إلى أولاده، وقد اختاره عبد المطلب رغم فقره وكثرة عياله، وذلك لأن عبد الله أبا رسول الله ﷺ وأبا طالب أخوان لأب وأم. وأثبت أبو طالب أن أهلٌ لثقة أبيه، فما إن ضم إليه الطفل الكريم حتى أقبل عليه بغمره بعطفه ورعايته.

وكانت زوج أبي طالب .. سيدة قرشية هاشمية كريمة هي فاطمة بنت أسد، والدة علي ابن أبي طالب ﷺ، اختارها الله لكي تربي محمّداً ﷺ .. وألقى الله محبّة اليتيم الصغير في قلبها كما ألقاها في قلب زوجها أبي طالب، فشعرت رضي الله عنها بمرارة اليُتم الذي ذاقه عليه الصلاة والسلام، فرعته كرعايتها أولادَها بل أشدّ، وكانت له من بعد الأمّ أمّاً. ولاشكّ في أن صفـاته وأخلاقه عليه الصلاة والسلام كانت تزكي عاطفة العم وزوجته نحوه عليه الصلاة والسلام. فمحمّد بن عبد الله لم يكن كأحد من الأولاد .. كان عليه الصلاة والسلام يلفت الأنظار بكمـال أدبه، وترفُّعه عن اللغو والباطل .. وكانت فاطمة بنت أسد ترى ذلك، ولقد أكرمها الله أن تشهد عن قرب طفولته المباركة ثم شبابه الطاهر، فقد أمضى ﷺ قرابة عقدين من حياته في كنَفها ..

ومضت السنوات، وجاوز النبي عليه الصلاة والسلام العشرين من عمره، وفاطمة بنت أسد لم تزل من أقرب الناس إليه، ومِنْ أشفقهم عليه .. ثم اختار الله تعالى لنبيّه الكريم أشرف

---

(١) انظر: دلائل النبوة للبيهقي (ج١/٢٠٧-٢٠٩).

النساء خديجة بنت خويلد، رضي الله عنها، لتكون له زوجاً، وانتقل عليه الصلاة والسلام إلى بيتها، لكنه ظلّ باراً بزوجة عمّه السيدة فاطمة، لا ينسى فضلها أبداً .. فكان عليه الصلاة والسلام يقول : « إنها كانت أحسن خلق الله إليّ صنيعاً بعد أبي طالب ».(١)

ثم شاء الله تعالى أن تصيب مكةَ سنةُ قحط وجفاف، ورأى النبي عليه الصلاة والسلام ما أصاب عمّه وأهل بيته من ضنْك وشدّة بسبب ذلك، فعرض عليه أن يضمّ أحد أولاده إليه، فقبل أبو طالب واختار لذلك ابنه علياً ﷺ وكان صغيراً. واطمأنت السيدة فاطمة لأن فلذة كبدها سيكون في رعاية الكريم محمّد صلوات الله وسلامه عليه .. ولم تدرك يومئذٍ أن فضل الله على ابنها سيكون عظيماً، إذ أنه سيتربّى في بيت النبوة.

ولما بلغ محمّد ﷺ سن الأربعين، وأرسله الله بالهدى بشيراً ونذيراً إلى قومه وإلى الناس أجمعين، كانت فاطمة بنت أسد، رضي الله عنها، من السابقين إلى التصديق برسول الله ﷺ .. فسارعت إلى الإسلام وأضحت من الصفوة المباركة، ثم سارعت إلى ضم أبنائها إلى موكب الإيمان، فكانت بذلك من الرّعيل الأول الذي صُنع على عين الله عز وجل ..

وقد منّ الله عليها بإسلام أولادها جميعاً وهم : عقيل، وجعفر، وعليّ، وأم هانئ، وطالب رضي الله عنهم. بينما عظم على زوجها أبي طالب فراقُ قومه وعداوتهم، فلم يسلم وظلّ على شركه، وإن ظلّ يدعم النبي ﷺ ويحميه. ولاشك أن إسلام الأبناء يشير إلى عظيم أثر الأم المؤمنة ..

وبعد أن انضمّت فاطمة بنت أسد، رضي الله عنها، إلى صفوف الإسلام شهدت تعنّت قريش واضطهادها للنبي ﷺ والمسلمين. ولما أذن الله بالهجرة،كانت السيدة فاطمة مع الركب المهاجرين.

وفي المدينة المنورة، وبعد نحو عامين أكرمها الله تعالى .. إذ اختار لابنها علي ﷺ فاطمة الزهراء زوجاً. فكانت رضي الله عنها مثالاً للرأفة والرحمة في معاملة كَنّتها المباركة الزهراء رضي الله عنها، برّاً بها وبوالدها ﷺ.

---

(١) مجمع الزوائد (ج٩/٢٥٧).

ولقد روى سيدنا علي ﷺ أنه قال لأمّه : اكفي فاطمة سقاية الماء والذهاب في الحاجة، وتكفيك الطحنَ والعجن .. فقاسمتها العمل عن طيب نفس.[1]

وظلّ رسول الله ﷺ يكرمها لبرّها به، ولسابقتها في الإسلام، وكان يزورها ويَقيل[2] في بيتها بالمدينة ..[3] وبقيت شمائلها عطرة، فقد كانت عابدة زاهدة، معروفة بالصلاح والتقوى. وقد فتح لها قربها من رسول الله ﷺ باب التلقّي منه والرواية عنه، فروت عنه ﷺ ستةً وأربعين حديثاً ..

وظلّت لفاطمة بنت أسد، رضي الله عنها، عند رسول الله مكانةٌ كبرى، إذ كان يحترمها احتراماً شديداً، ويسأل عنها، ويخصّها بالهدية، ولا يفرّق بينها وبين ابنته فاطمة .. فقد ورد أن علياً ﷺ قال : أُهديَ إلى رسول الله ﷺ حلّة إستبرق فقال : « اجعلها خُمُراً بين الفواطم »، فشققْتُها أربعة أخمرة، خماراً لفاطمة بنت رسول الله ﷺ، وخماراً لفاطمة بنت أسد، وخماراً لفاطمة بنت حمزة ..[4]

وتابعت التقية النقية مسيرتها بصحبة النبي عليه الصلاة والسلام وفي رحاب دعوته .. وكما حظيت بالتكريم في حياتها حظيت بالتكريم عند وفاتها. فقد ماتت في حياة النبي ﷺ، فشهد جنازتها وتولى دفنها، وذكر فضلها، ودعا لها بالمغفرة والرحمة ..

روى أنس بن مالك ﷺ قال : لما توفيت فاطمة بنت أسد ـ أم عليّ ـ دخل عليها رسول الله ﷺ فجلس عند رأسها وقال : « رحمك الله يا أمّي، كنت أمّي بعد أمّي، تجوعين وتشبعيني، وتعرين وتكسيني، وتمنعين نفسك طيبها وتطعميني، تريدين بذلك وجه الله والدار الآخرة ».

ثم إن رسول الله ﷺ خلع قميصه فألبسها إياه وكفنها ببرد فوقه .. ولما حُفر قبرها،

---

(١) انظر: الإصابة في تمييز الصحابة (ج٤/٣٨٠).

(٢) يقيل : أي يستريح في منتصف النهار.

(٣) انظر: طبقات ابن سعد (ج٨/٢٢٢)، والإصابة في تمييز الصحابة (ج٤/٣٨٠).

(٤) الإصابة في تمييز الصحابة (ج٤/٣٨١)، ولم يذكر الرابعة ولعلّ الرابعة فاطمة بنت شيبة بن عبد شمس زوج عقيل ابن أبي طالب، رضي الله عنها.

وبلغوا اللحد حفره رسول الله عليه الصلاة والسلام بيده، وأخرج ترابه، فلما فرغ اضطجع فيه ثم قال :

« الله الذي يحيي ويميت، وهو حي لا يموت، اللهم اغفر لأمّي فاطمة بنت أسد، ولقّنها حجّتها، ووسّع مُدْخَلها بحقّ نبيّك والأنبياء الذين من قبلي، فإنك أرحم الراحمين ».

ثم كبّر عليها أربعاً، وأدخلها لحدها، يساعده العباس وأبو بكر، رضي الله عنهما[1]، فتعجب الصحابة رضوان الله عليهم من صنيع رسول الله ﷺ وقالوا : ما رأيناك يا رسول الله صنعت هذا ؟! فقال : « إنه لم يكن أحدٌ بعد أبي طالب أبرّ بي منها، إنما ألبستها قميصي لتُكسى من حُلل الجنة ».[2]

رحم الله فاطمة بنت أسد ورضي عنها وأرضاها .. فما أمرُها إلّا كما قال القائل : البدايات مجلاة النهايات.

---

(١) انظر: مجمع الزوائد (ج٩/٢٥٦).

(٢) انظر: الاستيعاب في معرفة الأصحاب (ج٤/١٨٩١).

٢٠

الشِّفاءُ بِنْتُ عبد الله العَدَوِيّة رضي الله عنها

الطبيبةُ المعلّمةُ

الشِّفَاءُ بِنْتُ عبد الله

ابن عبد شمس بن خَلَف العَدَوِيّة القرشية

في ستة من السنوات المباركة في المدينة المنورة كانت صحابية جليلة تتردد على بيت من بيوت النبي عليه الصلاة والسلام، فتجلس مع أم المؤمنين السيدة حفصة، رضي الله عنها، تُعلّمها القراءة والكتابة .. تلك الصحابية هي الشِّفَاء بنت عبد الله، رضي الله عنها .. المرأة القرشية المهاجرة التي عرفت براحة العقل والفكر المستنير.

كانت رضي الله عنها من السابقين إلى الإيمان والهجرة، بايعت النبي ﷺ مع من بايع من نساء الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين. ولما رأت أنها من القليلات اللواتي يقرأن ويكتبن عقدت العزم على خدمة الإسلام والمسلمين بما تملك من القدرة والموهبة، فكانت تدخل بيوت المسلمين وتعلّم الصحابيات، لتكون أول معلّمة في الإسلام. وقد صارت للشفاء منزلة عظيمة عند أمهات المؤمنين، وكانت صلتها بالسيدة حفصة، رضي الله عنها، وثيقة ..

كانت الأحداث تتوالى في الدولة الإسلامية الناشئة، والشفاء تتابع جهادها .. وتسهم في بناء تلك الدولة : معلّمة وطبيبة، فعلى حين كان الرجال يجاهدون بالسيف، كانت رضي الله عنها تجاهد بقلمها ومعارفها الطبية، حتى صارت لها مكانة عند النبي ﷺ، وكانت كثيراً ما تأتيه لتسأل وتناقش، وكان عليه الصلاة والسلام يعجبه عقلها وسعة معارفها.

وقد قادتها قراءاتها إلى علم الطبّ والرُّقى وما يتعلّق بذلك من معارف ذلك العصر. وقد عُرف عنها أنها كانت تَرقي في الجاهلية، فلما أسفر صُبح الإسلام .. أوحى الله سبحانه وتعالى إلى النبي ﷺ بتعاليم جاءت في آيات قرآنية كريمة، تضمن صلاح الناس وإصلاحهم في أجسامهم وعقولهم وأنفسهم .. وكانت الشفاء تسمع النبي الكريم عليه أفضل الصلاة والسلام يقول : « سلوا الله العافية، فإنه ما أوتي أحد بعد يقينٍ خيراً من معافاة ».[1]

وقد أتت الشفاء الطبية النبي ﷺ تستأذنه في متابعة عملها، فرخّص لها عليه الصلاة

---

(١) سنن الترمذي (ج٥/٥٣٨).

والسلام في الرُّقية من الحمّى والعين والنَّمْلة [1] .. قالت الشفاء : يا رسول الله إني كنت أرقي برقى في الجاهلية من النّملة، وقد رأيت أن أعرضها عليك، فقال : « اعرضيها »، فقالت : بسم الله ....، اللهم اكشف البأس ربّ النّاس.[2]

قيل : فكانت ترقي بها على عود كُركم سبع مرات، وتقصد مكاناً نظيفاً، وتدلكه على حجر بخلّ مصفّى، ثم تطليه على النّملة.[3]

بهذا (الترخيص) النبويّ تابعت الشّفاء مهنتها، وكانت تعلّم النساء إياها.

وقد أمرها النبي ﷺ فيما بعد أن تعلّم زوجه حفصة، رضي الله عنها، رقية النّملة، فعن الشفاء أنها قالت : دخل عليَّ رسول الله ﷺ وأنا عند حفصة فقال لي : « ألا تُعلّمين هذه - أي حفصة - رقيّة النّملة كما علمتِها الكتابة ».[4]

وظل رسول الله ﷺ يكرم الشفاء ويصِلُها، وقد أقطعها داراً بالمدينة، فنزلتها مع ابنها سليمان بن أبي حثمة، رضي الله عنهما.

ومضى عصر النبوة، وانتقل النبي صلوات الله وسلامه عليه إلى جوار ربه، وتوفي وهو راض عن الشفاء .. وتابعت المعلّمة الطبيبة حياة العلم والجهاد في ظل خلافة الصدّيق ﷺ .. فلما أن صار الفاروق ﷺ خليفة المسلمين اقتفى أثر النبي ﷺ، فكان يقدّم الشفاء في الرأي، ويرضاها ويفضّلها، وقد ورد أنه ولّاها شيئاً من أمر السوق.[5]

وللشفاء مع عمر، رضي الله عنهما، أخبار تشير إلى جرأتها وثقتها، وإلى إكرام عمر إياها، كما تشير إلى تعظيم عمر لنبيه الكريم ﷺ .. فممّا ذكر أن عمر بن الخطاب ﷺ أرسل إلى الشفاء بنت عبد الله العدوية أن اغدي علي. قالت : فغدوت عليه، فوجدتُ عاتكة بنت

---

(١) النملة : وصفها الأطباء الآن بأنها مرض جلدي من نوع الأكزيما، وفي اللغة : النملة : داء معروف، وسمي نملة لأن صاحبه يحس في مكانه كأن نملة تدب عليه وتعضه، وأصنافها ثلاثة.

(٢) انظر: المستدرك (ج٤/٥٧).

(٣) انظر: الإصابة في تمييز الصحابة (ج٤/٣٤٢).

(٤) سنن أبي داود (ج٤/٣٦٦).

(٥) انظر: الاستيعاب في معرفة الأصحاب (ج٤/٣٤٢).

أسيد بن أبي العيص - رضي الله عنها - ببابه، فدخلنا فتحدّثنا ساعة، فدعا بنمط [1] فأعطاها إياه، ودعا بنمطٍ دونه فأعطانيه. قالت : فقلت : يا عمر ! أنا قبلها إسلاماً، وأنا بنت عملك دونها، وأرسلت إليّ وأتتك من قِبَل نفسها. قال عمر : ما كنت رفعت ذلك إلّا لك، فلما اجتمعتما تذكّرت أنها أقرب إلى رسول الله ﷺ.[2]

ورغم ذلك كانت الشفاء تثني على عمر، رضي الله عنهما، حقّ الثناء وتشهد بفضائله، فقد رأت يوماً فتياناً يقصدون في المشي، ويتكلمون رويداً فقالت : ماهذا ؟ قالوا : نُسَّاك. فقالت : كـان - والله - عمر إذا تكلّم أسمع، وإذا مشى أسرع، وإذا ضرب أوجع، وهو النّاسِكُ حقاً.[3] وكان عمر ﷺ كذلك يزورها ويتفقّد أحوالها، ويسأل عن زوجها وابنها سليمان، ويرشدهم جميعاً إلى ما فيه الخير، كلما اقتضت الحاجة، وتحدثت الشفاء فقالت : دخل عليّ عمر بن الخطاب بيتي فوجد عندي رجلين نائمين - هما زوجها وابنها سليمان - فقال : وما شأن هذين ما شهدا معنا الصلاة ؟ قلت : يا أمير المؤمنين صلّيا مع الناس - وكان ذلك في رمضان - فلم يزالا يصلّيان حتى أصبحا وصلّيا الصبح وناما. فقال عمر : لأن أصلي الصبح في جماعةٍ أحبّ إلي من أن أصليَ ليلة حتى أُصبح.[4] ذلك فقه عمر ﷺ وذلك توجيه الذي يعتمد على السنة النبويّة الشريفة.

قضت الشفاء عمرها في ساحات العلم والعمل وفي محاريب الزهد والعبادة .. تقصدها النساء للتعلّم، ويقصدها الرجال لسماع أحاديث رسولهم الكريم عليه الصلاة والسلام، فقد كانت رضي الله عنها أيضاً من راويات الحديث الشريف .. ومما روته عنه ﷺ : سُئِل عليه الصلاة والسلام عن أفضل الأعمال فقال : « إيمان بالله، وجهاد في سبيله، وحجّ مبرور ».[5]

وفي يوم من أيام السنة العشرين للهجرة، وفي خلافة عمر ﷺ .. مرضت المعلّمة

---

(١) ثوب.

(٢) أسد الغابة (ج٥/٤٩٧).

(٣) انظر: طبقات ابن سعد (ج٣/٢٩٠).

(٤) انظر: حياة الصحابة (ج٣/٥٨٤).

(٥) أسد الغابة (ج٥/٤٨٧)، الإصابة في تمييز الصحابة (ج٤/٣٤٢)، والحديث رواه الإمام أحمد (ج٦/٣٧٢).

الطبية، التي طالما ساهمت في شفاء المسلمين والمسلمات وتعليمهم .. ثم انتقلت إلى جوار ربها راضية مرضية .. وبقيت آثارها وبقيت سيرتها العطرة التي تشفي القلوب وتسمو بالمرأة في آفاق النقى والعلم والجهاد ..

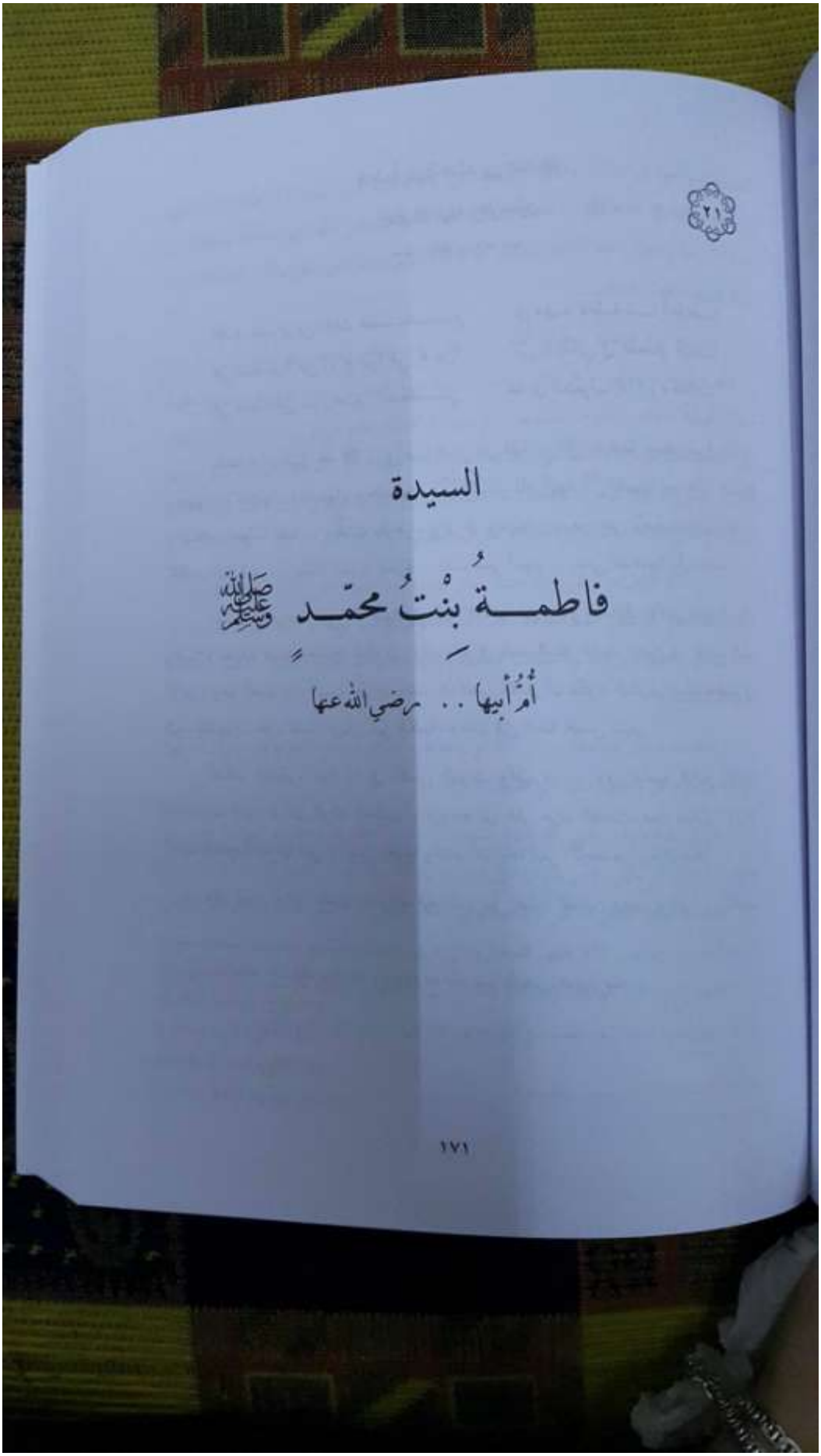

٢١

السيدة

فاطمةُ بِنْتُ محمّدٍ ﷺ

أُمُّ أبيها .. رضي الله عنها

فاطمةُ بنتُ محمّد بن عبد الله

خاتمِ الأنبياء والمرسلين

صلوات الله وسلامه عليه

المجـد يشـرق من ثلاث مطـــالـــــع ... في مهـد فاطمة فمـا أعلاهـا

هي بنت من؟ هي زوج من؟ هي أم من؟ ... من ذا يداني في الفخار أباهـا

هي ومضة من نـور عـين المصطفـــى ... هادي الشعوب إذا تروم هداهـا [1]

بضعة من رسول الله ﷺ .. وأحبّ الناس إلى قلبه .. كلّ ما فيها يشبه رسول الله .. وجهها، وكلامها، ومشيتها، وجلستها .. [2] كُنّيت بأم أبيها [3] لشبهها به عليه الصلاة والسلام وحنوّها عليه .. ولُقّبت بالزهراء لإشراق وجهها ونوره، حتى وُصفت بأنها كانت كالقمر ليلة البدر .. بيضاء مشربة بحمرة .. ذات شعر أسود .. رضي الله عنها وأرضاها. [4]

ولدت الزهراء، رضي الله عنها، في العام العاشر من زواج الصادق الأمين عليه الصلاة والسلام بسيدة النساء خديجة الكبرى. وقد وقع في هذه السنة حدث جليل في تاريخ البلد الأمين، وهو تجديد بناء البيت الحرام. وشاء الله العلي القدير أن تكون البشرى بمولد فاطمة في اليوم المشهود، حين كانت قريش تبني الكعبة، وذلك قبل البعثة بخمس سنين. [5]

نشأت الصغيرة المباركة في أقدس البيوت وأطهرها .. وفي عامها الرابع كانت إرهاصات النبوة تتبدّى للوالد العظيم، وخروجه إلى غار حراء للتحنّث صار يتكرّر. ولربما كانت الصغيرة الذكية تعي ما يدور حولها وتشعر أن أباها ليس كأحد من رجال مكة.

وفي اليوم الموعود الذي شاء الله فيه أن يرسل محمّداً للعالمين بشيراً ونذيراً .. كانت

---

(١) من قصيدة للشاعر محمّد إقبال مترجمة للغة العربية (ترجمة محمّد حسن الأعظمي والصاوي شعلان).

(٢) انظر: المستدرك (ج٣/١٦٠).

(٣) مجمع الزوائد (ج٩/٢١١).

(٤) انظر: المستدرك (ج٣/١٦١).

(٥) انظر: طبقات ابن سعد (ج٨/٢٦).

الصغيرة مع أمها في البيت، ولعلّها شهدت قلق الأم الحبيبة على أبيها الذي طال غيابه حتى أرسلت رسلها في طلبه ﷺ .. فلما عاد إلى أمها خديجة، رضي الله عنها، خائفاً يرتجف من هول ما رأى وسمع، ومعه آيات بيّنات أن ﴿ اَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾[1]، كانت الزهراء هناك تشهد الحدث العظيم ..

ارتوى عود فاطمة الزهراء الغضّ بماء التوحيد، وتفتّح فكرها وقلبها في غمار الدعوة إلى الله، وشهدت اجتماع الرجال والنساء بأبيها سرّاً تجمعهم رابطة العقيدة وتلفُّهم جميعاً أجواء الحيطة والحذر والخوف الشديد .. وشهدت كذلك تتابع الوحي وتنزل الآيات البينات على القلب الشريف. ولاشكّ أنها كانت تسمع أباها عليه أزكى الصلاة والسلام يُرتّل آيات الله في خشوع وتبتُّل لينقل السامعين من الظلمات إلى النور، فترتوي رضي الله عنها بذلك الري الروحاني الطاهر وتكبر في رحاب القرآن العظيم.

ولم تكد الزهراء، رضي الله عنها، تبلغ الثامنة من العمر حتى كان الحادث الذي هزّ مكة، فقد جهر المصطفى عليه الصلاة والسلام بالدعوة، وواجه قومه برسالة السماء .. وبدأت الحياة تتبدّل وتتغيّر بسرعة، واستقبلت الصغيرة الحياة الجديدة، حياة النَصَب والصبر والجهاد الذي لا ينقطع ..

وأعلنت قريش عداءها، وربما كان أول موقف للعداء شهدته الزهراء هو طلاق أختيها رُقَيّة وأم كُلْثُوم من ولَدي عمّها أبي لهب.

وصارت فاطمة، رضي الله عنها، تشهد الأحداث الخطيرة، وصارت تعي ما معنى أن تكون ابنة خاتم المرسلين. ومن يدري لعلّ صغر سنها أتاح لها أن تخرج من البيت أحياناً وتتبع أباها فتشاهده وهو يلتقي الناس ويدعوهم إلى الله، فيلقى في سبيل الدعوة صنوف الأذى والاضطهاد .. ويعتصر الألم قلبها الصغير وهي ترى قريشاً تَفْتَنّ في تعذيب المسلمين حتى أشار عليهم النبي عليه الصلاة والسلام بالهجرة إلى الحبشة، هنالك فارقت أختها رقية التي كانت مع زوجها عثمان بن عفان مع المهاجرين الأولين، رضي الله عنهم أجمعين.

---

(١) سورة العلق (١).

وتتالت السنوات، والزهراء، رضي الله عنها، تكبر في أجواء الحرب الشعواء التي شنّها المشركون على النبي ﷺ وأتباعه. ثم صعّدت قريش مساعيها لإهلاك العصبة المؤمنة بالحصار الذي ضربته في السنة الثامنة للبعثة .. فكانت فاطمة مع أبويها في شِعْبِ أبي طالب، وكانت رضي الله عنها قد بلغت الثانية عشرة من عمرها المبارك. وفي الشعب عانت مع المسلمين من الجوع والحرمان، وتحمّلت بالصبر مقتفية أثر إمام الصابرين عليه الصلاة والسلام، وأمّها التي سمت على نساء العالمين. ولكنها كانت تشهد الأم الصابرة تضعف يوماً بعد يوم، حتى إذا اقتربت أيام الحصار من نهايتها كان المرض قد أنهكها. وانتهى الحصار وخرج المسلمون من الشِّعْبِ فرحين مستبشرين، ولكن الحزن كان يسيطر على قلب الزهراء وأخواتها، وكان القلق قد بلغ بالمصطفى ﷺ كل مبلغ، فقد اشتدت وطأة المرض على الزوجة الحبيبة والأم العظيمة خديجة، رضي الله عنها وأرضاها. وفي يوم حزين أسلمت الروح لبارئها، وربما كان أشدّ الناس حزناً عليها فاطمة الزهراء، رضي الله عنها، فقد كانت أصغر أخواتها، وهي التي لم تفارقها يوماً ..

أحسّت الفتاة الكريمة بآلام الوحدة ولكن الأحداث العظام، والمهام المُلقاة على كاهل أبيها كانت تنتزعها من تلك الآلام، وتُحْيِي فيها العزم للمضي في درب الدعوة العظيم خلف خاتم المرسلين عليه الصلاة والسلام. ولاشك أن برّها بأبيها عليه الصلاة والسلام، وحنوّها عليه، وقيامها على خدمته والذّود عنه، بعد رحيل خديجة جعله يكنّيها بأم أبيها، رضي الله عنها، وصلّى وسلم عليه.

ولما أن تجاوزت فاطمة، رضي الله عنها، السابعة عشرة من عمرها أذِن الله بالهجرة إلى المدينة .. فشهدت رضي الله عنها رحيل أبيها وصاحبه الصدّيق ونجاته من بين أيدي المشركين. حتى إذا وصل إلى المدينة آمناً، لحقت به مع أخواتها، وزوج أبيها أم المؤمنين السيدة سودة بنت زمعة التي تزوجها عليه الصلاة والسلام عقب وفاة السيدة خديجة .. وكانت رضي الله عنها تبذل قصارى الجهد لتحيط الزهراء بالرعاية وتعوضها عن الحنان المفقود.

وبدأت فاطمة، رضي الله عنها، حياتها الجديدة في المدينة، وشهدت أباها عليه الصلاة

والسلام يُرسي قواعد دولة التوحيد في عالم يموج بالكفر. وشاركت رضي الله عنها في حمل مسؤولياتها في مساندة المصطفى ﷺ على قدر استطاعتها. وقبل رجوع المسلمين من غزوة بدر شاء المولى أن يقبض أختها رُقيّة، رضي الله عنها. وكانت رقيّة قد مرضت قبل خروج المسلمين إلى بدر، فطلب النبي عليه الصلاة والسلام من زوجها عثمان بن عفان ﷺ أن يبقى معها في المدينة، فلم يخرج ﷺ مع المسلمين. وماتت رحمها الله والنّبي ﷺ غائب في بدر، وعزّ على الزهراء فراق أختها، فبكتْها بلوعة .. ولم يُخفّف عنها من مصابها إلّا أنباء الانتصار العظيم، فتجلّدت وتابعت خلف أبيها مسيره العظيم.

بعد أشهر قليلة من موقعة بدر شاء الله أن يكرم فاطمة، رضي الله عنها، بزوج صالح يرعى حقّها ويعينها على أعباء الحياة والدعوة .. وبرغم أن كبار الصحابة تقدّموا لخطبتها طمعاً في مصاهرة النبي عليه الصلاة والسلام، إلّا أن الذي فاز بشرف المصاهرة كان الفتى عليّ ابن أبي طالب كرَّم الله وجهه وأرضاه. وقد كان عليّ جديراً بفاطمة، فهو ابن عم النبي ﷺ وهو القريب الحبيب الذي تربّى في بيت النبوة، وهو أول من آمن به من الفتيان .. ونشأ على الإسلام كابنة عمه رضي الله عنهما، فلم يسجد لصنم قط. وهو الذي نام في فراش النبي ليلة الهجرة يفديه بروحه ..[1] وهو الذي أخذ النبي ﷺ بيده لما هاجر وقال : « هذا أخي ».[2] وكان عليّ فقيراً لا يملك المال فباع درعه ليشتري جهاز فاطمة، رضي الله عنهما، بأمر النبي عليه الصلاة والسلام ..[3]

وجمع رسول الله ﷺ كبار الصحابة ليشهدوا الخطبة الميمونة، وخطب ﷺ فيهم خطبة الزواج .. وأرسل ﷺ السيدة عائشة والسيدة أم سلمة لإعداد بيت فاطمة الجديد. وفي اليوم الموعود، احتفل بنو عبد المطلب بهذا الزواج المبارك، ودعا رسول الله ﷺ أصحابه إلى وليمة، فما كانت وليمة في ذلك الزمان أفضل من وليمته، ولا كان عرس أحسن منه.[4] وابتهجت

---

(١) انظر: سيرة ابن هشام (مج١/٤٨٢-٤٨٣).

(٢) انظر: سيرة ابن هشام (مج١/٥٠٥).

(٣) انظر: مسند الإمام أحمد (ج١/٨٠).

(٤) انظر: مجمع الزوائد (ج٤/٥٠).

المدينة بالزواج الكريم، وسُرّ الناس لسرور رسول الله عليه أفضل الصلاة والسلام. ودعا رسول الله ﷺ للعروسين : « اللهم بارك فيهما، وبارك عليهما، وبارك لهما في نسلهما ».[1]

ولم تكن حياة الزهراء، رضي الله عنها، مُترفة ناعمة، فعليّ بن أبي طالب ﷺ كان فقيراً في المال، لا يملك إلّا ما يأتيه من الفَيْء، وربما قام بالسقي وغيره من الأعمال لأهل المدينة .. وإذ كانت أسباب الحياة غير ميسّرة، فالماء يُحمل إلى البيوت في القِرَب، والقمح يُطحن في الرَّحى[2]، ولابد من العجن والخَبز، هذا إلى جانب الغسل والطهي. نعم كانت أعمال المنزل مرهقة، وكانت الزهراء نحيلة، ضعيفة البنية كما وصفتها كتب السيرة، فعزّ على زوجها أن يراها مُتعبة .. وذات يوم أتت الزهراء النبي ﷺ تشكو إليه ما تلقى في يدها من أثر الرحى وتطلب منه خادماً، فلم تجده عليه الصلاة والسلام. فلما جاء أخبرته السيدة عائشة، رضي الله عنها، بقدوم فاطمة .. فدخل تلك الليلة عليها وعلى عليّ وقعد بينهما وقال : « ألا أُعلّمكما خيراً مما سألتما، إذا أخذتما مضاجعكما أن تكبّرا الله أربعاً وثلاثين وتسبّحاه ثلاثاً وثلاثين، وتحمداه ثلاثاً وثلاثين، فهو خير لكما من خادم » ..[3] ذلك ما قدّمه المصطفى ﷺ للزهراء بدلاً من الخادم على الرغم من حبّه العظيم لها وشدّة إشفاقه عليها.

والتزم الزوجان الطائعان بالوصية النبوية، وواجها متاعب الحياة بهذه الأذكار المباركة .. ويُروى أن سيدنا عليّاً ﷺ ذكر تلك الحادثة بعد أكثر من ثلاثين سنة فقال : ما تركته منذ سمعته من النبي ﷺ.[4]

لم يُحرّم الإسلام اتخاذ خادم معين، نعم، ولكن رسول الله لم يُبح ذلك لابنته .. فالزهراء فاطمة، رضي الله عنها، قد فُطمت عن كلّ راحة وزينة وترف، لتكون نموذجاً للسموّ والعلوّ فوق الدنيا بما فيها. ولهذا أيضاً، لم يُسمَح لها بالتزيّن بالذهب [5]، برغم حلّه للنساء ..

---

(١) انظر: طبقات ابن سعد (ج٨/٢١).

(٢) حجر الطاحون.

(٣) صحيح مسلم (ج٤/٢٠٩١).

(٤) صحيح مسلم (ج٤/٢٠٩٢).

(٥) سنن النسائي (ج٨/١٥٨).

ولعلّه أراد بذلك عليه الصلاة والسلام أن يقول للنساء : لا تغالين بالزينة والتفاخر، فهذه خير نساء العالمين فُطمت عن ذلك كله .. وبذلك صارت بنت المصطفى ﷺ قدوة لكلّ فقير أو مسكين أصابت منه الدنيا ولم يصب منها .. وكانت مثالاً يُحتذى لأصحاب القضايا العليا والأهداف السامية الذين شُغلوا بها فانصرفوا عما سواها.

وقد كانت الزهراء، رضي الله عنها، مشغولة حقاً بقضايا الإسلام العليا وعلى رأسها الجهاد .. ولاشك أن عيشها في ساحة الصراع بين الكفر والإيمان، منذ نعومة أظفارها، جعلها تميل إلى الجدّ وتدرك معنى الجهاد .. وقد شاركت في الجهاد أول مرة إلى جانب زوجها في معركة أُحُد، فخرجت مع النساء اللواتي خرجن مع جيش المسلمين. ولما خَلَص العدو إلى رسول الله ﷺ، وأصابته الحجارة، وشُجَّ في رأسه، وجُرحت شفته عليه الصلاة والسلام، كانت الزهراء تبحث عنه ملهوفة، فلما هدأ القتال، وبدأ المشركون بالانسحاب سارعت رضي الله عنها إليه تعتنقه وتبكي وتضمّد جراحه .. روى سهل بن سعد قال : أما والله إني لأعرف من كان يغسل جرح رسول الله ﷺ، ومن كان يسكب الماء، وبماذا دووي .. كانت فاطمة بنت رسول الله ﷺ تغسله، وعليّ بن أبي طالب ﷺ يسكب الماء بالمِجنّ [1]، فلما رأت فاطمة، رضي الله عنها، أن الماء لا يزيد الدم إلّا كثرة، أخذت قطعة من حصير فأحرقتها، وألصقتها فاستمسك الدم ..[2]

وشاء الله أن يجبُر قلبي الزوجين الكريمين ويرزقهما ولداً طاهراً من نسل رسول الله عليه أزكى الصلاة والسلام .. ففي السنة الثالثة للهجرة استقبلت فاطمة، رضي الله عنها، مولودها الأول. وجاء الجدّ الكريم صلوات الله وسلامه عليه فرحاً مستبشراً، فقال : « أروني ابني. ما سَمّيتموه ؟ »، فقال عليّ : سميته حَرْباً، فقال النبي ﷺ : « بل هو حسن ».[3] وكان عليه الصلاة والسلام تُعجبه الأسماء الموحية بالجمال والسلام ويُسر الحياة .. واحتفل جدّه عليه الصلاة والسلام بمولده، فعقّ عنه يوم سُبُوعه، وحلق شعره وتصدّق بزنة شعره فضة ..

---

(١) المِجنّ : الترس.

(٢) صحيح البخاري (ج٤/١٤٩٦).

(٣) انظر: المستدرك (ج٣/١٦٥).

وكان الحسن ﷺ شديد الشبه بالمصطفى ﷺ، ولم يكد يبلغ السنتين حتى صار يلازم جدّه العظيم، وكان عليه الصلاة والسلام يُقبِل عليه بحبّ شديد، فيحمله ويلاطفه ويلاعبه ولم تمض سنة حتى وضعت الزهراء مولودها الثاني، فسماه عليه الصلاة والسلام الحُسين ..

وتداعت السنوات، وفاطمة، رضي الله عنها، إلى جانب أبيها تواكب الأحداث، حتى إذا كانت السنة الثامنة، وضعت فاطمة طفلتها فسمّاها رسول الله ﷺ باسم خالتها زينب .. وكأنما كان عليه الصلاة والسلام يشعر بدنوّ أجل ابنته فسمّى حفيدته باسمها لتبقى ذكراها .. وتُوفيت زينب الكبرى، فتجدّدت آلام الزهراء، رضي الله عنها .. ولكنها لم تلبث أن فرّح الله قلبها بالفتح الأعظم فتح مكة، فكانت مع الجيش الذي توجّه إلى مكة المكرمة الحبيبة .. فشهدت أباها ﷺ يُطهّر البيت من الأوثان، ويعفو عن أعداء طالما شهدت أذاهم واضطهادهم له ولصحبه.

وبدأ الناس يدخلون في دين الله أفواجاً، وأقبلت الوفود في السنة التاسعة من كل أنحاء الجزيرة لتبايع النبي الأعظم ﷺ .. وفرحت فاطمة، رضي الله عنها، بانتصار الإسلام، ولكن الله يأبى إلّا أن تكون الحياة ابتلاء كلها، كما يقول تعالى: ﴿ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾[1]، ففي السنة ذاتها ودّعت أختها الثالثة، الحبيبة أم كُلثوم ..

وحزن النبي ﷺ لفراق بناته، ولكنه كان يجد العزاء منهن في الزهراء وأولادها، فكان يَحُوطُهم بالرعاية والحنان، ويحمل لهم حبّاً عظيماً لحبّ فاطمة، رضي الله عنها. وكان الصحابة الكرام يُدركون أن فاطمة، رضي الله عنها، أثيرة لدى أبيها، ويلحظون أنها كلما دخلت على النبي عليه الصلاة والسلام، قام إليها فقبّلها ورحّب بها وأخذ بيدها وأجلسها مكانه، وكانت هي إذا دخل عليها قامت إليه مستقبلة وقبّلت يده.[2] وكان عليه الصلاة والسلام إذا سافر كان آخر عهده بإنسان من أهله فاطمة، فإذا رجع كان أول من يدخل عليه فاطمة، ولم يكن هذا لأحد من أهل بيته.[3]

---

(١) سورة الأنبياء (٣٥).
(٢) انظر: المستدرك (ج٣/١٦٠).
(٣) سنن أبي داود (ج٤/٨٧).

وفي السنة العاشرة .. في شهر ذي القعدة أذّن رسول الله ﷺ في الناس بالحج .. وخرج عليه الصلاة والسلام، وخرج معه مُعظم أهل بيته لأداء الفريضة، وفيهم ابنته فاطمة الزهراء، رضي الله عنها وعنهم أجمعين.

وفي عرفة اجتمعت الألوف المؤلفة، وراح النبي المصطفى ﷺ يُلقي خطبته الأخيرة التي عُرفت بخطبة الوداع، وأنصتت الدنيا للكلمة المودعة، وقال عليه الصلاة والسلام : « أيها النّاس اسمعوا قولي، فإني لا أدري، لعلّي لا ألقاكم بعد عامي هذا، بهذا الموقف أبداً ... »[1]، وارتجف قلب الزهراء .. وتساءلت لماذا يردد المصطفى ﷺ هذه الكلمات ؟! ..

ثم نزل على رسول الله ﷺ في تلك الأيام قوله تعالى : ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ ..[2] وفرح الناس باكتمال الدين وإتمام النعمة، وبكى عمر بن الخطاب ﷺ قائلاً : ليس بعد الكمال إلّا النقصان ! .. وبكى الصحابة المقربون، وبكت فاطمة الزهراء .. لقد فهموا ما وراء ذلك الكمال.

كان كل شيء بعد حجة الوداع يوحي بأن أجل رسول الله ﷺ قد دنا. وكان جبريل عليه السلام، يدارسه القرآن في كل عام مرّة في رمضان، فلما كان ذلك العام دارسه إيّاه مرتين .. وأخبرَ النبي ابنته فاطمة بذلك فقال : «... وإنه قد عارضني به العامَ مرتين، ولا أرى الأجل إلّا قد اقترب، فاتقي الله واصبري، فإني نِعم السلف أنا لك ... »[3]، ثم قال : « إنه ليس أحد من نساء المسلمين أعظم رَزِيَّةً[4] منك، فلا تكوني من أدنى امرأة صبراً ».[5] وابتدأ رسول الله شكواه في أواخر صفر، ثم ثقل به المرض فأقعده، واستأذن نساءه أن يُمرّض في بيت عائشة، فأذنّ له عليه الصلاة والسلام.

ولما عرف صلوات الله وسلامه عليه أنه مقبوض عما قريب، دعا فاطمة الحبيبة، رضي

---

(١) انظر : سيرة ابن هشام (مج٢/٦٠٣).

(٢) سورة المائدة (٣).

(٣) صحيح البخاري (ج٥/٢٣١٧).

(٤) الرَّزِيَّة : المصيبة.

(٥) انظر : دلائل النبوة للبيهقي (ج٧/١٦٦).

الله عنها، فنعى إليها نفسه، روت أم المؤمنين السيدة عائشة، رضي الله عنها، أن النبي عليه الصلاة والسلام دعا فاطمة، فسارّها بشيء فبكت، ثم سارّها بشيء فضحكت. فلما سُئلت بعد وفاته صلوات الله وسلامه عليه، قالت : سارّني النبي أنه يُقبض في وجعه الذي توفي فيه فَبَكَيْت، ثم سارّني أني أول أهل بيته أتبعه فَضَحِكْت.[1] ورُوي أيضاً أنها كانت بجانبه قبيل وفاته .. وكان يتغشّاه الكرب الشديد، فبكت وقالت : واكرب أبتاه، فقال عليه الصلاة والسلام : « لا كرب على أبيك بعد اليوم » ..[2]

فلما فاضت روحه الشريفة ﷺ قامت الزهراء، رضي الله عنها، تندب أباها وتقول : يا أبتاه! أجاب رباً دعاه .. يا أبتاه ! مَن جنة الفردوس مأواه .. يا أبتاه! إلى جبريل ننعاه.[3]

فلما دُفن عليه الصلاة والسلام مضت رضي الله عنها، تسعى إلى القبر الشريف، حتى إذا بلغته أخذت قبضةً من تراب القبر فأدنتها من عينيها وهي تبكي، وأنشأت تقول :

ماذا على من شَمّ تربةَ أحمدٍ ... أن لا يشمّ مدى الزمانِ غواليا

صُبّت عليّ مصائب لو أنها ... صبّت على الأيامِ عدنَ لياليا[4]

ثم قالت رضي الله عنها لأنس بن مالك : يا أنس ! أطابت أنفسكم أن تَحثُوا على رسولِ الله التراب ؟! ..[5]

مشت أيام الزهراء، رضي الله عنها، بعد رحيل الحبيب ﷺ ثقيلة حزينة .. فما رُؤيت ضاحكةً بعد حتى لحقت به .. ورأى الحسن والحسين وزينب أمَّهم فاطمة تذوب كل يوم حزناً على رسول الله، وكأنّ الموت كان يطلبها حثيثاً، لتتحقق نبوءة أبيها عليه الصلاة والسلام. ولم يطل بها البقاء، فما هي إلّا ستة أشهر حتى آن أوان الرحيل، وتوفيت الزهراء، رضي الله عنها، فغسلها زوجها عليّ كرم الله وجهه، وصلّى عليها العباس بن عبد المطلب ونزل في حفرتها هو وعليّ والفضل بن عباس ﷺ.[6]

---

(١) صحيح البخاري (ج٣/١٣٢٧).

(٢) سنن ابن ماجه (ج٢/٧٢).

(٣) صحيح البخاري (ج٤/١٦١٩).

(٤) انظر : الوفا في أحبار المصطفى (ج٢/٨٠٣).

(٥) صحيح البخاري (ج٤/١٦١٩).

(٦) انظر : طبقات ابن سعد (ج٨/٢٨-٢٩).

ولحقت بنت أبيها بالنبي المصطفى عليه الصلاة والسلام الذي ذابت شوقاً إليه ..

فرحمة الله وسلامه على فاطمة الزهراء .. سيدة نساء أهل الجنة .. وريحانة سيد ولد آدم عليه أفضل الصلاة والسلام التي كانت مفطومة عن كل شيء، إلّا عن حب الله ورسوله، سلام الله على شبيهة المصطفى التي قال عليه الصلاة والسلام عنها : « إنما هي بضعة مني، يريبني ما أرابها ويؤذيني ما آذاها »[1] ..

السلام على من خصها المولى بالنعمة الكبرى، فحصر في ذريتها نسل النبي المبارك عليه أزكى الصلاة والسلام.

والسلام على آل البيت جميعاً الذين أنزل الله تعالى فيهم قرآناً يتلى إلى يوم الدين : ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾[2].

---

(١) صحيح البخاري (ح٥/٢٠٠٤).

(٢) سورة الأحزاب (٣٣).

أُسامةُ بنُ زَيْدٍ رضي الله عنه

المولى الأمير

أسامةُ بنُ زَيْدٍ

ابن حارثة بن شرحبيل الكلبي

تقدّموا أيها الشباب .. وانظروا معي إلى هذا القادم من بعيد .. إنه شاب من صحابة رسول الله ﷺ .. فإذا رأيناه فَلْنَدَع قيم المظهر والحسب والنسب، ولنزنه بميزان واحد فقط .. ميزان العقيدة والقرب من رسول الله ﷺ ..

الشاب الذي نتحدث عنه مولى ابن مولى، ذو بشرة سوداء لكن عقيدته ناصعة، وقلبه محبّ لرسول الله ﷺ كل الحبّ.

هل عرفتموه أيها الشباب ؟ لقد نشأ نشأة ميّزته عن الصحابة جميعاً، نشأ في بيت النبوة مع أبيه زيد بن حارثة مولى رسول الله ﷺ وأمّه أم أيمن بركة الحبشية التي كانت حاضنة الرسول ﷺ وكانا من السابقين إلى الإسلام رضي الله عنهما.

فالمولد إذن في مكة قبل الهجرة، والمنشأ بيت النبوة الكريم .. هناك حبا أسامة ودرج وتعلم الكلام ..

طفولة مقدّسة محاطة بعناية النبي ﷺ لم تُصبها ظلمة الجاهلية.

هل عرفتموه أيها الشباب ؟؟ إنه (الحِبّ ابن الحِبّ) أسامة .. بن زيد بن حارثة .. أسامة الذي قال فيه رسول الله ﷺ : « من كان يحب الله ورسوله فليحبّ أسامة ».[1]

كبر أسامة ﷺ في كنف رسول الله .. وأحبّه عليه الصلاة والسلام حبّاً شديداً .. وكان يعامله معاملة أحفاده الحسن والحسين .. ولطالما أخذ هذا الجدّ الحبيب حفيده الحسن ابن علي فأجلسه على فخذه، وأخذ أسامة بن زيد فأجلسه على فخذه الأخرى وضمّهما إليه وهو يقول : « اللهم ارحمهما فإني أرحمهما .. اللهم أحبّهما فإني أُحبّهما ».[2] لقد تساوت صِلة النسب وصِلة الدين والعقيدة عند رسول الله ﷺ بل إن رابطة الدين كانت ترجح في كثير

---

(١) مسند الإمام أحمد (ج٦/١٥٦).

(٢) انظر: طبقات ابن سعد (ج٤/٦٢).

من الأحيان ..

وتحدّثنا السيدة عائشة، رضي الله عنها، عن مشهد من مشاهد حب رسول الله ﷺ لأسامة وشدة عطفه عليه فتقول : عثر أسامة على عتبة الباب فشجّ جبهته، فأخذه النبي ﷺ بين يديه وجعل يمصّ شَجّته ويمجّه[1] وهو يقول : « لو كان أسامة جارية لكسوته وحليته حتى أُنفقه ».[2] وكان عليه الصلاة والسلام شديد التأثّر بأحوال أسامة من فرح أو حزن .. فقد قام أسامة بن زيد ﷺ بعد مقتل أبيه بين يدي رسول الله ﷺ، فدمعت عيناه وبكى فقداً لأبيه .. ثم جاء من الغد فقام مقامه بالأمس .. فتأثّر النبي ﷺ وأشفق عليه وقال : « ألاقي منك اليوم ما لاقيت منك أمس ؟! ».[3] صلّى الله عليك يا سيدي يا رسول الله ما أحناك وما أرحمك وما أصدق من مدحك بقوله :

وإذا رحمت فأنت أمّ أو أبٌ هذان في الدنيا هما الرّحماء[4]

لكن هذا الحب وهذا العطف ما كانا ليؤثّرا في رسول الله ﷺ فيتحوّل عن إقامة حدّ من حدود الله شفع فيه أسامة. فهذه قريش بعد فتح مكة قد اجتمعت أهمّها شأن امرأة مخزومية قد سرقت، فقالوا : من يكلّم فيها رسول الله ﷺ ؟ فقالوا : ومن يجترئ عليه إلّا أسامة ابن زيد حِبّ رسول الله ﷺ .. وذهب أسامة فكلّم النبي عليه الصلاة والسلام في شأن هذه المرأة - وكان أسامة ﷺ لايزال فتى - فقال رسول الله ﷺ : « أتشفع في حد من حدود الله ».. ثم قام النبي ﷺ فخطب في الناس فقال : « إنما أهلك الذين قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحدّ، وايم الله لو أنّ فاطمة بنت محمّد سرقت لقطعت يدها !! ».[5]

ولما شبّ أسامة ﷺ التحق بجنديّة محمّد ﷺ حتى أصبح فتى شديد البأس، كثير

---

(١) يمجه : يرميه من الفم.

(٢) انظر: طبقات ابن سعد (ج٤/٦٢)، وابن ماجه (ج٢/٢٠٠). ويقال نُفِقَت المرأة إذا كثر خُطابها.

(٣) انظر: طبقات ابن سعد (ج٤/٦٣).

(٤) من قصيدة الهمزية النبوية للشاعر أحمد شوقي والتي مطلعها:

ولد الهدى فالكائنات ضياء وفم الزمان تبسم وثناء

(٥) صحيح البخاري (ج٣/١٢٨٢).

الحماسة مندفعاً ومقداماً، يقاتل ويجاهد في سبيل الله بروح الشباب وهمّته العالية، لكنّ هذا الاندفاع الشديد هذّبته يد النبوة وربّته خير تربية، حتى غدا أسامة شاباً متألقاً بحلية الإيمان من ثقة ورجاء، وعلم وعمل، وعبادة وأخلاق وجهاد.

ويحدّثنا أسامة ﷺ عن أول مواجهة له مع العدو فيقول : فأتيت النبي ﷺ وقد أتاه البشير بالفتح، فإذا هو متهلّل وجهه فأدناني منه ثم قال : « حدّثني ». فجعلت أحدّثه فقلت : ... فلما انهزم القوم أدركت رجلاً وأهويت إليه بالرمح، فقال: لا إله إلّا الله، فطعنته فقتلته. فتغيّر وجه رسول الله ﷺ وقال : « ويحك يا أسامة !! فكيف لك بلا إله إلّا الله؟! ويحك يا أسامة فكيف لك بلا إله إلّا الله ؟! »، فلم يزل يردّدها عليّ حتى لوددت أني انسلخت من كلّ عمل عملته واستقبلت الإسلام يومئذٍ جديداً، فلا والله لا أقاتل أحداً قال لا إله إلّا الله بعد ما سمعتُ رسول الله ﷺ.(١)

لقد كان أسامة ﷺ مُوقناً أن الرجل قالها تخوّفاً من الموت، ولكن الدرس العظيم الذي تعلّمه أسامة من رسول الهدى ﷺ : أن نعامل الناس على ظواهرهم، ونكِل سرائرهم إلى الله .. وهذه مدرسة محمّد ﷺ التي قامت على الحق والضّوابط السلوكية الرحيمة الرفيعة، المدرسة التي تخرّج منها أسامة المولى وهو يحمل لقب الأمير وظلّ يُدعى كذلك حتى مات. نعم هو مولى لكن الإسلام جعله أميراً وهو دون العشرين من عمره! وذلك يوم أرسله الرسول ﷺ على رأس جيش فيه كبار الصحابة وجّهه إلى الروم وكان عليه الصلاة والسلام يومئذ يعاني مرض الموت.

وكثُر الكلام في أسامة ﷺ آنذاك واعترض بعض الناس على تولّيه قيادة الجيش لحداثة سنّه .. وقالوا : أمّر غلاماً حَدَثاً على جلّة المهاجرين والأنصار، فلما بلغ ذلك رسول الله ﷺ غضب غضباً شديداً وخرج عاصباً رأسه، متحاملاً على نفسه من شدة المرض، فصعد المنبر وحمد الله ثم أثنى عليه قائلاً : « أمّا بعد، أيها الناس! فما مقالة بلغتني عن بعضكم في تأميري أسامة، ولئن طعنتم في إمارتي أسامة لقد طعنتم في إمارتي أباه من قبله، وايم الله إنْ كان للإمارة لخليقاً، وإنّ ابنه من بعده لخليق للإمارة، وإن كان لمن أحبّ الناس إليّ، وإنّ هذا

(١) انظر: طبقات ابن سعد (ج٤/٦٩).

لمن أحبّ الناس إليّ من بعده، وإنّهما لمُخيّلان لكلّ خير، واستوصوا به خيراً فإنه من خياركم » ..[1] وتأهّب الجيش للخروج ... واشتدّ مرض النبي ﷺ وكان يردّد : « أنفذوا بعث أسامة » ..[2]

وترامت الأخبار أن رسول الله ﷺ قد اشتدّ مرضه، فشاع الحزن والاضطراب ودب الخوف على الحبيب إلى قلب أسامة فتثاقلت قدماه عن المسير فهبط إلى المدينة، وهبط الناس معه، والنبي ﷺ مغمور، فدخل عليه أسامة وطأطأ رأسه وقبّله .. ورسول الله لا يتكلم، ثم جعل عليه الصلاة والسلام يرفع يديه إلى السماء ثم يضعهما على أسامة يدعو له ..[3]

كان هذا هو اللقاء الأخير بين النبي ﷺ وبين الحِب ابن الحِب أسامة ﷺ .. كان وداعاً صامتاً في الدنيا وسيكون لقاءً خالداً في الآخرة ..

وبقي أسامة ﷺ أميراً على الجيش تتردّد في أذنيه وصية الحبيب الأخيرة : « أنفذوا بعث أسامة » .. وكان هذا أول عمل بدأ به الخليفة الصدّيق ﷺ فقد أمر منادياً ينادي : ألا لا يقين بالمدينة أحد من جند أسامة إلّا خرج إلى عسكره .. فخرج أسامة ﷺ في ثلاثة آلاف رحل يحملون المُصاب الأليم والوصيّة .. وودّع أبو بكر ﷺ الجيش بعد أن سار إلى جنب أسامة ساعة ماشياً وأسامة راكباً، فقال أسامة : يا خليفة رسول الله إما أن تركب وإما أن أنزل، فقال : والله لستَ بنازل ولستُ براكب، ما عليّ أن أغبر قدمي في سبيل الله ساعة .. أستودع الله دينك وأمانتك وخواتيم عملك.[4]

وانطلق أسامة ﷺ، وتقدّم باسم الله والله أكبر .. فشنّ الغارة على الروم، فقتل منهم خلقاً كثيراً ولم يُقتل من المسلمين أحد، فما رُئي جيش كان أسلم من ذلك الجيش .. ورجع ﷺ إلى المدينة بعد أن نفّذ الوصية وحقّق الغاية من المعركة فأقلق الروم وكسر كبرياءهم.

---

(١) انظر: طبقات ابن سعد (ج٢/١٩٠)، وصحيح البخاري (ج٣/١٣٦٥). ومعنى « مُخيّلان لكل خير » أي : حليقان لكل خير.

(٢) انظر: طبقات ابن سعد (ج٢/١٩٠).

(٣) انظر: سنن الترمذي (ج٥/٦٣٥)، وطبقات ابن سعد (ج٢/١٩٠).

(٤) انظر: تاريخ الطبري (ج٣/٢١٢).

وكانت تلك الغزوة الموفّقة التي قادها أسامة ﷺ مبدأ الفتوحات الإسلامية .. والخطوة الأولى نحو الدعوة الإسلامية العالميّة ..

رجع أسامة ﷺ بعدها إلى المدينة .. ولكن أين البشير ليسبقه إلى النبي ﷺ .. أين وجه الحبيب يضحك فرحاً بالنصر .. أين هو ﷺ يدنـي أسامة منه كما اعتـاد ليسمع منه أخبـار المعركة ؟!. دخل أسامة إلى المدينة واللواء أمامه يحمله حتى انتهى إلى المسجد .. إلى الرّوضة الشريفة فصلى ركعتين .. وبكى طويلاً، ثم وقف يُطمئن الحبيب تحت الثرى، ويُلقّنه أنباء الانتصار، فهو في قبره حيّ طري ﷺ ..

لقد تزلزلت الروم فعلاً بصنيع أسامة ﷺ وقالوا : ما بالى هؤلاء بموت صاحبهم أن أغاروا على أرضنا ؟! ..[1] لقد أدركوا أن قوة العقيدة أكبر من كل شيء .. فمن كان يعبد محمّداً فإن محمّداً قد مات .. ومن كان يعبد الله فإن الله حيّ لا يموت .. قال تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِين مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ﴾[2].

ثم مضى عهد الصدّيق، وتولى أمير المؤمنين عمر، رضي الله عنهما، الخلافة .. وبينما كان يوماً يُقسّم الحقوق من بيت مال المسلمين أعطى ابنه عبد الله نصيبه وأعطى أسامة ضعف ما أعطى عبد الله .. فسأله ابنه : لقد فضلت عليّ أسامة وقد شهدتُ مع رسول الله ﷺ ما لم يشهد ؟! فأجابه عمر ﷺ : إنّ أسامة كان أحب إلى رسول الله منك .. وأبوه كان أحبّ إلى رسول الله من أبيك ! .. هذا هو ميزان الرجال عند عمر الفاروق إذن .. الحبّ والقرب .. رضي الله عن عمر وأرضاه .. فإن أردت أن تعرف منزلتك في رحاب الدين وما ترتيبك في صفوف الإسلام .. فاسأل أولاً ما منزلة هذا الدين عندك وما ترتيبه في أولويات حياتك ..

وقديماً قال العارفون : إذا أردت أن تعرف منزلتك عند الله، فانظر ما منزلة الله عندك؟!

توفي أسامة بن زيد في آخر خلافة معاوية، سنة أربعة وخمسين للهجرة .. ﷺ وأرضاه..

---

(١) طبقات ابن سعد (ج٤/٦٧).

(٢) سورة آل عمران (١٤٤).

عَبدُ اللهِ بنُ العبّاس رضي الله عنهما

حَبْرُ الأمّـة

عبدُ اللهِ بنُ العبّاس

ابن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف القرشي

حياة ارتوت بكلمات الرسول ﷺ وتوجيهاته وحنانه ودعائه، وتفتّحت أزهارها عُمْراً حافلاً بالحكمة والعلم، وأينعت ثمراً وفيراً عمّ خيره أجيال المسلمين عبر العصور .. تلك هي حياة العالم الصحابي عبد الله بن العبّاس الهاشمي القرشي[1] المطلبي إمام مفسري القرآن الكريم.

وُلد عبد الله بن عبّاس، رضي الله عنهما، قبل الهجرة بثلاث سنوات في شِعب مكة الذي حاصرت فيه قريش رسول الله ﷺ .. وأُتي به إلى رسول الله ﷺ فوضعه في حضنه وحنّكه بريقه الشريف ..[2]

وأمضى عبد الله بن عبّاس، رضي الله عنهما، سِنِيْ طفولته الأولى في مكة، وناله من أذى قريش ما نال المسلمين، ولم يدفع عنه صغر سنه، فقد قال: كنت وأمّي من المستضعفين، أنا من الولدان وهي من النساء.

وتتالت السنوات والأحداث، ولم ينتقل ابن عباس، رضي الله عنهما، إلى دار الهجرة إلّا عام الفتح لمّا هاجر أبوه العبّاس .. وعاد الفتى ابن عباس ينعم بصحبة النبي ﷺ ..

ثم شبّ فصار يُكثر التردّد إلى بيت رسول الله في الليل والنهار يشفع له في ذلك صغر سنه وقرابته من رسول الله وحبّه له.

ويروي ﷺ أن رسول الله ﷺ دعا له بالحكمة مرتين، وأنه رأى جبريل عنده مرتين.[3]

فأمّا أولى الدعوتين فكانت يوم بات في بيت خالته ميمونة زوج رسول الله ﷺ، فلمّا قام رسول الله ﷺ للصلاة في الليل هرع عبد الله فأعدّ له طهوره الذي أدخلته السيدة ميمونة للنبي ﷺ وذكرت له أن عبد الله بن عبّاس وضع له ذلك فدعا له وقال: « اللهمّ فقّهه في الدين وعلّمه التأويل ».[4]

---

(١) هو ابن خالة خالد بن الوليد ﷺ.

(٢) انظر: أسد الغابة (ج٣/١٩٣).

(٣) انظر: الاستيعاب في معرفة الأصحاب (ج٣/٩٣٥).

(٤) انظر: طبقات ابن سعد (ج٢/٣٦٥)، والدعاء في مسند الإمام أحمد.

وأمّا الدعوة الثانية فكانت يوم دعاه رسول الله ﷺ ومسح على ناصيته وقال : « اللهمّ علّمه الحكمة وتأويل الكتاب ».[1]

وكانت هذه الكلمات الجامعات عنوان حياة ابن العبّاس، رضي الله عنهما، فقد كان وعاءً للحكمة يفيض بها، وإماماً لكل من فسّر القرآن الكريم .. أما رؤيته لجبريل فيروي ابن العبّاس، رضي الله عنهما : كنت مع أبي عند رسول الله ﷺ وكان كالمُعرض عن أبي، فخرجنا من عنده فقال: ألم ترَ ابن عمّك كالمعرض عني ؟ فقلت : إنه كان عنده رجل يناجيه، قال : أوكان عنده أحد ؟ قلت : نعم .. فرجع إليه، فقال : يا رسول الله هل كان عندك أحد؟ فقال لي : « هل رأيته يا عبد الله ؟ »، قلت : نعم، قال: « ذاك جبريل فهو الذي شغلني عنك ».[2]

ويُروى أنّ جبريل لما رآه قال لرسول الله ﷺ : « إنه كائن حبر هذه الأمة، فاستوصِ به خيراً ».[3]

وكان ابن عباس، رضي الله عنهما، قد دخل المدينة حاملاً بين جنبيه نفساً توّاقة للعلم والتعلم، لا ترتوي إلّا بالمعرفة والفهم والحكمة، يبحث عنها في كل مكان .. ولقد أحسّ عبد الله بضرورة السُّؤال والبحث، وأصبح هذا الشعور هاجسا ملحاً وهدفاً يذلّل له كل الصعاب لاسيّما بعد ما رحل المصطفى عليه الصلاة والسلام، وغاب عنه النبع، وانقطع الوحي .. وكان لعبد الله من العمر يومها ثلاث عشرة سنة [4]، وفي ذلك يقول رضي الله عنه :

لما قُبض رسول الله ﷺ قلت لرجل من الأنصار : هلمّ فلنسأل أصحاب رسول الله ﷺ فإنهم اليوم كثير، فقال : واعجباً لك ! أترى الناس يفتقدون إليك ؟! قال : فتَرك ذلك وأقبلت أسأل .. فإنْ كان ليبلغني الحديث عن رجل فآتي بابه وهو قائل[5] فأتوسّد ردائي على بابه

---

(١) انظر: طبقات ابن سعد (ج٢/٣٦٥).
(٢) انظر: مسند الإمام أحمد (ج١/٢٩٣)، وسير أعلام النبلاء (ج٣/٣٣٩).
(٣) تهذيب التهذيب (ج٥/٢٧٩).
(٤) انظر: الاستيعاب في معرفة الأصحاب (ج٣/٩٣٤).
(٥) من القيلولة.

يسفي الريح عليَّ من التراب، فيخرج فيراني، فيقول : يا ابن عمّ رسول الله ما جاء بك ؟ هلّا أرسلت إليّ فآتيك ؟! فأقول : لا ! أنا أحقّ أن آتيك، فأسأله عن الحديث .. فعاش الرجل الأنصاري حتى رآني وقد اجتمع الناس حولي يسألوني، فقال : هذا الفتى كان أعقل مني.[1]

وهكذا مضت سنوات الشباب على عتبات منازل الصحابة، يتنقّل بين بيوتهم، يسأل ويستفسر عن الأقوال والأفعال والغزوات والمشاهد التي عاشوها مع النبي ﷺ، ويحفظ ويحاكم حتى اجتمع له من العلم ما لم يجتمع لأحد منهم ..

وبلغ ﷺ مبلَغ الرجال، وجمع مع العقل طلعة بهيّة وهيبة، فلقدكان وسيماً مديد القامة مهيباً، أبيض مشوباً بصفرة، حسيماً، جميلاً، صبيح الوجه كامل العقل ذكي النفس، من رجال الكمال.[2]

وكان عمر بن الخطاب ﷺ يستشيره في المُعضلات ويدعوه ويأخذ برأيه على ما أوتي عمر ﷺ من رجاحة عقل وتوفيق وسداد رأي. وكان يحضره مجالس أهل بدر، فاعترض بعض الصحابة على تقديمه وإجلاسه مع مشايخ الصحابة، وقالوا : ألا تدعو أبناءنا كما تدعو ابن عبّاس ؟ فقال : ذاكم فتى الكهول، له لسان سَؤُول، وقلب عقول.[3] ودعاهم ذات ليلة ودعا ابن عباس، رضي الله عنهما، ليُريهم فضله فسألهم عن تفسير سورة: ﴿ إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ﴾[4]، فقال بعضهم : لا ندري، وبعضهم قال : أمرَنا الله أن نحمده ونستغفره إذا جاء الفتح وانتصرنا، قال عمر: يا ابن العبّاس كذاك تقول ؟ قال : لا، قال : فماذا تقول ؟ قال ابن عبّاس : هو أجَلُ رسول الله ﷺ أعلمه الله له إذا جاء نصر الله، والفتح فتح مكة، فذاك علامة أجله فسبّح بحمد ربك واستغفره إنه كان توّاباً .. فقال عمر: ما أعلم منها إلّا ما تعلم.[5]

ولم يلبث أن شهد له الناس بالعلم والفضل .. وعنه قال مسروق : كنت إذا رأيت ابن

---

١) انظر: الإصابة في تمييز الصحابة (ج٢/٣٣١-٣٣٢).

٢) انظر: سير أعلام النبلاء (ج٣/٣٣٣)، والإصابة في تمييز الصحابة (ج٢/٣٣١).

٣) الإصابة في تمييز الصحابة (ج٢/٣٣٢).

٤) سورة النصر (١).

٥) انظر: البداية والنهاية (ج٥/٢١٥)، وحلية الأولياء (ج١/٣١٧).

عبّاس قلت أجمل الناس، فإذا نطق قلت أفصح الناس، فإذا تحدث قلت أعلم الناس.[1] وقد زان جمالَه خلقُه الكريم وأدبه وورعه وتواضعه .. فكان يأخذ بركاب زيد بن ثابت ﷺ إجلالاً له ويقول : هكذا أُمِرْنا أن نفعل بعلمائنا، وزيد يقبِّل يده ويقول هكذا أمرنا بأن نفعل بأهل بيت نبيِّنا ﷺ.[2]

هكذا العلم – إذا كان لله وفي الله – يرفع أصحابه عن التكبّر وتنازع العلماء ومكر الأذكياء ودهائهم .. فابن عبّاس، رضي الله عنهما، لم يرَ لنفسه ونسبه من الفضل شيئاً، بل كان متذلّلاً لربه سبحانه .. مُظهِراً فقره إلى رحمته وغفرانه .. فكان إذا قرأ آيات الوعيد كثر نشيجه، وإذا ذكر الله ارتعد خشية منه، حتى خطّت الدموع على خديه مجرى كالشراك البالي من كثرة البكاء ..[3] هكذا كانت أحواله في خلواته، فإذا خرج للناس كان ينبوعاً يتدفق بالعلم والمحبة حتى أُثرت عنه أقوال مضيئة في ذلك، منها قوله : لأن أعُول أهل بيت من المسلمين شهراً أو جمعة أو ما شاء الله، أحبُّ إلي من حجة بعد حجة، ولَطَبق أهديه إلى أخ لي في الله عزّ وجلّ أحبّ إلي من دينار أنفقه في سبيل الله عزّ وجلّ.[4]

وقوله : إنّي لآتي على الآية من كتاب الله فلوددت أنّ جميع الناس يعلمون منها ما أعلم، وإني لأسمع بالحاكم من حكام المسلمين يعدل في حكمه فأفرح به، ولعلّي لا أقاضي إليه أبداً، وإني لأسمع بالغيث قد أصاب البلد من بلاد المسلمين فأفرح به، وما لي به من سائمة.[5]

ألا إنها الخيريّة [6] التي تميّز بها أتباع دين محمّد ﷺ على من سواهم .. ومن يدري لعلّ الله فتح له أبواب العلم أكثر فأكثر من أجل أخلاقه الكريمة وسجاياه النبيلة وحبّه الخير للناس .. فقد رووا أن علمه كان وافراً متنوعاً شاملاً حتى سُمّي بالبَحْر والحَبْر ..[7]

---

(١) الإصابة في تمييز الصحابة (ج٢/٣٣٢).

(٢) انظر: الإصابة في تمييز الصحابة (ج٢/٣٣٢).

(٣) انظر: أسد الغابة (ج٣/١٩٤).

(٤) انظر: حلية الأولياء (ج١/٣٢٨).

(٥) انظر: حلية الأولياء (ج١/٣٢٢).

(٦) أشار الله إليها في قوله سبحانه: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ سورة آل عمران (١١٠).

(٧) انظر: الإصابة في تمييز الصحابة (ج٢/٣٣٣).

وقال عبيد الله بن أبي يزيد : كان ابن عبّاس إذا سُئِل عن الأمر فإن كان في القرآن أخبر به، وإن لم يكن في القرآن وكان عن رسول الله ﷺ أخبر به، فإن لم يكن في القرآن ولا عن رسول الله ﷺ وكان عن أبي بكر وعمر أخبر به، فإن لم يكن في شيء من ذلك اجتهد رأيَه ..[1] لذلك كان الصحابة إذا اختلفوا في مسألة ردّوها إليه، فقد قال طاوس : رأيت سبعين من أصحاب رسول الله ﷺ إذا تدارؤوا في أمر صاروا إلى قول ابن عبّاس.[2]

ولعلّ علمه بتفسير القرآن هو الجانب المبهِر في حياته وعلمه، وكيف لا وقد دعا رسول الله ﷺ بالفهم والعلم والتفسير .. ويقول الأعمش : قرأ ابن عبّاس سورة النور فجعل يفسرها، فجَعَلْت أقول : لو سَمِعَتْه فارس والروم لأسلمت! .[3]

ولما غزا ابن عبّاس، رضي الله عنهما، مع عبد الله بن أبي السَرح إفريقية تحدّث إلى الملك جرجير وحاوره فقال له الملك : ما ينبغي إلّا أن تكون حَبْر العرب ..[4]

وقد ولّاه عثمان بن عفان ﷺ في خلافته أمر الإفتاء[5]، وأمره أن يحج بالناس ..[6] فلما كانت خلافة علي بن أبي طالب ﷺ جعله والياً على البصرة، فرُوي أنه كان يغشى الناس فما ينقضي الشهر حتى يفقّههم .. كذلك يفعل العالم الفقيه مهما تقلّد من المناصب.

ثم شاء الله تعالى أن يمتحن العالم التقي النقي، ففقد بصره في أواخر حياته، وفي ذلك يقول ابن عبّاس، رضي الله عنهما :

إن يأخذ الله من عينيَّ نورهما ... ففي لساني وقلبي منهما نور
قلبي ذكي وعقلي غيرُ ذي دَخَل ... وفي فمي صارم كالسيف مأثور[7]

---

(١) طبقات ابن سعد (ج٢/٣٦٦).
(٢) الإصابة في تمييز الصحابة (ج٢/٣٣٣)، وتدارؤوا في الأمر : تدافعوا في الخصومة فيه.
(٣) انظر: الإصابة في تمييز الصحابة (ج٢/٣٣٣).
(٤) انظر: الإصابة في تمييز الصحابة (ج٢/٣٣٣).
(٥) انظر: طبقات ابن سعد (ج٢/٣٣٠).
(٦) انظر: الإصابة في تمييز الصحابة (ج٢/٣٦٦).
(٧) أسد الغابة (ج٣/١٩٥).

وظلّ ﷺ صابراً محتسباً .. وكيف لا يصبر ويستسلم لقضاء الله وقدره وهو الذي قال له الرسول الحبيب عليه الصلاة والسلام يوماً : « يا غلام ! ألا أعلمك كلمات ينفعك الله بهنّ »، فقلت : بلى، فقال : « احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده أمامك، تعرّف إليه في الرّخاء يعرفك في الشّدة، وإذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله. قد جفّ القلم بما هو كائن فلو أنّ الخلق كلّهم جميعاً أرادوا أن ينفعوك بشيء لم يكتبه الله عليك لم يقدروا عليه، وإن أرادوا أن يضرّوك بشيء لم يكتبه الله عليك لم يقدروا عليه. واعلم أنّ في الصّبر على ما تكره خيراً كثيراً، وأنّ النّصر مع الصّبر وأنّ الفرج مع الكرب، وأنّ مع العسر يسراً ».[1]

علم ﷺ أنه لن يصيبه إلّا ما كتبه الله عليه .. وأنه لن يتركه في الشدة .. فعاش بقية أيامه صابراً شاكراً حافظاً لربه .. لا يسأل أحداً في عسر أو يسر حتى أصابه الموت فلم يخطئه.. وقد لقي ربه بالطائف سنة ثمان وستين.

وذُكر أن طائراً أبيض أقبل فدخل في أكفانه فما خرج منها حتى دفن معه ..[2] فقال الناس : إنه علمه الذي تركه صدقة جارية يُنتفع بها .. ونور ذلك العلم الذي يُهتدى به في الأرض والسماء ..

رحم الله عبد الله بن عبّاس ..

ابن عم رسول الله ﷺ ..

حَبْرُ الأمة الإسلامية وفقيهها .. من علّمه الله الحكمة وتأويل الكتاب ..

---

(١) مسند الإمام أحمد (ج١/٣٠٧-٣٠٨).

(٢) انظر: الإصابة في تمييز الصحابة (ج٢/٣٣٤).

سَعيدُ بنُ عامر رضي الله عنه

الأميرُ الفقير

سعيدُ بنُ عامر بن جذيم

ابن سلامان الجُمَحي القرشي

في يوم من أيام السنة الرّابعة للهجرة، وخارج الحرم المكي التفّ نفر من قريش حول صحابي كريم هو خُبيب بن عدي ﷺ. كان خبيب مرفوعاً على خشبة، وكان المشركون يريدون صلبه .. وفي تلك اللحظات التي سبقت استشهاده سأله كفار من قريش : أتحبّ أنّ محمّداً مكانك ؟ فأجاب جواب المؤمن الذي امتلأ قلبه بالحب حتى فاض : لا والله العظيم، ما أحبّ أن يفديني بشوكة يشاكُها في قدمه.(١)

في ذلك الزحام ومع الجمهرة المشركة التي شهدت مصرع البطل خبيب ﷺ كان يقف رجل اسمه (سعيد بن عامر) الذي لم يكن قد انضم إلى صفوف الإسلام بعد، لكنّه أنصت جيداً إلى كلمات خبيب الصامدة .. وظلّت تلك الكلمات حبيسة شعوره وفكره .. ولعلّها كانت الدافع للتعرّف إلى ذلك السرّ الكبير الذي يجعل المرء يفدي هذا الفداء ويعطي هذا العطاء ..

وقبل غزوة خيبر دخل الإيمان إلى قلب سعيد بن عامر فاطمأنّ به وصار سعيداً حقاً .. وهل تغيب السعادة إلّا من البُعد عن جوهر الإسلام ومنهجه القويم، والجهل بجماله وروعته وجلاله ..

أسلم سعيد ﷺ ثم هاجر إلى المدينة المنورة والتحق بكتيبة الحق فشهد خيبر وما بعدها، وعُرف بين أصحابه بالخير والزهد والتقوى والاجتهاد في العبادة .. وانطوت سنوات القرب القليلة من المصطفى ﷺ .. سنوات قليلةٌ، نعمْ .. لكنها كانت كافية لتصوغ من سعيد الشخصية التي يحبّها الله ويرضى عنها ..

وبوفاته ﷺ ابتدأ العهد الراشدي، وتولّى أبو بكر الصدّيق ﷺ الخلافة، وبدأ عهد الفتوحات. وسمع سعيد بن عامر ﷺ أنّ الخليفة يريد أن يُرسله قائداً على جيش المسلمين إلى

---

(١) انظر: دلائل النبوة للبيهقي (ج٣/٣٢٦).

بلاد الشام، وطال انتظار سعيد ﷺ ثم علم أن أبا بكر ﷺ قد أوكل تلك المهمّة إلى يزيد بن أبي سفيان، وأنّ الجيش قد انطلق فعلاً بقيادته !! فما كان من سعيد إلّا أن قدم على أبي بكر مُسابقه إليه رغبته في الجهاد في سبيل الله .. فاستأذن عليه ثم قال : يا أبا بكر! والله لقد بلغني أنك تريد أن تبعثني في هذا الوجه ثمّ رأيتك قد سكتّ، فما أدري ما بدا لك ؟! .. ثم أردف - بلهفة المحبّ لربّه المتأدّب في مدرسة النبوة - قائلاً : إن كنت تريد أن تبعث غيري فابعثني معه فما أرضاني بذلك، وإن كنت لا تريد أن تبعث أحداً فما أرغبني في الجهاد. إيذن لي رحمك الله حتى ألحق بالمسلمين فقد ذُكر لي أنه قد جُمعت لهم جموع كثيرة ..

فقال أبو بكر ﷺ : رحمك الله، الله أرحم الراحمين يا سعيد، فإنّك ما علمتُ من المتواضعين المتواصلين المخبتين المجتهدين بالأسحار الذاكرين الله كثيراً ..

فقال سعيد ﷺ : يرحمك الله، نعم الله عليّ أفضل، له الطول والمنّ، وأنت ما علمتك يا خليفة رسول الله إلّا صدوقاً بالحقّ، قوّاماً بالقسط، رحيماً بالمؤمنين، شديداً على الكافرين، تحكم بالعدل، ولا تستأثر بالقسم .. فما كان من أبي بكر ﷺ حين رأى عزمه وجدّه إلّا أن قال : حسبك يا سعيد، اخرج رحمك الله فتجهّز فإني باعث إلى المؤمنين جيشاً ممدّاً لهم ومؤمّرك عليهم !! ..

وأمر بلالاً ﷺ فنادى في الناس: ألا انتدبوا أيها الناس مع سعيد بن عامر إلى الشام. وتجهز معه جيش من المسلمين في أيام. وأخذ سعيد ﷺ بزمام راحلته حتى وقف على باب الصدّيق ﷺ يودّعه ويودّع من معه من المسلمين قائلاً : أما إن هذا الوجه وجه رحمة وبركة، اللهم فإن قضيت لنا - يعني البقاء - فعلى عادتك، وإن قضيت علينا الفرقة فإلى رحمتك، وأستودعكم الله، وأقرأ عليكم السلام ..

ثم سار بجيشه ليلحق بيزيد بن أبي سفيان ﷺ، فقال أبو بكر ﷺ لمن حوله من الصحابة : عبادَ الله .. ادعوا الله أن يصحب صاحبكم وإخوانكم معه ويسلّمهم، فارفعوا أيديكم رحمكم الله أجمعين، فرفع القوم أيديهم وهم أكثر من خمسين ..

وانتصر جيش الإسلام وفُتحت بلاد الشام .. وبلغ سعيداً دعاء إخوته له ﷺ، فقال

متأسّفاً : رحم الله إخواني، ليتهم لم يكونوا دعوا لي، قد كنت خرجت وإنّي على الشهادة لحريص .. فما هو إلّا أن لقيت العدو فعصمني الله من الهزيمة والفرار، وذهب من نفسي ما كنت أعرف من حبي الشهادة، فلما أن أُخبرت أنّ إخواني دعوا لي بالسلامة علمت أن قد استجيب لهم .[1]

لقد كان سعيد بن عامر مع يزيد بن أبي سفيان، رضي الله عنهما، بل تحت إمرته .. لم يفكّر لحظة مَن القائد ومَن الجندي في هذه المعركة ؟! كان همّه الانضمام إلى الجند المسلمين فإمّا نصر وإمّا شهادة .. لذا شدّ الله به وبمن كان معه أعضاد المسلمين وفتّ بهم أعضاد المشركين. فالمخلص عظيم سواء كان قائداً أم جندياً .. هذا الاعتقاد الناصع وهذه النيّة الصافية التي لم تشبها شائبة قط ظلّت وساماً على صدر السعيد ..

ثم كانت خلافة عمر ﷺ، عمر الذي يتحرّى النوايا حين ينتقي أميراً على الرعيّة. وقد اختار ﷺ سعيداً لولاية إمارة حمص لما رأى من أخلاقه النبيلة ونفسه الهادئة الورعة المتواضعة لله .. فأرسل في طلبه وقال له : إنّا مستعملوك على هؤلاء ..

فقال سعيد ﷺ : يا عمر ! لا تفتنّي ..

فغضب عمر ﷺ قائلاً : والله لا أدعكم، جعلتموها في عنقي - يعني الخلافة - ثم تخلّيتم عنّي !! إنّما أبعثك على قوم لستَ بأفضلهم، ولستُ أبعثك لتضرب أبشارهم ولا تنتهك أعراضهم .. فما كان من سعيد إلّا أن وافق أمام هذا المنطق العمري القوي ..[2]

فكان - بعد ذلك - إذا خرج عطاؤه نظر إلى ما يكفي لقوت أهله من طعامهم وكسوتهم وما يصلحهم فيعزله، وينظر إلى بقيّته فيتصدّق به .. ويسأله أهله عن بقية المال فيقول : أقرضته !! فكان يعمد إلى صرر يقسم فيها أمواله، ليوزعها على جند المسلمين والمساكين والأرامل واليتامى ..

ومرّة أتاه نفر من قومه يراجعونه في كثرة إنفاقه فقالوا : إنّ لأهلك عليك حقاً، وإنّ

---

(١) انظر: مختصر تاريخ ابن عساكر (ج٩/٣٢٢).

(٢) انظر: الإصابة في تمييز الصحابة (ج٢/٤٩).

لأصهارك عليك حقاً ..[1] فقال : ما أنا بمُستَأثِر عليهم وإنَّ يدي لَمَع أيديهم، وما أنا بالمُتخلِّف عن العُنُق الأوّل [2] بعد أن سمعت رسول الله ﷺ يقول : « يجمع الله عزّ وجلّ النّاس للحساب، فيجيء فقراء المؤمنين، يُزَفُّون كما تُزَفُّ الحمام، فيُقال لهم : قفوا عند الحساب، فيقولون : ما عندنا حساب، ولا آتيتمونا شيئاً، فيقول ربّهم : صدق عبادي، فيُفتح لهم باب الجنة فيدخلونها قبل الناس بسبعين عاماً ».[3]

وبعد أشهر قليلة مضت على ولاية سعيد قدم أمير المؤمنين عمر، رضي الله عنهما، إلى حمص، ليطمئن على أحوال الناس فيها، فأمرهم أن يكتبوا له كتاباً فيه أسماء فقرائهم فرفعوا له الكتاب فإذا بين الأسماء .. اسم سعيد بن عامر، فاستوقفهم يسأل : من سعيد بن عامر ؟

قالوا : يا أمير المؤمنين .. أميرنا !!

قال : وأميركم فقير؟ قالوا : نعم. فتعجّب قائلاً : كيف يكون أميركم فقيراً ؟ أين عطاؤه ؟ وأين رزقه ؟

قالوا : يا أمير المؤمنين لا يمسك شيئاً [4].

فبكى عمر ﷺ .. بكى تأثّراً من أمير فقيرة دنياه .. ثريّة عطاياه وأعماله ..

ثم سأل أهل حمص قائلاً : يا أهل حمص ! كيف وجدتم عاملكم ؟ وكان يقال لأهل حمص الكويفة[5] الصغرى لكثرة شكايتهم العمّال .. وكانت الكوفة مشهورة بشكاية العمال.

فقالوا : نشكو أربعاً : لا يخرج إلينا حتى يتعالى النهار، قال : أعظِم بها ! وماذا ؟

قالوا : لا يجيب أحداً بليل، قال : وهذه عظيمة ! وماذا ؟

قالوا : وله يوم في الشهر لا يخرج فيه إلينا، قال : وهذه عظيمة ! وماذا ؟

---

(١) انظر: حلية الأولياء (ج١/٢٤٧).

(٢) يعني من سبقه من الصحابة، وعُنُق كل شيء أوله.

(٣) حلية الأولياء (ج١/٢٤٧).

(٤) أي يتصدق بعطائه على الفقراء.

(٥) تصغير الكوفة.

قالوا : تأخذه غشية بين الأيام ..

فجمع عمر ﷺ بينهم وبينه ..كأنهم في محكمة هم أصحاب دعوى .. وسعيد بن عامر متهم .. وعمر ﷺ فاروق يحكم، ويفرّق بين الباطل والحق .. وكان يدعو الله في هذا الموقف : اللهم لا تُفَيِّلْ رأيي [1] فيه اليوم .. ثم قال لأصحاب الدعوى : ما تشكون منه ؟

قالوا : لا يخرج إلينا حتى يتعالى النهار.

قال سعيد ﷺ : والله إني كنت لأكره ذلك، ليس لأهلي خادم، فأعجن عجيني ثم أجلس حتى يختمر، ثم أخبز خبزي، ثم أتوضأ، ثم أخرج إليهم !

فقال : وما تشكون منه ؟

قالوا : لا يجيب أحداً بليل. فالتفت إلى سعيد وقال : ما تقول ؟

فأجاب سعيد ﷺ بتواضعه : إنْ كنتُ لأكره ذكره، إني جعلت النهار لهم، وجعلت الليل لله عزّ وجلّ ..

قال عمر ﷺ : وما تشكون منه ؟

قالوا : إنّ له يوماً في الشهر لا يخرج إلينا فيه. قال : ما تقول ؟

فأجاب سعيد ﷺ : ليس لي خادم يغسل ثيابي، ولا لي ثياب أبدلها، فأجلس حتى يجف ثوبي ثم أدلكها، ثم أخرج إليهم من آخر النهار.

قال : ما تشكون منه ؟

قالوا : تأخذه غشية بين الأيام، قال : ما تقول ؟

قال سعيد ﷺ: شهدت مصرع خبيب الأنصاري بمكة وقد حملته قريش على جذع، ثم

---

(١) أي لا تخيّب رأيي فيه.

بضعت[1] لحمه، فقالوا : أتحبّ أن محمّداً مكانك ؟ فقال : والله ما أحبّ أني في أهلي وأن محمّداً شيك بشوكة، فما ذكرت ذلك اليوم وتركي نُصرته في تلك الحال، وأنا مشرك لا أومن بالله العظيم، إلّا ظننت أن الله تعالى لن يغفر لي ذلك الذنب أبداً، فتصيبني تلك الغَنْظَة[2] ..

فصدر حكم عمر : الحمد لله الذي لم يُقيِّل فراستي ..[3]

ورغم الشكاية، لم يحمل سعيدٌ ﷺ غـلّاً على أهل حمص، ولا ضاق بهم، ولم يكن من العافين عن الناس فحسب بل من المحسنين، لذا أحبوه كثيراً .. ولقد سأله عمر ﷺ عن حب أهل حمص له فقال : ما لأهل الشام يحبونك ؟ قال : أواسيهم بنفسي وأعدل فيهم بحكمي. لقد كان ﷺ يجود بنفسه ليواسي من حوله .. لأنّه لم يبق معه عطاء سواه يواسيهم به ! ..

ولقد أدّى عمر شهادته في سعيد، رضي الله عنهما، حين قال : لا أعزلك ما دمت حيّاً ..

لكن الله أحبّ لقاءه فعزله إليه، ففي سنة عشرين للهجرة لبّى سعيد بن عامر نداء ربه.

رضي الله عنك يا سعيد مجاهداً مستبسلاً .. وعابداً مخبتاً .. وأميراً مخلصاً رحيماً ..

رضي الله عنك وأرضاك وأكرمنا بلقياك.

---

(١) تقطّعت.

(٢) غَنَظَ : أشرف على الهلاك ثم أفلت، والغَنَظُ : الهم الشديد والمشقّة.

(٣) انظر: مختصر تاريخ ابن عساكر (ج٩/٣٢٤).

العَبّاس بنُ عَبدِ المطّلب رضي الله عنه

ساقي الحجيج

العبّاسُ بنُ عبدِ المطّلب

ابن هاشم بن عبد مناف بن قُصَيّ القرشي

في يوم مشهود وقف المبعوث رحمة للعالمين، يخطب في أهل قرابته وعشيرته، استجابة لأمر الله تعالى : ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾[1].. قال لهم عليه الصلاة والسلام :

« إن الرّائد لا يكذب أهله، والله لو كذبت النّاس جميعاً ما كذبتكم، ولو غررت النّاس جميعاً ما غررتكم، والله الذي لا إله إلّا هو إني رسول الله إليكم خاصة وإلى النّاس كافّة .. والله لتموتُنّ كما تنامون، ولتُبعثُنّ كما تستيقظون، ولتحاسبُنّ بما تعملون، ولتجزَوُنّ بالإحسان إحساناً وبالسّوء سوءاً، وإنها لَجنّة أبداً أو لنار أبداً .. والله يا بَني عبد المطلب ما أعلم شاباً في العرب جاء قومَه بأفضل مما جئتكم به، إني قد جئتكم بخير الدنيا والآخرة ».[2]

كان القوم يستمعون، وكان فيهم رجل طويل جسيم هو العبّاس، عم النبي عليه الصلاة والسلام .. لم يستجب العبّاس يومئذٍ و لم يُسلم، ولكنه قال قولاً ليناً، وربما ظلّ طويلاً يفكر في كلمات ابن أخيه تلك ..

لا نعلم على وجه التحديد متى شرح الله صدر العبّاس للإسلام، إلّا أن إعلان إسلامه في أهل مكة كان متأخراً .. ولربما كان كتمان إسلامه في صالح الدعوة فقد بقي في مكة بعد هجرة المسلمين، لنصرة النبي ﷺ ودعوته.

أول موقف نشهد فيه العبّاس ﷺ إلى جانب النبي عليه الصلاة والسلام كان يوم العقبة الثانية، يوم تمّ العقد الذي مهّد لولادة دولة الإسلام في المدينة .. و لم يكن العبّاس يومئذٍ مجرد شاهد وإنما كان مُفاوضاً عن رسول الله ﷺ. وتذكر المصادر أنه كان يومئذٍ على دين قومه [3]، إلّا أنه أحبّ أن يحضر أمر ابن أخيه ويتوثّق له، وكان ذا معرفة بأهل يثرب .. وبرغم أن النبي عليه الصلاة والسلام كان شديد الحرص على كتمان أمر البيعة عن المشركين،

---

(١) سورة الشعراء (٢١٤).

(٢) انظر: السيرة الحلبية (ج١/٢٨٥).

(٣) انظر: سيرة ابن هشام (مج١/٤٤١).

إلّا أن ثقته بالعبّاس كانت كبيرة.

ما إن اجتمع القوم تلك الليلة حتى كان العبّاس أول من تكلم، فقال مخاطباً أهل يثرب: يا معشر الخزرج ! إن محمّداً منّا حيث قد علمتم، وقد منعناه من قومنا ممن هو على مثل رأينا فيه، فهو في عزّ من قومه ومنعة في بلده، وإنه قد أبى إلّا الانحياز إليكم، واللحوق بكم، فإن كنتم ترون أنكم واقون له بما دعوتموه إليه، ومانعوه ممن خالفه، فأنتم وما تحمّلتم من ذلك، وإن كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه بعد الخروج به إليكم فمِنَ الآن فدعوه ..[1]

هنالك امتدت أيدي الرجال تبايع رسول الله ﷺ على السّمع والطّاعة على كل حال، وعلى نصرة النبي ودعوته وصحابته. فلما تمت البيعة قال العبّاس : اللهم ! إنك سامع شاهد، وإنّ ابن أخي قد استرعاهم ذمّته، واستحفظهم نفسه، اللهم ! كن لابن أخي عليهم شهيداً ..

ولم ينس النبي صلوات الله وسلامه عليه موقف العبّاس، كان يأثره له ويقول: « أُيّدت تلك الليلة بعمّي العبّاس، وكان يأخذ على القوم ويعطيهم ».[2]

وهاجر المسلمون، وبقي العبّاس في مكة .. ومضت السنة الأولى والنبي عليه الصلاة والسلام يقيم دعائم الدولة الجديدة .. وجاءت السنة الثانية، وشاء الله أن يلتقي الإيمان والشرك في أول صِدام مسلّح في بدر.

وخرج العبّاس إلى معركة بدر مع المشركين مكرهاً، وكان رسول الله يعلم ذلك فقال للمسلمين : « إني قد عرفتُ أن رجالاً من بني هاشم وغيرهم قد أُخرجوا كَرْهاً لا حاجة لهم بقتالنا، فمن لقي منكم أحداً من بني هاشم فلا يقتله ومن لقي أبا البختري بن هشام بن الحارث بن أسد فلا يقتله، ومن لقي العبّاس بن عبد المطلب عمّ رسول الله فلا يقتله، فإنه إنما أُخرج مستكرهاً ».[3]

وانتهت المعركة وانتصر المسلمون النّصر المؤزّر .. وشاء الله تعالى أن يُؤسر العبّاس.

---

(١) انظر: سيرة ابن هشام (مج١/٤٤١-٤٤٢).

(٢) انظر: طبقات ابن سعد (ج٤/٣١).

(٣) انظر: سيرة ابن هشام (مج١/٦٢٩).

وشُدّ وثاقه في بعض الليالي فأنّ، فسهر النبي عليه الصلاة والسلام تلك الليلة و لم ينم، فقال له بعض أصحابه : ما أسهرك يا نبي الله ؟ فقال : « أنين العبّاس »، فقام رجلٌ فأرخى من وثاقه، فقال عليه الصلاة والسلام : « فافعل ذلك بالأسارى كلهم ».[1]

تلك هي التراهة وذلك هو التجرّد في أرقى صورهما، يعلّمنا إيّاها رسول الإسلام .. رسول القيم النبيلة ﷺ.

لقد قوّى الإسلام أواصر القربى ما لم تنافِ العقيدة، وإن النبي ﷺ لم يجارِ أهله في باطل ولا كان يجاريهم في أحكامه .. بل كان يشدّهم دائماً إلى مراقي الإيمان.

ولنا في الخبر التالي دليل آخر .. ذلك أن رسول الله ﷺ لما أراد فداء الأسرى طلب منهم أن يفتدوا أنفسهم، قال العبّاس : يا رسول الله إني كنت مسلماً. فقال رسول الله ﷺ : « الله أعلم بإسلامك، فإن يكن كما تقول فالله يجزيك، فافْدِ نفسك وابني أخويك نوفل بن الحارث بن عبد المطلب، وعقيل بن أبي طالب بن عبد المطلب، وحليفك عتبة بن عمرو بن جحدم أخا بني الحارث بن فهر ». فقال العبّاس : وما ذاك عندي يا رسول الله. فقال عليه الصلاة والسلام : « فأين المال الذي دفنت أنت وأم الفضل، فقلتَ لها : إن أُصبتُ فهذا المال لبنيّ الفضل وعبد الله وقُثم ». فقال العبّاس : والله يا رسول إني أشهد أنك رسول الله إن هذا لشيء ما علمه أحدٌ غيري وغير أم الفضل !. ففدى العبّاس نفسه وابني أخويه وحليفه .. وأنزل الله قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيۡدِيكُم مِّنَ ٱلۡأَسۡرَىٰٓ إِن يَعۡلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمۡ خَيۡرٗا يُؤۡتِكُمۡ خَيۡرٗا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾[2].. فكان العبّاس يقول بعد ذلك : فأعطاني الله مكان العشرين أوقية في الإسلام عشرين عبداً كلهم في يده مالٌ يضرب به، مع ما أرجو من مغفرة الله عز وجل.[3]

وراحت قريش بعد الهزيمة تعدّ العدّة للانتقام والثأر لقتلاها في بدر، وتحرّض القبائل

---

(١) انظر: طبقات ابن سعد (ج٤/١٣).

(٢) سورة الأنفال (٧٠).

(٣) انظر: المستدرك (ج٣/٣٢٤).

المجاورة على قتال المسلمين. وفي شوّال من السنة الثالثة للهجرة خرجت قريش بقيادة أبي سفيان في ثلاثة آلاف مقاتل قاصدين المدينة .. ولم يخرج معهم العبّاس، وإنما سارع إلى إرسال كتاب للنبي عليه الصلاة والسلام يخبر قريش .. لقد أدّى ﷺ دوره في المعركة عن بُعد.

وتدافعت السنوات وتلاحقت الأحداث، والعبّاس ﷺ مقيم في مكة .. وتُفيد الروايات أنه كان يبعث إلى النبي ﷺ يستأذنه في الهجرة، فيقول عليه الصلاة والسلام : « إنّ مُقامك مُجاهَد حسن »[1].. وقد كان العباس ﷺ قائماً على أمر السقاية التي آلت إليه بعد أبيه عبد المطلب، وقد أقرّه عليها الرسول ﷺ بعد الإسلام.

وجاءت السنة السابعة للهجرة، وفتح الله على رسوله خيبر .. وآن الأوان أن يلحق العبّاس ﷺ بنبيه الكريم عليه الصلاة والسلام في المدينة، وكان من خبر هجرته ﷺ أن رجلاً حديثاً إسلامه اسمه الحجّاج بن علاط السلمي جاء النبي ﷺ فقال له : يا رسول الله إن لي بمكة مالاً، فأذن لي يا رسول الله، فأذِن له أن يذهب ويجمعها. وكان الرجل تاجراً وله أموالٌ متفرقة، ولم يكن أهل مكة قد علموا بإسلامه بعد، فاستأذن رسولَ الله أن يقول لهم كلاماً يرضيهم حتى يُعيدوا له أمواله. وكان أهل مكة قد سمعوا بمسير النبي ﷺ إلى خيبر ولمّا يبلغهم نبأ انتصار المسلمين، فكانوا يتحسّسون الأخبار ويسألون الرّكبان. فلما جاءهم الحجّاج بن علاط قال لهم : هُزم محمّدٌ هزيمةً لم تسمعوا بمثلها قط، وقُتل أصحابه قتلاً لم تسمعوا بمثله قط، وأسر محمّدٌ أسراً وقالوا : لا نقتله حتى نبعث به إلى أهل مكة فيقتلوه بين أظهرهم بمن كان أصاب من رجالهم.

فرح المشركون بهذا الخبر أشدّ الفرح، وجمعوا له أمواله أسرع ما يكون الجمع .. وسمع العبّاس ﷺ الخبر فهُرع إليه يسأله جَرِعاً عن صحة ما قال، فطلب منه أن يخلو به، ففعل فقال له : احفظ عليّ حديثي يا أبا الفضل فإني أخشى الطلب ثلاثاً، ثم قل ما شئت، فإني أخشى أن يلحقوا بي، فوعده العبّاس ﷺ بذلك فقال له الحجاج : فإني والله لقد تركتُ ابن أخيك عروساً على بنت ملكهم (يقصد صفية بنت حُيَي رضي الله عنها) ولقد افتتح خيبر وانتثل ما فيها وصارت له ولأصحابه. وانطلق الحجّاج لاحقاً بالمسلمين، فلمّا مضت ثلاثة أيام خرج

---

(١) انظر: طبقات ابن سعد (ج٤/٣١).

العبّاس ﷺ إلى منتدى قريش وعليه أفضل ثيابه، وقد تعطّر فلما رآه المشركون قالوا : إنه يتجلدّ على مصيبته. فقال لهم العبّاس : كلّا والله الذي حلفتم به ! لقد افتتح محمّد - ﷺ - خيبر وتُرك عروساً على بنت ملكهم وأحرز أموالهم وما فيها فأصبحت له ولأصحابه. فسألوه: مَن جاءك بهذا الخبر ؟ فقال لهم : الذي جاءكم بما جاءكم به، ولقد دخل عليكم مُسلماً فأخذ ماله فانطلقَ ليلحق بمحمّدٍ وأصحابه، فيكون معهم. فقالوا : يا لعباد الله ! .. أما والله لو علمنا لكان لنا وله شأن. وسرَّ ذلك المسلمين الذين بمكة وأتوا العبّاس فهنّؤوه بسلامة رسول الله .. ولم يلبث العبّاس ﷺ بعد ذلك أن خرج فلحق بالنبي بالمدينة، وفرح النبي بقدومه وأسهم له من غنائم خيبر عِرفاناً بجميله وإشادة بمواقفه.[1] ثم عاد العبّاس إلى مكة، وكان ﷺ طوال تلك الفترة مقيماً على السقاية كما ذكرنا، وكان رسول الله راضياً عنه في عمله وإقامته.

وجاءت سنة ثمان، سنة الفتح المبين، وسار النبي ﷺ على رأس جيش عظيم ليفتح مكة المكرمة .. فلما كان ببعض الطريق لقيه العبّاس ﷺ مهاجراً هذه المرة بعياله، إذ لم يعد يطيق العيش بعيداً عن النبي ﷺ والمسلمين .. وشاء الله تعالى أن يكون له سهم في فتح مكة. وكان من خبره أنه لما رأى ضخامة جيش المسلمين خشي على قريشٍ من دخول المسلمين إليهم عنوة وقهراً لو خرجوا لطلب الأمان .. وكان العبّاس وَصولاً للرحم فَعولاً للخيرات، كما وصفته كتب السيرة، فأخذ ﷺ بغلة رسول الله البيضاء وخرج عائداً إلى مكة ..[2]

وكان من قضاء الله وقدره أن خرج ثلاثة من كبراء مكة، فيهم أبو سفيان، يتعرّفون الأخبار ويتسمّعون ما يقال، فالتقاهم العبّاس ﷺ وهو في طريقه فعرف صوت أبي سفيان في الظلام فقال له : ويحك يا أبا سفيان ! هذا رسول الله في النّاس، واصباح قريش والله !! فقال أبو سفيان وقد أخذ منه الذعر مأخذه : فما الحيلة فداك أبي وأمي؟ فنصحه العبّاس أن يركب خلفه فيصطحبه إلى رسول الله ﷺ ليستأمنه، ففعل .. فلما وصلا خيمة النبي طلب عليه الصلاة والسلام مِن العبّاس أن يأخذ أبا سفيان إلى خيمته ليبات الليل ثم يأتي به بعد الفجر.

---

(١) انظر: سيرة ابن هشام (مج٢/٣٤٥-٣٤٧).

(٢) انظر: سيرة ابن هشام (مج٢/٤٠٠-٤٠٢).

فلما كان الصباح غدا العبّاس بأبي سفيان إلى رسول الله، فلما وقفا بين يديه قال عليه الصلاة والسلام : « ويحك يا أبا سفيان ألم يأن لك أن تعلم أنه لا إله إلّا الله ؟ »، قال أبو سفيان : بأبي أنت وأمي ما أحلمك وأكرمك وأوصلك !! والله لقد ظننت أن لو كان مع الله إلهٌ غيره لقد أغنى عني شيئاً بعد. فقال : « ويحك يا أبا سفيان ألم يأن لك أن تعلم أني رسول الله ؟ »، فقال : بأبي أنت وأمي ما أحلمك وأكرمك وأوصلك، أمّا هذه والله فإنَّ في النفس منها حتى الآن شيئاً. فقال له العبّاس : ويحك أسلم واشهد أن لا إله إلّا الله وأن محمّداً رسول الله قبل أن تُضرب عنقك ! .. فشهد أبو سفيان شهادة الحق، ثم قال العبّاس لرسول الله : يا رسول الله إن أبا سفيان رجل يحبّ الفخر فاجعل له شيئاً، فقال ﷺ : « نعم، من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن أغلق بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن ». ثم أمر النبي ﷺ العبّاسَ ﷺ أن يقف مع أبي سفيان بمضيق الوادي حتى تمرَّ به جنود الله فيراها ..

وتابع العبّاس ﷺ مهمته كما أمره النبي عليه الصلاة والسلام .. ووقف مع أبي سفيان، وبدأت الكتائب تمرّ وأبو سفيان ينظر مبهوراً مأخوذاً بضخامة الجيش .. حتى إذا مرّت كتيبة المهاجرين والأنصار لا يرى منهم إلّا الحَدَق[1] من الحديد، فزع أبو سفيان وقال للعباس : ما لأحد بهؤلاء قِبل ولا طاقة، والله يا أبا الفضل، لقد أصبح مُلك ابن أخيك الغداة عظيماً، فقال العبّاس ﷺ : يا أبا سفيان إنها النّبوة ..[2]

وفتحت مكة أبوابها للنبي ﷺ والمسلمين، وفرح العبّاس أشد الفرح بإسلام قومه .. وتابع ﷺ خِدمة نبيّه ودعوته. وبعد أن كان ينصر النبي ﷺ في مكة بالسّياسة والسّفارة، صار ينصره بعد الفتح في مواقع الجهاد ..

ففي غزوة حنين - التي كانت سنة ثمان للهجرة بُعيد فتح مكة - كان العبّاس ﷺ مع النبي ﷺ لم يفارقه .. وكان سبب المعركة أن قبائل هوازن وثقيف أبت أن تقابل انتصار المسلمين على قريش بالخضوع، فحشدوا الجيوش لقتالهم. والتقى الفريقان في وادي حنين .. وفُوجئ المسلمون في أول القتال بنبال المشركين تنهال عليهم، فقد كمن المقاتلون لهم في

---

(١) حَدَقَةُ العين : سوادها، والجمع : حَدَقٌ وحِداق.

(٢) انظر: سيرة ابن هشام (ج٢/٤٠٢-٤٠٤).

شعاب الوادي ومضايقه .. وانقضَّت كتائبهم على المسلمين، فبدأ المسلمون يتراجعون ويتدافعون .. ولم يثبت مع النبي ﷺ إلّا نفر قليل من المهاجرين والأنصار، منهم العبّاس ﷺ .. ولما رأى رسول الله هذا الهلع جعل يصيح بالنّاس : « أين أيّها النّاس ؟ هلمّوا إلي ! أنا رسول الله »، والنّاس لا يسمعون ولا يعون، حتى انكشفوا عن رسول الله ﷺ ..

هنالك نادى الرسول ﷺ العبّاس ﷺ، وكان رجلاً جسيماً شديد الصوت، فأمره رسول الله أن ينادي في النّاس، فجعل ﷺ يصيح في النّاس : يا معشر الأنصار ! يا أصحاب البيعة يوم الحديبية ! وفي غمرة الفزع وصلت صيحات العبّاس إلى آذان المجاهدين، فألهبت حماستهم، وذكّرتهم بيعتهم وعهدهم القديم، فأخذوا يتدافعون، لكي يبلغوا مصدر الصوت، وينحازوا إلى رسولهم وقائدهم صائحين : لبّيك .. لبّيك .. واستبشر النبي عليه الصلاة والسلام، وقال : « الآن حمي الوطيس » .. وكتب الله النّصر لنبيّه ﷺ والمؤمنين.[1] وعاد العبّاس مع النبي عليه الصلاة والسلام إلى المدينة .. وبقي ﷺ ملازماً لرسول الله إلى أن قُبض عليه الصلاة والسلام ..

شهد العبّاس ﷺ أشدّ الأيام على المسلمين سواداً ووحشة ومصاباً .. إنه يوم وفاة الحبيب المصطفى ﷺ مَن ملأ الدنيا نوراً وهداية .. وبكى مع الصحابة ابنَ أخيه نبيَّ الله عليه أفضل الصلاة والسلام .. وكان ﷺ ممن شارك في غسله وجهازه ودفنه، ثم كان ممن نزل في قبره، فكان من آخر النّاس عهداً برسول الله ﷺ.

وبقي العبّاس ﷺ على عهده ووعده بعد النبي ﷺ حتى اختاره الله إلى جواره في عهد الخليفة عثمان ﷺ سنة اثنتين وثلاثين للهجرة .. ودُفن في بقيع المدينة مع الصحابة النقباء النجباء الأوفياء .. رضي الله عنه وعنهم أجمعين.

---

(١) انظر: سيرة ابن هشام (ج٢/٤٤٥).

خَالدُ بنُ الوليـد رضي الله عنه

سيفُ اللهِ المسلول

خَالدُ بنُ الوليـد

ابن المُغيرة بن عبد الله بن عمر بن مَخزُوم القرشي

مَن ذلك الفارس الميمون الذي يشُقّ غبار فرسه عنان السماء ..

مَن ذلك الذي قيل فيه .. عجزت النساء أن يلدن مثله ..

مَن ذلك الذي قيل فيه .. على مثله فلتبكِ البواكي ..

إنّه خالد بن الوليد سيف الله المسلول ﷺ وأرضاه .. أحد أولئك الرجال القلّة الذين بنوا للمجد صروحاً عالية وتركوا آثاراً عظيمة ..

كان أبوه رجلاً عظيماً في قريش، من بني مخزوم، اسمه الوليد بن المغيرة. من أكثر الناس مالاً وأعلاهم حسباً ونسباً، وأرجحهم رأياً. وأمّه لبابة بنت الحارث، وخالته ميمونة بنت الحارث، رضي الله عنها، التي تزوّجها النبي عليه الصلاة والسلام فيما بعد.

وأمّا قومه بنو مخزوم فهم الذين عُرفوا بالمهارة في فنون القتال، وكانت أسرته مسؤولة في الجاهلية عن القُبّة والأعِنّة [1]..

وفي هذه البيئة نشأ خالد .. بطلاً منذ الطفولة، يرضع أمجاد أسرته، ليصبح فارساً يقود الجيوش .. ويرضع مع أمجاد الأسرة حميّة الجاهلية، وعزّة قريش وزهوها بمكانتها وتمسكها بأصنامها. وقد كانت تلك العزّة الزائفة سبباً في تأخر خالد عن اللحاق بركب الصحابة الأبرار..

وحين سطع النور في مكة، وأرسل الله تعالى محمّداً عليه الصلاة والسلام بشيراً ونذيراً، كان خالد بن الوليد في السابعة والعشرين من عمره .. وقد عاش أحداث الدعوة الأولى وما كان من صدّ وإيذاء للإسلام والمسلمين، فتابع قومه في ذلك .. لكنا لم نسمع أنه تعرض لأحد من المسلمين بأذى، ولعله كان يرقب ما يحدث من بعيد ..

ثم هاجر المسلمون إلى المدينة .. وكانت معركة بدر الكبرى التي وصفها الله عزّ وجلّ

---

(١) أي نظم العسكر وقيادة الخيل.

يوم الفرقان، لأنها فرّقت بين الحقّ والباطل، وكان خالد يومئذٍ لا يزال في صفوف الباطل. وشاء الله أن يقع أحد إخوته في أسر المسلمين، وهو الوليد بن الوليد، فذهب خالد مع أخيه هشام إلى المدينة لافتدائه ..

وقف خالد وهشام بين يدي الرسول عليه الصلاة والسلام، ودفعا إليه تركة أبيهما من السلاح لافتداء أخيهما، وكان ذلك أول لقاء بين خالد والمجتمع المسلم الجديد. وخرج الوليد مع أخويه من المدينة، ولكن النور كان قد دخل إلى قلبه فعزّ عليه فراق المسلمين ! لقد عاش فترة في رحاب المدينة ورأى الحقّ بأم عينيه فأسلم .. ولم يلبث أن أفلت منهما بعد مدّة، وعاد إلى المدينة لينضم إلى صفوف الصحابة الكرام .. [1]

ثم كان للوليد فيما بعد فضل في دفع أخيه خالد إلى الإسلام، فعلى مثل ما افتداه خالد من الأسر .. افتدى الوليد خالداً من أسر أكبر وهو أسر الجاهلية وعنجهيّتها وشقائها .. ولكن ذلك لم يكن إلّا بعد حين.

وتتابعت المعارك والمواجهات بين خالد والمسلمين .. وبرز اسم خالد قائداً من قواد المشركين منذ خرج في غزوة أُحُد يقود ميمنة جيش قريش .. نشب القتال، ولم يمض وقت إلّا يسير حتى أحرز المسلمون نصراً مبيناً .. فلما خالف الرماة أمر النبي عليه الصلاة والسلام، وتركوا أماكنهم من الجبل، لاحظ خالد انكشاف ظهور المسلمين، فاغتنم الفرصة واستدار بخيّالته من وراء الجبل، وانقضّوا على المسلمين يُعمِلون فيهم قتلاً وجرحاً .. كان هجوم خالد هو الذي قلب انتصار المسلمين هزيمة ليتعلّموا درس الطاعة العظيم .. وبقيت تلك الحادثة آلم الحادثات والمواقف في حياة خالد ..

ومرّت الأعوام والمسلمون في سعي حثيث في المدينة ليوطدوا دعائم الدولة الناشئة .. يتعمون بضحية خاتم المرسلين، على حين بقي خالد في مكة يفوته خير كثير ..

وفي العام السادس من الهجرة خرج النبي عليه الصلاة والسلام ومعه المسلمون لأداء العمرة، فلما وصلوا إلى (عُسفان) جاءهم الخبر أن قريشاً قد خرجت بمقاتليها لمحاربتهم ومنعهم

---

(١) انظر: طبقات ابن سعد (ج٤/١٣١-١٣٢).

من دخول مكة ..

وعلى مقربة من معسكر المسلمين كان خالد بن الوليد يقود خيّالة المشركين الذين عزموا على الإغارة على المسلمين فور انشغالهم بصلاة العصر .. قال المشركون فيما بينهم : إن هؤلاء صلاة هي أحبّ إليهم من آبائهم وأبنائهم وهي العصر، فأجمِعوا أمركم فميلوا عليهم ميلة واحدة. وأعلمَ الله تعالى رسوله ﷺ بما عزم عليه المشركون، ونزلت الآيات الكريمة التي تشرّع صلاة الخوف ..[1] فقسّم النبي عليه الصلاة والسلام أصحابه طائفتين، طائفةً تسجد معه عليه الصلاة والسلام، وطائفة تحرس، ثم تسجد الثانية، وتحرس الأولى .. ودُهش المشركون من صنيع النبي عليه الصلاة والسلام، وفاتتهم فرصة الإغارة.

فكّر خالد بن الوليد طويلاً بما حدث، وأحسّ منذ ذلك اليوم أن رسول الله مُؤيَّد من قِبل ربه.. وقد تحدّث عن ذلك فيما بعد فقال : فلما خرج رسول الله ﷺ إلى الحديبية خرجت في خيل المشركين، فلقيت رسول الله ﷺ بعُسفان، فقُمت بإزائه، وتعرّضت له، فصلّى بأصحابه الظهر أمامنا، فهممنا أن نُغير عليهم، ثم لم يُعزم لنا، وكانت فيه خِيرة، فأُطلع على ما في أنفسنا من اهمّ [2]، فصلى بأصحابه صلاة العصر صلاة الخوف، فوقع ذلك منا موقعاً وقلت : الرجل ممنوع.[3]

وفي العام التالي انطلق رسول الله عليه الصلاة والسلام في نحو ألفين من أصحابه لأداء العمرة بحسب ما نصّ عليه صلح الحُدَيْبِيَة، وكانت تلك عمرة القضاء [4] .. ودخل الصحابة مكة تسبقهم أشواقهم إلى البلد الأمين، مهلّلين مكبّرين يُحدِقون برسول الله ﷺ من كل جانب، ويسترونه من المشركين مخافة أن يؤذوه بشيء .. ولأول مرة رأى خالد بن الوليد المسلمين يطوفون ويسعون مع نبيهم ﷺ، وقرأ في وجوههم الثقة والطمأنينة والحب والفداء لدينهم الذي

---

(١) سنن الترمذي (ج٥/٢٢٧).

(٢) أي ما همّوا به.

(٣) انظر: دلائل النبوة للبيهقي (ج٣/٣٦٦)، وطبقات ابن سعد (ج٢/٩٥).

(٤) عمرة القضاء في السنة السابعة للهجرة، وهي المرّة الأولى التي دخل فيها النبي عليه الصلاة والسلام والمسلمون إلى مكة بعد الهجرة.

عالجوا به دين آبائهم ومضوا في طريقهم رغم كل الذي نالهم من أذى وعدوان. فكانت عمرة القضاء هذه نقطة تحول عظيم في حياة خالد بن الوليد إذ بدأ يفكر في دخول الإسلام ..

لا أحد كان يعلم بما يجول في خاطره، ولكن قلب الرسول كان ينادي خالداً .. وكان أخوه الوليد قد جاء معتمراً مع المسلمين وكان مشفقاً عليه من عذاب الله إن هو بقي على الكفر.

وبينما خالد يُقلّب الأمور على وجوهها جاءته رسالة من أخيه الوليد يقول له فيها : بسم الله الرحمن الرحيم، أما بعد، فإني لم أر أعجب من ذهاب رأيك عن الإسلام وعقلُك عقلُك ؟! ومثل الإسلام ما جهله أحد !! وقد سألني رسول الله ﷺ فقال : « أين خالد ؟ »، فقلت : يأتي الله به، فقال : « ما مثل خالد جهل الإسلام، ولو كان جعل نكايته وجِدّه مع المسلمين على المشركين لكان خيراً له، ولقدّمناه على غيره »، فاستدْرِك يا أخي ما فاتك منه، فقد فاتتك مواطن صالحة.[1] وحرّكت هذه الرسالة أشواق خالد، واسترجع ذكرياته ومواقفه من النبي عليه الصلاة والسلام ودعوته ..

لقد كان خالد يشعر دوماً أن جهود المشركين تذهب أدراج الرياح، وأن الإسلام سينتصر، وكان هذا الشعور يرافقه أينما ذهب وكيفما اتجه ويؤرقه .. وكان يقول في نفسه: قد شهدت هذه المواطن كلها على محمّد ﷺ، فليس موطن أشهده إلّا أنصَرِف وأنا أرى في نفسي أني مُوضِع[2] في غير شيء، وأن محمّداً سيظهر ! ..

وسطع نور الحقّ في قلب خالد أخيراً، واستنار عقله .. وقد وصف تلك اللحظات قائلاً: لما أراد الله عز وجل ما أراد بي من الخير، قذف في قلبي الإسلام وحضرني رشدي ..[3]

والإسلام نور في القلب، ورشاد في الفكر، ثم عقد نية وعزم .. وخالد لم ينتظر بل عزم فوراً على الخروج إلى المدينة، فعرض الأمر على صاحِبَيْه : عكرمة بن أبي جهل وصفوان بن

---

(١) انظر: مختصر تاريخ ابن عساكر (ج٨/٨).

(٢) أوضع في الشر : أسرع، وأوضع بين القوم في الفتنة : سعى بينهم بالنميمة وإفساد ذات بينهم.

(٣) انظر: دلائل النبوة للبيهقي (ج٤/٣٤٩).

أمية فرفضا بشدة، ثم عرض ذلك على عثمان بن طلحة فأجابه.

وخرج الاثنان تاركين خلفهما أمجاد مكة الزائفة وليل الجاهلية المظلم، وانطلقا صوب المدينة ليستقبلا شمس الإسلام الساطعة .. وفي الطريق لقيا عمرو بن العاص يريد الإسلام مثلهما في ذلك شأنهما، ووصلوا جميعاً إلى المدينة المنورة، وكان ذلك في السنة الثامنة للهجرة. ولنترك خالداً يصف لنا تلك الساعات المباركة المصيرية من عمره ..

قال خالد ﷺ : فاصطحبنا جميعاً حتى دخلنا المدينة، فأنخنا [1] بظاهر الحَرَّة ركابنا، فأخبر بنا رسول الله ﷺ فسُرَّ بنا، فلبست من صالح ثيابي، ثم عمدت إلى رسول الله ﷺ، فلقيني أخي فقال: أسرع، فإن رسول الله قد أخبر بك فسُرَّ بقدومك، هو ينتظركم، فأسرعنا المشي فاطّلعت عليه، فمازال يتبسّم إليّ حتى وقفت عليه، فسلّمت بالنبوة [2]، فرد عليّ السلام بوجه طلق، فقلت: إني أشهد أن لا إله إلّا الله وأنك رسول الله.

وقف خالد ﷺ بين يدي الرسول عليه الصلاة والسلام وفي قلبه فرح ممزوج بالخسرة والندم والحياء. ولكن نبي الرحمة عليه أزكى الصلاة والسلام قال مطمئناً : « الحمد لله الذي هداك، قد كنت أرى لك عقلاً رجوت أن لا يُسْلِمُك إلّا إلى خير ». [3]

حقّاً إن العقل الراجح لا يقود الإنسان إلّا إلى الخير .. وهل الإسلام إلّا كل الخير ؟ ..

ولكن خالداً ﷺ ظل خائفاً بسبب عدائه السابق للإسلام والمسلمين فقال بلهفة : يا رسول الله! قد رأيت ما كنت أشهد من تلك المواطن عليك معانداً عن الحق، فادْعُ الله أن يغفرها لي، فقال رسول الله ﷺ : « الإسلام يَجُبُّ ما قبله »، ورفع يديه الشريفتين يدعو لخالد : « اللهم اغفر لخالد بن الوليد كل ما أوضع فيه من صدّ عن سبيلك ». [4]

ومنذ ذلك اليوم بدأ خالد بن الوليد ﷺ حياته الجديدة مع الإسلام، وبدأ يخرج من

---

(١) أناخ بالمكان : أقام، وأناخ الجمل : أبركه.

(٢) أي قال : السلام عليك يا رسول الله.

(٣) انظر: دلائل النبوة للبيهقي (ج٤/٣٥١).

(٤) انظر: مختصر تاريخ ابن عساكر (ج٨/٩).

حدود فرديته وقبليته إلى عالمية هذا الدين ورسالته التي هي نشر التوحيد في أرجاء المعمورة .. وآن الأوان أن يضع خالد ﷺ كل ما لديه من طاقات ومواهب في خدمة الإسلام، بل في خدمة الإنسان الذي جاء الإسلام ليحرّره. وبما أن مواهب خالد الفائقة كانت تظهر في ميادين الجهاد وساحات القتال فليكن دوره الأول هناك حيث تلتمع السيوف ويتبارز الفرسان.

وبدأ رسول الله ﷺ يكلّفه بالمهام الجسام والمسؤوليات، فثبت فيها كفاءة عالية، كما ثبت حسن تكيُّف مع الجماعة المسلمة التي كانت كالجسد الواحد يشدّ بعضه بعضاً .. فيعطف الكبير على الصغير، ويعرف الصغير حق الكبير. وقد أرسله النبي ﷺ على رأس عدد من السرايا وجعله أميراً عليها، وفيها كثير من الذين سبقوه إلى الإسلام، فما أحدث ذلك غروراً في نفسه بل كان مستوضياً لكل ذي فضل وسبقٍ من المسلمين.

أما المعركة الأولى التي خاضها خالد ﷺ في ظلال الإسلام فكانت معركة مؤتة في السنة الثامنة للهجرة بعيد إسلامه، وهي المعركة الدامية التي استشهد فيها القادة الثلاثة تباعاً : زيد بن حارثة، وجعفر بن أبي طالب وعبد الله بن رواحة ﷺ ..

وكانت مؤتة تحدّياً حقاً .. ليس لخالدٍ فحسب، بل لكل قائد في ميدان القتال .. فقد تسلّم قيادة الجيش المسلم، والأعداد الهائلة من جنود الأعداء تزحف من كل صوب .. ولكنه أثبت عبقريّته الحربية الفائقة، وقاد المسلمين قيادة بارعة، استطاع من خلالها أن يُنقذ الجيش المسلم الصغير قبل أن يبتلعه جيش الروم الجرّار .. ولقد قاتل يومها قتالاً شديداً حتى كُسِرت في يده تسعة أسياف ..[1]

وفي مؤتة سمّى النبي عليه الصلاة والسلام خالداً سيف الله، وسمّى عمله فتحاً .. فقال عليه الصلاة والسلام : « أخذ الراية سيف من سيوف الله حتى فتح الله عليهم ».[2]

وفي رمضان من السنة الثامنة نفسها خرج رسول الله عليه الصلاة والسلام على رأس جيش عظيم يقطع الصحراء الواسعة سعياً إلى مكة، ليفتح أغلاق البلد الأمين .. واختار عليه

---

(١) صحيح البخاري (ج٤/١٥٥٥).

(٢) صحيح البخاري (ج٤/١٥٥٤).

الصلاة والسلام خالداً ﷺ ليكون أحد قُوّاد الفتح المبين .. وأمره النبي ﷺ أن يدخل مكة من الجنوب حيث تجمّع مقاتلو قريش.[1]

وقد وصّى عليه الصلاة والسلام يومئذٍ قواده وجنده، وشدّد في الوصية، ألّا يقاتلوا إلّا من قاتلهم .. ونهاهم عن قتل النساء والصبيان، وألّا يُجْهِزُوا على جريح ولا يتّبعوا مُدْبِراً[2]. ولم يلقَ المسلمون مقاومة تُذكر إلّا أن أصدقاء خالد القُدامى الذين بقوا على شركهم أمثال: عكرمة بن أبي جهل وصفوان بن أمية وغيرهم، تصدّوا له، فناوشهم خالد حتى انهزموا فارين.

وأقبل رسول الله ﷺ في كتيبته الخضراء، ودخلت جيوش المسلمين مكة من جهاتها الأربع، تُرفرِف فوق رؤوسهم ألوية النصر .. وتذكّر خالد ﷺ أنه كان بالأمس القريب على دين قومه، فحمد الله تعالى على فضله العظيم أن جعله اليوم في جموع الفاتحين المسلمين ..

وبعد أن تمّ الفتح أرسل رسول الله ﷺ خالداً ﷺ إلى ما حول مكة ليطهّر ما هنالك من الشرك ويهدم (العزّى) وهي من أكبر أصنام الجاهلية.[3]

وتابع خالد ﷺ مسيرة الجهاد تحت قيادة نبيّه الكريم عليه الصلاة والسلام، فخرج في غزوة حُنَيْن[4]، وأُصيب بجراح في سبيل الله.

فلمّا كان العام التاسع خرج مع المسلمين إلى تبوك، وأرسله رسول الله ﷺ إلى أُكيدر دُومة الجندل في شمال نجد، وكان أكيدر ملكاً من قبيلة كِندة، فأسره وجاء به إلى النبي، فصالحه عليه الصلاة والسلام على الجزية ثم خلّى سبيله.[5]

وفي السنة العاشرة للهجرة، أراد النبي عليه الصلاة والسلام أن يُعلّم خالداً أن الجهاد يمكن أن يكون باللسان كما بالسّنان، فأرسله إلى نجران للدعوة إلى الإسلام .. فأقام فيهم يُعلّمهم الإسلام وكتاب الله وسنة نبيّه ﷺ، ثم عاد إلى المدينة ومعه وفد من بني الحارث بن

---

(١) انظر: سيرة ابن هشام (مج٢/٤٠٧).

(٢) هارباً.

(٣) انظر: سيرة ابن هشام (مج٢/٤٣٦).

(٤) كانت بعد فتح مكة بعشرة أيام.

(٥) انظر: سيرة ابن هشام (مج٢/٥٢٦).

كعب ليعلنوا إسلامهم.[1] وهكذا صار ابن الوليد تلميذاً نجيباً في مدرسة النبي عليه الصلاة والسلام .. وهي المدرسة الفريدة التي تُخرّج الرجل مؤمناً صالحاً عابداً، وعالماً مُعلّماً، ومجاهداً، وداعياً هادياً.

ثم شهد خالد ﷺ في السنة نفسها حجة الوداع مع رسول الله ﷺ .. فأصاب شُعيرات من رأس النبي عليه الصلاة والسلام حين تحلّل من الإحرام، فاحتفظ بها في قلنسوة له ليتبرك بها .. ولتذكّره هذه الذكرى الحبيبة .. فلما توفي النبي عليه أفضل الصلاة والسلام، صارت القلنسوة التي حملت أثر النبي ﷺ أحبّ الأشياء إلى قلب خالد ﷺ، فكان يتفاءل بها، ولا يخوض معركة إلّا وهو يلبسها.[2]

مضى رسول الله ﷺ إلى ربه وقد أدّى الرسالة ونصح الأمة، وحمّل الصحابة من بعده الأمانة العظيمة .. أمانة نشْر التوحيد وإحقاق الحق في بِقَاع العالم كله .. وتسلّم أبو بكر الصدّيق ﷺ خلافة المسلمين، فجعل خالد بن الوليد ﷺ نفسه في خدمة الخليفة يضعه حيث يشاء.

كانت أولى التحدّيات التي واجهها حَمَلة الأمانة هي حروب الردّة .. وكان خالد بن الوليد ﷺ أحد أبرز قادة جيوش المسلمين فيها، فقد قاتل طليحة بن خويلد، ثم خاض معركة اليمامة ضد مسيلمة الكذاب ..[3] وكانت اليمامة من أشرس المعارك التي خاضها المسلمون على الإطلاق. وكان أبرز ما فعله خالد ﷺ في المعركة هو الخطّة الحكيمة والعظيمة التي رسمها، فقد قسّم الجند إلى مجموعات، كل مجموعة تحمل راية .. حتى كان لكل قبيلة، بل لكل بطن راية .. فتنافس المجاهدون، وأشعل قائدهم خالد ﷺ في نفوسهم نار العَزْم والمَضاء حتى قلب في اليمامة هزيمة المسلمين نصراً مُبيناً .. على مثل ما فعل في أُحُد يوم قلب هزيمة المشركين نصراً على المسلمين، قبل أن يهدي الله قلبه إلى الحق المبين .. فكانت اليمامة المعركة الفاصلة في تاريخ حروب الردّة.

---

(١) انظر: سيرة ابن هشام (مج٢/٥٩٢-٥٩٣).

(٢) انظر: مختصر تاريخ ابن عساكر (ج١٣/٨).

(٣) انظر: تاريخ الطبري (ج٣/٢٤٣).

ولما طهّر المسلمون أرض الجزيرة من المُرتدّين، واقتلعوا جذور الوثنية بدؤوا يتطلّعون إلى ما وراء الحدود .. إنها المرحلة العالمية من مراحل الدعوة الإسلامية، تلك التي أرشد الله إليها في كتابه الكريم حين أنزل على نبيّه ﷺ : ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا ﴾[1] .. وقد بدأت هذه المرحلة حين بعث النبي عليه الصلاة والسلام بعثاً إلى الشام وأمّر عليهم أسامة بن زيد ﷺ، وأمره أن يوطئ الخيل تخوم البلقاء والداروم من أرض فلسطين. وقد تُوفي النبي صلوات الله وسلامه عليه بينما الناس يتجهّزون .. ولم يزل رسول الله صلوات الله وسلامه عليه يردّد في مرضه الأخير : « أنفذوا بعث أسامة .. أنفذوا بعث أسامة .. » فأنفذ الخليفة الأوّل أبو بكر بعث أسامة بعد أمَد قصير، وبدأت المرحلة العالميّة من الدّعوة الإسلامية ..

شهد خالد ﷺ تلك المرحلة، وكان أحد أركانها العظيمة، وكتب الله على يديه فتحاً مبيناً، فقد كانت جموع الفُرس تهدّد أمن الدولة الجديدة وتقف في وجه تيار الفتح العظيم. وكان أبو بكر الصدّيق ﷺ معجباً بمواهب خالد، وكانت الحماسة التي يبثّها في مقاتليه أمراً يصعب تقليده في زمانه وفي كل زمان، فاختاره الصدّيق وأرسله إلى العراق لفتح جبهة الفُرس.

كان خالد ﷺ عند حُسْن ظن الخليفة والمسلمين .. فحقق الانتصارات الضخمة وسيطر على العراق من شمالها إلى جنوبها، وكان ﷺ يرسل بعد كل معركة البشائر إلى الخليفة مع خُمُس الغنائم ليجعلها في بيت مال المسلمين .. فقال أبو بكر الصدّيق ﷺ كلمته المشهورة : أعجزت النساء أن ينشئوا مثل خالد !.

وفي هذه الأثناء كانت المواجهات مع دولة الرُّوم قد بدأت أيضاً .. ففي السنة الثانية عشرة للهجرة أرسله أبو بكر إلى الشام لمواجهة الروم قائلاً : لأُنسينّ الروم وساوس الشيطان بخالد بن الوليد.[2] فمضى خالد ﷺ إلى الشام ومعه عشرة آلاف مجاهد وقطع الصحراء في سرعة مذهلة ..

وحين وافى قادة جيوش المسلمين في الشام، أعاد توزيع هذه الجيوش التي بلغ عددها

---

(١) سورة سبأ (٢٨).

(٢) تاريخ الطبري (ج٤/٤٠).

أربعين ألفاً، فقسّمها إلى فِرَق، وجعل على كل فرقة قائداً خبيراً بالحرب .. واندلعت المعارك وأحرز المسلمون بقيادة خالد ﷺ انتصاراً يتلوه انتصار .. وبينما كان الجيش يستعدّ لخوض المعركة الفاصلة وصل نبأ وفاة أبي بكر الصدّيق وتولّية عمر بن الخطاب، ومع نعي الخليفة أبي بكر وصل أمر عمر الخليفة الثاني بعزل خالد عن قيادة الجيش، وتولية أبي عُبَيْدَة بن الجرّاح قائداً عاماً رضي الله عنهم أجمعين.

أخفى أبو عبيدة ﷺ الكتاب حتى انتهت المعركة بانتصار المسلمين .. ثم أطلع خالداً ﷺ على أمر الخليفة، فما كان من البطل إلّا أن قال : (سمعاً وطاعة) .. وتنحّى القائد الذي لم يُهزم يوماً عن مركز القيادة، وتابع الجهاد راضياً مُوفقاً تحت إمرة أبي عبيدة. ولعلّ أبا عبيدة ﷺ قد وجد في نفسه حَرَجاً لمّا ألقى أوامره العسكرية الأولى على سيف الله وقائد القوّاد خالد، ولكن خالداً ﷺ كان شأنه دائماً السمع والطاعة، فمرضاة الله ونصرة الإسلام عنده في المقام الأول ..

ذلك الموقف العظيم كان يَعدُل انتصاراته كلها .. لقد قهر أهواء نفسه مثلما قهر عدوّه.. وكان ﷺ حريصاً على وحدة الصف والكلمة والنقاء القلوب على الله ..

وذلك درس من دروس مدرسة محمّد ﷺ .. المدرسة التي تخرّج منها خالد ﷺ.

وتابع خالد مع أبي عبيدة، رضي الله عنهما، فتح مدن الشام واحدة بعد الأخرى، حتى غادر هرقل سورية مودّعاً إياها وداعاً لا لقاء بعده. وحضر الخليفة عمر بن الخطاب ﷺ إلى الشام، وكان خالد في مقدمة المستقبلين، وكان رهن إشارة الخليفة ..

وقد لقيه الخليفة عمر معتذراً وقال له كاشفاً السرّ في عزله : يا خالد، والله إنك عليّ لكريم وإنك إلي لحبيب.[1] ثم كتب إلى الأقاليم قائلاً : إني لم أعزل خالداً عن سخطة ولا خيانة ولكن الناس فُتنوا به، فخشيت أن يوكَلوا إليه ويُبتَلَوا به، فأحببت أن يعلموا أن الله هو الصانع، وألّا يكونوا بعرض فتنة.[2]

---

(١) انظر: تاريخ ابن عساكر (ج١٦/٢٦٦).

(٢) انظر: تاريخ ابن عساكر (ج١٦/٢٦٨).

لقد خاف الفاروق عمر ﷺ أن يُفتن الناس، ويحسبوا أن النصر من عند خالد، والله سبحانه يقول: ﴿ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴾ [1] .. وحُقّ للناس أن يُفتنوا، وحُق لعمر أن يخاف .. فخالد بن الوليد لم يخسر معركة واحدة قط !! لقد كان يتمتع بعبقرية فذّة في التخطيط والتنفيذ، وقُدرة هائلة على القيادة .. وكان فوق ذلك وقبل ذلك واثقاً أشدّ الثقة أن النصر من عند الله، علاوة على حبّه للمصطفى عليه الصلاة والسلام.

لو رحنا نستعرض إنجازات خالد ﷺ والنصر الذي كان يحقّقه لما اتّسعت صفحات هذا الكتاب .. وقد وصفه المؤرخون بأنه أحد أعظم القواد العسكريين وأبرعهم في التاريخ، ولا تزال خُططه العسكرية تُدرّس في المدارس الحربية إلى يومنا هذا ! ..

وحسْب خالد ﷺ أنه كان من قُوّاد الفتح المبارك، فساهم في نقل العباد من ظلام الشرك إلى نور التوحيد، ومن جور الحكام إلى عدل الإسلام، وله على كل من نطق بالتوحيد في بلاد الشام والعراق فضل .. ولله ورسوله المنّة والفضل.

وعاد الفاتح العظيم إلى حمص، المدينة التي فتحها، وقد طاب له المقام فيها ليتفرّغ لكتاب الله وكان قد شُغل عنه بالجهاد في سبيل الله .. وعاش فيها لا يملك سوى فرسه ودرعه وسيفه.. وتوفي خالد ﷺ في حمص بعد ذلك العمر المبارك الذي قضاه في ساح الجهاد، في السنة الحادية والعشرين من الهجرة .. وعندما بلغ نبأ وفاته الخليفة عمر قال : ما على نساء آل الوليد أن يسفحْن على خالد من دموعهنّ. [2]

وفي حمص اليوم، وفي زاوية المسجد الذي سُمّي باسمه – مسجد خالد بن الوليد – تجد ضريح البطل .. فإذا زُرت ذلك المسجد يوماً، فاترك العنان لذكرياتك وتأمّلاتك .. تفكّر في كل المعارك التي خاضها ابن الوليد .. فسترى في عين خيالك صفاً طويلاً من الفرسان على خيولهم يهجمون على مفرزة من الروم .. عباءاتهم ترفرف خلفهم، بعضهم يحمل رماحاً، وبعضهم يحمل سيوفاً، والروم يتزلزلون، ويتساقطون ..

---

(١) سورة آل عمران (١٢٦).

(٢) انظر: تاريخ ابن عساكر (ج١٦/٢٦٩).

ويتسابق الفُرسان، ولكن أحداً منهم لن يقدر على سبق قائده خالد بن الوليد ﷺ، الذي تراه يسابق الريح والزمن ليصنع النصر للإسلام .. رجلاً ضخماً كما وصفه المؤرخون، عريض المنكبين، قوي البنية، يمتطي صهوة فرس أصيل، ودرعه تلمع في ضوء الشمس .. وعيناه الحادّتان ترقبان النصر القادم وتحلمان بالشهادة.

فإذا انتهى شريط الذكريات السامية المضيئة، فتأمّل كلمات ابن الوليد الخالدة :

لقيت كذا وكذا زحفاً، وما في جسدي شبر إلّا وفيه ضربة بسيف، أو رمية بسهم، أو طعنة برمح، وها أنا أموت على فراشي حتف أنفي كما يموت البعير فلا نامت أعين الجبناء.[1]

رحم الله خالد بن الوليد ورضي عنه وأرضاه ..

إنّه كتاب البطولة المفتوح .. ودرس لكل المجاهدين ..

---

(١) انظر: مختصر تاريخ ابن عساكر (ج٨/٢٦).

المُسلمونَ قبلَ الفَتح

(مِن غير أهل مكّة)

الطُّفَيْلُ بنُ عمروٍ الدَّوْسيّ رضي الله عنه

الداعيةُ الذي لا يَمَلُّ

الطُّفَيْلُ بنُ عمرٍو

ابن طريف بن العاص بن ثعلبة الدَّوْسي

قال تعالى: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾[1].

وقال عزّ وجلّ: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴾[2]

بهذه النظرة كان مشركو مكة ينظرون إلى دعوة النبي ﷺ، بل أرادوا أن يحملوا الناس جميعاً عليها .. ولهذا مشى نفر من قريش إلى رجل من أشراف العرب قدم مكة فقالوا له :

يا طُفَيْل ! إنك قدمت بلادنا، وهذا الرجل الذي بين أظهرنا قد أعْضَل[3] بنا، وقد فرّق جماعتنا، وشتّت أمرنا، وإنما قوله كالسحر، يفرق بين الرجل وبين أبيه، وبين الرجل وبين أخيه، وبين الرجل وبين زوجته، وإنا نخشى عليك وعلى قومك ما قد دخل علينا، فلا تكلّمه ولا تسمعنّ منه شيئاً ..[4]

كان الطفيل سيّداً مُطاعاً من أشراف العرب، وكان رئيس قبيلة دَوْس بأرض اليمن، وقد جمع إلى الشرف والسيادة موهبة الشعر فكان يقول الشعر ويتذوّقه. ولعل قريشاً خافت أن يسلِم الطفيل وهو السّيد المطاع في قومه فيُسلِموا بإسلامه فبذلوا كل ما بوسعهم لتحذيره من لقاء رسول الله ﷺ، ولكنّ عناية الله سبقت، وكأن الطفيل كان على موعد مع القدر الجميل ..

ولنتركه يحكي لنا قصته، قال الطفيل :

فوالله مازالوا بي حتى أجمعت ألّا أسمع منه شيئاً ولا أكلمه، حتى حشوت أُذنيّ حين

---

(١) سورة الأحقاف (٧).

(٢) سورة فصلت (٢٦).

(٣) اشتدّ أمره.

(٤) سيرة ابن هشام (مج ١/٣٨٢).

غدوت إلى المسجد كُرْسُفاً[1] فَرَقاً[2] من أن يبلغني شيء من قوله وأنا لا أريد أن أسمعه، قال : فغدوت إلى المسجد فإذا رسول الله ﷺ قائم يصلي عند الكعبة قال : فقمت منه قريباً فأبى الله إلّا أن يسمعني بعض قوله، قال: فسمعت كلاماً حسناً، فقلت في نفسي : واثكل أمي والله إني لرجل لبيب شاعر ما يخفى عليّ الحسن من القبيح، فما يمنعني أن أسمع من هذا الرجل ما يقول! فإن كان الذي يأتي به حسناً قبلته وإن كان قبيحاً تركته، قال : فمكثت حتى انصرف رسول الله ﷺ إلى بيته، فاتّبعته حتى إذا دخل بيته دخلت عليه، فقلت : يا محمّد إن قومك قد قالوا لي كذا وكذا .. لِلّذي قالوا، فوالله ما برحوا يخوفونني أمرك حتى سددت أذني بكرسف لئلّا أسمع قولك، ثم أبى الله إلّا أن يُسمعني قولك، فسمعته قولاً حسناً، فاعرض عليّ أمرك. قال : فعرض عليّ رسول الله ﷺ الإسلام وتلا عليّ القرآن، فلا والله ما سمعت قولاً قط أحسن منه ولا أمراً أعدل منه، قال: فأسلمت وشهدت شهادة الحق.[3]

وهكذا دخل النُّور قلب الطّفيل ﷺ بمشيئة إلهية ورغم أنف المشركين .. ولاشك أن النبي ﷺ فرح بإسلام هذا الرجل القادم من اليمن وتوسّم فيه خيراً، فالطفيل ما إن شهد شهادة الحق، وذاق حلاوة الإيمان، حتى تشوّق للعودة إلى الوطن والأهل ليحمل إليهم رسالة الهداية والتوحيد .. لقد تمخّض هذا اللقاء غير المُرْتَقَب عن شخصية فريدة معطاءة ..

والذي يُطالع السيرة المباركة يرى كيف أنه كلما زادت المحنة وعظُم البلاء، ساق الله إلى الدعوة رجالاً كباراً لهم أوزانهم في مجرى الأحداث وقدراتهم على المقاومة والتحدي والتغيير.. رجالاً أمثالَ عمر، وحمزة، والطفيل .. رجالاً من قلب الجاهلية ومن صميم زعاماتها ينتقلون إلى ساحة الحركة الجديدة .. ليسوا من عامة الناس وإنما هم قادة وزعماء يعزّزون سير الدعوة لتشقّ طريقها وسط رُكام من العوائق والمصاعب والآلام .. وكان الطفيل حقاً واحداً من أولئك الرجال العظام رضوان الله عليهم.[4]

---

(١) الكُرْسُف : القطن.

(٢) خوفاً.

(٣) سيرة ابن هشام (مج١/٣٨٢-٣٨٣).

(٤) دراسة في السيرة د.عماد الدين خليل (ص ١٠٩) بتصرف.

ها هو ذا يخاطب النبي عليه الصلاة والسلام يوم أسلم بعزم وثقة فيقول : يا نبيّ الله إني امرؤ مطاع في قومي، وأنا راجع إليهم وداعيهم إلى الإسلام، فادع الله أن يجعل لي آية تكون لي عوناً عليهم فيما أدعوهم إليه. وشعر النبي ﷺ بمدى صدقه، فرفع النبي عليه الصلاة والسلام يديه الشريفتين ودعا قائلاً : « اللهمّ اجعل له آية »، واستجاب الله الدعاء ..

ودّع الطفيل ﷺ نبيّه الكريم ﷺ، ومضى إلى قومه .. ولنُصْغِ إليه يتابع قصته : فخرجت إلى قومي حتى إذا كنت بثنيّة تطلعني على الحاضر[1]، وقع نور بين عيني مثل المصباح، قال : قلت اللهم في غير وجهي إني أخشى أن يظنوا أنها مُثلة[2] وقعت في وجهي لفراقي دينهم، قال : فتحول فوقع في رأس سوطي، قال : فجعل الحاضر يتراءون ذلك النور في سوطي كالقنديل المعلق، وأنا أهبط إليهم من الثنيّة، قال : حتى جئتهم فأصبحت فيهم قال : فلما نزلت أتاني أبي - وكان شيخاً كبيراً - ، قال : فقلت : إليك عني يا أبتِ فلست منك ولست مني، قال : ولِمَ يا بنيّ ؟ قال : قلت: أسلمتُ وتابعتُ دين محمّد ﷺ، قال : أيْ بني فديني دينك قال : فقلت: فاذهب فاغتسل وطهّر ثيابك، ثم تعال حتى أعلّمك ما عُلّمتُ. قال: فذهب فاغتسل وطهّر ثيابه، قال : ثم جاء فعرضت عليه الإسلام فأسلم، ثم أتتني صاحبتي[3]، فقلت : إليك عني فلست منك ولست مني، قالت : لِمَ ؟ بأبي أنت وأمي، قال : قلت : فرّق بيني وبينك الإسلام، وتابعت دين محمّد ﷺ، قالت : فديني دينك، قال : قلت: فاذهبي إلى حِمى ذي الشرى فتطهّري منه، وكان ذو الشرى صنماً لدوس، وكان الحمى حمى حموه له، به وَشَل[4] من ماء يهبط من جبل، قال : قالت : بأبي أنت وأمي أتخشى على الصبية من ذي الشرى شيئاً ؟ قال : قلت: لا، أنا ضامن لذلك، قال : فذهبت فاغتسلت، ثم جاءت فعرضت عليها الإسلام فأسلَمَت.[5]

لم يكن الطفيل ﷺ محظوظاً لأنه سيد مُطاع أو شريف ذو مكانة فحسب، بل لأن الله تعالى

---

(١) الحاضر : القوم النُزّول على ماء يقيمون به ولا يرحلون عنه.

(٢) مثلة : عقوبة.

(٣) صاحبتي : زوجتي.

(٤) الوشل : الماء القليل.

(٥) انظر: سيرة ابن هشام (ج١/٣٨٣-٣٨٤)، والإصابة في تمييز الصحابة (ج٢/٢٢٥).

أجرى الخير، كلّ الخير، على يديه لصدقه وإخلاصه .. فقد خرج ﷺ بعد أن أسلم أهله يدعو قومه إلى الله دون كلل أو ملل ..

ولكن الوقت مضى، وأبطأ القوم فلم يستجيبوا له سريعاً كما استجاب أهل بيته، فحزن ﷺ .. ثم تحوّل حزنه إلى غضب شديد. وكان يرى أن الزّنا الذي انتشر فيهم قد أعمى بصائرهم وطمس نور قلوبهم، فيئس من إسلامهم .. وفي أحد الأيام عزم على العودة إلى رسول الله ﷺ في مكة يشكو إليه دوساً ..

جلس الطفيل ﷺ بين يدي النبي ﷺ وقال له : يا نبيّ الله إنه قد غلبني على دوس الزنا فادع الله عليهم. إلّا أن رسول الله ﷺ الذي أُرسِل رحمة للعالمين قال : « اللهم اهدِ دوساً » .. ثم التفت إلى الطفيل فقال له : « ارجع إلى قومك فادْعُهم وارفُق بهم ».[1]

وعاد الطفيل إلى أرضه لينفّذ وصية رسول الله .. ومضت السنوات، وهاجر النبي عليه الصلاة والسلام والمسلمون إلى المدينة، ومضت بدر، وأُحُد، والخندق، ثم صالَح النبي ﷺ قريشاً بالحديبية سنة ستٍ للهجرة ..

أحداث كثيرة، ومواقف، وانتصارات جرتْ، والطفيل ﷺ في اليمن وحده .. يدعو قومه ويرفق بهم كما أمره نبيه الكريم، وينتظر أن يستجيب الله دعاءه عليه الصلاة والسلام، فيهدي قومه، كما استجاب دعاءه قبل ذلك فجعل له آية ..

ثم كانت غزوة خيبر في السنة السابعة للهجرة، وانتصر المسلمون على اليهود فيها، وقبل عودة النبي عليه الصلاة والسلام والمسلمين إلى المدينة، وفي يوم مُشرق، أطلّ ركب من بعيد، قادم من أرض دوس .. لمانون بيتاً من دوس، وفيهم أبو هريرة ﷺ ! .. يتقدّمهم الطفيل ﷺ تُسابقه أشواقه، وصدره يلهج بحمد الله أن هدى قومه وجاء بهم إلى رسول الله مسلمين فجعل لهم الرسول ﷺ من الغنائم نصيباً.[2]

وعاد الطُّفيل مع النبي ﷺ والمسلمين إلى المدينة .. لقد آن له أن ينعم بصحبة رسول

---

[1] انظر: سيرة ابن هشام (ج١/٣٨٤).

[2] انظر: طبقات ابن سعد (ج١/٣٥٣).

الله بعد أن أطاعه وأدّى رسالته في دعوة قومه إلى الإسلام، واستقر ﷺ في المدينة ..

ولما انطلق النبي عليه الصلاة والسلام وصحابته لفتح مكة في السنة الثامنة للهجرة كان الطفيل في جيش المسلمين .. فلما تم الفتح المبين وجاء الحق وزهق الباطل، وحطّم النبي ﷺ الأصنام وطهّر البيت الحرام، بدأ عليه الصلاة والسلام يبعث سراياه إلى مواضع الأصنام التي حول مكة لتحطيمها، وأراد الطفيل ﷺ أن يُتم عمله في تطهير بلاده من آثار الشرك، فقال للنبي ﷺ : يا رسول الله، ابعثني إلى ذي الكفين - صنم عمرو بن حممة - إلى اليمن حتى أحرقه، فأذِن له عليه الصلاة والسلام، فخرج إليه الطفيل وأوقَد عليه النار فأحرقه وهو يقول :

يَا ذا الكَفَّين لَسْتُ من عُبّادِكا ... ميلادُنَا أَقْدمُ من ميلادِكا

إني حَشَشْتُ النّارَ في فُؤادِكا

ثم رجع الطفيل ﷺ إلى رسول الله ﷺ فظلّ معه بالمدينة ينعم بالصحبة حتى قبض الله رسوله عليه أفضل الصلاة والتسليم ..[1]

ولم يكن جهاد الطفيل ﷺ ليتوقف بعد وفاة النبي ﷺ .. فعندما ارتدّت بعض القبائل العربية خرج مع جيوش المسلمين يخوض غمار الحروب التي عُرِفَت بحروب الردّة، وسار إلى موقعة اليمامة ومعه ابنه عمرو بن الطفيل .. وفي الطريق رأى ﷺ رؤيا، فقال لأصحابه : إني قد رأيت رؤيا فاعبُروها[2] لي : رأيت أنّ رأسي حُلق، وأنه خرج من فمي طائر، وأنه لقيتني امرأة فأدخلتني في فرجها، وأرى ابني يطلبني حثيثاً، ثم رأيته حُبس عني، قالوا : خيراً، فقال : أمّا أنا والله فقد أوّلتها، قالوا : ماذا ؟ قال : أما حلق رأسي فوضعه، وأما الطائر الذي خرج من فمي فروحي، وأما المرأة التي أدخلتني فرجها فالأرضُ تحفر لي فأغيب فيها، وأما طلب ابني إياي ثم حبسه عني فإني أراه سيَجهد أن يصيبه ما أصابني ..[3]

ووصل الجيش إلى اليمامة، ونشب القتال، واستبسل الطفيل ﷺ، وقاتل قتال المشتاق

---

(١) انظر: طبقات ابن سعد (ج٢/١٥٧).

(٢) اعبروها : أي فسّروها.

(٣) انظر: سيرة ابن هشام (مج١/٣٨٥)، والإصابة في تمييز الصحابة (ج٢/٢٢٥).

إلى لقاء ربه .. وتحققت الرؤيا فقُتِل رحمه الله شهيداً في اليمامة .. وجُرح ابنه عمرو جراحة شديدة، ولكنه برئ، وتابع مسيرة الجهاد حتى استشهد ﷺ في اليرموك ولحق بأبيه ..

كانت نهاية الطفيل ﷺ مشرّفة، فقد زينه الله سبحانه بوسام الشهادة ..

وحُق لمن كانت بداياته محرقة أن تكون نهاياته مشرقة ..

رضي الله عنه، وأرضاه.

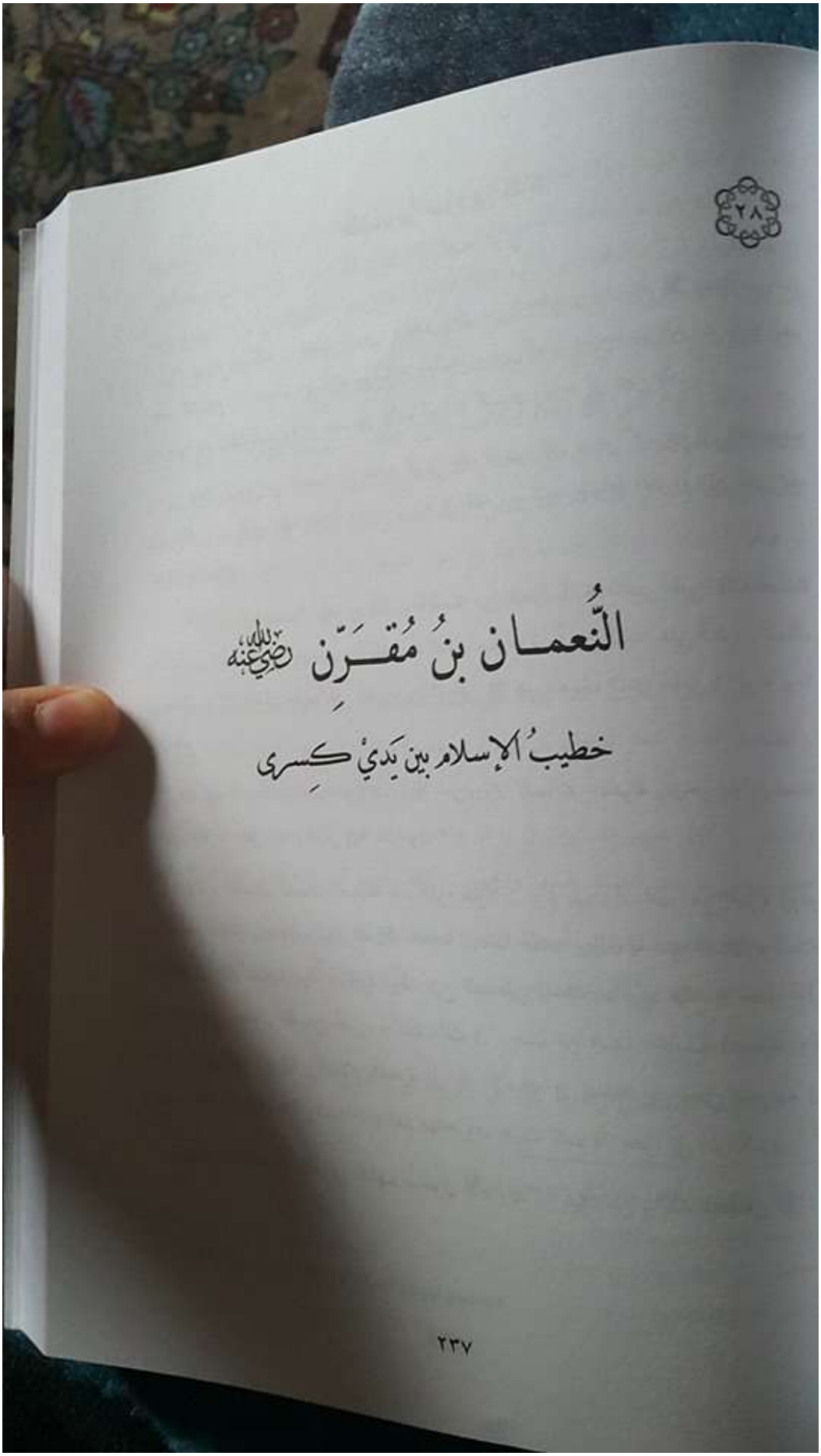
٢٨
النُّعمان بنُ مُقَرِّن رضي الله عنه
خطيبُ الإسلام بين يَدَيْ كِسرى
٢٣٧

النُعمان بنُ عمرو بن مُقَرِّن

ابن عائذ بن ميحا المُزَني

بين يدي كسرى عظيم الفرس، وقف رجل من صحابة رسول الله ﷺ يتحدّث باسم جند الإسلام .. فعرّف الإسلام ورسالته العالمية، وبيّن كيف استجابت العرب له وكيف خرجوا بعد ذلك لينشروا التوحيد بين الأمم ثم دعا كسرى وقومه إلى دين الله.

ذلك الرجل هو النُعمان بن عمرو المزني ﷺ الذي وقف يدعو كسرى إلى الله، يدفعه إلى ذلك حب قوي وثقة بالغة، وإيمان ترسّخ في قلبه مذ شهد شهادة الحق وبايع النبي عليه الصلاة والسلام.

كان إسلام النعمان ﷺ في السنة الخامسة من الهجرة لما قدم على النبي عليه الصلاة والسلام في وفد من بني مُزَيْنة .. ومُزَيْنة قبيلة كانت منازلها قريباً من المدينة على الطريق المتجهة إلى مكة.. وكان الذي حثّهم على القدوم ولقاء النبي ﷺ هو النعمان الذي جلس في قومه يوماً فقال لهم :

يا قوم ! والله ما علمنا عن محمّد إلّا خيراً، ولا سمعنا عن دعوته إلّا مرحمة وإحساناً وعدلاً، فما لنا نبطئ عنه والناس إليه يسرعون ؟ ..

لاقت كلمات النعمان الصادقة عند القوم قبولاً .. ولم يلبث أن تجهّز مع إخوته ووفد من مُزَيْنة وانطلقوا يريدون رسول الله ﷺ بالمدينة .. فلمّا جلسوا بين يديه عليه الصلاة والسلام ودعاهم إلى الله أسلموا جميعاً وبايعوه. وقد فرح المصطفى بإسلامهم أيّما فرح إذ كانوا أول وفد قدم على رسول الله من مُضَر، وكان ذلك في رجب من السنة الخامسة للهجرة. ولم يطالبهم النبي عليه الصلاة والسلام بالهجرة إلى دار الإسلام في المدينة، بل جعل هجرتهم في أرضهم، فقال عليه الصلاة والسلام: « أنتم مهاجرون حيث كنتم فارجعوا إلى أموالكم »..[1]

ويتحدّث النعمان ﷺ عن لقائهم برسول الله، ويذكر شيئاً عن بركة المصطفى ﷺ ..

---

(١) انظر: طبقات ابن سعد (ج١/٢٩١)، والبداية والنهاية (ج٥/٣٨).

يقول : قدِمنا على رسول الله ﷺ في أربعمئة راكب من مزينة، فأمرنا رسول الله بأمره، فقال بعض القوم : يا رسول الله، مالنا طعام نتزوده، فقال النبي ﷺ لعمر: زوّدهم، فقال: ما عندي إلا فاضلة من تمر وما أراها تغني عنهم شيئاً. فقال : انطلق فزوّدهم. فانطلق بنا إلى علّية له فيها تمر مثل الكُدْر الأوْرَق[1]، فقال : خذوا، فأخذ القوم حاجتهم، قال: وكنت في آخر القوم، قال: فالتفتّ وما أفقد موضع تمرة، وقد احتمل منه أربعمئة رجل ! .[2]

ولقد أكرم النبي ﷺ وِفادة إسلامهم وأثنى عليهم .. ثم عاد القوم إلى أرضهم، وبدأ النعمان ﷺ حياته الجديدة في ظِل الإسلام الذي تفتّح له قلبه وعقله، وبدأ مسيرة الجهاد بعقيدة صادقة وإيمان وقر في قلبه فصدّقه العمل، يزينه إقدام وحب للفداء، فلم يفوّت فرصة واحدة من فُرص الجهاد .. وكان أول ما شهد مع إخوته السبعة الذين أسلموا معه : غزوة الخندق .. فقد جاء الإخوة من بلادهم ليُدافعوا عن مدينة النبي ﷺ ويفدوا بالروح نبيهم الذي آمنوا به ﷺ ..[3]

أيُّ تحوّل عجيب كان يطرأ على القلوب والنفوس بعد أن تُسلم، وأية دوافع للخير والتضحية كانت تجعل الرجال يتركون أراضيهم وأموالهم وأهليهم ويأتون ليدافعوا عن أرض غريبة وقوم آخرين ؟! لقد كان الإسلام حقاً يُفجّر الطّاقات، ويبعث في النّفوس كل عزم ومضاء .. كان يصهر المسلمين في بوتقة واحدة، فإذا هم كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحُمّى .. كما وصف النبي عليه أفضل الصلاة والسلام.

ويومَ الفتح سنة ثمان للهجرة .. يوم استقبلت مكة جموع المسلمين مهلّلين ومكبّرين، كان النعمان ﷺ مع الفاتحين، يحمل لواء مزينة [4]، ويشهد مع رسوله ﷺ ثمرات الصبر الطويل.

واختار الله تعالى رسوله ﷺ إلى جواره في السنة الحادية عشرة للهجرة .. وحمل

---

(١) الكُدْر : الفتيّ من الابل. والأوْرَق : الرمادي اللون.

(٢) مسند الإمام أحمد (ج٥/٤٤٥).

(٣) انظر: سير أعلام النبلاء (ج١/٤٠٤).

(٤) سير أعلام النبلاء (ج١/٤٠٤).

الصحابة الكرام الأمانة العظمى، أمانة التبليغ .. تبليغ الرسالة السماوية الأخيرة إلى العالمين.

وحمل النعمان ﷺ نصيبه من المسؤولية، وكان في طليعة المجاهدين في جيوش الفتح التي راحت تكافح جيوش الباطل وتهزم الفرس والروم الذين وقفوا في طريق انتشار التوحيد. وفي فتوح العراق لمع نجم النعمان ﷺ، فكان له شأن كبير قُبيل وقعة القادسية إذ أرسله سعد بن أبي وقاص ﷺ، كبيرُ قواد المسلمين على رأس وفدٍ إلى كسرى يزدجرد ليدعوه إلى الإسلام. ولما دخل كسرى لوفد المسلمين بالدخول وقال للترجمان : سلهم ما جاء بكم وما دعاكم إلى غزونا والولوع ببلادنا ؟ أمِنْ أجل أنّا جمعناكم وتشاغلنا عنكم اجترأتم علينا ؟ .. فقال النعمان لمن معه : إن شئتم أجبْتُ عنكم وَمَنْ شاء آثرته، فقالوا : بل تكلّم، وقالوا للملك : كلام هذا الرجل كلامنا. فتكلّم النعمان وبدأ ﷺ يُعرّف رسالة النبي عليه الصلاة والسلام، فقال : إن الله رحمنا فأرسل إلينا رسولاً يدلّنا على الخير ويأمرنا به، ويعرّفنا الشر وينهانا عنه، ووعدنا على إجابته خير الدنيا والآخرة، فلم يَدْعُ إلى ذلك قبيلة إلّا صاروا فرقتين فرقةً تقاربه وفرقة تباعده، ولا يدخل معه في دينه إلّا الخَواصّ، فمكث بذلك ما شاء الله أن يمكث، ثم أُمر أن يَسير إلى من خالفه من العرب، وبدأ بهم ففعل، فدخلوا معه جميعاً ... فعرفنا جميعاً فضل ما جاء به على الذي كنا عليه من العداوة والضيق، ثم أمرنا أن نبدأ بمن يلينا من الأمم فندعوهم إلى الإنصاف، فنحن ندعوكم إلى ديننا، وهو دين حسَّن الحسن، وقبَّح القبيح كله، فإن أبيتم دائرٌ من الشرّ هو أهون من آخَرِ شرٍّ منه؛ الجِزاء، فإن أبيتم فالمناجزة [1]، فإن أجبتم إلى ديننا خلّينا فيكم كتاب الله وأقمناكم عليه، على أن تحكموا بأحكامه، ونرجع عنكم وشأنكم وبلادكم، وإن اتقيتمونا بالجِزاء قبلنا ومنعناكم وإلّا قاتلناكم.[2]

ويُذكّرنا موقف النعمان بموقف جعفر بن أبي طالب، رضي الله عنهما، بين يدي النجاشي .. لكن شتان بين الملكين، فالنجاشي كان رجل صِدق، لا ينكر الحق إذا عرفه .. أما كسرى فما كان منه إلّا أن استشاط غضباً وغيظاً وردّ وفد المسلمين متوعّداً إياهم بالقتال والهزيمة ..

---

(١) الجزاء : جمع الجزية، والمناجزة : القتال.

(٢) انظر: تاريخ الطبري (ج٤/٩٤). ومنعناكم : حميناكم.

ودارت المعركة .. ورد الله الفرس بغيظهم، لم ينالوا خيراً .. فقد هزمهم المسلمون شر هزيمة. لكن الفلول الباقية من الجيش المنهزم في القادسية لم تستكن للهزيمة .. وأجمع الفرس أمرهم، وجمعوا ما بقي من جنودهم لوقف تيار الفتح المبين، وتجمّعت الجيوش في نهاوند يقودهم الهرمزان ..

بلغت الأنباء الخليفةَ عمر بن الخطاب ﷺ، فكتب إلى أهل الكوفة والبصرة ليسيّر جيشاً من هناك، وقال : لأستعملنّ عليهم رجلاً يكون لها .. وخرج ﷺ إلى المسجد فرأى النعمان ابن مقرن ﷺ يصلي، وكان قد قدم المدينة يبشّر بفتح القادسية، فأمره بالتوجّه إلى نهاوند وجعله على رأس الجيش وذلك في السنة الحادية والعشرين للهجرة ..

وأطاع النعمان ﷺ أوامر الخليفة، وخرج من فوره إلى نهاوند ومعه حذيفة والمغيرة بن شعبة والأشعث بن قيس وجرير وعبد الله بن عمر ﷺ .. فلما وصل إلى نهاوند قام يخطب في الجيش فقال : يا معشر المسلمين ! شهدت رسول الله إذا لم يقاتل أول النهار أخّر القتال حتى تزول الشمس، اللهم ارزق النعمان الشهادة بنصر المسلمين وافتح عليهم ..[1] وأمّن القوم .. واستجاب الله.

وقبل أن يبدأ القتال صاح النعمان ﷺ يحثّ الجند على الاستبسال : إذا هززْتُ اللواء ثلاثاً فاحملوا مع الثالثة، وإن قُتِلْت فلا يلوي أحد على أحد .. فلما هزّ اللواء الثالثة حمل الناس معه، وشدّوا على الأعداء شدّة رجل واحد .. وانطلق قائدهم النعمان يخترق الصفوف في شجاعة عجيبة، يدفعه عزم كبير لتحقيق النصر، وشوق إلى الجنة قد طال. ومضى يضرب ذات اليمين وذات الشمال، فتلوح له رياض الجنة تحت ظلال السيوف .. حتى حانت لحظة الوداع، بل لحظة اللقاء .. وارتفعت الروح إلى باريها، وانضم النعمان ﷺ إلى إخوان سبقوه.. أحياءٍ عند ربهم يُرزقون. وذكر أحدُ أصحابه وهو مَعْقِل بن يسار ﷺ أنه أتاه وبه رمق، فأتى بماء فصبّه على وجهه يغسل التراب، فقال : من ذا ؟ قال : معقل، قال : ما فعل الناس ؟ قال : فتح الله، فقال النعمان : الحمد لله، اكتبوا إلى عمر بذلك .. ثم فاضت نفسه.[2]

---

(١) انظر: سير أعلام النبلاء (ج١/٤٠٥).

(٢) انظر: سير أعلام النبلاء (ج١/٤٠٥)، والمستدرك (ج٣/٢٩٤-٢٩٥).

كان النعمان ﷺ يؤدّي واجبه حتى اللحظة الأخيرة، وقد ختم بتلك الكلمات حياته التي بدأت حقاً يوم بايع رسول الله وانتهت بهذا الفوز المبين. فلما جاء نعيه إلى الفاروق عمر ﷺ خرج إلى الناس فنعاه إليهم على المنبر، ووضع يده على رأسه وبكى ..[1]

لم يكن الفاروق يبكي حياة النعمان، فما عند الله خير وأبقى .. ولكنه كان يبكي فراق رجل من أصحاب النبي ﷺ الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه .. وكان عمر ﷺ يدرك حاجة الأمة إلى أمثال النعمان ..

رضي الله عن النعمان .. وعن كل مجاهد ساهم في بناء صرح الإسلام العظيم ..

---

(١) سير أعلام النبلاء (ج١/٤٠٤).

أبو هُرَيْرَةَ رضي الله عنه

سيّدُ الحُفّاظ

أبو هُرَيْرة

عبدُ الرحمن بن صَخْرٍ الدَّوسيّ

عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال : « ما نَقَصَتْ صدقة من مال، وما زاد الله عبداً بعفو إلّا عزّاً، وما تواضع أحد لله إلّا رفعه الله عزّ وجلّ » ..[1]

هذا حديث واحد من مرويّات أبي هريرة ﷺ عن النبي عليه الصلاة والسلام، التي بلغت خمسة آلاف وثلاثمئة وأربعةً وسبعين حديثاً ..[2]

فَمَن هو هذا الصحابي الذي لازم رسول الله حتى حفِظ عنه كل هذه الأحاديث ؟! ومتى أسلم وانضم إلى الركب المبارك ؟! وكيف استطاع أن يُدوّن في ذاكرته كل هذه الأحاديث، وأن يشغل هذه الوظيفة الهامة في عصر النبوة ؟! وظيفة سيّد الحفاظ رضوان الله عليهم أجمعين.

لو قُدّر لنا أن نزور عصر النور وندخل مسجد رسول الله ﷺ في أواخر السنة السابعة للهجرة لوجدناه جالساً مع أهل الصُّفّة [3] في جوار حجرة النبي عليه الصلاة والسلام، ليكون أول من يراه ويسمع كلامه إذا خرج منها أو دخل .. وليكون حاضراً إذا غاب الناس، وذاكراً إذا نسُوا .. لا يكاد يغادر مكانه أبداً، فإن غادر فهو مع النبي ﷺ في الحَلّ والترحال ..

بدأت رحلة أبي هريرة ﷺ مع الإسلام يوم قدِم مع قومه من أرض دَوس باليمن مهاجراً إلى الله ورسوله، وكان القوم قد أسلموا على يد سيّدهم الطفيل بن عمرو ﷺ. فلما وصل الركب إلى المدينة، كان رسول الله عليه الصلاة والسلام في خيبر، فساروا إليه فوجدوه قد فتح الحصون. فرأى عليه الصلاة والسلام ألّا يخيّب مسيرهم، فكلّم الصحابة فيهم أن

---

(١) صحيح مسلم (ج٤/٢٠٠١).

(٢) انظر: سير أعلام النبلاء (ج٢/٦٣٢).

(٣) أهل الصُّفة : هم فقراء المسلمين لا أهل لهم ولا مال، كان رسول الله ﷺ يستضيفهم ليعيشوا في المسجد، ويقبل الصدقات عليهم والهدايا. يقول أبو هريرة ﷺ : كنت في سبعين رجلاً من أصحاب الصفة، ما منهم رجل عليه رداء إمّا بردة أو كساء قد ربطوها في أعناقهم.

يُشركوهم في الغنائم، ففعلوا. وبايع أبو هريرة ﷺ مع قومه النبي ﷺ على السمع والطاعة، في العسر واليسر، والمنشط والمكره، وعلى أثرة عليهم .. ثم عادوا مع نبيهم وقائدهم عليه الصلاة والسلام إلى المدينة.

ويروي أبو هريرة ﷺ أنه خرج من أرضه باليمن برفقة أمه ومعهما غلام يخدمهما، فهرب الغلام في الطريق، فلقي أبو هريرة شدّة وعناءً .. فلما بايع رسول الله ظهر الغلام، فقال له عليه الصلاة والسلام : « هذا غلامك »، فقال أبو هريرة : هو حرّ لوجه الله ..[1]

واستبشر النبي عليه الصلاة والسلام بأبي هريرة، وطلب أبو هريرة من رسول الله الدعاء، فكان عليه الصلاة والسلام يقول : « اللهم حبِّب عُبيدك هذا - يعني أبا هريرة - وأُمّه إلى عبادك المؤمنين وحبِّبهم إليك ».[2]

بقي أبو هريرة ﷺ في المدينة، ولم يعُد إلى أرض دوس، وشهر بكنيته هذه .. وكان ﷺ يقول عن نفسه : كان اسمي في الجاهلية عبد شمس، فسمّاني رسول الله عبد الرحمن، وكنّاني أبا هريرة .. فقد كان ﷺ يحب الحيوان، ويعطف عليه، ويلاعب القطط وهو صغير، فرآه المصطفى عليه الصلاة والسلام يوماً وفي كمّه هرّة فناداه : « يا أبا هريرة »، فشُهر بها بين الصحابة ..[3]

أدرك أبو هريرة ﷺ فضل المهاجرين والأنصار، وعلم أن اللحاق بركب الذين سبقوه من المهاجرين ليس بالأمر السهل، فقد فاتته سنوات وسنوات، كان خلالها بعيداً عن الإسلام والجهاد من أجله .. ولكنه رأى أيضاً أن معظم الصحابة الكرام مشغولون بشؤون معاشهم فلا يستطيعون ملازمة النبي عليه الصلاة والسلام، أما هو فقد أصبح في المدينة لا عمل له يشغله ولا مال .. فليلزم المسجد، وليصحب الرسول ﷺ، ولينهل من علمه، دون أن يشغله عن ذلك شاغل .. فقد هاجر إلى الله ورسوله مُؤثراً الغربة ليحظى بشرف الصُحْبَة، تشفع له نيته الصادقة، وشوقه الكبير إلى طلب العلم، والتزوّد من أنوار النبوة، وتعويض ما فاته من الخير في

---

(١) انظر: تذكرة الحفاظ (ج١/٣٤).

(٢) المصدر السابق.

(٣) انظر: أسد الغابة (ج٥/٣١٦)، وسير أعلام النبلاء (ج٢/٥٧٩).

رحاب رسول الله عليه الصلاة والسلام .. ومن ثم صار ﷺ شديد الحرص على ملازمة رسول الله ﷺ في الليل والنهار والحَلّ والترحال، حتى نسي الدنيا وأعباءها، ومن ثم فقد ارتضى العيش مع أهل الصفة ليفرغ لملازمة النبي عليه الصلاة والسلام فكان إذا جلس الرسول جلس إليه، وإذا تحدّث أصغى، وإذا تحرّك تابعه، وإذا قام رافقه، وصار شغله الشاغل أن يتعلّم منه ولا ينسى ..

ويُروى أنه ذات يوم كان مع زيد بن ثابت ورجلٍ آخر في المسجد يذكرون الله ويدعونه، فخرج رسول الله ﷺ إليهم وأمرهم أن يستمروا بالدعاء، فدعا زيد والرجل قال أبي هريرة، وجعل رسول الله ﷺ يُؤمّن على دعائهم .. ثم دعا أبو هريرة فقال : اللهم إني أسألك مثل ما سألك صاحباي وأسألك علماً لا يُنسى، فقال رسول الله : « آمين »، فقال الرجلان : يا رسول الله ونحن نسأل الله تعالى علماً لا يُنسى، فقال : « سبقكما بها الدّوسي »[1] واستجيبت الدعوة فصار يحفظ من رسول الله ﷺ فلا ينسى ..

هكذا عاش ﷺ مشغولاً عن شؤون معاشه وحاجته من الطعام والشراب، يكفيه القليل مما يجود به عليه النبي عليه الصلاة والسلام أو الصحابة، فكان يُرى أكثر وقته جائعاً.

يقول ﷺ : والله الذي لا إله إلّا هو إنْ كنت لأعتمد بكبدي على الأرض من الجوع، وإن كنت لأشدُّ الحجر على بطني من الجوع. ولقد قعدت يوماً على طريقهم الذي يخرجون منه فمرّ بي أبو بكر فسألته عن آية من كتاب الله ما سألته إلّا ليشبعني، فمرّ ولم يفعل، فمرّ بي عمر فسألته عن آية من كتاب الله ما سألته إلّا ليشبعني، فمرّ ولم يفعل، ثم مر بي أبو القاسم ﷺ وتبسّم حين رآني وعرف ما في نفسي وما في وجهي ثم قال : « يا أبا هِرّ »، قلت : لبيك يا رسول الله، قال : « إلحق »، ثم مضى واتّبعته، فدخل واستأذنت وأذِن لي، فوجد لبناً في قدح فقال: « من أين هذا اللبن ؟ »، فقالوا : أهداه لك فلان أو فلانة .. فقال: « أبا هر » فقلت : لبيك يا رسول الله، قال : « إلحق إلى أهل الصفة فادعُهم لي »، قال : وأهلُ الصفة أضيافُ الإسلام لا يأوون على أهل ولا مال، إذا أتته صدقة بعث بها إليهم .. فساءني ذلك.. فقلت : كنت أحق أن أُصيب من هذا اللبن شربة أتقوى بها .. ولم يكن من طاعة الله وطاعة

---

(١) المستدرك (ج٣/٥٠٨).

رسوله ﷺ ..

ويتابع أبو هريرة روايته يحدثنا عن بركة رسول الله قائلاً :

فأتيتهم، فدعوتهم، فأقبلوا، فلما جلسوا قال : « يا أبا هر خذ فأعطهم »، فجعلت أعطي الرجل فيشرب حتى يَروى حتى أتيت على جميعهم، وناولته رسول الله فرفع رأسه إليّ فتبسماً وقال : « بقيت أنا وأنت »، قلت : صدقت يا رسول الله، قال : « اقعد فاشرب »، فشربت.. فقال : « اشرب »، فشربت .. فما زال يقول : « اشرب »، فأشرب، حتى قلت : لا والذي بعثك بالحق ما أجد له مسلكاً، فحمد الله وسمّى وشرب من الفضلة ..[1]

ولقد كان الجوع يبلغ بأبي هريرة ﷺ أن كان أحياناً يسقط على الأرض، فكان إذا سُئل عن ذلك قال : ما بي جنون .. ما بي إلّا الجوع.

نعم، لقد بلغ الأمر بأبي هريرة ﷺ هذا المبلغَ لشدة حرصه على صحبة رسول الله ﷺ، وأخذه العلم عنه.

ولقد أوتي أبو هريرة ﷺ ذاكرة قوية .. وربما كان صبره على الجوع، وفراغ معدته من حشو الطعام، مما أوقد ذاكرته، وفتح بصيرته، وزاد من قدرته على الحفظ والتركيز، ففاض بحديث رسول الله ﷺ .. وكان ﷺ إذا خاف أن يضيع منه حرف ذهب إلى رسول الله ﷺ وقال : يا رسول الله، أسمع منك أشياء فلا أحفظها ؟، فيقول له رسول الله ﷺ : « ابسط رداءك »، ثم يغرف بيده فيه قائلاً : « ضمّه »، قال أبو هريرة : فضممته فما نسيت حديثاً بعده.[2]

لقد كان يأتيه ﷺ يطلب علماً ودعاء يعينه على حفظه ..

وقد سأله رسول الله ذات يوم : « ألا تسألني من هذه الغنائم ؟ »، فقال ﷺ : أسألك أن تعلّمني مما علمك الله .. فنزع بُردة على ظهر أبي هريرة وبسطها بينهما وجعل يحدّثه حتى إذا استوعب أبو هريرة حديثه، قال : « اجمعها فصُرّها[3] إليك »، فيقول أبو هريرة: فأصبحت

---

(١) صحيح البخاري (ج٥/٢٣٧١).

(٢) انظر : أسد الغابة (ج٥/٣١٦)، وطبقات ابن سعد (ج٤/٣٢٩).

(٣) أي ضُمّها .

لا أسقط حرفاً مما علّمني.[1]

وهكذا أصبح أبو هريرة ﷺ ذا قدرة هائلة على الحفظ والتذكّر ببركة صدقه وإخلاصه ودعاء الرسول ﷺ له ..

ولاشك أن الله تعالى لا يُوفّق عبداً من عباده لعمل صالح إلّا بصبر وجهاد يقدمهما هما.. ولقد قدّم أبو هريرة ﷺ دنياه كلها ثمناً ..

وقد تحقّق أمله، فحفظ حديث رسول الله ﷺ، وتصدّر الحفظة الرواة، بغزارة حفظه وشدة إتقانه وضبطه .. وقد شهد له عليه الصلاة والسلام بذلك، فمرة سأله أبو هريرة وقال : يا رسول الله من أسعد الناس بشفاعتك يوم القيامة ؟ قال : « لقد ظننت يا أبا هريرة ألّا يسألني عن هذا الحديث أوّل منك لما رأيت من حرصك على الحديث، إنّ أسعد الناس بشفاعتي يوم القيامة من قال لا إله إلّا الله خالصاً من قبل نفسه ».[2]

وشهد له بذلك الصحابة الكبار؛ ففيه قال طلحة بن عبيد الله ﷺ - وهو من السابقين الأولين - : ... ولا شك أنه سمع من رسول الله ما لم نسمع.[3]

وهكذا بارك الله في السنوات الأربع التي عاشها أبو هريرة ﷺ في رحاب رسول الله، فصارت عمراً وحدها .. فلما مضى الرسول الأكرم صلوات الله وسلامه عليه، بدأ أبو هريرة يفيض بما سمع، ويحدّث فيكثر الحديث عن نبيه عليه الصلاة والسلام .. مما أثار دهشة الصحابة، حتى أخذ بعضهم عليه ذلك .. فكان ﷺ يقول مدافعاً عن نفسه :

وإنكم لتقولون إن أبا هريرة يكثر الحديث عن رسول الله، والله الموعد .. كنت رجلاً مسكيناً أخدم رسول الله على ملء بطني وكان المهاجرون يشغلهم الصفق بالأسواق .. وكانت الأنصار يشغلهم القيام على أموالهم، وقال رسول الله ﷺ : « من يبسط ثوبه فلن ينسى شيئاً سمعه مني »، فبسطت ثوبي حتى قضى حديثه ، ثم ضممته إلي .. فما نسيت شيئاً

---

(١) انظر: تذكرة الحفاظ (ج١/٣٤). لا أسقط : أي لا أنسى.

(٢) انظر: طبقات ابن سعد (ج٤/٣٣٠).

(٣) تهذيب التهذيب (ج١٢/٢٩٧).

سمعته يعد.[1] وإنه لدفاع ساطع وحجة بالغة والله ..

ولم تشغل الرواية أبا هريرة ﷺ عن تولّي بعض المهامّ في الدولة الجديدة .. فقد استعمله الخليفة عمر ﷺ على البحرين [2]، ثم ولّاه معاوية ﷺ على المدينة [3]، فصار له مال، ولكنه ظلّ من أكثر الناس تواضعاً واعترافاً بفضل الإسلام عليه .. ورُوي عنه أنه صلّى مرة بالناس، فلما سلّم رفع صوته وقال : نشأت يتيماً، وهاجرت مسكيناً، وكنت أجيراً لابنة غزوان بطعام بطني وعقبة رجلي أحدو بهم إذا ركبوا، وأحتطب إذا نزلوا .. فالحمد لله الذي جعل الدين قواماً وجعل أبا هريرة إماماً.[4] وبقي ﷺ رغم تغيّر الحال زاهداً رافضاً متاع الدنيا لنفسه وأهله فكان ﷺ يقول لابنته : لا تلبّسي الذهب فإني أخشى عليك اللهب.

كما كان كثير العبادة والذكر والورع..كيف لا، وهو الذي روى عن حبيبه المصطفى ﷺ مئات الأحاديث في الذكر والتعبّد. ويروي حفيده أنه كان له خيط فيه ألفا عقدة لا ينام حتى يُسبّح به [5]، وكان يقول: إني لأستغفر الله وأتوب إليه كل يوم اثني عشر ألف مرة وذلك على قدر ذنبي..[6] رضي الله عنه وعن الصحابة الكرام كم كانوا يحاسبون أنفسهم.

ويقول عثمان النهدي : تضيفت أبا هريرة سبعاً، فكان هو وامرأته وخادمه يتعقبون الليل ثلاثاً، يصلّي هذا، ثم يوقظ الآخر فيصلّي، ثم يوقظ الثالث.[7]

وكان ﷺ يوصي أصحابه فيقول : ألا أدلّكم على غنيمة باردة .. الصوم في الشتاء.[8]

وهكذا مضت حياة المحدّث العظيم بين حلقات العلم وساحات الجهاد ومجالس الولاة

---

(١) أسد الغابة (ج٥/٣١٧).

(٢) سير أعلام النبلاء (ج٢/٦١٢).

(٣) انظر: تذكرة الحفاظ (ج١/٣٢).

(٤) انظر: معجم الصحابة (ج١/٣٧٧).

(٥) انظر: تذكرة الحفاظ (ج١/٣٥).

(٦) المصدر السابق.

(٧) انظر: تذكرة الحفاظ (ج١/٣٦).

(٨) انظر: معجم الصحابة (ج١/٣٨١).

ومواضع العبادة.

وطارت شهرته في الآفاق وقصده الناس من كل صوب ليسمعوا من حديث رسولهم الحبيب عليه الصلاة والسلام ..

مات أبو هريرة ﷺ بالمدينة سنة ثمان وخمسين للهجرة ..[1] ودُفن في البقيع مع الأصحاب الأخيار، وقرب نبيه الحبيب ﷺ الذي ترك متاع الدنيا وزينتها من أجل صحبته والحديث عنه ..

رحم الله أبا هريرة : حائع أشبع العقول ..

وأغنى بذاكرته السطور .. خالدة عبر الدهور .. وصايا وحِكَماً وتشريعات وأدباً وأذكاراً من حديث سيد العالمين عليه الصلاة والسلام ..

---

(١) وقيل سنة سبع وخمسين، وقيل تسع وخمسين للهجرة.

عِمْرانُ بنُ الحُصَيْن رضي الله عنه

كَليمُ الملائكةِ

عِمْرانُ بنُ الحُصَيْن

ابن عبيد بن خلف بن عبد نُهْم الخُزاعي

كان النبي عليه الصلاة والسلام يجتمع بأصحابه، فيتلو عليهم آيات ربه، ويزكيهم ويعلّمهم الكتاب والحكمة .. وكان يطلعهم من خلال ذلك على عوالم الآخرة .. فيبشرهم وينذرهم، وعلى ملكوت السماوات والأرض لكي يروا آيات الله في الآفاق وفي أنفسهم .. فكانوا يشعرون أنهم يحلّقون في عالم الفكر والروح ..

وذات يوم قال له نفر من الصحابة الكرام : يا رسول الله ! ما لنا إذا كنا عندك رقّت قلوبنا، وزهدنا دنيانا، وكأننا نرى الآخرة رأي العين .. حتى إذا خرجنا من عندك، ولقينا أهلنا وأولادنا ودنيانا، أنكرنا أنفسنا ؟! فأجابهم ﷺ : « والذي نفسي بيده، إن لو تدومون على ما تكونون عندي، وفي الذكر، لصافحتكم الملائكة على فرشكم وفي طرقكم ... ».[1]

هوّن النبي ﷺ الأمر عليهم .. ولكنه بيّن أن دوام ذكر الله تعالى، وقوة الصلة بنبيه الكريم يفتحان أبواب عالم الغيب أمام العبد فإذا به يجالس الملائكة ويصافحهم ! ..

كان عِمْرَان بن الحصين ﷺ من أولئك الذين رقّت قلوبهم، وصفت نفوسهم، فرقّ الحجاب بينهم وبين عوالم الملائكة .. وبرغم أنه ﷺ لم يكن من السابقين الأولين، ولم يصاحب رسول الله ﷺ إلّا سنواتٍ قلائلَ إلّا أن صِدقه وزهده وعظيم الحب الذي اشتعل في قلبه جعله يسابق الأولين.

أسلم ﷺ في السنة السابعة للهجرة عقب فتح خيبر .. ووضع ﷺ يده في يد رسول الله ﷺ مبايعاً على السمع والطاعة وحفظ العهد .. وما هي إلّا أيام حتى أخذ مكانه بين صفوف المؤمنين مجاهداً في سبيل الله خلف قائده رسول الله ﷺ، فغزا معه عدة غزوات .. ثم جاء عام الفتح الأعظم .. فتح مكة المكرمة، فكان عمران بن الحصين حامل راية قبيلته خزاعة.[2] وظل

---

(١) صحيح مسلم (ج٤/٢١٠٦).

(٢) انظر: الإصابة في تمييز الصحابة (ج٣/٢٦).

ﷺ ينتقل بين بلاد قومه والمدينة [1]، حتى توفي رسول الله ﷺ. وظلّ ﷺ على عهده الذي عاهد .. يُسابق العُبّاد والزهّاد، ويرفض أن يشغله عن عبادة ربه شيء ..

ومع العبادة وحب الجهاد اشتهر بفقهه حتى أرسله عمر بن الخطاب ﷺ في خلافته إلى البصرة ليفقّه أهلها. وشهد أهل البصرة لعمران، فكان ابن سيرين يقول : لم يكن تقدّم على عمران أحد من الصحابة ممن نزل البصرة.[2] وكان الحسن البصري يحلف ما قدِم عليهم البصرةَ خيرٌ لهم من عمران بن حصين.[3]

وهكذا أمضى عمران ﷺ عمره في محرابه يتعبّد فيه، أو في مجلسه يُعلم ويُفقّه، ثم شاء الله تعالى أن يبتليه بالمرض .. فقد أصابه مرض الاستسقاء وطال أمده وهو صابر عليه، وشُقّ بطنه وأُخذ منه شحم، وثقب له سرير فبقي عليه ثلاثين سنة !! وقد دخل عليه بعض أصحابه يعودونه يوماً، فقال له أحدهم : إنّا لنبأس لك لما نرى فيك، قال : فلا تبتئس بما ترى، فإن ما ترى بذنب، وما يعفو عنه الله أكثر .. ثم تلا قول الله تعالى: ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴾[4] .. بهذا المفهوم القرآني كان الصحابة الكرام يفسرون الأقدار ويحاسبون أنفسهم أشد الحساب ! ..

ويُروى أن رجلاً دخل عليه فقال : يا أبا نجيد ! والله إنه ليمنعني من عيادتك ما أرى بك، فقال : يا ابن أخي فلا تجلس، فوالله أحبُّ ذلك إليّ أحبُّه إلى الله عزّ وجلّ.[5] وهكذا كان عمران ﷺ يؤكد أن أحبّ الأشياء إلى نفسه أحبّها إلى ربه، ولو كان ابتلاءً أو مرضاً .. وطال الأمد، وربما كان عمران يعزي نفسه بحديث نبيه صلوات الله وسلامه وعليه : « ما من مسلم يصيبه أذى من مرض فما سواه إلّا حطّ الله به سيئاته كما تحطّ الشجرة ورقها »[6]،

---

(١) انظر: سير أعلام النبلاء (ج٢/٥٠٨-٥٠٩).

(٢) انظر: الإصابة في تمييز الصحابة (ج٣/٢٦).

(٣) سير أعلام النبلاء (ج٢/٥٠٨).

(٤) سورة الشورى (٣٠)، وانظر الخبر في حياة الصحابة (ج٣/٤٦٩).

(٥) أسد الغابة (ج٤/١٣٨).

(٦) صحيح مسلم (ج٤/١٩٩١).

وبقوله عليه الصلاة والسلام : « إنّ عظم الجزاء مع عظم البلاء، وإن الله تعالى إذا أحبّ قوماً ابتلاهم، فمن رضي فله الرضا، ومن سخط فله السَخَط ».[1]

ثم اشتدّ الابتلاء على عمران ﷺ فظلّ صابراً، حاضر القلب، دائم الذكر، كما لو كان بين يدي رسول الله لا يغيب عنه .. فرقّ قلبه أكثر وكَشف الله الحجاب عن سمعه وبصره فصار ﷺ يسمع تسليم الملائكة !! وقيل إنها : كانت تصافحه ﷺ.[2] وصار عمران معروفاً بكرامته في أهل البصرة، فكانوا يقولون إنه كان يرى الحَفَظَة ..

وذات يوم عظُم عليه أمر المرض فاكتوى، وكان النبي عليه الصلاة والسلام قد نهى عن الكَيّ، فانقطع تسليم الملائكة ..[3] ولنستمع إليه يحدّث حفيده مُطرِّف عن ذلك، قال عمران : اعلم يا مُطرِّف أنه كانت تُسلّم الملائكة علي عند رأسي، وعند البيت، وعند بيت الحِجر، فلما اكتويت ذهب ذلك ..

ثم منّ الله عليه، ففُتح الباب الذي أغلق، وعاد التسليم .. وفي ذلك يقول : اعلم يا مُطرِّف أنه عاد إليّ الذي كنت أفقد، اكتم علي يا مُطرِّف حتى أموت.[4]

ولم يلبث طويلاً - عقب ذلك - حتى مات، وذلك سنة اثنتين وخمسين للهجرة وبذلك أمضى عمران ﷺ حياته مجاهداً بسيفه، وداعياً إلى الله، ومعلّماً للناس، ثم صابراً على المرض .. وكانت حياته أشبه ما تكون بنبي الله أيّوب عليه السلام ..

فلنتذكّر ونحن نودّع كليم الملائكة عمران بن الحصين ﷺ أن هناك مخلوقات نورانية تحيط بنا، ترانا وإن كنا لا نراها، لنتذكّر أن الملائكة معنا تسلّم علينا عقب كلّ صلاة .. ملائكة حفظة، وملائكة كراماً كاتبين يعلمون كل ما نفعل، ويكتبونه إن خيراً أو شراً ! ..

---

(١) سنن الترمذي (ج٤/٥١٩).

(٢) انظر: الإصابة في تمييز الصحابة (ج٣/٢٦).

(٣) المصدر السابق.

(٤) انظر: حياة الصحابة (ج٤/٣٧٤).

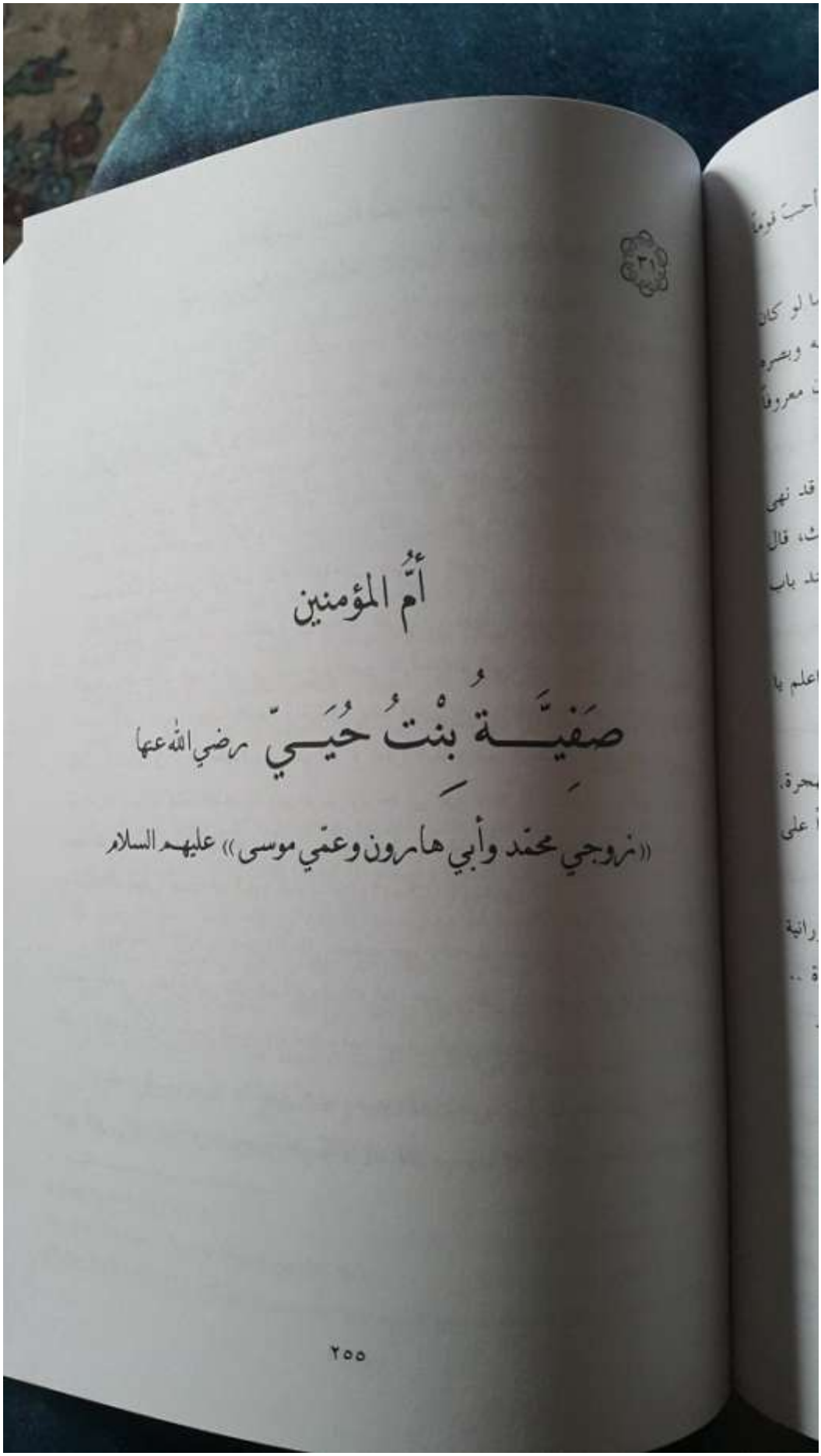

أمُّ المؤمنين

صَفِيَّـــةُ بِنْتُ حُيَـــيّ رضي الله عنها

«زوجي محمد وأبي هارون وعمّي موسى» عليهم السلام

أم المؤمنين السيدةُ صَفِيّة بِنْتُ حُيَيّ

ابن أخطب بن سعية بن ثعلبة (من ذرية نبي الله هارون عليه السلام)

« اللهمّ ربّ السماوات وما أظلَلْن، وربّ الأرَضين وما أقللن، وربّ الشياطين وما أضللن، وربّ الرياح وما أذرين، فإنّا نسألك خير هذه القرية وخير أهلها وخير ما فيها، ونعوذ بك من شرّها وشرّ أهلها وشرّ ما فيها، أقدِموا بسم الله » ..[1]

دعا رسول الله ﷺ بهذه الدعوات لمّا أشرف على حصون خيبر، فأعطاه الله خيرها وخير أهلها، وأعاذه من شرّها وشرّ أهلها .. وكان من الخير الذي أفاء الله على رسوله : السيدة صَفِيّة بنت حيي التي صارت أماً للمؤمنين رضي الله عنها.

وخيبر إحدى القرى الكثيرة في وادي القُرَى[2]، ذاتُ حصون ومزارع، يسكنها اليهود. وقد لجأت إليها قبائل بني قَيْنُقاع والنّضير لما أجلاهم النبي عليه الصلاة والسلام من المدينة، لأنهم ظلموا وخانوا العهود والمواثيق، وهم الذين حرّضوا قريشاً، وحزّبوا الأحزاب لقتال المسلمين في غزوة الخندق، فردّهم الله لم ينالوا شيئاً ونصر المسلمين. وقد اغتنم النبي صلاة الله وسلامه عليه، الهدنة بينه وبين قريش وتوجه إلى خيبر قائلاً للمسلمين : « تجهّزوا الى هذه القرية الظالم أهلها، فإنّ الله عزّ وجلّ فاتحُها عليكم إن شاء الله ».[3] لقد أراد عليه الصلاة والسلام أن يصفّي حسابه مع اليهود لقاءَ ما غدروا ومكروا بالمسلمين.

وبعد معارك دامية بين الحق والباطل سقطت خيبر وفُتحت حصونها .. وقد استسلمت مُعظم الحصون، وصالح النبي عليه الصلاة والسلام أهل خيبر وحقن دماءهم برغم ما فعلوه من غدر وكيد، ولكنّ عدداً من النساء والولدان وقعوا أسرى بأيدي المسلمين.

وسيقت النساء سبايا، تتقدّمهن شابة وضيئة كانت عروس أحد سادات بني النضير الذين قُتلوا واسمه كِنانة بن الربيع. وكان كنانة قد غدر برسول الله ونقض العهد بينه وبينه

---

(١) سيرة ابن هشام (ج٢/٣٢٩).

(٢) وادٍ بين المدينة وتبوك كثرت فيه القرى فسمي وادي القرى.

(٣) مجمع الزوائد (ج٦/١٤٧).

فقُتل.[1]

وتروي كتب السيرة كيف عرض النبي عليه الصلاة والسلام الإسلام على صفية، ثم خيّرها فقال : « اختاري، فإن اخترت الإسلام أمسكتك لنفسي، وإن اخترت اليهودية فعسى أن أعتقك فتلحقي بقومك » ..[2]

وأراد الله لصفية الكرامة، فاختارت الإسلام، وآمنت رضي الله عنها برسول الله ﷺ وصدّقت بالرسالة، وفضّلت البقاء مع النبي وصحبه على العودة إلى قومها ! .. ولكن كيف استطاعت أن تنسى ما فعله النبي ﷺ والمسلمون بأهلها وتُقبل على الإسلام ؟! لقد قتل المسلمون أباها وعمها وأمر رسول الله بقتل زوجها لغدره ! ..

لاشك أن السيدة صفية لم تكن حديثة علم بالإسلام، فقد كانت طفلة واعية تعيش في يثرب يوم قدم النبي عليه الصلاة والسلام مهاجراً. وشهدت رضي الله عنها الصراع بين المسلمين واليهود، ولم يخفَ عليها غدر اليهود ومكائدهم المستمرة .. أمّا كرههم للنبي عليه الصلاة والسلام، وحقدهم عليه فكانت تراه أشدّ ما يكون في كلام أبيها حيي بن أخطب وعمها وفي أفعالهما ..

وقد وصفت السيدة صفية ذلك الحقد بعد إسلامها فيما كانت تتذكر الأيام الأول التي أعقبت وصول المصطفى عليه الصلاة والسلام إلى المدينة، فقالت : كنت أحبّ ولد أبي إليه، وإلى عمي أبي ياسر، لم ألقهما قطّ مع ولد لهما إلّا أخذاني دونه، قالت : فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة، ونزل قُباء في بني عامر بن عوف، غدا عليه أبي حيي بن أخطب، وعمي أبو ياسر ابن أخطب، مغلّسين[3]، قالت : فلم يرجعا حتى كانا مع غروب الشمس، فأتيا كالّين كسلانين ساقطين يمشيان الهوينى، قالت : فهششت إليهما كما كنت أصنع، فوالله ما التفت إليّ واحد منهما، مع ما بهما من الغمّ، قالت : وسمعت عمي أبا ياسر وهو يقول لأبي حيي ابن أخطب : أهو هو ؟ قال : نعم والله، قال : أتعرفه وتثبته ؟ قال : نعم، قال : فما في

---

(١) سيرة ابن هشام (ج٢/٣٣٦-٣٣٧).

(٢) انظر: طبقات ابن سعد (ج٨/١٢٣).

(٣) الغلس : ظلمة آخر الليل إذا اختلطت بضوء الصبح، خرجا مغلّسين أي في ذلك الوقت.

نفسك منه ؟ قال : عداوته والله ما بقيت !.[1]

ربما تساءلت صفية الصغيرة يومذاك عن سبب هذا العداء، وعجبت وهي ترى رسول الله والمسلمين يعاملون قومها بالعدل والإحسان، والقومُ لا يزدادون إلّا لوماً وإيذاءً.

ولكن صفية بَقِيَت امرأة من قومها، يصيبها ما أصابهم، ويؤلمها ما آلمهم، ورسول الله ﷺ أخرج بني النضير من المدينة، وقتل أباها بعد غزوة الخندق لقاء غدره، وهاهو ذا ﷺ قتل زوجها كنانة .. وبرغم ذلك كله أسلمت صفية وقبلت الزواج من رسول الله عليه أفضل الصلاة والسلام ..

قالت صفية، رضي الله عنها : يا رسول الله ! لقد هَوِيت الإسلام، وصدّقت بك قبل أن تدعوني حيث صرت إلى رحلك، ومالي في اليهودية أرَب، ومالي فيها والد ولا أخ ...[2] وحدّثته عن رؤيا رأتها بعد زواجها من كنانة بأيام، فقد رأت أن قمراً وقع في حجرها، فحدّثت بها زوجها فقال : ماهذا إلّا أنك تَمَنَّيْن مَلِك الحجاز محمّداً ! ثم لطم وجهها لطمة خضَّر عينها منها.[3]

هل كانت صفية حقاً تُفكّر في أمر رسول الإسلام ودعوته وتذكره بخير أمام قومها ؟! وهل كانت تحسّ أنها على موعد مع قدر عظيم ..

الله وحده يعلم، ولكن المؤكد أنها أسلمت رضي الله عنها وحسن إسلامها، وانضمت إلى نساء النبي عليه الصلاة والسلام، وكان عمرها سبعة عشر عاماً. ولم يُسمَع رسول الله ﷺ بعد ذلك ذاكراً أباها بحرف مما تكره تكريماً لها.[4] وتفيد الروايات أنه ﷺ كان يطيّب خاطرها ويقول : « يا صفية ! أما إني أعتذر إليك مما صنعت بقومك، إنهم قالوا لي كذا، وإن أبك ألّب عليّ العرب، وفعل، وفعل » .. قالت : فما زال يعتذر إلي حتى ذهب ذلك[5] عن

---

(١) انظر: سيرة ابن هشام (مج١/٥١٨-٥١٩).

(٢) انظر: طبقات ابن سعد (ج٨/١٢٣).

(٣) انظر: البداية والنهاية (ج٤/١٩٨)، وطبقات ابن سعد (ج٨/١٢١).

(٤) انظر: طبقات ابن سعد (ج٨/١٢٣).

(٥) تشير إلى آلامها، بسبب مقتل أبيها وعمّها.

نفسي.[1]

إنه الهادي البشير، قد أزاح نوره عن قلبها سُحُب الألم العميق، وشفاها صدقه الذي نشعّ كلماته وفعاله من رواسب الكفر والجاهلية.

عادت السيدة صفية، رضي الله عنها، إلى المدينة مع المسلمين، وقد أعتقها رسول الله ﷺ وتزوّجها، وجعل صَداقها عِتْقَها. وابتهج الناس بفرح زواج النبي عليه الصلاة والسلام، وأُقيمَت وليمة العرس ليس فيها خبز ولا لحم إنما هو الحَيْس[2]. ويُروى أنه عليه الصلاة والسلام بات مع زوجه صفية في قبّة، فوقف أبو أيوب الأنصاري ﷺ خارج القبة وسيفه بيده يحرسه، ورسول الله ﷺ لا يعلم .. فلما أصبح سمع صوتاً، فخرج فإذا أبا أيوب، فسأله : « مالك يا أبا أيوب ؟ »، قال : يا رسول الله خِفت عليك من هذه المرأة، وكانت امرأة قد قتلتَ أباها وزوجها وقومها، وكانت حديثة عهد بكفر، فخفتها عليك، فدعا له عليه الصلاة والسلام بالرحمة والحفظ.[3]

لم يكن ذلك الحذر ليدخل إلى قلب الرسول ﷺ، فقد كان يعلم صِدقها وإخلاصها بعد أن دخل نور الإسلام إلى قلبها وعقلها، فأضاءهما كما ينير القمر المنير ظلمة الليل الكئيب. وعاشت السيدة صفية مع رسول الله دون أن يعكّر صفو عيشها ما كان من عداوة أبيها، فالله تعالى يقول في كتابه العزيز: ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾[4].. وكان عليه الصلاة والسلام إذا ذكرها أحد أو نعتها باليهودية يقول : « إنها قد أَسْلَمَتْ فحسُن إسلامها »[5]، وكان يقول لها مُواسياً إذا نالت منها ضَرّاتها عائشة وحفصة : « ألا قُلتِ : كيف تكونان خيراً مني وزوجي محمّد وأبي هارون وعمي موسى ؟! ».[6] صلوات الله عليهم أجمعين.

عاشت صفية، رضي الله عنها، مع رسول الله قرابة أربع سنوات .. وكان حبها له عليه

---

(١) مجمع الزوائد (ج٩/٢٥١).

(٢) هو الأقط والسمن والتمر يخلط ويعجن.

(٣) سيرة ابن هشام (مج٢/٣٤٠).

(٤) سورة فاطر (١٨).

(٥) انظر: طبقات ابن سعد (ج٨/١٢٦)، والإصابة في تمييز الصحابة (ج٤/٣٤٧).

(٦) انظر: أسد الغابة (ج٥/٤٩١)، والاستيعاب في معرفة الأصحاب (ج٤/١٨٧٢).

الصلاة والسلام صادقاً وعظيماً .. صادراً من عظمة أخلاقه وعظمة الدين الذي حمله لينقذ من الضلال إلى الهدى .. وعندما مرض عليه أزكى الصلاة والسلام مرضه الذي توفي فيه اجتمعت إليه نساؤه، وبكت صفية وقالت : أما والله يا نبي الله لوددت أن الذي بك بي، فغمزتها أزواجه، وأبصرهن رسول الله، فقال عليه الصلاة والسلام : « مضمضن ! » قلن من أي شيء يا نبي الله ؟! فقال : « من تغامزكن بصاحبتكنّ، والله إنها لصادقة ».[1]

ومنذ انتقل خاتم المرسلين عليه الصلاة والسلام إلى جوار ربه، صار شعارها في نفسها رضي الله عنها الصبر، وعزاؤها التعبّد .. حتى كانت تُوصف بالتقية الزّاكية ذات الدين الباكية، صفيّة الصّافية.[2]

رُوي أن نفراً اجتمعوا في حجرتها فذكروا الله وتلوا القرآن وسجدوا، فنادتهم وقالت : هذا السجود وتلاوة القرآن، فأين البكاء ؟! .[3]

روت رضي الله عنها عن النبي ﷺ عشرة أحاديث ..[4] وقد كانت رضي الله عنها إلى جانب حبها لدينها ونبيها وكثرة تعبدها وورعها، حليمة عاقلة فاضلة ذات وقار .. فقد رُوي أن جارية لها أتت عمر بن الخطاب ﷺ في زمن خلافته فقالت : إن صفية تحب السبت وتصل اليهود. فبعث إليها عمر فسألها، فقالت : أما السبت فإني لم أحبه منذ أبدلني الله به يوم الجمعة، وأما اليهود فإن لي فيهم رحماً فأنا أصلها. ثم قالت للجارية : ما حملك على هذا ؟ فاعترفت الجارية قائلة : الشيطان ! فقالت التقية الحليمة : اذهبي فأنت حرّة.[5]

تُوفيت السيدة صفية في زمن معاوية، رضي الله عنهما، سنة خمسين في شهر رمضان، ودُفنت في البقيع مع الزوجات الطاهرات وآل بيت النبي ﷺ وصحابته الطيبين الأطهار.[6]

---

(١) انظر: طبقات ابن سعد (ج٨/١٢٨)، والإصابة في تمييز الصحابة (ج٤/٣٤٧-٣٤٨).

(٢) انظر: حلية الأولياء (ج٢/٥٤).

(٣) انظر: حلية الأولياء (ج٢/٥٥).

(٤) سير أعلام النبلاء (ج٢/٢٣٨).

(٥) انظر: الإصابة في تمييز الصحابة (ج٤/٣٤٧)، والاستيعاب في معرفة الأصحاب (ج٤/١٨٧٢).

(٦) انظر: الاستيعاب في معرفة الأصحاب (ج٤/١٨٧٢)، والإصابة في تمييز الصحابة (ج٤/٣٤٨).

رحم الله صفية بنت حيي .. ورضي عنها وأرضاها ..

وإذا كان لكل امرئ من اسمه نصيب .. فلا شك أن نصيب صفية من الاصطفاء كان عظيماً، ولولا ذلك الاصطفاء الإلهي لكانت فتاة يهودية طواها الزمن ولم يذكرها أحد ..

ولكن العناية الإلهية جعلتها زوجاً لخاتم الأنبياء والمرسلين عليه الصلاة والسلام .. وأماً لكل المؤمنين.

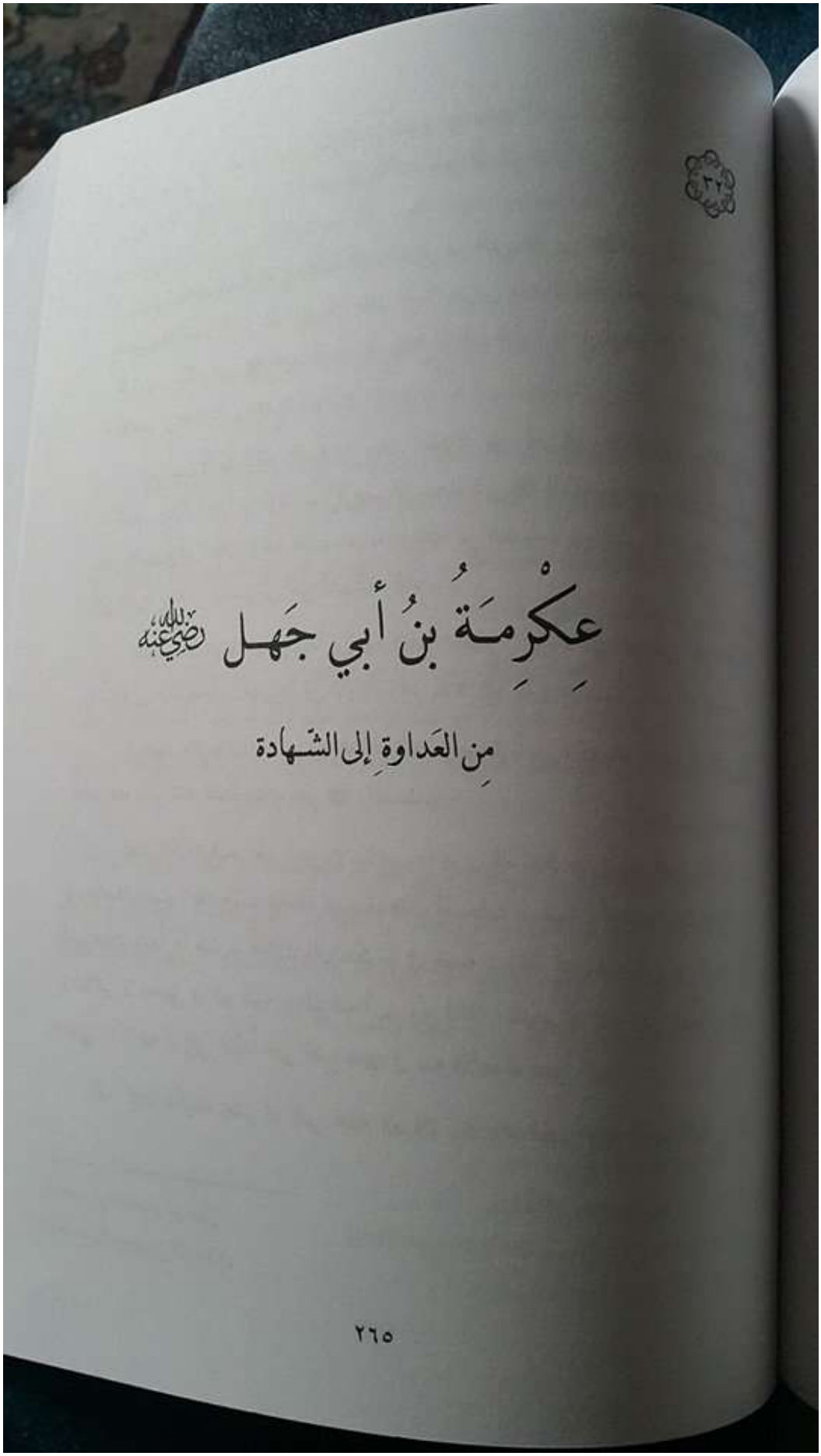
٢٦
عِكْرِمَةُ بنُ أبي جَهل رضي الله عنه
مِن العَداوةِ إلى الشّهادة
٢٦٥

عِكْرِمَةُ بنُ عمرو بن هشام [1]

ابن المُغيرة المخزومي القرشي

بدأت قصة عِكْرِمَة في اليوم الذي خرج فيه النبي ﷺ من الطائف طريداً محزوناً لم يستجب له أحد، فأرسل الله تعالى إليه ملَك الجبال يعرض عليه أن يهلك أهل مكة الذين آذوه وطردوه .. لكن النبي ﷺ الذي أرسله الله رحمةً للعالمين قال : « بل أرجو الله أن يخرج من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئاً » .. [2]

وما لبث أئمّة الكفر أن قُتلوا خلال المعارك بين الشرك والإيمان، أو ماتوا على شركهم.. إلّا أن كثيراً من أولادهم أكرمهم الله بدعاء النبي ﷺ فأسلموا، منهم عكرمةُ بن أبي جهل الذي تولّته العناية الإلهية فقلبت حياته، ونقلته من الظلمات إلى النور، وانتزعته من بين أهل الشرك والعداء ليصبح من أهل الشهادة والفداء ..

فلنتابع ذلك الانقلاب، ولنبدأ من يوم الفتح العظيم .. يوم دخل المصطفى عليه الصلاة والسلام إلى مكة فاتحاً .. فطهّرها من الأوثان وأمر بلالاً ﷺ أن يرفع صوته بنداء التوحيد.

لم يشهد عكرمة تلك الأحداث العظام فقد خرج هارباً من مكة بعد سماعه أن النبي ﷺ أهدر دمه وأمر بقتله لشدّة إيذائه للنبي ﷺ وللمسلمين ..

ركب عكرمة البحر هارباً من الإسلام، وما درى أنه كان هارباً إلى قدره الجميل .. إلى الإسلام نفسه ! فقد هبّت عاصفة شديدة، فقال أصحاب السفينة : أخلصوا فإن آلهتكم لا تُغني عنكم شيئاً ها هنا .. هنالك قال عكرمة في نفسه : والله لئن لم ينجّني من البحر إلّا الإخلاص لا ينجيني في البر غيره .. ثم التجأ إلى ربه قائلاً : اللهم إن لك عليّ عهداً إن أنت عافيتني مما أنا فيه أن آتيَ محمّداً حتى أضع يدي في يده فلأجدنّه عفواً كريماً ..

لقد كان عكرمة يعلم أن النبي عليه الصلاة والسلام أهدر دمه، لكنه كان يعرف

---

(١) عمرو بن هشام هو أبو جهل.

(٢) صحيح البخاري (ج٣/١١٨٠).

أخلاق محمّد ﷺ ويعرف عفوه وكرمه عليه الصلاة والسلام .. فلما نجّاه الله تعالى وجد زوجته أم حكيم بنت الحارث قد خرجت في طلبه بعد أن استأمنت له رسول الله ﷺ فأمّنه وأمرها برده .. وكانت رضي الله عنها قد أسلمت قبله .. فأخذت تقول له : يا ابن عم ! جئتك من عند أوصل الناس وأبر الناس وخير الناس .. لا تهلك نفسك وإني قد استأمنت لك رسول الله ﷺ .. فرجع معها إلى مكة.

فلما اقترب الاثنان من مكة قال النبي ﷺ لأصحابه : « يأتيكم عِكرمة بن أبي جهل مؤمناً مهاجراً، فلا تسبّوا أباه فإن سبّ الميت يؤذي الحي ولا يبلغ الميت ».[1]

وقد كان النبي ﷺ قال لأم سلمة، رضي الله عنها : « رأيت لأبي جهل عِذْقاً في الجنة »، فلمّا أسلم عكرمة قال ﷺ : « يا أم سلمة هذا هو » ..[2]

لقد كان العذق هو عكرمة ﷺ .. فلما انتهى إلى النبي ﷺ قام إليه فرحاً واعتنقه قائلاً له : « مرحباً بالرّاكب المهاجر » ..[3]

أسلم عكرمة وبايع النبي ﷺ، ثم قال وهو مطأطئٌ رأسَه استحياء : يا رسول الله .. استغفر لي كل عداوة عاديتكها، أو موكب أوضعت فيه، أريد فيه إظهار الشرك، فقال عليه الصلاة والسلام : « اللهم اغفر لعكرمة كلّ عداوة عادانيها، أو موكب أوضع فيه، يريد أن يصدّ عن سبيلك ».

فقال عكرمة : يا رسول الله ! مُرني بخير ما تعلم فأعمله .. فقال : « قل أشهد أن لا إله إلّا الله وأن محمّداً عبده ورسوله، وتجاهد في سبيله » .. فقال عكرمة : أما والله يا رسول الله لا أدع نفقة كنت أنفقها في الصدّ عن سبيل الله إلّا أنفقت ضعفها في سبيل الله، ولا قاتلت قتالاً في الصدّ عن سبيل الله إلّا أبليت ضعفه في سبيل الله.[4]

---

(١) انظر: حياة الصحابة (ج١/١٦٢-١٦٤).
(٢) الإصابة في تمييز الصحابة (ج٢/٤٩٧).
(٣) سنن الترمذي (ج٥/٧٤)، سير أعلام النبلاء (ج١/٣٢٤).
(٤) انظر: حياة الصحابة (ج١/١٦٢-١٦٤).

لقد غدا عكرمة بعد إسلامه رجلاً آخر .. لا يدع سبيلاً يتدارك من خلاله ما فاته إلّا سارع إليه .. حتى قيل عنه إنه لا يعرف له ذنب بعدما أسلم ! ..[1]

ولكن عكرمة ﷺ كان أول أمره إذا مرّ بالمدينة قيل له : هذا ابن عدوّ الله أبي جهل ! فشكا ذلك إلى رسول الله ﷺ، فقام عليه الصلاة والسلام في الناس خطيباً فقال : « إن الناس معادن خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا، لا تؤذوا مسلماً بكافر ..[2] فاطمأنّ قلب عكرمة وطابت نفسه بحديث رسول الله ﷺ ..

ومضى ﷺ يسخّر حياته كلها لخدمة دين الحق، يعوّض بذلك عن ماض موجع أسود. ولقد نال ثقة النبي عليه الصلاة والسلام حتى استعمله في عام حجّته [3] على صدقات هوازن .. فلما توفي عليه الصلاة والسلام كان عكرمة بأرض اليمن.[4]

مضى عصر النبوة وظل عكرمة ﷺ على عهده، يطبّق وصيّة رسوله الكريم : « قل أشهد أن لا إله إلّا الله وأن محمّداً عبده ورسوله، وتجاهد في سبيله » .. فلا تلقاه إلّا متأبّطاً سلاحه إذا ما سمع نذيراً للقتال ..

ولقد حسن إسلامه ﷺ ورقّ قلبه حتى كان إذا تلا القرآن أخذ المصحف الشريف فوضعه على وجهه وبكى وهو يقول : كتاب ربي كتاب ربي ..[5] نعم هكذا الروح إذا أيقظتْها أنوار الحق .. ولربما كان ﷺ يبكي أيضاً كلما قرأ قوله تعالى : ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾[6]

وأخذ ﷺ دوره في الدولة الجديدة، وولّاه الخليفة أبو بكر ﷺ على عُمان بعد قتال

---

(١) البداية والنهاية (ج٧/٣٥).

(٢) انظر: المستدرك (ج٣/٢٤٣).

(٣) في السنة العاشرة للهجرة.

(٤) انظر: حياة الصحابة (ج١/١٦٤).

(٥) انظر: حياة الصحابة (ج٤/١٣٤).

(٦) سورة الزمر (٥٣).

المرتدين فيها. ثم قدم الشام وكان أميراً على بعض الكَرَادِيس[1]. وظل ﷺ مرابطاً على الثغور حتى كانت محطته الأخيرة يوم اليرموك .. ولنا عندها وقفة تأمّل ..

ترحّل عكرمة ﷺ في ذلك اليوم، فقال له خالد بن الوليد ﷺ : لا تفعل فإن قتلك على المسلمين شديد .. فقال : خلِّ عني يا خالد .. فإنه قد كان لك مع رسول الله ﷺ سابقة، وإني وأبي كنا من أشدّ الناس على رسول الله ﷺ .. فلما اشتعلت الحرب وحمي الوطيس صاح ﷺ في وجه العدو : قاتلت رسول الله ﷺ في مواطن كثيرة وأفرّ منكم اليوم ؟! ثم التفت إلى أصحابه فنادى : من يبايع على الموت ؟ فبايعه عمّه الحارث بن هشام وضرار بن الأزور رضي الله عنهم في أربعمئة من وجوه المسلمين وفرسانهم .. فقاتلوا أمام فسطاط خالد ﷺ حتى أُثبتوا جميعاً جراحاً .. وقُتل منهم كثير، رضي الله عنهم جميعاً.[2]

وأُسدل الستار على حياة عكرمة .. ونال ﷺ الشهادة التي كان يحلم بها ويجاهد من أجلها، ولكنه سطّر في لحظات حياته الأخيرة قصة من قصص الفداء والإيثار التي طالما أثارت الإعجاب والدهشة !.

ومَن مِنّا لا يعرف حكاية النّفر الذين آثر كل منهما الآخر بشربة ماء ليروي من هو أظمأ منه حتى استشهدوا جميعاً وما ذاق أحدهم شربة ماء .. إنها واحدة من القصص الفريدة التي سطّرها التاريخ للمسلمين الأوائل، ولقد كان عكرمة واحداً من أبطالها .. فقد جُرح يوم اليرموك الحارث بن هشام وعكرمة بن أبي جهل وعيّاش بن أبي ربيعة رضي الله عنهم، فلما صُرعوا من الجراح استسقَوا، فجيء إليهم بشربة ماء، فلما قُرّبت إلى أحدهم نظر إليه الآخر، فقال للساقي : ادفعها إليه، فلما دُفعت إليه نظر إليه الآخر، فقال : ادفعها إليه .. فتدافعوها كلهم؛ فمن واحد إلى واحد حتى ماتوا جميعاً و لم يشربها أحد منهم ! ..[3]

ولئن مضى أصحاب تلك القصص، إنّ شذى أحداثها خلّده الدّهر نِبراساً لكل مؤمن يقلّب صفحات التاريخ .. وأملاً لكل مؤمن تتوق نفسه لإعادة مجد الإسلام.

---

(١) جمع كُرْدوسة : طائفة عظيمة من الخيل أو الجيش.

(٢) انظر: حياة الصحابة (ج٧/١١).

(٣) المصدر السابق.

تلك هي الخاتمة الكريمة لعكرمة البطل ﷺ .. ولعل الرسول عليه الصلاة والسلام - إذا قضى الله بين العباد- أن يستقبله في الجنة قائلاً له : « مرحباً بالراكب المهاجر، مرحباً بالراكب المهاجر » ..

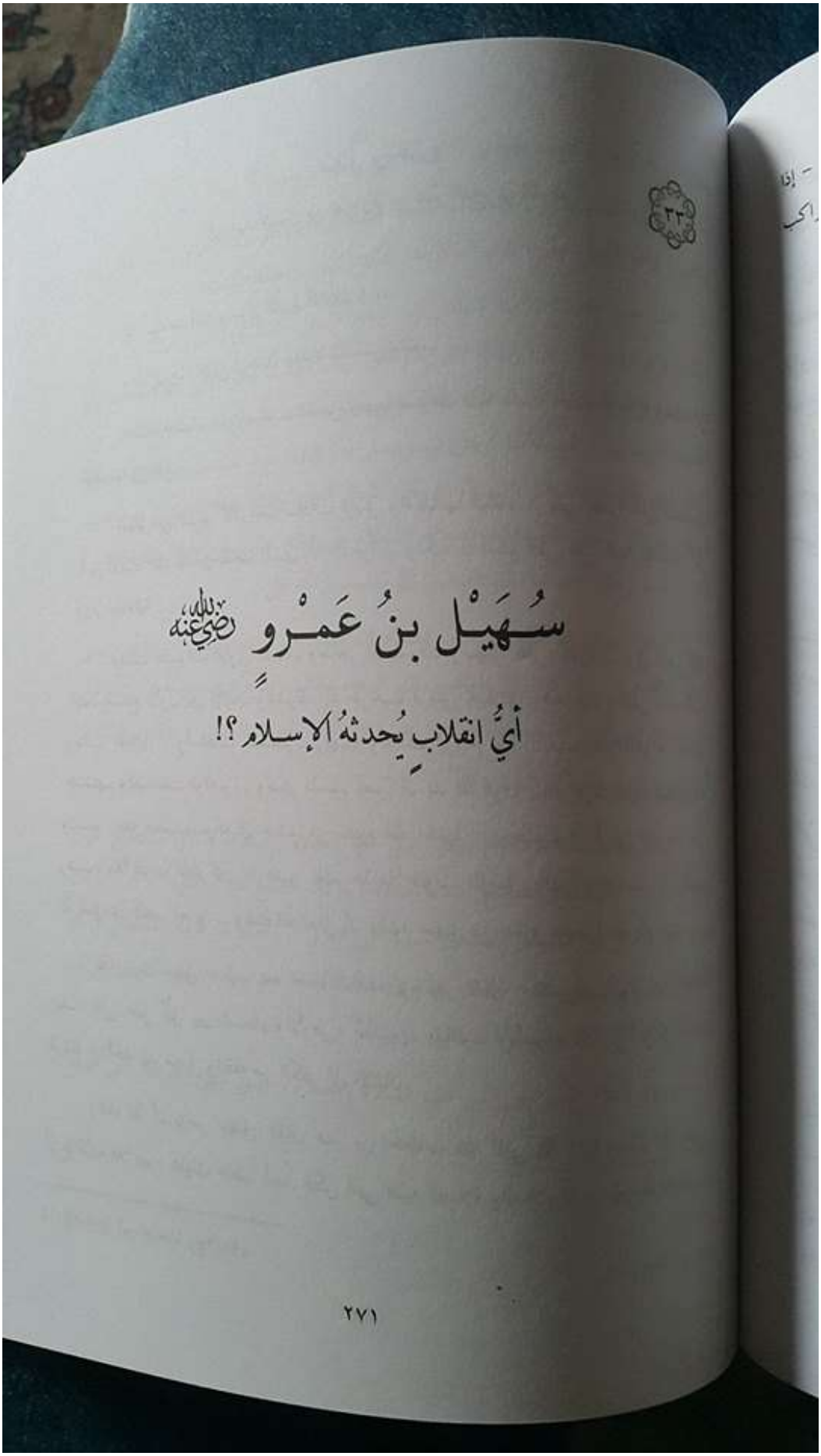

٣٣

سُهَيْل بنُ عَمْرٍو رضي الله عنه

أيُّ انقلابٍ يُحدثهُ الإسلام ؟!

سُهَيْل بنُ عَمْرو

ابن عبد شمس بن عبد وُدّ بن نَصْر العامريّ القرشيّ

لو شهدت أنك رسول الله لم أقاتلك ! ..

والله إن هذا الدين ليمتدّ امتداد الشمس والقمر ..

جملتان قالهما رجل واحد .. تفصل بينهما سنوات قليلة قليت حياة الرجل، ونقلته من الظلمات إلى النور ..

سُهَيْل بن عمرو كان أحد سادات قريش وخطبائها البلغاء .. بقي مُصرّاً على التمسك بدين الآباء، فلم يلتحق بقافلة الهدى إلّا متأخراً .. ولكنه لما أسلم ألقى على عتبة الإسلام كل أوزار الجاهلية ..

مضت السنوات الأولى للبعثة، وهاجر المسلمون، وسهيل على كفره .. وفي بدر كان اللقاء المسلّح الأوّل بين الإيمان والشرك. إذ خرجت قريش بخيلائها وفخرها، والتقى الجمعان، ونشب القتال .. واستغاث المسلمون ربهم، وأمدّهم بروح منه : مدد الملائكة، فازدادت حماستهم وتضاعفت قواهم .. وصار المسلم يحسّ أن يد الله فوق يده، تحرّك سيفه فيضرب، وتسدّد رميته فيصيب، وأنه في حشد من جنود الله الخفية .. وخيّم فوق أرض المعركة جوّ رهيب، ملأ قلوب المشركين بالرعب، بقدر ما ملأ قلوب المؤمنين بالقوة والثبات .. وكتب الله للمؤمنين النصر العزيز .. وشاء الله تعالى أن يشهد سهيل بن عمرو معجزة الله بأم عينيه ..

فقد روى سهيل - فيما بعد - ما شاهده يوم بدر فقال : لقد رأيت يوم بدر رجالاً بيضاً، على خيل بُلْق بين السماء والأرض، مُعْلَمين، يقاتلون ويأسرون ! ..[1] ولكن تلك الرؤية لم تأخذ بيد سهيل وتنقله من الكفر إلى الإيمان.

وشاء الله أن يؤسر سهيل، فقال عمر بن الخطاب ﷺ للنبي ﷺ : يا رسول الله دعني أنزع ثنيّتيه فلا يقوم عليك خطيباً أبداً. لكن النبي عليه الصلاة والسلام قال : « دَعْهُ يا عمر،

---

(١) الإصابة في تمييز الصحابة (ج٢/٩٤).

عسى أن يقوم مقاماً تحمده عليه ».[1]

ومضت السنوات والأحداث، وجاءت السنة السادسة للهجرة، وخرج رسول الله يريد الاعتمار، وقدّر الله أن تكون تلك السنة سنة الصُّلح المبين .. صلح الحديبية.

كان عليه الصلاة والسلام يأمل أن تسمح قريش للمسلمين بدخول مكة إذ جاؤوا مسالمين لا يريدون إلّا زيارة البيت الحرام، ولكن قريشاً رفضت دخول النبي ﷺ وصحابته إلى مكة رفضاً قاطعاً، واستعدّوا للقتال، فقال النبي عليه الصلاة والسلام : « يا ويح قريش لقد أكلتهم الحرب » .. ثم بدأت قريش ترسل سفراءها محاولةً صدّ المسلمين عن البيت الحرام، وكان النبي ﷺ يؤكد لهم : « إنّا لم نجئ لقتال أحد، ولكنّا جئنا معتمرين ». وتتالت السفارات، ثم أرسل النبي عليه الصلاة والسلام إلى مكة عثمان بن عفان ﷺ، فاحتبسه المشركون .. وطال احتباسه، ثم بلغ النبي ﷺ والمسلمين أنه قُتل ..

أدرك رسول الله عليه الصلاة والسلام أن القتال قد ينشب فقال : « لا نبرح حتى نُناجِز[2] القوم » .. ثم دعا ﷺ المسلمين إلى البيعة، فكانت (بَيعة الرضوان) تحت الشجرة .. وهي البيعة التي أثنى الله سبحانه وتعالى عليها في كتابه العزيز إذ قال: ﴿ لَقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ ﴾[3].

ورغم أن الصحابة الكرام بايعوا النبي عليه الصلاة والسلام، وكانوا مستعدّين لحرب قريش، إلّا أنّ رغبتهم في الصُّلح كانت صادقة، وكان الصُّلح قدراً مكتوباً .. فما أن تمّت البيعة حتى وصل إلى معسكر المسلمين سهيل بن عمرو في رجال من قريش للتفاوض في أمر المصالحة، فلما رآه النبي عليه الصلاة والسلام قال لأصحابه : « لقد سَهُل لكم من أمركم، أراد القوم الصلح حين بعثوا هذا الرجل ».

وجرى كلام طويل بين النبي عليه الصلاة والسلام وسهيل انتهى بالموافقة على الصلح،

---

(١) أسد الغابة (ج٢/٣٧١).

(٢) نقاتل.

(٣) سورة الفتح (١٨).

ولم يبق إلّا صياغة البنود .. فدعا رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب ﷺ ليكتب، فقال : « اكتب : بسم الله الرحمن الرحيم »، فقال سهيل : ما الرحمن ؟! اكتب : باسمك اللهم ! فأمر النبي علياً بذلك فكتبها. ثم أملى النبي عليه الصلاة والسلام : « هذا ما صالح عليه محمّد رسول الله » .. فقال سهيل بصراحة أغضبت الصحابة : لو نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت ولا قاتلناك، ولكن اكتب محمّد بن عبد الله .. فقال عليه الصلاة والسلام : « واللهِ إني لرسول الله وإن كذّبتموني »، وقال لعلي : « امح رسول الله »، فقال علي : والله لا أمحاه أبداً، فقال عليه الصلاة والسلام : « فأرِنيه »، فأراه، فمحاه النبي عليه الصلاة والسلام بيده الشريفة ثم أملى عليه بنود المصالحة ..[1]

كانت بنود الصُّلح عشرة، منها أن الهدنة لعشر سنوات بين قريش والمسلمين يأمن فيها الناس، وأن يرجع المسلمون هذا العام فلا يدخلون مكة على أن يرجعوا في العام التالي، وأن من حقّ كلّ قبيلة أن تدخل في عهد أيّ من الطرفين.

أما البند الذي غاظ الصحابة الكرام فهو الذي يقضي بأن يردّ النبي عليه الصلاة والسلام كل من يأتيه مسلماً من أهل مكة إلى المشركين، ولا تردّ قريش من جاءها من المسلمين على النبي ﷺ. وكره المسلمون شروط الصلح، ورأوا فيه مهانة لهم، لكن النبي ﷺ سكّنهم حين قال لهم : « من ذهب منّا إليهم فأبعده الله، ومن جاءنا منهم سيجعل الله له فرجاً ومخرجاً ».[2]

وكان مما زاد من شدّة البلاء على المسلمين أن رجلاً من مسلمي مكة وهو أبو جندل ابن سهيل بن عمرو نفسه استطاع الفرار، والتحق بمعسكر المسلمين .. وقد وافق ذلك ساعة إبرام العقد وسهيل أبوه لا زال عند المسلمين. وكان أبو جندل قد عُذّب عذاباً شديداً في سبيل الله .. لكن النبي عليه الصلاة والسلام ردّه إلى المشركين التزاماً بالعقد ..

وراح الرجل يصيح ويستغيث : يا معشر المسلمين ! أأُردّ إلى المشركين يفتنوني في ديني؟! .. والنبي ﷺ يقول له : « اصبر واحتسب، فإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً ! إنّا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحاً، وأعطيناهم على ذلك

---

(١) انظر: صحيح البخاري (ج٢/٩٧٧)، وسيرة ابن هشام (مج٢/٣١٥-٣١٧).

(٢) صحيح مسلم (ج٣/١٤١١).

وأعطونا عهد الله، وإنا لا نغدر بهم » ..[1] كان سهيل يشهد موقف النبي عليه الصلاة والسلام، ذلك الموقف الذي لا ينقضي منه العجب، ولكن الله تعالى لم يأذن بعد بدخول نور الإيمان إلى قلبه ..

أما المسلمون فقد فارت نفوسهم بالثورة والألم وهم يرون أخاهم المسلم يرد إلى مشركي مكة، فازدادت حيرتهم، ولم يدركوا الحكمة من فعل النبي عليه الصلاة والسلام الذي أمضى الصلح على رغمهم، ولم يشاورهم في ذلك الأمر الخطير .. لكن الخير كله كان في ذلك الصلح كما أثبتت الأيام والأحداث.

لم تمض سنتان على الحديبية حتى نقضت قريش العهد، فسار النبي على رأس جيش الفتح العظيم .. وأنجز الله وعده، ودخلت جيوش المسلمين مكة، ترفرف فوق رؤوسهم ألوية النصر .. ودخل عليه الصلاة والسلام البلد الأمين، وطاف بالبيت الحرام، وتكبيرات المسلمين تشق عنان السماء وتصل إلى أسماع كل الذين وقفوا في وجه كلمة التوحيد .. وراح رسول الله ﷺ يطوف بالكعبة المشرفة على راحلته، وحوله ستون وثلاثمئة صنم مشدودة بالرصاص، فجعل كلما دنا من صنم طعنه وهو يقول : « ﴿ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾[2] .. ﴿ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴾[3] »، فما أشار إلى صنم إلّا تهاوى .. كان رسول الله يحطّم الأوثان بيديه، ويقتلع جذور الوثنية من قلوب أهل مكة، الذين كانوا يرقبون آلهتهم المزعومة وهي تتهاوى .. وكان سهيل يشهد تلك الأحداث العظام.

يقول سهيل بن عمرو : ولما دخل رسول الله ﷺ مكة اقتحمت بيتي وأغلقت عليّ بابي وأرسلت إلى عبد الله أن اطلب لي جواراً من محمّد فإني لا آمن أن أُقتل فذهب عبد الله إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله أبي تؤمّنه ؟ قال : « نعم هو آمن بأمان الله فليظهر ». ثم قال ﷺ لمن حوله: « من لقي سهيل بن عمرو فلا يشدّ إليه، فلعمري إن سهيلاً له عقل وشرف، وما مثل سهيل جهل الإسلام ». فخرج عبد الله بن سهيل إلى أبيه فخبّره بمقالة

---

(١) انظر: سيرة ابن هشام (ج٢/٣١٧-٣١٨)، وصحيح مسلم (ج٣/١٤١١).

(٢) سورة الإسراء (٨١).

(٣) سورة سبأ (٤٩).

رسول الله .. وبدأت غشاوة الجهل تزول عن قلب سهيل وفكره فقال: كان والله براً صغيراً وكبيراً.[1]

لم يكن سهيل ممن أسلم وبايع في مكة، بل خرج مع النبي ﷺ والمسلمين إلى حنين وهو مشرك، وقد أمهله رسول الله وصبر عليه .. لعلّه كان واثقاً أن سهيلاً لا بد أن يسلم ولو بعد حين ..

وجاء اليوم الموعود بعد معركة حنين، كان جيش المسلمين بالجعرانة، حين وقف سهيل بين يدي رسول الله وشهد شهادة الحق، فقسّم له النبي عليه الصلاة والسلام من الغنائم.

وتبدّلت حياة الرجل غير الحياة الأولى، بل انقلبت حياته رأساً على عقب، وكان لزاماً أن يعوّض عن سنوات البعد الطويلة، فراح ﷺ يطرق كل أبواب التقرب إلى الله، حتى تروي مصادر السيرة تعليقاً على إسلام سهيل أنه لم يكن أحد من كبراء قريش الذين تأخر إسلامهم فأسلموا يوم الفتح أكثر صلاة ولا صوماً ولا صدقة ولا أقبل على ما يعنيه من أمر الآخرة من سهيل بن عمرو، حتى شحب وتغيّر لونه من طول القيام والعبادة .. وصار الرجل الذي طالما سمع آيات القرآن وبينه وبينها حجاب مستور، صار رقيق القلب كثير البكاء، كلما سمع آيات الله تُتلى بكى .. وصار يختلف[2] إلى معاذ بن جبل ﷺ ليقرئه القرآن.[3]

وبرغم الندم الذي كان يعتصر قلبه، والحسرة على ما فرّط في جنب الله، إلّا أنه كان كثير الحمد لله الذي منّ عليه بالإسلام، ولو بعد حين .. وكانت كلمات سهيل تنم عن إيمان صادق وحكمة بالغة ..

قال سهيل : لقد وضع الإسلام أمر الجاهلية، ورفع الله أقواماً بالإسلام كانوا في الجاهلية لا يُذكرون، فليتنا كنا مع أولئك فتقدّمنا، وإني لأذكر ما قسم الله لي في تقدّم أهل بيتي الرجال والنساء ومولاي عمير بن عوف، فأُسَرّ به وأحمد الله، وأرجو أن يكون الله قد

---

(١) انظر: المستدرك (ج٣/٢٨١)، والسيرة الحلبية (ج٥/٤٦).

(٢) أي يتردّد عليه.

(٣) أسد الغابة (ج٢/٣٧٢).

نفعني بدعائهم ألّا أكون هلكت على ما مات عليه نظرائي وقُتلوا، فقد شهدت مواطن كلها أنا فيها معائد للحق يوم بدر ويوم أُحُد ويوم الخندق ..

وكان ﷺ يذكر ما حدث يوم الحديبية فيستحيي من رسول الله، ويعجب من نفسه كيف راجعه عليه الصلاة والسلام .. قال سهيل : إني لأذكر مراجعتي رسول الله يومئذٍ وما كنت أُلِظّ به [1] من الباطل فأستحيي من رسول الله ﷺ بمكة وهو يومئذٍ بالمدينة .. [2]

ليس المُتوقّع مِن العبد ألّا يُذنِب أو لا يُخطئ .. ولكن المهم الاعتراف والندم على التفريط دون يأس أو قنوط، ثم العمل لمحو الخطأ، فكلّ ابن آدم خطّاء .. وخير الخطّائين التوابون .. وسهيل كان حقّاً من التوابين، تشهد على ذلك مواقف حياته كلها مُذ أعلن إسلامه بين يدي نبيه الكريم عليه الصلاة والسلام وانضم إلى صفوف الصحابة الكرام.

وجاء اليوم الذي أثبت فيه سهيل ﷺ أن الإيمان الراسخ لا يتزعزع .. وأنه وبرغم تأخر إسلامه جدير بهذا الدين العظيم .. ذلك أنه بعد نحو سنتين من الفتح الأعظم مرض النبي عليه الصلاة والسلام، وكان سهيل ﷺ خلال السنتين في مكة المكرمة .. ولم يلبث أن انتقل الرسول ﷺ إلى جوار ربه فلم ينعم بصحبته سهيل .. وانتشر النبأ الفاجع، فارتجّت مكة للنبأ العظيم الذي أذهل العقول، وكأنه شيء لا يمكن أن يكون، وأظلم من المدينة كلّ شيء .. ولم تلبث أخبار الردّة أن وصلت إلى مكة أيضاً، وأهل مكة كانوا حديثي عهد بالإسلام .. فكان لابدّ من رجل يمسك زمام الأمور ويثبّت الناس .. وكان سهيل هو ذلك الرجل ..

وقف ﷺ خطيباً في أهل مكة، وخطب خطبة طويلة، ذكّر فيها الناس، وثبّت القلوب.. وكان مما قال : يا معشر قريش لا تكونوا آخر من أسلم وأول من ارتدّ .. ثم قال بثقة عظمى : والله إن هذا الدين ليمتدنّ امتداد الشمس والقمر من طلوعهما إلى غروبهما. [3] وتابع سهيل خطبته .. وكان كلامه مؤثراً، أحيا القلوب، وبعث فيها الصدق والعزم والإيمان من جديد. فذلك هو المقام الذي ذكره النبي ﷺ لعمر ﷺ لمّا أراد أن يبطش بسهيل

---

(١) ألِظّ به.

(٢) أسد الغابة (ج٢/٣٧٢-٣٧٣).

(٣) أسد الغابة (ج٢/٣٧٢).

عندما أسره المسلمون يوم بدر ..

وظل سهيل ﷺ على عهده، ثم كان يوم اليمامة .. وفيه قُتل ابنه شهيداً، فعزاه أبو بكر ﷺ وقال له : قال رسول الله ﷺ : « إن الشهيد ليشفع لسبعين من أهل بيته » .. فخرج سهيل وظل يطمع بشفاعة ولده ..[1]

ولما كانت خلافة عمر الفاروق ﷺ .. حضر ناس بباب أمير المؤمنين عمر، فيهم سهيل وأبو سفيان وجماعة من سادات قريش الذين تأخر إسلامهم .. فخرج آذن الخليفة وراح يأذن لأهل بدر من المستضعفين كصهيب وبلال وعمار، وقادة مكة ينتظرون، فقال أبو سفيان : ما رأيت كاليوم قط، إنه ليؤذن لهؤلاء العبيد ونحن جلوس لا يُلتفت إلينا .. ومرّة أخرى وقف سهيل بن عمرو ليقول الحق ويدافع عن الحق .. قال سهيل : أيها القوم إني والله قد أرى ما في وجوهكم، فإن كنتم غضاباً فاغضبوا على أنفسكم .. دُعي القوم ودُعيتم، فأسرعوا وتباطأتم، أما والله لَمَا سبقوكم به من الفضل أشدّ عليكم فوتاً من بابكم هذا الذي تتنافسون عليه.

حقاً إن الإسلام ليقلب الموازين ويعيد صياغة المبادئ والمفاهيم من جديد. لقد أصبح سهيل بالإسلام رجلاً آخر .. وراح ﷺ ينصح إخوانه فقال : أيها الناس إن هؤلاء سبقوكم بما ترون فلا سبيل والله إلى ما سبقوكم إليه، فانظروا هذا الجهاد فالزموه عسى الله أن يرزقكم الشهادة.[2]

ولم يلبث سهيل ﷺ أن ترك المدينة وارتحل بأهله إلى الشام، وسكن فيها مرابطاً حتى وفاته ﷺ، وظل الصدق عنوان حياته وموافقه حتى لقي ربه راضياً مرضياً في السنة الثامنة عشرة للهجرة..

رحم الله سهيلاً ..

وسلام الله على روحه ..

وعلى كل مسلم صدق ما عاهد الله عليه .. ثم جعل رضاه سبحانه منتهى أمله.

---

(١) انظر: أسد الغابة (ج٢/٣٧٢).

(٢) أسد الغابة (ج٢/٣٧٢).

الخَنسَاء رضي الله عنها

الشاعرةُ أمُّ الأبطال

الخَنْسَاء

تُماضِر بِنْتُ عَمْرِو بن الحارث بن الشريد

في يوم من أيام السنة الثامنة للهجرة جلست بين يدي رسول الله ﷺ امرأة ذات شرف وجمال وشهرة طافت في الآفاق، وراحت تنشده شيئاً من شِعرها، والنبي ﷺ يقول : « هيه يا خُناس » ..[1]

تلك هي شاعرة المراثي الخَنْسَاء التي بكت أخويها صخراً ومعاوية بشعر لم يزل إلى اليوم ينبض بانفعال صادق ولحن حزين ..

ففي رثاء صخر تقول :

أَعَيْنيَّ جُودا ولا تَجْمُـدا ... ألا تبكيان لِصَخْرِ النَّدى

ألا تبكيانِ الجريءَ الجميلَ ... ألا تبكيان الفتى السَّيِّدا

وإذا أردت أن تعرف أيَّ انقلاب أحدث الإسلام في حياة الصحابة، فحياة الخنساء خير دليل .. فقد لوّعت الناس من حولها بحنينها وطول بكائها على أخويها، فلما أسلمت ورسخ الإيمان في قلبها دفعت أولادها الأربعة جميعاً إلى الشهادة ..

بدأ الانقلاب في حياة الخنساء يوم جاءت في وفد من قومها - بني سُلَيم - إلى رسول الله ﷺ، فأسلمت وبايعت، وهنالك ألقت على عتبة الإسلام كل رواسب الجاهلية.

وكان النبي عليه الصلاة والسلام في مجالسه يستنشدها، ويعجبه شعرها، فهو خير من قدّر المواهب وأكرم أصحابها ..[2] وكانت هي تسمع منه آيات الله البينات، يتلوها على الصحابة ويزكيهم بها .. فكانت تلك الجلسات في رحاب الحبيب المصطفى عليه الصلاة والسلام مفاتيح الخير التي أقفلت أبواب الجاهلية في حياتها وفتحت أبواب النور واليقين .. فراحت رضي الله عنها تربي أبناءها على مُثل الدين الجديد الذي آمنت به، وتبعث فيهم روح

---

(١) انظر: الاستيعاب في معرفة الأصحاب (ج٤/١٨٢٧).

(٢) المصدر السابق.

الجهاد وحب الفداء، حتى غدت شرفاً للأمومة المسلمة.

عاصرت الخنساء خلافة الصدّيق والفاروق عمر ﷺ .. وشهدت رايات الفتح الإسلامي ترفرف في الآفاق تنشر رسالة التوحيد، وتنقل العباد من الظلمات إلى النور .. ولربما كانت تتذكّر رضي الله عنها، حياة الجاهلية وآفاقها الضيقة فتحمد الله الذي هداها إلى رحاب هذا الدين العظيم، وأعزّها بمثل ما أعزّ العرب جميعاً إذ نقلهم من الظلمات إلى النور .. وجعلهم حملة رسالة التوحيد ورُوَّاد النصر المبين.

وفي عهد الفاروق عمر ﷺ، حين كانت جيوش الإسلام تنطلق لتحرّر العراق، كانت الخنساء وأولادها الأربعة في رفقة الجيش المتوجه إلى القادسية. وعلى أرض القادسية، وقبيل اندلاع القتال جمعت الخنساء أولادها الأربعة وراحت تبعث فيهم روح الفداء وتذكرهم أن الشهادة مفتاح الجنة وأن النصر من عند الله .. فكان مما قالت :

يا بَنيَّ .. إنكم أسلمتم طائعين وهاجرتم مختارين .. ووالله الذي لا إله غيره إنكم لبنو رجل واحد، كما أنكم بنو امرأة واحدة .. وقد تعلمون ما أعدّ الله للمجاهدين من الثواب الجزيل .. واعلموا أن الدار الباقية خير من الدار الفانية، يقول الله عزّ وجلّ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾[1].

وتابعت الأم المؤمنة الفصيحة النّاصحة وصيّتها فقالت :

فإذا أصبحتم غداً إن شاء الله سالمين، فاغدوا إلى قتال عدوّكم مستبصرين، وبالله على أعدائه مستنصرين .. وإذا رأيتم الحرب قد شمّرت عن ساقها، واضطرمت لظىً على سياقها، وحللت ناراً على أرواقها، فتيمّموا وطيسها، وجالدوا رئيسها عند احتدام خميسها .. تظفروا بالغنم والكرامة في دار الخلد والمقامة.[2]

وخرج الأبناء وقد التهبت حماستهم، وامتلأت نفوسهم ثقة وعزماً .. واندلعت نار القادسية، وشاء الله أن يكرم الأم البطلة، فاختار أبناءها البررة إلى جواره شهداء مكرمين ..

---

(١) سورة آل عمران (٢٠٠).

(٢) أسد الغابة (ج٥/٤٤٢).

لقد استشهد الأربعة، وبلغ الخنساء، رضي الله عنها، خبر مقتلهم جميعاً .. فقالت بكلام عميق وصبر متألق : الحمد لله الذي شرّفني باستشهادهم، وأرجو من ربي أن يجمعني بهم في مستقرّ رحمته.[1]

لم تجزع رضي الله عنها، ولم تندب .. وهي التي قالت يوماً ترثي أخاها :

ولولا كثرة الباكين حولي على إخوانهم لقتلت نفسي

ذلك أن الموت في رحاب الإسلام ليس كالموت في ظلّ الجاهلية .. لقد علمها الإسلام أن أبناءها ليسوا أمواتاً، بل أحياء عند ربهم يرزقون، وأن لقاء الأحبّة الأبدي الدائم سيكون هناك في مستقرّ رحمة الله، في جنة الخلد دار الأبرار .. فهناك مثوى الشهداء والصديقين .. والأنبياء والصالحين، وحسن أولئك رفيقاً.

إن المؤمن إذ يودّع الخنساء الأم المؤمنة العظيمة لا يملك إلّا أن يردّد : أيُّ انقلاب بدأه الإسلام في نفوس المؤمنين الصادقين وفي حياتهم وأي ارتقاء بالمشاعر والأهداف !!

رحم الله الخنساء وأبناءها ..

---

(١) أسد الغابة (ج٥/٤٤٢).

تَمِيمُ بنُ أَوْس رضي الله عنه

«نوّرَ الله عليك في الدنيا والآخرة»

(مِن دعائه له ﷺ)

تَمِيم بنُ أوْس

ابن خارِجَة بن جَذِيَمة الدَّاري اللَّخْمي

في السنة التاسعة للهجرة، جلس النبي ﷺ في مسجده الشريف، يستقبل القبائل العربية التي توافدت عليه ﷺ من كل مكان في الجزيرة، تشهد بالوحدانية وتدين بدين الإسلام من شتى بقاع الأرض .. حتى سمّي ذلك العام (عام الوُفُود).

ومن بين القادمين، أقبل وفد من فلسطين يقال لهم الداريّون .. فيهم رجل مبارك هو تَميم بن أوس وأخوه نُعَيم، كانا على دين النصرانية فأسلما وحسُن إسلامهما ..

وفي ذلك اليوم قام تميم ﷺ إلى النبي ﷺ، فأهداه فرساً اسمه الورد، فقبله منه النبي ﷺ وأعطاه عمر بن الخطاب ﷺ ..

وقد أيقن القوم أن الله تعالى مظهر نبيّه فسألوه أن يعطيهم أرضاً من الشام، فكتب النبي عليه الصلاة والسلام أن لهم حبرى وبيت عينون [1] .. وشهد على ذلك أبو بكر وعمر وعثمان وعليّ رضي الله عنهم أجمعين ..[2]

وفي ناحية من نواحي المسجد .. جلس تميم ﷺ مع النبي ﷺ يحدّثه ويقصّ عليه القصص .. فسرّ النبي ﷺ بكلام تميم، وأرسل منادياً في الناس : أن الصّلاة جامعة .. واجتمع أهل المدينة في المسجد، فصعد النبي ﷺ على منبره وهو يضحك قائلاً : « أتدرون لم جمعتكم ؟ »، قالوا : الله ورسوله أعلم .. قال ﷺ : « إني والله ما جمعتكم لرغبة ولا رهبة، ولكن جمعتكم لأن تميماً الداري كان رجلاً نصرانياً، فجاء فبايع وأسلم، وحدّثني حديثاً وافق الذي كنت أحدّثكم عن المسيح الدّجّال، حدّثني أنه ركب في سفينة بحرية، مع ثلاثين رجلاً من لَخْم وجُذام [3]، فلعب بهم الموج شهراً في البحر، ثم أرْفَؤُوا[4] إلى جزيرة في البحر فلقيتهم

---

(١) بيت عينون : قرية مشهورة عند بيت المقدس.

(٢) انظر: طبقات ابن سعد (ج١/٢٦٧). وقيل: كانت وفادتهم على النبي ﷺ مرتين.

(٣) قبيلتان من اليمن رحلتا منها، فسكنت لخم في الحيرة، وسكنت جذام جنوب الشام.

(٤) أرْفَأ الملاح السفينة : أدناها من المرفأ.

دابة كثيرة الشعر، لا يدرون ما قُبُله من دُبُره من كثرة الشعر، فقالوا: ويلك ما أنتِ ؟! فقالت: أنا الجسّاسة، قالوا : وما الجسّاسة ؟ قالت : أيها القوم ! انطلقوا إلى هذا الرجل في الدير، فإنه إلى خبركم بالأشواق، قال : لما سمّت لنا رجلاً فرقنا منها أن تكون شيطانة، فانطلقنا سراعاً حتى دخلنا الدير فإذا فيه رجل مقيّد .. مجموعة يداه إلى عنقه ما بين ركبتيه إلى كعبيه بالحديد، فقال : من أنتم ؟ قالوا : أناس من العرب، قال : أخبروني عن نبي الأميين ما فعل ؟ قالوا : قد خرج من مكة ونزل يثرب. قال : أقاتله العرب؟ قلنا : نعم. قال : كيف صنع بهم فأخبرناه أنه قد ظهر على من يليه من العرب وأطاعوه، قال : أما إن ذلك خير لهم أن يطيعوه، وإني مخبركم عني، إني أنا المسيح، وإني أوشك أن يؤذن لي في الخروج، فأخرج فأسير في الأرض فلا أدَع قرية إلّا هبطتها في أربعين ليلة غير مكة وطيبة، فهما محرّمتان عليّ كلتاهما، كلما أردت أن أدخل واحدة منهما استقبلني ملك بيده السيفُ صلتاً، يصدّني عنها، وإنّ على كل نقب منها ملائكة يحرسونها ».

فطعن النبي ﷺ بمِخْصَرته [1] في المنبر قائلاً : « هذه طَيبة، هذه طَيبة، هذه طَيبة، ألا هل كنت حدّثتكم ذلك ؟ »، فقال الناس : نعم، قال : « فإنه أعجبني حديث تميم أنه وافق الذي كنت أحدثكم عنه وعن المدينة ومكة ».[2]

وهذا الحديث من أول فضائل تميم الداري ومناقبه لأن النبي ﷺ حدّث الناس بحديثه.

ومن مناقبه وأوّلياته ﷺ أنه كان قد حمل معه من الشام إلى المدينة قناديل وزيتاً .. فقام في المسجد يعاونه غلام له فشدّ حبلاً في المسجد النبوي الشريف فعلق عليه القناديل، وصبّ فيها الماء والزيت، وجعل فيها الفتل .. فلما غابت شمس ذلك النهار أسرَجَها [3] تميم، فكان أول من أسرج المساجد .. فخرج رسول الله ﷺ إلى المسجد فإذا هو يَزْهَر .. فسُرّ رسول الله ﷺ وقال : « من فعل هذا ؟ »، فقالوا : تميم يا رسول الله، فقال ﷺ : « نوَّرْتَ الإسلام، نوَّر

---

(١) المخصرة : العصا.

(٢) صحيح مسلم (ج٤/٢٢٦٤).

(٣) أوقدها.

الله عليك في الدنيا والآخرة أما أنّه لو كانت لي ابنة لزوّجتكها ».[1]

ولقد نوّر الله عليه حقاً في الدنيا قبل الآخرة، فقد كان في أهل فلسطين من أعبد الناس.. كثير التهجد والعبادة .. يختم القرآن الكريم في سبع ليال .. لا يترك ذلك، وكان شديداً في محاسبة نفسه .. شديد التأثر بكلام الله تعالى .. حتى روي أنه قام مرّة يصلّي من الليل ويبكي بآية واحدة حتى أصبح، وهي قوله تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾[2].

آية واحدة أشعلت قلب تميم ﷺ .. وكم من مسلم يتلو كلام الله فيختم القرآن كلّ مرّات ومرّات، فلا تذرف عيناه دمعة ! ..

ولقد نام ﷺ ليلة ففاتته صلاة التهجد .. فماذا فعل أسفاً وحسرةً ؟ ظلّ يحيي الليل سنة كاملة، لعلّ ذلك يعوّضه عن الخير الذي فاته تلك الليلة !! ..[3]

وقد بلغ من تعظيمه ﷺ لصلاة الليل أنه اشترى حُلة بألف درهم، يلبسها في الليلة التي تُرجى فيها ليلة القدر ..[4] ولاشك أن رجلاً يحسن العبادة ويحرص عليها ويتزيّن لها كما كان تميم ﷺ يفعل، سيجعل الله له نوراً في قلبه، ونوراً في دربه، ونوراً في سلوكه .. أوَلم يكن تميمٌ قد نوّر المسجد ودعا له النبي ﷺ أن ينوّر الله عليه في الدنيا والآخرة ؟ .. نعم، ولقد كان من استنارة سلوكه أن صار من أكرم الناس .. إذا صلّى في المسجد ضرب بيده عن يمينه وعن شماله فأخذ رجلين فذهب بهما يطعمهما.

ولقد جمع تميم ﷺ إلى هذه الفضائل نفساً متواضعة .. فكان عمر ﷺ يعظم قدره ويقول إنه خير المؤمنين. ولقد أحب تميم نبيّه الكريم ﷺ حتى أحب الأرض التي جمعته به عليه الصلاة والسلام، فسكن المدينة المنورة وظلّ فيها حتى نهاية خلافة عثمان ﷺ .. وظهرت له

---

(١) انظر: الإصابة في تمييز الصحابة (ج٤/١٨) و (ج١/١٨٤).

(٢) سورة الجاثية (٢١)، والخبر في سير أعلام النبلاء (ج٢/٤٤٥).

(٣) المصدر السابق.

(٤) سير أعلام النبلاء (ج٢/٤٤٧).

فيها كَرَامَة[1] : إذ يُروى أن النار اشتعلت يوماً في منطقة الحَرّة بالمدينة وذلك في خلافة عمر بن الخطاب ﷺ .. فانطلق عمر إلى تميم فقال له : قم إلى هذه النار ؟! فقال تميم : يا أمير المؤمنين! ومن أنا ؟ وما أنا ؟ ـ تواضعاً منه وتصغيراً لنفسه ـ فلم يزل به حتى قام معه، فانطلقا إلى النار فجعل تميم يحوسها بيده حتى دخلت الشعب ودخل تميم ﷺ خلفها فلم تضرّه ..

فجعل عمر ﷺ يقول تعجّباً : ليس من رأى كمن لم يرَ !! ليس من رأى كمن لم يرَ!! ليس من رأى كمن لم يرَ !!.[2]

إنها قصة كلها كرامة لولي من أولياء هذه الأمة أخلص لربه وعبده ليلاً طويلاً.

وظلّ تميم مع عمر، رضي الله عنهما، في المدينة يعظ الناس، ويقرأ عليهم القرآن، ويأمرهم بالخير وينهاهم عن الشر، وهو أوّل من قَصّ القَصص في عهده .. وكان تميم قد استأذن عمر في ذلك فأذن له قائلاً : عِظ قبل أن أخرج للجمعة.[3]

وتابع تميم ذلك في خلافة عثمان ﷺ بل إن عثمان زاده يوماً آخر يعظ الناس فيه. وحين استشهد عثمان ﷺ، انتقل تميم ﷺ إلى الشام، ونزل بيت المقدس حتى توفي ﷺ فيها، ووُجد على قبره أنه توفي سنة أربعين للهجرة ..

ولعلّ قبره قد أشرق بنور تهجده الطويل وبثواب إسراج القناديل في مسجد رسول الله ﷺ ..

ولم نزل كلما ذكرنا تميماً ذكرنا معه نور السّراج فأشرق كلامنا بذكره ..

رضي الله عن تميم وأنار قبره إلى يوم الدين.

---

(١) الكَرامة : أمر خارق للعادة يجريه الله على أيدي أولياته جزاء إخلاصهم، ويقول علماء العقيدة ما كان معجزة لنبي جاز أن يكون كرامة لولي.

(٢) انظر: دلائل النبوة للبيهقي (ج٦/٨٠)، والبداية والنهاية (ج٦/١٦١).

(٣) سير أعلام النبلاء (ج٢/٤٤٧).

الأنصار

حُذيفة بنُ اليَمان رضي الله عنه

صاحِبُ سرِّ النبيّ ﷺ

حُذَيْفة بنُ اليَمَان

حذيفة بن حُسَيْل بن جابر بن ربيعة بن عمرو بن اليمان العبسي

في يوم من أيّام الجاهلية المظلمة انطلق حسيل بن جابر هارباً إلى المدينة المنورة بعدما أصاب دماً .. وهناك في المدينة حالفَ بني عبد الأشهل [1]، وتزوّج منهم الرّباب بنت كعب .. فولدت له حُذيفة .. فكان يقال له حذيفة بن اليمان نِسبة إلى جدّه اليمان ..

وعاشت أسرة حسيل حياة هادئة في رحاب المدينة وكبر حذيفة بين أحضان أسرته .. فلما بُعث النبي ﷺ ووصل صوت الإسلام إلى المدينة، أسلمت أسرة حسيل فكانوا من السابقين للدخول في دين الله، لكن عيش حذيفة في المدينة لم يمكّنه من رؤية رسول الله ﷺ فبدأ الشّوق إليه يسري في جوانحه، وراح يتسقّط أخباره تارة، ويلحّ في السؤال عن أوصافه تارة أخرى فلا يزيده ذلك الجواب إلّا ولعاً وشغفاً إليه مما دفعه إلى شدّ الرحال والانطلاق مع أبيه إلى مكة حيث رسول الله ﷺ ..

وهناك في مكة خيّره رسول الله ﷺ بين الهجرة والنّصرة فاختار النّصرة.[2]

ولما هاجر رسول الله ﷺ إلى يثرب هاجر إليها حذيفة مع أبيه .. وفي المدينة المنورة لازم حذيفة المصطفى ملازمة المحب الطائع الصادق المخلص لدينه .. وحين راح النبي ﷺ يؤاخي بين المهاجرين والأنصار، آخى ﷺ بينه وبين عمار بن ياسر ﷺ ..[3] وما لبث حذيفة ﷺ أن أخذ مكانه بين صحابة رسول الله ﷺ في سِلمهم وحربهم، وراح التاريخ يخط له الملاحم البطولية فقد شهد مع رسول الله ﷺ المواقع كلها عدا بدر.

ولتخلّفه عن بدر قصة يحدثنا عنها حذيفة ﷺ قائلاً : ما منعني أن أشهد بدراً إلّا أني خرجتُ أنا وأبي، فأخذنا كُفّار قُريش، فقالوا: إنكم تُريدون محمّداً فقلنا: ما نُريدُ إلّا المدينة، فأخذوا العهدَ علينا : لننصرفَنَّ إلى المدينة ولا نقاتل معه. فأخبرْنا النبيَّ ﷺ، فقال : « نفي لهم

---

(١) انظر: الإصابة في تمييز الصحابة (ج١/٣١٧).

(٢) انظر: الإصابة في تمييز الصحابة (ج١/٣١٨). ومعنى اختار النصرة أنه اختار أن يكون أنصارياً.

(٣) انظر: سير أعلام النبلاء (ج٢/٣٦٢).

بعهدهم، ونستعين الله عليهم ».[1]

هكذا كان رسول الله عليه الصّلاة والسّلام يُعلّم جنده أن الأخلاق الرفيعة أساس النجاح في المعارك، بل أساس النجاح في الحياة، وإلّا فما الدافع للوفاء بالعهد لمن تفنن في الإيذاء والعذاب للنبي ﷺ وصحبه وصدّ عن دعوته بشتى الوسائل وأقسى الأساليب ؟! ..

وامتثل الأب وابنه رضي الله عنهما لأمر نبيهم ﷺ فلم يقاتلا في بدر برغم ما امتلأت به قلوبهما من الرغبة في الذود عن حياض الإسلام ..

فلمّا كان يوم أُحُد، خرج حذيفة إلى المعركة. على حين بقي حسيل مع المُعَذَّرين من الصبية والنساء والشيوخ لكبر سنه، ثم لم يلبث حب الشهادة أن هاج في قلبه فقال لشيخ كبير مثله قد تخلف عن المعركة هو ثابت بن وَقْش : ما بقاؤنا هنا وتركُنا رسولَ الله ﷺ ؟! فأجابه ابن وقش : لا أبا لك ما ننتظر ؟ إنما نحن هامة اليوم أو غداً [2]، أفلا نأخذ سيفينا ونلحق برسول الله ﷺ، لعل الله يرزقنا الشهادة مع نبيه.

وانطلق الشيخان إلى أرض المعركة المحتدمة. وكان النصر أول الأمر للمسلمين على قِلّتهم، فلمّا خالف الرماة أمر رسولهم ﷺ، انقضّ المشركون بقيادة خالد بن الوليد على المسلمين، وراحوا يُعمِلون فيهم السيوف ويقتلونهم قتلاً ذريعاً، حتى انتقضت صفوفهم واختلطوا، فصار يقتل بعضهم بعضاً، ما يشعرون بذلك لِما أصابهم من الدهش والجهد، فكان ممن قَتلوا حسيل بن جابر ورآه ابنه حذيفة بن اليمان وقد عرفه فقال : أبي والله، فقالوا : إنْ عرفناه ![3] وصدقوا .. فقال حذيفة : يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين.[4]

ثم أراد رسول الله ﷺ أن يَدِيَه[5] فما كان من حذيفة ﷺ إلّا أن تصدّق به على المسلمين فما زاده ذلك عند رسول الله ﷺ إلّا خيراً.[6]

---

(١) انظر: المستدرك (ج٣/٣٧٩)، وسير أعلام النبلاء (ج٢/٣٦٤).
(٢) أي نموت اليوم أو غداً.
(٣) أي ما عرفناه.
(٤) انظر: سيرة ابن هشام (مج٢/٨٧).
(٥) أراد أن يدفع ديته لأنه قتل خطأ.
(٦) سيرة ابن هشام (مج٢/٨٨).

إن هذا الموقف العظيم لِيُمثّل واحداً من أوسمة الشرف التي تزين بها حذيفة ﷺ، وإنه لموقف عصيب لكنه يسير على من استجاب لقول الله تعالى : ﴿ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [1]، ولِمَن خلع حميّة الجاهلية وتخلق بأخلاق الإسلام الحنيف ..

أما الوسام الثاني فكان يوم الخندق، في السنة الخامسة للهجرة، حين اجتمع الأحزاب على المسلمين من كل صوب .. ونقض اليهود العهد، وخانوا خيانة عظمى، إذ اتفقوا مع المشركين على أن يأسروا الأطفال والنساء ويسلموهم إليهم .. فاشتدّ الخوف والهلع، وظهر النفاق وعظم البلاء .. ووصف الله تعالى ذلك الموقف الخطير فقال عزّ من قائل : ﴿ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا ﴾.[2]

وبات النبي ﷺ الليل مع أصحابه مرتقباً .. ولسانه ﷺ يلهج بالذكر : « حسبي الله ونعم الوكيل نعم المولى ونعم النصير » ..

ولم تكن قريش وأحلافها من المشركين، في هذه الساعات، أحسن حالاً إذ فرّق الله جمعهم، ودبّ الخلاف بينهم وبين اليهود، وصبّ الله غضبه على أحزاب الكفر المتشتة، فبعث ريحاً صرصراً، فاقتلعت خيامهم، وأطفأت نيرانهم، وقطعت أوتادهم، حتى لم يكد الرجل منهم يهتدي إلى رحله ومتاعه ..

في هذه اللحظات التي تُكتب فيها مصائر المعارك يكون لاستخبارات الجيوش الفضل الأول في تقدير الموقف وإسداء المشورة، والفريق الخاسر هو الذي ينسحب أولاً .. فمن تراه يصلح لهذه المهمة ؟!

لقد سير النبي عليه الصلاة والسلام أغوار حذيفة بن اليمان ﷺ، وتجلّت له فيه من قبل خصال ثلاث : ذكاء مُسعف في حلّ المعضلات، وبديهة تُلبّيه متى دعاها، وكتمان للسرّ فلا

---

(١) سورة آل عمران (١٣٤).

(٢) سورة الأحزاب (١٠).

يخرق جدار السرّ عنده أحد ..

وجاء الوقت الذي احتاج فيه رسول الله ﷺ إلى هذه الطاقات الكامنة .. ولنترك حذيفة ابن اليمان ﷺ يحدّثنا كيف اختاره المصطفى ﷺ وكيف أدّى تلك المهمة الخطيرة :

قال ﷺ : لقد رأيتنا مع رسول الله بالخندق، وصلّى رسول الله ﷺ هُوِيّاً من الليل[1]، ثم التفت إلينا فقال : « من رجل يقوم، فينظر لنا ما فعل القوم، ثم يرجع ؟ »، يشرط له رسول الله ﷺ الرجعة، « أسأل الله أن يكون رفيقي في الجنة »، فما قام رجل من شدة الخوف وشدة الجوع وشدة البرد ! .. فلما لم يقم أحد، دعاني رسول الله ﷺ فلم يكن لي بدّ من القيام حين دعاني فقال : « يا حذيفة اذهب فادخل في القوم، فانظر ماذا يصنعون، ولا تُحْدِثن شيئاً حتى تأتينا ».[2] ودعا له رسول الله ﷺ قائلاً : « اللهم احفظه من بين يديه ومن خلفه، وعن يمينه وعن شماله، ومن فوقه من تحته » ..[3]

ويتابع حذيفة ﷺ حديثه : فذهبت فدخلت في القوم، والريح وجنود الله تفعل بهم ما تفعل، لا تُقِرّ لهم قدراً ولا ناراً ولا بناءً، فقام أبو سفيان فقال : يا معشر قريش ! لينظر امرؤ مَنْ جليسُه، قال حذيفة : فأخذت بيد الرجل الذي كان إلى جنبي فقلت : من أنت ؟ فقال : فلان ابن فلان. ثم قال أبو سفيان : يا معشر قريش ! إنكم والله ما أصبحتم بدار مقام، لقد هلك الكِراعُ والخُفّ وأخلفتنا بنو قريظة، وبلغنا عنهم الذي نكره، ولقينا من شدة الريح ما ترون ... فارتحلوا إنّي مُرتحل، ثم قام إلى جمله وهو معقول، فجلس عليه، ثم ضربه فوثب به ...، ولولا عهد رسول الله ﷺ إليّ : « ألّا تُحدث شيئاً حتى تأتيني » .. لقتلته بسهم ..[4]

ثم رجع حذيفة ﷺ إلى رسول الله ﷺ، فأخبره الخبر، فسُرَّ به سروراً شديداً، وحمد الله وأثنى عليه .. قال ﷺ : ثم أصابني البرد حين فرغت، فألبسني عباءته، فلم أزل نائماً حتى الصبح.

---

(١) هُوِيّاً من الليل : قطعة منه.

(٢) سيرة ابن هشام (ج٢/٢٣٢).

(٣) انظر: دلائل النبوة للبيهقي (ج٣/٤٠٦).

(٤) سيرة ابن هشام (ج٢/٢٣٢).

ومنذ ذلك اليوم ازدادت ثقة النبي ﷺ بحذيفة ﷺ فأفضى إليه بسرّ لم يطلع عليه أحداً من أصحابه .. لقد أخبره بأسماء المنافقين والفتن الكائنة في الأمة إلى يوم الدين .. وهاهو ذا حذيفة ﷺ يحدّث فيقول : لقد حدّثني رسول الله ﷺ ما كان وما يكون حتى تقوم الساعة.(١)

وهذا السّر الذي أُؤتمن عليه جعله يتحرّى ويسأل رسول الله ﷺ عن الشّر مخافة أن يقع فيه، فيكون من أصحاب الفتن، وهاهو ذا يحدّث عن نفسه فيقول : كان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير وكنت أسأله عن الشرّ مخافة أن يدركني.(٢)

وظلّ حذيفة ﷺ يكتم سرّ رسول الله ﷺ بعد وفاته ﷺ، وصار خبيراً بالنّفاق والمنافقين وصار مرجعاً للصحابة الكرام في كل ما يتعلّق بشؤون المنافقين .. حتى الفاروق عمر ﷺ - لشدة ورعه وخوفه من الله عزّ وجلّ - ناشده الله مرةً قائلاً : أأنا من المنافقين ؟! فقال : لا، ولا أُزكّي أحداً بعدك.(٣)

ثم عاد ليسأله : أفي عُمّالي أحد من المنافقين ؟ فيقول : نعم، واحد. فيقول : من هو ؟ يقول حذيفة : لا أذكره.(٤) لكن عمر ﷺ كأنما هُدي إليه فعزله.

ثم كان عمر ينظر إلى حذيفة - رضي الله عنهما - عند موت أحد من الناس، فإن لم يشهد جنازته لم يشهدها عمر امتثالاً لقوله تعالى: ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا ﴾.(٥)

وعندما سُئل حذيفة ﷺ عن النفاق قال : أن تتكلّم بالإسلام ولا تعمل به.(٦)

وسُئل يوماً : أي الفتن أشدّ ؟ فقال : أن يعرض عليك الخير والشرّ، فلا تدري أيهما تركب.(٧)

---

(١) تهذيب التهذيب (ج٢/٢٢٠).

(٢) انظر: حلية الأولياء (ج١/٢٧٢).

(٣) سير أعلام النبلاء (ج٢/٣٦٤).

(٤) أسد الغابة (ج١/٣٩١).

(٥) سورة التوبة (٨٤)، وانظر الخبر في الاستيعاب في معرفة الأصحاب (ج١/٢٣٥).

(٦) سير أعلام النبلاء (ج٢/٣٦٣).

(٧) انظر: الاستيعاب في معرفة الأصحاب (ج١/٣٣٥).

وكان يقول : من أحبّ منكم أن يعلم أصابته الفتنة أم لا، فلينظر؛ فإن كان يرى حراماً كان يراه حلالاً، أو يرى حلالاً كان يراه حراماً، فقد أصابته الفتنة.[1] هكذا صار ﷺ خبيراً بالنفاق وسائر الفتن، يحذر على نفسه منها ويحذّر من حوله.

ولهذا قال علي بن أبي طالب كرّم الله وجهه لمّا سُئِل عن حذيفة : عَلِم المنافقين، وسأل عن المعضلات، فإن تسألوه تجدوه بها عالماً.[2]

وتابع حذيفة ﷺ مسيرة الجهاد، فشهد موقعة نهاوند، وحمل الراية، وتابع الفتح بعد مقتل أمير الجيش النعمان بن مقرّن المزني ﷺ .. ثم ولّاه الفاروق على المدائن، وأرسل معه العهد ليقرأه على الرعيّة وفيه : اسمعوا له وأطيعوا وأعطوه ما سألكم. فلما قدم المدائن استقبله الدَّهَاقِين [3]، فلما قرأ عهده، قالوا : سلنا ما شئت، قال : أسألكم طعاماً آكله، وعلف لحماري، ما دمت فيكم.[4] وأقام بينهم ما شاء الله حتى كتب إليه عمر ﷺ : أنِ اقْدَمْ. وقدِم حذيفة فلما علم الخليفة بقدومه كمن له على الطريق في مكان لا يراه، فلما رآه على الحال التي خرج عليها من عنده سار نحوه فالتزمه وقال له : أنت أخي وأنا أخوك.[5]

وتتابعت الأيام حتى إذا دنا الأجل واقترب الرحيل ركن صاحب السرّ إلى ربه يحاسب النفس ويخشى عقاب الله .. فلما ثقل عليه مرض الموت اشتدّ خوفه من عذاب النار برغم صلاحه وشكره وورعه، وجاءه أصحابه يعودونه في ساعة السَّحَر فسألهم : أي ساعة هذه ؟ قالوا : نحن قريب من الصبح. فقال : أعوذ بالله من صباح إلى النار[6]، وهو جزِع أشدّ الجزع، يبكي بكاءً كثيراً، قالوا : ما يُبكيك ؟ قال : ما أبكي أسفاً على الدنيا بل الموت أحبّ إلي، ولكني لا أدري علامَ أُقْدَمُ .. على رضى أم على سَخَط ؟ وطلب من القوم أن يبتاعوا له كفناً، فجاؤوا بحلّة ثمنها ثلاثمئة فقال : لا، اشتروا لي ثوبين أبيضين، فإنهما لن يُترَكا عليّ إلّا

---

(١) انظر: صفة الصفوة (ج١/٢٤٩-٢٥٠).

(٢) سير أعلام النبلاء (ج٢/٣٦٣).

(٣) الدَّهَاقِين : جمع دِهْقان أي رؤساء المدن والأقاليم.

(٤) أسد الغابة (ج١/٣٩٢).

(٥) انظر: أسد الغابة (ج١/٣٩٢).

(٦) انظر: حلية الأولياء (ج١/٢٨٢).

قليلاً حتى أُبدل بهما خيراً منهما، أو أسلبهما سلباً قبيحاً.[1]

ثم اتّجه إلى ربّه مناجياً : اللهم إنك تعلم أني كنت أحبّ الفقر على الغنى، وأحبّ الذلّة على العزّ، وأحبّ الموت على الحياة، حبيب جاء على فاقة .. لا أفلح من ندم.[2]

هكذا أُسدل السّتار على حياة هذا الصحابي الجليل في السنة السادسة والثلاثين للهجرة ودُفن في المدائن رضي الله عنه وأرضاه ..

وفي ختام الكلام عن هذا الصحابي الذي كان عدو النفاق لِندعُ الله : اللهم طهّر قلبنا من النفاق .. وعملنا من الرياء .. ولساننا من الكذب ..

إنك سميعٌ مجيب.

---

(١) انظر: سير أعلام النبلاء (ج٢/٣٦٨)، والمستدرك (ج٣/٣٨٠-٣٨١).

(٢) انظر: حلية الأولياء (ج١/٢٨٢).

عُبـادةُ بنُ الصـَّامت رضي الله عنه

أتولّى الله ورسوله

عُبادةُ بنُ الصَّامت

ابن قيس بن أصْرم بن فِهْر السُلَمي الخزرجي

في سنة اثنتي عشرة من البعثة قدم إلى مكة اثنا عشر رجلاً من يثرب، فلقيهم رسول الله ﷺ عند العقبة، فبايعوه. كان فيهم رجل طويل جسيم جميل .. هو ذاك الذي نقل لنا نص البَيعة فقال : كنتُ فيمن حضر العقبة الأولى، وكنّا اثني عشر رجلاً، فبايعنا رسول الله ﷺ على بيعة النساء وذلك قبل أن تفرض الحرب، على ألّا نشرك بالله شيئاً، ولا نسرق ولا نزني، ولا نقتل أولادنا، ولا نأتي ببهتان نفتريه من بين أيدينا وأرجلنا، ولا نعصيه في معروف، فإن وفيتم فلكم الجنة وإن غشيتم من ذلك شيئاً فأمركم إلى الله عزّ وجلّ إن شاء عذب وإن شاء غفر..[1]

ذاك الرجل المبارك هو عُبَادَة بن الصامت ﷺ، وكان لقاء البيعة أول عهده برسول الله ﷺ، وآخر عهده بالجاهلية ..

وفي العام التالي كان عبادة بن الصامت ﷺ في طليعة المبايعين أيضاً، وكانت البيعة هذه المرّة مختلفة .. فإذا كانت البيعة الأولى لتثبيت عقيدة التوحيد والتوبة من كل خُلُق شائن، فإن البيعة الثانية كانت لإرساء قواعد الدولة الجديدة، وصياغة الصحابة الذين سيساهمون في بناء دولة الإسلام .. وفي هذه المرة أيضاً كان عبادة بن الصامت هو من روى نص البيعة المباركة فيقول : بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة في المنشط والمكره، وألّا ننازع الأمر أهله، وأن نقوم أو نقول بالحق حيثما كنا لا نخاف في الله لومة لائم.[2]

ثم صارت حياة عبادة ﷺ كلها تنفيذاً لبنود هاتين البيعتين .. فشهد مع رسول الله ﷺ المشاهد كلها، لم يتخلف .. وكانت حياته نصرة متواصلة للنبي ﷺ ودعوته. فبعد معركة بدر بدأ اليهود يجاهرون بالعداوة بعد أن كانت خفية، وكان بنو قينقاع أول من جاهر بالعداء ونقض العهد. ثم أوغلوا في أذى المسلمين فتوجه إليهم رسول الله بجيشه فحاصرهم في

---

(١) انظر: سيرة ابن هشام (مج١/٤٣٣).

(٢) صحيح البخاري (ج٦/٢٦٣٣).

حصونهم. وكان بنو قينقاع حلفاء عبادة بن الصامت ﷺ وعبد الله بن أُبيّ ابن سلول وكانت بينهم أحلاف ومودّات .. وكان لابد للرجلين من اتخاذ موقف صريح، فأمّا عبادة ﷺ، فلم يؤدّ بل توجه من فوره إلى النبي عليه الصلاة والسلام وقال : يا رسول الله ! أتولّى الله ورسوله ﷺ والمؤمنين، وأبرأ إليك من حلف هؤلاء الكفار وولايتهم. وأمّا عبد الله بن أبي ابن سلول فقال لعبادة مستنكراً : تبرّأت من حلف مواليك ؟! فأجاب ﷺ : أبا الحُباب ! تغيّرت القلوب، ومحا الإسلام العهود. أما ابن سلول فلم تزل في قلبه رواسب الجاهلية فرفض التخلّي عن موالاة اليهود فقال لرسول الله : إني والله امرؤ أخشى الدوائر ! فنزل قول الله تعالى في حقّ ابن سلول : ﴿ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَـٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ ۚ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَـٰدِمِينَ ﴾[1]، وظلّ مرض النفاق مبعث كلّ قول له ومسلك. وأما عبادة بن الصامت ﷺ فنزل فيه وفي كلّ من يقف بجانب الحق ويتولّى الله : ﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَـٰلِبُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾[2]

لقد أعلنت الآية أن كل من يتولّى الله فهو من حزبه، ومن انتسب لحزبه تبارك وتعالى فلن يخيب ولن ينهزم .. وكان عبادة ﷺ من هؤلاء، فاجتمعت له بذلك إلى مرتبة النقابة في قومه، مرتبة الانتساب إلى حزب الله سبحانه .. وسامان لا أقدس ولا أرقى !!

ومرت السنوات، وعبادة ﷺ مع النبي ﷺ، وصحبه الكرام في ساحات العلم والعمل والعبادة .. فإذا نادى منادي الجهاد كان في طليعة المجاهدين، وإذا استقرّ به المقام فهو مع كتاب الله يتلو ويحفظ، حتى عُدّ من أهل القرآن ومن الصحابة الذين جمعوا القرآن على عهد رسول الله. ولهذا كلفه عليه الصلاة والسلام بتعليم أهل الصُفّة القرآن[3]، فصار ﷺ ممن قال فيهم النبي عليه الصلاة والسلام : « خيركم من تعلّم القرآن وعلّمه »[4]. وقد كان حريصاً

---

(1) سورة المائدة (٥٢).

(2) سورة المائدة (٥٥-٥٦)، وانظر الخبر في سيرة ابن هشام (ج٢/٤٩).

(3) انظر : أسد الغابة (ج٣/١٠٦).

(4) سنن الترمذي (ج٥/١٥٩).

على الحفظ وعلى التدبّر، وكان كثيراً ما يسأل النبي عليه الصلاة والسلام عن الآيات الكريمات .. فقد سأل رسول الله يوماً عن قول الله عزّ وجلّ : ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾ ﴾ [1]، فقال عليه الصلاة والسلام : « ما سألني عنها أحد غيرك منذ أنزلت»، فقال : « هي الرؤيا الصالحة يراها المسلم أو تُرى له ».[2]

وبعد وفاة النبي صلوات الله وسلامه عليه بقي عبادة بن الصامت ﷺ يعيش في ظلال القرآن الوارفة، فلما فُتحت بلاد الشام أرسله عمر بن الخطاب مع معاذ بن جبل وأبي الدرداء ﷺ ليعلّموا الناس القرآن ويفقّهوهم في الدين، فأقام عبادة بحِمص .. ثم مضى إلى فلسطين حيث وَلِيَ القضاء مدة..[3]، ثم انضم إلى الجيش المسلم لفتح مصر.

وظل عبادة بن الصامت ﷺ وليّاً لله، نقيباً في حزبه، محافظاً على العهد القديم والبيعة المباركة .. لم تغب بنودها عنه، وكان من بنودها أن يقول الحقّ لا يخاف في الله لومة لائم.

فممّا ورد من أخباره في هذا المجال أنه كان يراجع معاوية بن أبي سفيان ﷺ لمّا كان يحكم الشام بأمر الخليفة عمر ﷺ مع ما كان لمعاوية من فضل الصحبة وفضل في توطيد أركان الدولة الناشئة .. وظلّ يعارضه وينصحه حتى قال له أبو هريرة : يا عبادة مالك ولمعاوية ؟ ذَرْه وما حمل، فقال عبادة : لم تكن معنا إذ بايعنا على السمع والطاعة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وألّا نأخذنا في الله لومة لائم ..[4]

لقد ظلّ عبادة ﷺ ملتزماً بنود البيعة، فلما اشتدّ الخلاف بينه وبين معاوية، أقسم ألّا يساكنه أرضاً واحدة، ثم ترك الشام وعاد إلى المدينة، فقال له عمر ﷺ : ما أقدمك ؟ فأخبره الخبر .. فقال الفاروق : ارحل إلى مكانك فقبّح الله أرضاً لست فيها وأمثالك، فامتثل الحافظ

---

(١) سورة يونس (٦٣-٦٤).

(٢) سنن الترمذي (ج٤/٤٦٣).

(٣) انظر: أسد الغابة (ج٣/١٠٦).

(٤) سير أعلام النبلاء (ج٢/١٠).

الفقيه لأمر الخليفة وعاد إلى الشام ..[1]

ولكن، وبرغم اختلاف وجهات النظر بين الاثنين، فإن معاوية لم يَحْمَط حق عبادة، رضي الله عنهما .. فقد قام يوماً على المنبر بعد صلاة العصر فقال للناس : الحديث كما حدثني عبادة فاقتبسوا منه، فهو أفقه مني .[2] تلك آثار تربية رسول الله ﷺ لصحبه الكرام .. أكرِمْ بها من تربية !!

وكان آخر جهاده ﷺ يوم خرج في خلافة عثمان ﷺ مع زوجه أم حرام، رضي الله عنهما، مع أول جيش إسلامي يغزو البحر، لفتح جزيرة قبرص التي كانت قاعدة للروم .. وكتب الله للمسلمين فيها النصر المبين.[3]

وفي أرض الرملة بفلسطين، سنة أربع وثلاثين، ودّع الناس عبادة بن الصامت ﷺ الوداع الأخير ..

وهناك تحت ثرى بيت المقدس يرقد النقيب ذو البيعتين الذي ما بدّل ولا غيّر مذ ضرب بيده على يد النبي عليه الصلاة والسلام مبايعاً إياه على الإسلام.[4]

رحم الله عبادة .. ورحم الله الصحابة .. وكل من أدرك أن الحياة مبايعة، ثم جهاد لا ينقطع حتى يلقى الله ..

---

(١) سير أعلام النبلاء (ج٢/٧).

(٢) انظر: الإصابة في تمييز الصحابة (ج٢/٢٦٩).

(٣) انظر: صحيح البخاري (ج٣/١٠٣١).

(٤) انظر: الاستيعاب في معرفة الأصحاب (ج٢/٨٠٨).

سعدُ بنُ الرَّبيع رضي الله عنه

نصح لله والرسول ﷺ حياً ومَيْتاً

سَعدُ بنُ الرَّبيع

ابن عَمْرِو بن أبي زهير بن مالك الحارثي الخزرجي

لم يكتب الله لسَعْد في الإسلام عمراً طويلاً .. لكنه كتب له فيه حياة مشرقة بالمواقف التي تشبه النجوم في الليل البهيم.

كانت بداياته في العقبة .. وكان بين الأنصار الثلاثة والسبعين الذين بايعوا الرسول ﷺ بيعة العقبة الثانية، وأحد الاثني عشر نقيباً الذين اختارهم المبايعون في ذلك الموقف بأمر من رسول الله ﷺ.

في ذلك اليوم قام هؤلاء النقباء وفيهم سعد بن الربيع ﷺ .. كلٌّ يكفل قومه ككفالة الحواريين لعيسى ابن مريم، عليه السلام، ثم رجعوا إلى المدينة جاعلين حياتهم تُرْجُماناً لمضمون البيعة وبنودها وشاهداً على صدق ولائهم وحبهم للرسول عليه الصلاة والسلام.

فلما أذن الله سبحانه لرسوله الكريم بالهجرة إلى المدينة، وقف عليه الصلاة والسلام بين المهاجرين والأنصار قائلاً : « تآخوا في الله أخوين أخوين » ..

ولننظر الآن إلى إحدى مشاهد ذلك الإخاء الكريم : آخى عليه الصلاة والسلام بين عبد الرحمن بن عوف وبين سعد بن الربيع، رضي الله عنهما، فقال سعد لعبد الرحمن: إني أكثر الأنصار مالاً، فأقسم لك نصف مالي، وانظر أي زوجتيّ هَوِيتَ نزلتُ لك عنها، فإذا حلّت تزوّجْتها ! .. فقال عبد الرحمن : لا والله. وقد رُوي أن سعداً عرض عليه أن يشاطره حديقته فقال : هلمّ إلى حديقتي أشاطِرْكَها، فقال عبد الرحمن : لا، بارك الله لك في أهلك ومالك، دلّوني على السوق، فدلّه سعد .. وانطلق عبد الرحمن بن عوف يعمل ..[1]

تُرانا نعجب من عطاء سعد ﷺ الذي يفوق التصور .. أم نعجب من عفة عبد الرحمن ابن عوف وعدم تواكله رضي الله عنه ؟!. وإنها لواحدة من أحبار كرم الأنصار ومواساتهم للمهاجرين وإيثارهم إياهم .. حتى خشي المهاجرون أن يذهب الأنصار بالثواب دونهم

---

(١) انظر: صحيح البخاري (ج٢/٧٢٢)، وطبقات ابن سعد (ج٣/٥٢٣).

تقدموا على رسول الله ﷺ قائلين : يا رسول الله ! ما رأينا قوماً أبذل من كثير ولا أحسن مواساة من قليل، من قوم نزلنا بين أظهرهم، لقد كفونا المؤنة وأشركونا في المهنأ حتى لقد خفنا أن يذهبوا بالأجر كله .. فقال ﷺ : « لا ما دعوتم الله لهم وأثنيتم عليهم » ..[1] ولقد امتدح الله سبحانه صنيع هؤلاء فقال عزّ من قائل: ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾[2].

وتتابع أخبار جهاد النقيب الميمون سعد بن الربيع ﷺ .. وإنه لجهاد مبارك رغم قصره. ففي بدر كان سعد مع المجاهدين، أبلى فيها البلاء الحسن ثم رجع سالماً غانماً.

فلما كانت أُحُد .. ختم الله له عمره بالشهادة وبمشهد الحب العظيم لرسول الله ﷺ والثبات على المبدأ حتى آخر رمق. ذلك المشهد الذي تحتاج الأجيال المسلمة جميعاً أن تتقنه؛ ليكون أمر رسول الله والعقيدة أجلّ الأمور في حياتنا .. عليه نحيا وعليه نموت.

فحين انتهت المعركة راح النبي ﷺ يتفقّد أصحابه ويقول : « من رجل ينظر لي ما فعل سعد بن الربيع أفي الأحياء هو أم في الأموات ؟ فإني قد رأيته وقد شرع فيه اثنا عشر سِناناً »، فقال رجل من الأنصار : أنا أنظر لك يا رسول الله ما فعل سعد، قال ﷺ : « فإن رأيته فأقرئه مني السلام، وقل له يقول لك رسول الله كيف تَجِدُك ؟ »، فذهب الرجل يبحث بين شهداء المسلمين عن سعد فلم يجده فنادى : يا سعد بن الربيع ! فلم يجبه أحد، فنادى ثانية : إن رسول الله أرسلني إليك، فأجابه سعد بصوت ضعيف : أنا في الأموات، وأحدني أحد ربح الجنّة، فأبلغ رسول الله ﷺ عني السلام، وقل له : جزاك الله عنا خير ما جزى نبياً عن أمته، وأبلغ قومك عني السلام وقل لهم : إن سعد بن الربيع يقول لكم : إنه لا عذر لكم عند الله أن يُخلَص إلى رسول الله ﷺ ومنكم عين تطرف. قال الرجل : فلم أبرح حتى فاضت نفسه، فجئت رسول الله ﷺ فأخبرته، فقال : « رحمه الله، نصح لله ورسوله حيّاً وميتاً ». ثم استقبل القبلة ورفع يديه يقول : « اللهم ! إلقَ سعد بن الربيع وأنت عنه راض » ..[3]

---

(١) سنن الترمذي (ج٤/٥٦٣).

(٢) سورة الحشر (٩).

(٣) انظر: سيرة ابن هشام (ج٢/٩٤-٩٥).

تلك هي وصية سعد ﷺ الأخيرة التي ختم بها حياته المباركة، ولعلّ القارئ يدرك سرّ هذا الوفاء العجيب الفريد لسيد الوفاء النبي عليه الصلاة والسلام .. فسعد قد تربّى على يد الرسول ﷺ رسول الرحمة الذي كان يحنو على أصحابه في كلّ موقف، حتى في أُحُد حين هجمت عليه الهموم والآلام في ذلك اليوم العصيب، وفاض قلبه حسرةً وألماً لِما حلّ بعمه حمزة ﷺ.

وظلّ الصحابة الكرام يذكرون سعد بن الربيع ﷺ بكل خير وإكبار .. فهاهي ذي فتاة تدخل على الخليفة الصدّيق ﷺ فيُلقي لها ثوبه كي تجلس عليه إكراماً لها .. فيدخل عمر ﷺ ويرى ذلك فيسأل : يا خليفة رسول الله ﷺ من هذه ؟ فيقول الخليفة : هذه بنت من هو خير مني ومنك .. رجل قُبض على عهد رسول الله ﷺ تبوّأ مقعده في الجنة وبقيت أنا وأنت !!.[1]

رحم الله سعد بن الربيع من نصح لله ورسوله حيّاً وميتاً ..

---

(١) انظر: المستدرك (ج٣/٦٠٧).

عَبْدُ اللهِ بنُ رَوَاحَة رضي الله عنه

الشاعرُ المجاهد

عبدُ اللهِ بنُ رَوَاحَة

ابن ثعلبة الخزرجي

هل أكرمك الله بأخ في الله صادق، يسألك عن صلاة ليلك وأذكارك ؟! وإذا دعاك يوماً فإلى فضيلة وعلم وجهاد وذكر لله .. هل ضمّك معه يوماً مجلس علم تحفّه الملائكة وتغشاه الرحمة وتنزل فيه السكينة ليذكركما الله فيمن عنده .. وإذا ذكرت مناقب أخيك هل تقول عنه كما كان أبو الدرداء ﷺ يقول عن عبد الله بن رواحة :

أعوذ بالله أن يأتي عليّ يوم لا أذكر فيه عبد الله بن رواحة، كان إذا لقيني مقبلاً ضرب بين ثديي، وإذا لقيني مدبراً ضرب بين كتفي ثم يقول : يا عُويمر اجلس فلنؤمن ساعة، فنجلس فنذكر الله ما شاء، ثم يقول : يا عويمر هذه مجالس الإيمان ..[1]

وهل يمتلكك الحياء إذا قصّرت في عمل ما ؟؟ فترفع يديك تدعو الله كدعاء أبي الدّرداء : اللهم إني أعوذ بك أن تعرض على أخي عبد الله بن رواحة من عملي ما يستحي منه.

وهل صفحات حياة أخيك واضحة عظيمة الإشراق مليئة بالإيمان والطاعة والجهاد والعبادة ؟؟ كصفحات حياة ابن رواحة الذي تعدّدت فيه شهادات النبي ﷺ فقد قال فيه مرة « نِعم الرجل عبد الله بن رواحة »[2]، وقال مرّة أخرى : « رحم الله أخي عبدَ الله بن رواحة كان أينما أدركته الصلاة أناخ ».[3]

وكذلك تعدّدت شهادات الصحابة في عبد الله بن رواحة رضي الله عنهم أجمعين، فهذه زوجُه وأقرب الناس إليه تشهد له أنه إذا أراد أن يخرج من بيته صلّى ركعتين، وإذا دخل بيته صلّى ركعتين، لا يدع ذلك، وهذا أبو الدّرداء يقول : لقد رأيتنا مع رسول الله ﷺ في بعض أسفاره في يوم شديد الحرّ وما فينا صائم إلّا رسول الله ﷺ وعبد الله بن رواحة ..

---

(١) أسد الغابة (ج٣/١٥٧).

(٢) الإصابة في تمييز الصحابة (ج٢/٣٠٦).

(٣) مجمع الزوائد (ج٩/٣١٦).

أقبل يا ابن رواحة .. حدِّثنا عن عمرك المبارك .. أقبل يا نقيب الخزرج .. يا شاعر الإسلام .. يا أمير مُؤتة ..

الموعد ليلاً في أحَد شِعاب مكة .. مع ثلاثة وسبعين من الأنصار، هاهم أولاء يلتقون النبي ﷺ فيبادرون إلى القول : تكلّم يا رسول الله فخذ لنفسك ولربك ما أحببت ..

فيقول رسول الله ﷺ : « تبايعوني على السّمع والطّاعة في النّشاط والكسل، والنّفقة في العُسر واليُسر، وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأن تقولوا في الله لا تخافون في الله لومة لائم، وعلى أن تنصروني؛ فتمنعوني إذا قدمت عليكم مما تمنعون منه أنفسكم وأزواجكم وأبناءكم، ولكم الجنّة ».[1]

فكان السمع والطاعة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وقول الحق والنصرة والمنعة أول الألمان لجنة الخلد قدّمه عبد الله بن رواحة مع أصحابه في معاهدة مباركة سُمّيت ببَيعة العقبة الثانية، الشّاهد عليها هو الله عز وجل ..

هناك وقف رسول الله ﷺ ونادى فيهم : « أخرجوا إليّ منكم اثني عشر نقيباً ليكونوا على قومهم بما فيهم »، فكان اختيار النبي ﷺ للنُّقباء أوّل تنظيم إداري عملي للدولة الإسلامية الوليدة .. تنظيمٍ للحركة والاتّصال بين أفراد المجتمع الجديد ومسؤوليه، وقال ﷺ للنّقبـــاء : « أنتم على قومكم بما فيهم كُفلاء، ككفالة الحواريين لعيسى ابن مريم، وأنا كفيلٌ على قومي ». وما النّقابات في عصرنا اليوم إلّا اقتباس من النّقابة التي ابتكرها نبيّنا عليه أفضل الصلاة والسلام .. ونقابة (الأنصار) التي كان عبد الله بن رواحة نقيباً فيها عن بني الحارث، كانت أوّل نقابة في الإسلام.[2]

عاد عبد الله بن رواحة ﷺ إلى المدينة المنورة مؤمناً بالله ورسوله، ليبدأ مسيرة الدعوة إلى الله والدفاع عن الإسلام بمواقفه وشِعره وسِنانه، متربّصاً بأعداء الإسلام من المشركين والمنافقين الذين كانوا يكيدون للنبي ﷺ ودعوته؛ كان النبي ﷺ قد هاجر إلى المدينة بُعيد عودة

---

(١) مسند الإمام أحمد (ج٣/٢٢٢)، وانظر خبر البيعة في سيرة ابن هشام (مج١/٤٥٤).

(٢) انظر: سيرة ابن هشام (مج١/٤٤٣-٤٤٦).

الأنصار المبايعين، فمرَّ ذات مرة بعبد الله بن أُبي ابن سلول زعيم المنافقين .. فنزل ﷺ عن دابته فسلّم ثم جلس قليلاً، فتلا القرآن، ودعا إلى الله عزّ وجلّ، وذكّر بالله وحذّر، وبشّر وأنذر، وابن سلول صامت لا يتكلّم .. حتى إذا فرغ ﷺ من مقالته، قال عبد الله بن أُبي ابن سلول مستهزئاً : يا هذا إنّه لا أحسن من حديثك هذا إن كان حقاً، فاجلس في بيتك فمن جاءك له فحدّثه إيّاه، ومن لم يأتك فلا تَغُثّه[1] به، ولا تأته في مجلسه بما يكره منه.

فانتفض عبد الله بن رواحة ﷺ قائلاً لرسول الله : بلى فاغْشَنا به، وائتنا في مجالسنا ودورنا وبيوتنا، فهو والله مما نحبّ، ومما أكرمنا الله به وهدانا له ..[2]

مثل هذا الموقف يُعرّفك شخص ابن رواحة الذي كان لا يملك إلّا أن يُعبّر عمّا في قلبه من خواطر ومشاعر. ولعلّ الانفعالية الصادقة والتّعبير البليغ أبرز ما يُميّز شخصيته ﷺ، ولا عجب، فهو المؤمن الشّاعر بل هو أحد الشّعراء الثّلاثة الكبار الذين اتخذهم الرسول ﷺ للذّود عن الإسلام وهجو أعدائه .. وهم حسّان بن ثابت، وعبد الله بن رواحة، وكعب بن مالك، رضي الله عنهم أجمعين.

ففي السنة السّابعة للهجرة استعدّ النبي ﷺ لعمرة القضاء .. وكان عبد الله بن رواحة ﷺ فيمن أحرم .. آخذاً بزِمام راحلة النبي ﷺ يطوف معه حول الكعبة المشرفة .. كأنه السائق الخاص لموكب النبي ﷺ المتواضع المهيب !! .. فراح يرتجز[3] منبّهاً من حوله ليفسحوا الطريق للموكب الجليل ومعيّراً المشركين بشركهم :

خلّوا بني الكفار عن سبيلِـه ... خلّوا فكلُّ الخير في رسولِه

يـا ربِّ إني مؤمن بقيلِـــه[4] ... أعرف حقّ الله في قَبولِـه

نحن قتلناكم على تأويلِـــه ... كما قتلناكم على تنزيلِـــه

---

(١) غَثّهُ بالكلام : أشقاه وأتعبه.

(٢) انظر: سيرة ابن هشام (مج١/٥٨٧).

(٣) يرتجز : يقول شعراً من بحر (الرّجز).

(٤) بقَوْله.

ضرباً يزيل الهام[1] عن مَقيلِه ... ويذهل الخليلَ عن خليلـــه ..[2]

فنهره عمر ﷺ قائلاً : يا ابن رواحة ! بين يدي رسول الله ﷺ وفي حرم الله تقول الشعر ؟ فقال النبي ﷺ : « خلِّ عنه يا عمر، فَلَهِيَ أسرع فيهم من نضح النبل » ..[3]

ولم يكن قول عمر ﷺ إلّا بدافع الأدب الجمّ بين يدي النبي ﷺ، ومهابة للبيت وتعظيماً، أمّا ردّ النبي ﷺ فكان إعلاناً عن مشروعية الجهاد باللسان وأهميته .. فليست الحرب دوماً إشهار سيف وبندقية، بل إن الكلمات الصادقة المنبعثة من عقيدة ناصعة ـ كشعر ابن رواحة ـ لأشدُّ وقعاً في قلوب الأعداء من النِّبال الحادّة .. ونُصرة الإسلام تستوجب بذل كل الطاقات والمواهب فالله سبحانه وتعالى يقول: ﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ ﴾[4]، والمؤمن الحقّ يبذل كل ما أوتي لخدمة دينه ..

ولقد كان رسول الله ﷺ خير من يُوظّف مواهب الرجال فقد كان يبحث عن ابن رواحة ﷺ كلما اقتضى الحال .. ويبدو أن ابن رواحة كان يحسن إلقاء الكلام ويجيده فقد قال له عقب العمرة : « يا ابن رواحة ! قُل : لا إله إلّا الله وحده، نصر عبده، وأعزّ جنده، وهزم الأحزاب وحده » .. فقالها عبد الله بن رواحة، وقالها الناس من خلفه كما قال .. ولا زال هذا الشِّعار الخالد يرافقنا في كل حج وفتح ونصر ..

ويُروى أيضاً أن النبي ﷺ قال له مرّة : « انزل فحرِّك بنا الرِّكاب[5] » .. فقـــال عبد الله : يا رسول الله إني قد تركت قولي ذلك، فقال له عمر : اسمع وأطِع .. فارتجز قائلاً :

يا ربّ لولا أنت ما اهتدينا ... ولا تصدّقنا ولا صلّينـا

فأنزلنْ سكينة علينـــــا ... وثبّتِ الأقدام إن لاقينا

إنّ الكفار قد بَغَوا علينـا

---

(١) الهامة : الرأس.

(٢) انظر: سيرة ابن هشام (مج٢/٣٧١).

(٣) انظر: سيرة ابن هشام (مج٢/٣٧١)، وابن سعد (ج٢/١٢١).

(٤) سورة الأنفال (٦٠).

(٥) أي يُريد منه أن يقول شعراً يحرك به الركاب.

ثم جاء من زاد فيه بعد ذلك : وإن أرادوا فتنة أبينا، فسُرّ النبي ﷺ وقال : « اللهم ارحمه »، فقال عمر ﷺ : وَجَبَتْ.[1]

لقد كانت حياة عبد الله بن رواحة ﷺ في كَنَف رسول الله ﷺ مُتألّقة بالصّدق حيّاشة بالمشاعر. أينما أدركته حاجة الدين إليه أناخ .. فمِنْ نقيب الخزرج .. إلى شاعر الإسلام .. إلى مُجاهد في سبيل الله .. إلى خارِص[2] على أهل خيبر ..

ذلك أن رسول الله ﷺ اختاره من بين الصحابة ليأتي كل موسم إلى يهود خيبر بعد فتحها، فيخرص عليهم ثم يضمّنهم الشطر، فاشتدّ خرصه عليهم وأرادوا أن يرشوه فقال عبد الله ﷺ : يا معشر يهود ! والله إنكم لَمِن أبغض خلق الله إليّ، وما ذلك بحاملي على أن أحيف عليكم، فأما الذي عرضتم من الرشوة فإنها سُحْت[3]، وإنّا لا نأكلها.

فما استطاع اليهود أن يجيبوا، وهم يسمعون هذا المنطق الرائع، والإيمان الصلب، إلّا بجملة واحدة : بهذا قامت السماوات والأرض ! ..[4]

ولا عجب أن يكون ابن رواحة ﷺ وَرِعاً، وهو العابد الخاشع الذي شهد له نبيّه الكريم ﷺ بذلك وشهد له أهله وأصحابه .. وهو الذي بكى لما سمع الرسول عليه الصلاة والسلام يتلو قوله تعالى: ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴾[5]، ويقول : لا أدري أأنجو منها أم لا ؟! لست أدري كيف لي بالصدر بعد الورود ؟! .. فبرغم جهاده المتواصل، وبرغم صُحبته المباركة ظلّ الخوف مِن الله يسكّن قلبه، وذلك حال المؤمن، وهكذا كان الصحابة الكرام جميعاً.

وجاءت السنة الثامنة للهجرة وشارفت رحلة ابن رواحة ﷺ في الحياة على الانتهاء، وقدّر المولى عزّ وجلّ لابن رواحة نهايـــة تليق بمُجاهد صادق ما ادّخر وسعاً في نُصرة دينه.

---

(١) انظر: طبقات ابن سعد (ج٣/٥٢٧). أي وجبت له الرحمة بدعاء النبي عليه الصلاة والسلام.

(٢) خارِص النخل: هو الذي يخزر ما عليه من الرطب تمراً.

(٣) السُّحت : الحرام.

(٤) أي بالعدل، انظر: سنن البيهقي (ج٤/١٢٢). وأخرجه الإمام مالك في الموطأ.

(٥) سورة مريم (٧١)، والمقصود جهنّم.

فقد اختاره النبي عليه الصلاة والسلام ثالث الأمراء الثلاثة الذين عيَّنهم على جيش المسلمين الذي توجّه للقاء الروم في مُؤتة [1] أولِ لقاء بين المسلمين والرُّوم ..

وأمّر الرسول ﷺ على الجيش مولاه زيد بن حارثة وقال : « إن أُصيب زيد فجعفر بن أبي طالب على الناس، فإن أُصيب جعفر فعبد الله بن رواحة على الناس، فإن قتل فليرتض المسلمون بينهم رجلاً فليجعلوه عليهم ».

ولما تهيّأ الجيش للخروج ودّع الناس أُمراء الرسول ﷺ قائلين : صحبكم الله ودفع عنكم، وردّكم إلينا صالحين، وأقبل عبد الله بن رواحة ﷺ على رسول الله ﷺ يودّعه ويبكي منشداً:

أنت الرسول فمن يُحرم نوافلَه ... والوحةَ منه فقد أزرى به القـــدر
فثبّت الله ما آتاك من حَسَـــنٍ ... تثبيتَ موسى ونصراً كالذي نُصِرا
إني تفرّست فيك الخير نافلـــة ... فراسة خالفتْ فيك الذي نـــظروا

فلما سمع ذلك رسول الله ﷺ قال له : « وأنت فثبّتك الله يا ابن رواحة ». [2]

وخرج الرسول ﷺ مُشيعـاً الجيش حتى بلغ ثنية الوداع، فوقف وودّعهم ثم قـال : « أُوصيكم بتقوى الله وبمن معكم من المسلمين خيراً، اغزوا باسم الله، فقاتلوا عدوّ الله وعدوّكم بالشام، وستجدون فيها رجالاً في الصوامع معتزلين فلا تعرضوا لهم، وستجدون آخرين للشيطان في رؤوسهم مفاحِص[3] فافلقوها بالسيوف، ولا تقتلوا امرأة، ولا صغيراً ضَرَعاً، ولا كبيراً فانياً، ولا تقطعُنَّ شجرة، ولا تعقرُن نخلاً، ولا تهدّموا بيتاً ... »[4]، تلك هي تربية الرسول القائد ﷺ لجنده الأبرار، وتلك هي آداب الحرب في الإسلام [5] ..

---

(١) تقدم خبر مؤتة عند حديثنا عن الصحابيين الجليلين زيد بن حارثة وجعفر بن أبي طالب، رضي الله عنهما.

(٢) انظر: سيرة ابن هشام (مج٢/٣٧٣-٣٧٤).

(٣) أي إن الشيطان قد استوطن رؤوسهم فجعلها له مفاحص، وكانوا إذا وصفوا إنساناً بشدة العمّ والانهماك في الشرّ قالوا : قد فرّخ الشيطان في رأسه وعشّش في قلبه.

(٤) انظر: سنن البيهقي (ج٩/٩١).

(٥) ولنقارن بين ما أوجب الإسلام على أتباعه في حروبهم وبين ما يفعله غير المسلمين فيها قديماً وحديثاً من جرائم وحشية.

وسار الجيش على بركة الله، وسمع العدوّ بمسيرهم، فأعدّوا لهم جيشاً عظيماً فيه أكثر من مئة ألف مقاتل ! .. فدبّ الرّعب في قلوب المسلمين واضطربت صفوف الجند، واختلفت الآراء .. هل يكتبون لرسول الله ﷺ يخبرونه بذلك، فإما أن يمدّهم بالرجال أو يأمرهم بأمره فيمضون إليه .. فالحرب ليست متكافئة لا عِدةً ولا عتاداً فكيف لثلاثة آلاف رجل أن ينتصروا على مئة ألف أو أكثر ؟!! ..

هنالك قام عبد الله بن رواحة ﷺ لِينقذ الجند من حيرتهم ويُذكّرهم كيف يأتي النصر من عند الله .. فقال : يا قوم ! والله إنّ التي تكرهون لَلتي خرجتم تطلبون؛ الشهادة، وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة، ما نقاتلهم إلّا بهذا الدين الذي أكرمنا الله به، فانطلقوا فإنما هي إحدى الحسنيين، إما ظهور وإما شهادة ..[1]

إنه الإيمان الذي يصنع المعجزات .. والثقة المطلقة بوعد الله القائل: ﴿ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾[2].. وَسَرَت كلمات عبد الله المفعمة بالحماسة والثقة بالله إلى قلوب الجند فصاحوا : قد والله صدق ابن رواحة.

ومضى جيش الأمراء بهمّة عالية وإيمان قوي إلى أرض العدو واندلعت الحرب، وقاتل الأمراء الثلاثة .. ثم نزل أمير الجيش وحِب رسول الله زيد بن حارثة ﷺ عن فرسه وظل يقاتل حتى سقط شهيداً .. فتلقّى اللواء ابن عم النبي ﷺ جعفر ﷺ، ولم يلبث أن نزل عن صهوة الجواد ومضى يقاتل حتى لحق بزيد .. وجاء دور ابن رواحة ﷺ، ثالث القادة، فأخذ اللواء وتقدّم به وهو على فرسه، وكانت ضراوة المعركة قد بلغت كلّ مبلغ. ووسط لهيب المعركة، وأمام منظر الجيوش الجرّارة التي ملأت المكان وسدّت الأفق تردّد البطل لحظات قبل النزول عن فرسه .. فأخذ يستنزل نفسه قائلاً :

أقسمتُ يا نفسُ لَتَنْزِلَنَّـــه ... لتنزِلِنَّ أو لَتُكْرَهِنَّـــه
إن أجلب الناس وشدُّوا الرَّنَّه[3] ... ما لي أراك تكرهين الجنّة

---

(١) انظر: سيرة ابن هشام (مج٢/٣٧٥). والظهور : النصر.
(٢) سورة محمّد (٧).
(٣) أجلب القوم : صاحوا واجتمعوا. والرنة : صوت ترجيع يشبه البكاء.

ثم أخذ ينظر إلى الأميرين زيد وجعفر، رضي الله عنهما، على أرض المعركة ويقول :

يا نفسُ إلّا تُقتلي تموتي ... هذا حِمامُ الموتِ قد صَلِيتِ
وما تمنّيتِ فقد أُعطيـت ... إن تفعـلي فعلهـما هُديت

ثم نزل عن فرَسِه ومضى ليقاتل .. فأتاه ابن عم له بعَرْق[1] من لحم وقال له : شُدَّ بهذا صلبك، فإنك قد لقيت في أيامك هذه ما لقيت، فما انتهس منه نَهْسة[2] حتى سمع الحَطْمة[3] فقال : وأنتِ في الدنيا ؟ ـ مخاطباً نفسه ـ ثم ألقاه من يده وأخذ يقاتل حتى سقط شهيداً ..[4] ودفن المسلمون يومئذ الأمراء الثلاثة في حفرة واحدة ..

فهنيئاً يا ابن رواحة .. يا مَنْ قلت وأنت تودّع المسلمين في المدينة :

لكنني أسـأل الرحمن مغفـرة ... وضربة ذات فَرغ[5] تقذفُ الزَّبَدا
أو طعنةً بيدَيْ حَرّانَ مُجهِـزة[6] ... بحربةٍ تنفذ الأحشـاءَ والكَبِـدا
حتى يُقال إذا مرّوا على جَدَثي[7] ... أرشده الله من غازٍ وقد رَشَـدا

فها قد صدقك الله .. ورشدت حقاً ..

أما أرض مؤتة المنبسطة فقد رُفعت للنبي ﷺ وهو واقف على منبره .. ينظر إلى معترك القوم وقد كشف الله له من ستور الغيب شيئاً، فراح يصف لأهل المدينة وقائع الحرب الدامية وينعي لهم أمراء الجيش واحداً تلو الآخر ..

وقال عليه الصلاة والسلام : « لقد رُفعوا إليّ في الجنّة، فيما يرى النائم، على سُرر من ذهب، فرأيت في سرير عبد الله بن رواحة ازوراراً عن سريري صاحبيه، فقلت : بمَ هذا ؟

---

(١) العَرْق : العظم إذا أُخذ منه مُعظم اللحم.
(٢) النهْس : أن يأخذ اللحم بأسنانه وينتفه للأكل.
(٣) الحَطْمة : تزاحم الناس حتى يؤذي بعضهم بعضاً.
(٤) انظر: سيرة ابن هشام (مج٢/٣٧٨-٣٧٩).
(٥) الفَرغ : الواسعة يسيل دمها.
(٦) مُجْهِزَة : سريعة القتل.
(٧) جَدَثي : قبري.

فقيل لي : مَضَيَا وتردّد عبد الله بن رواحة بعض التردّد ومضى ».[1]

تردّد ثم مضى، رضي الله عنه وأرضاه .. وما يضيع عند الله شيء ! .. إنه ميزان الله الذي يزن الأمور بمثقال الذرة: ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝ ﴾[2] ..

رحم الله شاعر الرسول .. أمير مُؤتة ..

من كان درساً عميقاً في حياته وفي مماته ..

---

(١) مجمع الزوائد (ج٦/١٦٠)، وانظر: سيرة ابن هشام (مج٢/٣٨٠).

(٢) سورة الزلزلة (٧-٨).

نُسَيْبَة بِنْتُ كَعْب رضي الله عنها

المُدافعةُ عن رسول الله ﷺ

نُسَيْبَة بنتُ كَعْب المازنية النجارية الخزرجية

مَن هذه المرأة الكريمة التي كانت يوم بيعة العقبة ويوم الحديبية من المبايعين ..

مَن هذه التي ثَبَتَتْ يوم أُحُد ويوم حنين مع الثابتين ..

مَن هذه التي كانت في خيبرَ مع المسلمين عندما دكوا حصون يهود ..

مَن هذه التي شهدت الفتح الأعظم للبلد الأمين ..

مَن هذه التي كانت في اليمامة مع الجيوش التي قاتلت المرتدّين ..

إنها أم عُمارة نُسَيْبَة بنت كعب المازنية الأنصارية التي حضرت المشاهد كلها، وعلّمت الناس كيف أن الإسلام كرّم المرأة إذ جعلها صِنْوَ الرجل في ميادين المكرمات، وخاطبها والرجل خطاباً موحّداً بقوله سبحانه: ﴿ وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ﴾[1].

نسيبة هذه .. امرأة كريمة من يثرب من بني النجار أخوال عبد المطلب جد رسول الله ﷺ. بدأت مسيرتها الكريمة يوم انطلقت مع زوجها زيد بن عاصم، وولديْها، وأختها إلى مكة لتقف مع المبايعين في العقبة الثانية، يعرضون على رسول الله المَنَعَة، ويفتحون له قلوبهم وديارهم، ويبذلون له دماءهم وأموالهم. وقفت مع الذين جاؤوا سفراء عن قومهم لإيواء النبي ﷺ ودعوته في وقت كان فيه أحوج ما يكون إلى النصير، ولذلك سُمّوا بالأنصار .. وقال لهم عليه الصلاة والسلام : « الدم الدم والهدم الهدم .. أنا منكم وأنتم مني، أُسالم من سالمتم وأُعادي من عاديتم ».[2]

وبإبرام هذا العقد تمّ بناء الأساس الذي ستُقام عليه دولة الإسلام الأولى، وسُميت هذه البيعة بيعة الحرب، لأنها تضمّنت الدفاع عن هذه الدولة ضد أي عدوان يُهدّد أمنها وسلامتها ووجودها.

---

(١) سورة المطففين (٢٦).

(٢) مسند الإمام أحمد (ج٣/٤٦١). ومعنى الدم الدم والهدم الهدم : ذمتي ذمتكم وحرمتي حرمتكم.

عاد الأنصار إلى المدينة، وعادت معهم نسيبة، رضي الله عنها، فلم تنس بيعتها، بل عاشت حياتها وجهادها الطويل في رحاب تلك البيعة. ولم يلبث رسول الله ﷺ أن هاجر إلى المدينة، وفُتحت له البيوت كلها، وفي مقدّمتها دور بني النجار، قوم نسيبة، وفي بيت أبي أيوب ﷺ كانت إقامته الأولى. وقد برز اسمهم في تاريخ السيرة منذ استقبلوا النبي ﷺ في بيوتهم، شاكرين الله على هذا التشريف والاصطفاء.

سعدت أم عمارة، رضي الله عنها، مع أسرتها بتعاليم الإسلام، وأشرق بيتها بأنواره، فهي ابنة هذا الدين العظيم البارة به. وظلّ الجهاد محوراً في حياة الأسرة المبايعة، وكانت نسيبة وقود حماستها واندفاعها لفداء الدين بكل غال ونفيس. وقد سجّل لها التاريخ حضوراً متميّزاً لاسيّما بين نساء المسلمين، فلم تألُ جُهداً في التّعليم والتّوعية وبعث الهمم لخدمة الدعوة ..

كذلك سُجل لها حضورٌ مشكورٌ لأحداث الإسلام .. فحين خرج المسلمون إلى أُحُد لقاء المشركين، خرجت نسيبة، رضي الله عنها، مع ثُلّة من المسلمات يحملن الماء والطعام ويقمن على خدمة المجاهدين ورعاية الجرحى والمصابين. فلما انقلب النصر هزيمة، وتشتت الصفوف واستولى الذّعر على المقاتلين ففرّ منهم من فرّ، ثَبَتَتْ رضي الله عنها وراحت تقاتل دون رسول الله .. فقد خلص المشركون إليه ﷺ، ورُمي فسال الدم على وجهه الشريف .. حتى وصل إليه نفر من الصحابة، فأقاموا حوله سياجاً من أجسادهم وسلاحهم، واستماتوا في حمايته، كلّهم يجيء حتى يقف بين يديه ويقول : وجهي لوجهك الوقاء، ونفسي لنفسك الفداء .. ومع هؤلاء كانت نسيبة بنت كعب رضي الله عنها التي حملت سيفها وأخذت تدافع عن رسول الله ﷺ حتى أصيبت ذراعها بجراح بليغة.[1] وجُرح ابنها عبد الله ونزف دمه غزيراً، فسارعت الأم المجاهدة إليه فضمّدت جرحه وقالت له : انهض بنيَّ فضارب القوم، ورسول الله يرى ويسمع، فقال عليه الصلاة والسلام : « ومن يطيق ما تطيقين يا أمّ عمارة ؟ ».[2] ثم نظر إلى أفراد الأسرة المباركة المجاهدة يحيطون به ويدافعون عنه ويفدونه بأنفسهم فقال :

---

(1) انظر: الإصابة في تمييز الصحابة (ج٤/٤١٨).

(2) انظر: طبقات ابن سعد (ج٨/٤١٤).

« بارك الله عليكم من أهل بيت ».[1]

كانت نسيبة، رضي الله عنها، وهي تلقي بنفسها وبأعزّ الناس لديها إلى الموت تضمر أمنيّة واحدة : أن يمنّ الله عليها وعلى أسرتها بصحبة النبي ﷺ في الآخرة كما صحبوه في الدنيا .. وفي لحظات لا يعرف المرء فيها إلى أين المصير، وهل تُكتب له النجاة، وقد حمي الوطيس واحمرّت الحَدَق وأحاط المشركون بالمسلمين هتفت نسيبة تخاطب النبي عليه الصلاة والسلام : ادعُ الله أن نرافقك في الجنة .. فقال رسول رب العالمين : « اللهم اجعلهم رفقائي في الجنة ». قالت نسيبة وهي تعاني آلام جراحها وجراح ولدها : ما أُبالي ما أصابني من الدنيا.[2]

وخرجت نسيبة، رضي الله عنها، من المعركة، ومضت السّنة، وتتالت الأحداث .. فلما كانت السّنة السّادسة للهجرة، خرج المسلمون لأداء العمرة فصدّهم المشركون، وأرسل النبي عليه الصلاة والسلام عثمان بن عفان ﷺ للمفاوضة فحبسه المشركون أياماً، فظنّ الصحابة أنهم قتلوه، فهبّوا يبايعون الرسول ﷺ تحت الشّجرة على الموت، وكانت نسيبة مع المبايعين ..

وفيهم نزل قول الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾[3] ..

ثم شهدت نسيبة، رضي الله عنها، أحداث الصلح بين النبي عليه الصلاة والسلام وقريش .. صُلح الحديبية الذي كان اعترافاً رسمياً من قريش بدولة الإسلام، وكان من بنود الصّلح أن يعود المسلمون ذلك العام فلا يدخلون مكة، ويعودون في العام التالي معتمرين .. فلما خرج المسلمون في العام التالي لأداء عمرة القضاء كانت نسيبة، رضي الله عنها، مع

---

(١) انظر: طبقات ابن سعد (ج٨/٤١٥).

(٢) انظر: طبقات ابن سعد (ج٨/٤١٥).

(٣) سورة الفتح (١٠).

المشركين. وقبيل العمرة صحبت جيوش المسلمين إلى خيبر وشهدت انهزام اليهود ووقوع الحصون جميعاً بأيدي المسلمين.

ثم جاء الحدث الأكبر في تاريخ الدعوة، فتح مكة، ودخول أهلها في الإسلام، في العام الثامن للهجرة .. وكما عهدنا نسيبة، رضي الله عنها، تشهد كل حدث عظيم، كانت نسيبة تشهد يوم جاء الحقّ وزهق الباطل، يوم تهاوت أصنام الشرك .. ونادى المبعوث رحمة للعالمين في أهل مكة : « اذهبوا فأنتم الطلقاء ».[1]

ولم تمضِ إلّا فترة قليلة بعد فتح مكة – وكان النبي ﷺ والمسلمون لا زالوا فيها – حين سمعوا أن قبيلة هوازن تجمع الجموع لقتال المسلمين .. وخرج النبي ﷺ والصحابة للقاء المشركين في حنين .. وكانت نسيبة مع المجاهدين.

وقدّر الله تعالى أن يُكرم نسيبة، رضي الله عنها، لتكون أم شهيد، وأيّ شهيد .. فقد أرسل النبي ﷺ ابنها حبيباً إلى مُسيلمة الكذّاب الذي ادّعى النبوة، ليحمل إليه كتابه عليه الصلاة والسلام ..[2] فلما قرأ مسيلمة الكتاب قال لحبيب : أتشهد أنّ محمّداً رسول الله ؟ قال : نعم، فقال : أفتشهد أني رسول الله ؟ فقال : لا أسمع، فجعل عدو الله مسيلمة يقطع جسده عضواً عضواً حتى أسلم الروح .. وفي المدينة كان قلب الأم يتمزق لمصاب ابنها .. وصمّمت رضي الله عنها على الثأر لابنها ودينها.[3]

فلما مضى النبي صلوات الله وسلامه عليه إلى ربه، وارتدّت القبائل، أرسل الخليفة الصدّيق الجيوش لقتال المرتدّين. وفي معركة اليمامة كانت نسيبة، رضي الله عنها، تحمل السيف وتقاتل مع الرجال وتُلقي بنفسها إلى الموت لتقتل أعداء الله من المرتدين (ما تُبالي ما أصابها من الدنيا) .. فقد صارت كل مواقفها بعد أُحُد من وحي العبارة التي قالتها بعد أن سمعت بشارة رسول الله ﷺ.

---

(١) سيرة ابن هشام (ج٢/٤١٢).

(٢) ردّ النبي عليه الصلاة والسلام على رسالة مسيلمة التي طالب فيها النبي أن يقاسمه السلطان على الأرض ! بقوله : « إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين ».

(٣) انظر: طبقات ابن سعد (ج٨/٤١٦)، والإصابة في تمييز الصحابة (ج٤/٤١٨-٤١٩).

وثبتت رضي الله عنها في أرض المعركة التي تزعزع فيها كبار المقاتلين، وأصيبت باثني عشر جرحاً وقُطعت يدها، ولكن الله شفى قلبها بمقتل مُسليمة واندحار المرتدّين وانتصار الإسلام والمسلمين، فقرّت عينها وعادت إلى المدينة تحمل أوسمة الجهاد والفداء. وكان الخليفة أبو بكر ﷺ يعودها ويسأل عنها حتى شُفيت رضي الله عنها وأرضاها.(١)

وامتدّ بها العمر إلى خلافة عمر بن الخطاب، وكان ﷺ يُقدّر جهادها ويفضّلها على كثير من نساء المسلمين في الأعطيات. وكان يشهد لها بالبطولة والفداء فيقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول يوم أُحُد: «ما التفتّ يميناً ولا شمالاً إلّا وأنا أراها تقاتل دوني».(٢)

لا تنس يا أخي قصة أمّ عمارة .. وإذا سمعت يوماً عدواً أو جاهلاً يتّهم الإسلام ورسول الإسلام بعزل المرأة عن مجرى الحياة والأحداث، فقصّ عليهم نبأ نسيبة، رضي الله عنها، .. وذكّرهم ما قال النبي عليه الصلاة والسلام في حقّها وحقّ أسرتها: «بارك الله عليكم من أهل بيت».

---

(١) انظر: طبقات ابن سعد (ج٨/٤١٦).

(٢) انظر: طبقات ابن سعد (ج٨/٤١٥).

أُسَيْدُ بنُ الحُضَيْر رضي الله عنه

تلا القرآن، فحَضَرَت الملائكة

أُسَيْدُ بنُ حُضَيْر

ابن سماك بن عتيك الأشهلي الأوسي

أُسَيْد بن الحضير .. اسم لأحد عقلاء العرب، وسيد من سادات يثرب .. وهو ابن زعيم الأوس (حُضير الكتائب) واحد من أشراف العرب .. وكان أُسَيد مقدّماً في قبيلته لأنه ورث عن أبيه الحضير الشرف والمكانة والشجاعة، تعلّم القراءة والكتابة .. وكانت الكتابة قليلة عند العرب، وكان فارساً مقداماً يحسن الرمي والعوم، من أجل ذلك كان يلقب (بالكامل) ..

والناس كالمعادن خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا، فكما كان أسيد شريفاً في الجاهلية كان شريفاً في الإسلام .. وهذا العقل المستنير الذي اشتهر به هو الذي أخذ بيده إلى دين الحق ..

وكأننا بمصعب بن عمير ﷺ الآن جالساً في أحد بساتين طيبة المباركة، تحت ظلال النخيل الوارفة، معه أسعد بن زرارة ﷺ - أحد زعماء المدينة السابقين إلى الإسلام - وحولهم ثلّة مباركة من الناس يستمعون إلى حديث مصعب العذب، وتلاوته الخاشعة لآيات كريمة .. فتلين بين يدي هذا الشاب المتألّق بنور الإيمان القلوب القاسية، وتسكب العبرات فلا ينفضّ مجلس مصعب حتى يسلم كل من استمع إليه. وكأني به وهو على هذه الحال، يدعو إلى الله ويعمل بكل إخلاص، قد جاء إلى أسيد بن حضير وسعد بن معاذ من يخبرهما - وكانا زعيمي قوميهما - أن أسعد بن زرارة يؤوي إليه هذا الشاب المكّي مصعباً حتى حلّ قريباً منهم .. فغضب سعد بن معاذ وقال لأسيد : لا أبا لك، انطلق إلى هذين الرجلين اللذين قد أتيا دارَنا ليسفّها ضُعفاءنا، فازجُرهما وانهَهُما عن أن يَأْتيا دارَيْنا، فإنه لولا أن أسعد بن زرارة مني حيث قد علمت كفيتُك ذلك، هو ابن خالتي ولا أجد عليه مقدماً ..

فانطلق أسيد بن الحضير ومعه حربته قاصداً مصعب ومن معه .. فلما رآه أسعد بن زرارة مقبلاً همس في أذن مصعب وقال : هذا سيّد قومه قد جاءك، فاصدُق الله فيه ..

ووقف أسيد غاضباً أمام الجمع متشتّماً قائلاً : ما جاء بكما إلينا تسفّهان ضعفاءنا ؟

اعتزالانا إن كانت لكما بأنفسكما حاجة ..

فأجابه مصعب ﷺ بسكينة المؤمن الواثق بوعد ربه : أوَ تجلس وتسمع، فإن رضيت أمراً قبلته، وإن كرهتهُ كُفَّ عنك ما تكره. فأطرق أسيد وهو يتأمل في هذا المنطق المشرق السديد لحظات ثم غرس حربته في الأرض وجلس قائلاً : أنصفت ! ..

وراح مصعب ﷺ يدعوه إلى الله ويتلو عليه من القرآن ما لامس معدنه الأصيل النبيل، فسرى في عقله تيارٌ من القناعة بهذا الدين وفي قلبه فيض من الإيمان بالله .. فاستنار وجهه وقال : ما أحسن هذا الكلام وأجمَله ! كيف تصنعون إذا أردتم أن تدخلوا في هذا الدين ؟ قالا له : تغتسل فتطهَّر وتطهِّر ثوبيك، ثم تشهد شهادة الحق، ثم تصلي ..

ولا شك أن شخصية سويّة كشخصية أسيد ﷺ .. شخصية صافية متوازنة وهي تسمع هذه الحقيقة الساطعة لن تختار أخشاباً وأحجاراً على الإسلام العظيم، لأنه دين الفطرة ودين سعادة البشرية ..

وبهذه الشهادة الحقّ التي شهدها أُسيدٌ أمام مصعب وأسعد بن زرارة وكثير من الناس، وُلد نجم جديد ساطع في سماء الصحابة رضوان الله عليهم.

عاد أسيد أدراجه إلى سعد بن معاذ، وما كاد يقترب منه حتى قال سعد : أحلف بالله لقد جاءكم أسيد بغير الوجه الذي ذهب به من عندكم ..

وهل تخفى حلّة الإيمان ؟! ولم تطب نفس أسيد حتى ألبس صاحبه سعداً مثل الحلّة التي أكرمه الله بها، فقد حمله على لقاء مصعب فأسلم أيضاً .. وأسلم بإسلامهما جمع غفير من الأوس، رضي الله عنهم.[1]

ومنذ تلك اللحظة التي لامس فيها القرآن الكريم قلب أسيد ﷺ أصبح مولعاً به، حتى جعله شغله الشاغل .. ولطالما ترقب الصحابة الكرام قراءته للقرآن فتسابقوا إليه، فقد كان ﷺ رخيم الصوت، حلو الأداء، تطيب له القراءة إذا هدأ الليل، ونامت العيون، وسكنت النفوس.. ولقد استعذب أهل السماء تلاوته كما استعذبها أهل الأرض !

---

(١) انظر: سيرة ابن هشام (مج١/٤٣٥-٤٣٧).

ففي ليلة هادئة ساكنة كان أسيد ﷺ في بيته وابنه الصغير (يحيى) نائم قربه، وفرسه مربوطة قرب داره، فقام ﷺ يعطّر ليلته بكلام الله، وابتدأ يتلو من سورة البقرة .. وما هي سوى لحظاتٍ حتى تبدّد السكون فحالت الفرس جولة شديدة .. فخاف أسيد وتوقف عن التلاوة، فسكنت الفرس !! ثم عاد أسيد إلى تلاوته وما هي إلّا آية حتى جالت الفرس جولة أشد من تلك الجولة وأقوى، فخاف أسيد أن تقطع الفرس رباطها فتطأ ابنه الصغير وهو نائم فسكت.. فسكنت الفرس ! فقام يشدّ لجامها، فرأى غمامة كبيرة في السماء كالظلّة لم تر العين أروع ولا أبهى منها قط، وقد عُلق بها أمثال المصابيح ! ملأت الليل إشراقاً ونوراً، وأخذت تصعد هذه الظلّة لسكوته عن تلاوة القرآن حتى غابت عن ناظريه .. وعجب أسيد أشد العجب، ولم يفهم ما الذي حدث .. فلما أصبح مضى إلى المصطفى ﷺ يخبره عن عجيب ما رأى في تلك الليلة، فسُرّ رسول الله ﷺ وقال له : « تلك الملائكة دنوا لصوتك .. ولو قرأت حتى تصبح لأصبح الناس ينظرون إليهم ».[1]

لقد ضمّ أسيد ﷺ بين جنباته روحاً شفافة، وأحوالاً رائعة .. كان يقول عن نفسه : لو أني أكون كما أكون على أحوال ثلاث لكنت؛ حين أسمع القرآن أو أقرؤه، أو حين أسمع خطبة رسول الله ﷺ وإذا شهدت جنازة !! .[2]

لكن أسيداً ﷺ لم يكن ليركن إلى تلك الأحوال الرُّوحانيّة، فكان إذا ناداه داعي الجهاد حلّ وثاق فرسه وخرج مجاهداً في سبيل الله، فقد شهد أُحُداً والغزوات بعدها جميعاً .. وأبلى يوم أُحُد بلاء عظيماً وجُرح يومئذٍ سبع جراحات، وثبت مع رسول الله ﷺ حين انكشف عنه الناس فقال عنه ﷺ : « نِعْمَ الرجل أسيد بن الحضير ».[3]

وفي غزوة بني المصطلق [4]، ثارت مشاعر المنافقين الحاقدة على رسول الله ﷺ فقام زعيم المنافقين (عبد الله بن أبيّ ابن سلول) يُروّج كلاماً ممزوجاً بسموم نفسه فقال : قد

---

(١) انظر: أسد الغابة (ج١/٩٢-٩٣).

(٢) انظر: الإصابة في تمييز الصحابة (ج١/٤٩).

(٣) انظر: طبقات ابن سعد (ج٣/٦٠٥).

(٤) غزوة بني المصطلق في السنة الخامسة للهجرة، وقيل في السنة السادسة للهجرة.

نافرونا وكاثرونا في بلادنا، والله ما أعُدُّنا وجلاليبَ قريش إلّا كما قال الأولُ، سمّنْ كلبك يأكلك، أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجنّ الأعزّ منها الأذلّ ..

وأخذ يُرجِف بين صفوف الأنصار : هذا ما فعلتم بأنفسكم، أحللتموهم بلادكم، وقاسمتموهم أموالكم، أما والله لو أمسكتم عنهم ما بأيديكم لتحوّلوا إلى غير داركم .. وبلغ رسول الله ﷺ هذا الكلام، فاشتدّ عليه وآلمه كثيراً، فسار بالجيش في ساعة ما كان يسير فيها؛ يريد أن يشغل القوم عن الحديث ..

فلقيه في مسيره أسيد بن الحضير ﷺ فقال : يا نبي الله، والله لقد رُحتَ في ساعة منكرة ما كنت تروح في مثلها، فقال له رسول الله ﷺ : « أو ما بلغك ما قال صاحبكم ؟ »، قال : وأي صاحب يا رسول الله ؟ قال : « عبد الله بن أبي » .. قال أسيد : وما قال ؟ فقال ﷺ : « زعم أنه إن رجع إلى المدينة ليُخرجن الأعزّ منها الأذلّ »، فأجابه أسيد بسرعة المحبّ المدافع: فأنت يا رسول الله واللهِ تُخرجه منها إن شئت، هو والله الذليل وأنت العزيز، ثم قال : يا رسول الله، ارفق به، فوالله لقد جاءنا الله بك، وإن قومه لَينظمون له الخرز ليتوّجوه، فإنه يرى أنك قد استلبته ملكاً.(١)

رضي الله عن أسيد وعن كل الصحابة الكرام .. لقد علّمونا أن المسلم الحق المحبّ لدين الله وللنبي ﷺ يملك دائماً الإجابة المقنعة الواضحة المشرقة .. ولاشك أن أسيداً لم يُرِد أن يُدافع عن ابن سلول ولكنه أراد أن يخفّف عن رسول الله ﷺ.

وبعدُ، فهل تعلم أن أسيداً ﷺ كان مع جهاده وإقدامه ومواقفه الإيمانية، ورجاحة عقلـه ومنطقه، وحبّه لتلاوة القرآن وشفافيـته رجلاً مليحاً يستظرفه أصحابه، ويُدخل السرور إلى قلوبهم بأحاديثه .. وها هو ذا عند رسول الله ﷺ يوماً يحدّث القوم ويضحكهم، فيضحك رسول الله ﷺ ويغمزه بيده الشريفة في خاصرته استحساناً لما يقول .. فقال أسيد : أوجعتني!! فأجابه النبي عليه الصلاة والسلام : « اقتصّ » .. فقال أسيد : يا رسول الله عليك قميص و لم يكن عليّ قميص، فرفع رسول الله ﷺ قميصه عن جسده الشريف .. فقام أسيد واحتضنه

---

(١) سيرة ابن هشام (مج٢/٢٩١-٢٩٢).

وجعل يقبّله وهو يقول : بأبي أنت وأمي يا رسول الله أردت هذا !! ..[1]

لقد فعل أسيد ﷺ ذلك بعفوية، يدفعه حبّه الكبير .. وكان النبي عليه الصلاة والسلام يبادل أسيداً وقومه هذا الحبّ. ولقد ورث الخلفاء والصحابة رضي الله عنهم هذا الشعور النبوي تجاه أسيد وقومه فكان أبو بكر الصدّيق ﷺ بعد وفاة النبي ﷺ يكرمه ولا يُقدّم عليه أحداً، وكان أسيد ﷺ من أول الأنصار الذين بايعوا أبا بكر بالخلافة ..

عاش أسيد ﷺ إلى أيام خلافة أمير المؤمنين عمر وكان عمر ﷺ يحبّه أيضاً ويعرف قدره، وقد شهد أسيد معه فتح القدس وتسلّم مفاتيحها [2] .. ولكن لم تمض سنوات قليلة على فتح بيت المقدس حتى لبّى أسيد ﷺ نداء ربه وحنين الجنّة إليه سنة عشرين للهجرة .. فأسلم روحه .. ولم تطب نفس أمير المؤمنين عمر حتى صلّى على أخيه أسيد وحمله إلى مرقده الأخير ..

وهناك في البقيع يرقد أسيد راضياً مرضياً .. فإذا قدّر الله لك زيارة مدافن البقيع يوماً، فسلّم على الصحابة الأطهار كما سلّم رسول الله، وقل كما كان ﷺ يقول كلما زار البقيع : « السلام عليكم دار قوم مؤمنين .. أنتم السابقون ونحن اللاحقون ». ولا تنس أن تُسلّم على أسيد بن حضير ﷺ الذي قد يغيب عنك قبره، لكن سكينة القرآن قد تدلّك عليه ..

---

(١) انظر: حياة الصحابة (ج٣/٢٨).

(٢) في السنة السادسة عشرة للهجرة.

سَعْدُ بنُ مُعَاذ رضي الله عنه

لا تأخُذه في الله لومة لائم

سَعْدُ بنُ مُعَاذ

ابن النعمان بن امرئ القيس بن زيد الأشهلي الأوسي

بين العقبة الأولى والعقبة الثانية كان سعد بن معاذ ﷺ على موعد مع قدره المبارك في الانضمام إلى صفوف المسلمين .. وشاء الله تعالى أن يكون إسلامه على يد مصعب بن عمير ﷺ، مبعوث النبي ﷺ وسفيره إلى المدينة.

ها هو ذا آتٍ .. شاب طويل جسيم .. لا يكاد يتجاوز الثلاثين من عمره .. مقبلاً نحو مصعب بن عمير الذي كان مع بعض أهل المدينة يحدّثهم عن الإسلام ويتلو عليهم القرآن ..

كان يمشي نحوهم ممسكاً حربته يريد طردهم من المدينة ..

همس أسعد بن زرارة في أذن مصعب، رضي الله عنهما، قائلاً : أيْ مصعب ! جاءك والله سيّد مَن وراءَه من قومه، إن يتبعك لا يتخلّف عنك منهم اثنان ..

وقف سعد أمام مصعب ﷺ وقال غاضباً لأسعد بن زرارة : يا أبا أمامة ! لولا ما بيني وبينك من القرابة ما رُمت هذا مني، أتغشانا في دارينا بما نكره ؟

أجابه مصعب ﷺ بهدوء : أوَ تقعد فتسمع، فإن رضيت أمراً ورغبت فيه قبلته، وإن كرهته عزلنا عنك ما تكره ؟

وكان سعد رجلاً عاقلاً لبيباً فقال : أنصفْت. ثم رَكَزَ الحربة وجلس، فعرض مصعب ﷺ عليه الإسلام وقرأ عليه قوله تعالى: ﴿ حمٓ ۝ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۝ إِنَّا جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴾[1]، فأشرق وجه سعد رضيً بما سمع. قال عنه أسعد بن زرارة ومصعب : فعرفنا والله في وجهه الإسلام قبل أن يتكلّم لإشراقه وتسهّله ..

فقال لهما سعد : كيف تصنعون إذا أنتم أسلمتم ودخلتم في هذا الدين ؟

قالا : تغتسل فَتَطَهَّر وتُطَهِّر ثوبَيْك، ثم تشهد شهادة الحقّ ثم تصلّي ركعتين .

---

(١) سورة الزخرف (١-٣).

فعل .. ثم أخذ حربته وانطلق إلى قومه منادياً فيهم : يا بني عبد الأشهل ! كيف تعلمون أمري فيكم؟

فقالوا : سيّدنا وأفضلنا رأياً. قال : فإن كلام رجالكم ونسائكم عليّ حرام حتى تؤمنوا بالله ورسوله .. فما أمسى رجل ولا امرأة في بني عبد الأشهل إلا مسلماً أو مسلمة ..[1]

وكذلك صارت حياة سعد ﷺ بعد الإسلام كلها مواقف نصرة لهذا الدين الجديد الذي أشرقت به حياته إشراقة ما عرفها من قبل برغم ما كان ينعم به من سيادة ومنعة وعزّة..

ثم هاجر المسلمون إلى المدينة، ولحق بهم رسول الله ﷺ، فتنوّرت القلوب، وأشرقت الأرض بحلوله عليه الصلاة والسلام .. وانضمّ سعد إليهم وأخذ مكانه بين الصحابة الكرام مساهماً في بناء مجتمع الهدى ودولة الحق.

وتتالت مواقف سعد ﷺ المباركة .. ففي السنة الثانية للهجرة وقبيل غزوة بدر، قام النبي ﷺ يشاور أصحابه بشأن مواجهة جيش المشركين. فالمسلمون قد خرجوا للقاء العير وحيازة أموال قريش وتجارتها، ولكن قريشاً خرجت بجيش كبير لتمنع عيرها [2]. فقام المهاجرون، وتكلّم أبو بكر ﷺ فقال وأحسن. ثم قام عمر بن الخطاب ﷺ فقال وأحسن، ثم قام المقداد بن عمرو ﷺ فقال : يا رسول الله، امض لما أراك الله فنحن معك، والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى : اذهب أنت وربّك فقاتلا، إنّا ههنا قاعدون، ولكن اذهب أنت وربّك فقاتلا إنّا معكما مقاتلون، فوالذي بعثك بالحقّ لو سرت بنا إلى برْك الغِماد [3] لجالدنا معك من دونه، حتى تَبْلُغه. فقال له رسول الله ﷺ خيراً، ودعا له به، ثم قال عليه الصلاة والسلام : « أشيروا عليّ أيّها الناس » .. فقام سيّد الأنصار سعد بن معاذ ﷺ قائلاً : والله لكأنك تريدنا يا رسول الله ؟ قال : « أجل » .. فقال : يا رسول الله، قد آمنا بك وصدّقناك، وشهدنا أن ما جئت به هو الحقّ، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة، فلعلّك يا رسول الله تخشى ألا تكون الأنصار يريدون مواساتك، ولا يرونها

---

(١) انظر: سيرة ابن هشام (مج١/٤٣٦)، وطبقات ابن سعد (ج٣/٤٢٠).

(٢) أي لتدافع عن القافلة.

(٣) بلد باليمن، وقيل مدينة بالحبشة.

حقاً عليهم، وإني أقول عن الأنصار وأجيب عنهم يا رسول الله، فاظعن حيث شئت، وانزل حيث شئت، وصِل حبل من شئت، واقطع حبل من شئت، وسالم من شئت، وحارِب من شئت، وخُذ من أموالنا ما شئت، وأعْطنا ما شئت، وما أخذت أحبّ إلينا مما تركت علينا، وما ائتمرت من أمر فأمرنا لأمرك فيه تَبَع، فامض يا رسول الله لما أردت فنحن معك، فوالذي بعثك بالحقّ لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك، ما تخلّف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدوّنا غداً، إنّا لَصُبُرٌ في الحرب صُدُقٌ في اللقاء، لعلّ الله يريك منا ما تقرّ به عينك فَسِرْ بنا على بركة الله ..

كلمات صادقة .. واثقة .. قوية .. ثابتة .. تُعبّر عن شخصية سعد ﷺ وتحمل كل معاني الطاعة والولاء والبطولة والفداء. فاستبشَر عليه الصلاة والسلام بتلك الكلمات وسُرّ بها وقال : « سيروا وأبشروا، فإن الله تعالى قد وعدني إحدى الطائفتين، والله لكأني الآن أنظر إلى مصارع القوم ».[1]

ونظر الله سبحانه إلى إخلاص المسلمين فأمدّهم بالملائكة ونصرهم نصراً مبيناً ..

ثم كانت غزوة أُحُد .. وثبت سعد ﷺ فيها مع من ثبت، وأبلى البلاء الحسن، وفيها استشهد أخوه عمرو بن معاذ .. فأقبلت أمّ سعد على رسول الله ﷺ وهو على فرسه وسعد آخذ بلجامها فوقف لها رسول الله ﷺ ورحّب بها ثم عزّاها بابنها عمرو .. فدنت منه عليه الصلاة والسلام قائلة : أما إذا رأيتك سالماً فقد اشتويت المصيبة[2]، فقال ﷺ : « يا أمّ سعدٍ أبشري، وبشّري أهلهم، أن قتلاهم ترافقوا في الجنة جميعاً، وقد شفعوا في أهلهم جميعاً ».

قالت : رضينا يا رسول الله ومن يبكي عليهم بعد هذا ؟ يا رسول الله ادع لمن خلفوا.. فقال : « اللهم ! أذهب حزن قلوبهم، واجبر مصيبتهم، وأحسن الخَلَف على من خلفوا ».[3]

وراح عليه الصلاة والسلام يسير بين أزقّة المدينة، فسمع صوت البكاء يملأ المكان ..

---

(١) انظر: سيرة ابن هشام (مج١/٦١٥)، ودلائل النبوة للبيهقي (ج٣/١٠٦).

(٢) أي استقللتها. تريد أنها عندما رأت رسول الله ﷺ معافى صَغُرت مصيبتها في عينيها.

(٣) انظر: السيرة الحلبية (ج٢/٢٥٤).

فسأل : « ما هذا ؟ »، فقالوا : هذه نساء الأنصار يبكين قتلاهم .. وكان حمزة بن عبد المطّلب عم رسول الله ﷺ قد استشهد في أُحُد - كما مرّ معنا - ومثّل المشركون بجسده .. فذرفت عينا رسول الله ﷺ وبكى ثم قال : « لكنّ حمزة لا بواكي له ! ».

فبلغ ذلك سعد بن معاذ ﷺ فانطلق من فوره إلى نساء بني عبد الأشهل فأمرهن أن يتحزّمن، ثم يذهبن فيبكين عمّ رسول الله ﷺ .. فلما سمع رسول الله ﷺ البكاء قال : « من هؤلاء ؟ »، فأُخبر بما فعل سعد وما فعلت نساء الأنصار .. فقال ﷺ : « رحم الله الأنصار، فإن المواساة منهم ما علمتُ لقديمة، ما هذا أردت وما أحبّ البكاء »، ثم خرج عليهن وهُنّ على باب مسجده: « ارجعن يرحمكن الله، فقد آسيتن بأنفسكن ». ونهى ﷺ عن النوح ..[1]

وفي السنة الخامسة للهجرة اجتمع الأحزاب لقتال المسلمين في المدينة، وكان اليهود هم الذين ألّبوا قريشاً ودعوهم إلى حرب رسول الله ﷺ ثم طافوا في قبائل العرب يحرّضونهم على معاونة قريش ..

وحين وصل جيش الأحزاب كان المسلمون قد حفروا الخندق لحماية المدينة المنورة، فضرب المشركون الحصار .. ولكن الخندق حال بينهم وبين مدينة الرسول عليه الصلاة والسلام ..

وفي هذه الأثناء نقض يهود بني قريظة عهدهم مع النبي ﷺ، ومزّقوا الصحيفة التي بينهم وبين المسلمين، وعزموا على الحرب .. فاشتدّ الأمر على رسول الله ﷺ وبعث سعد بن معاذ وسعد بن عبادة، رضي الله عنهما، ليأتياه بالخبر ..

فقال لهم اليهود الغادرون : من رسول الله ؟! لا عهد بيننا وبين محمّد ولا عقد ! ..

فرجع السَّعدان[2] وأخبرا رسول الله ﷺ خبر يهود ..

واشتدّ البلاء والخوف على المسلمين .. ووصف الله عزّ وجلّ في كتابه العزيز حال المسلمين: ﴿ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ

---

(١) انظر: سيرة ابن هشام (مج٢/٩٩)، وطبقات ابن سعد (ج٣/١٧-١٨).

(٢) سعد بن معاذ وسعد بن عبادة، رضي الله عنهما.

وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا﴾[1].

فلما رأى رسول الله ﷺ خطورة الموقف، سعى إلى قبيلة غطفان المتحالفة مع قريش ليعقد معهم الصلح على أن يعطيهم ثلث ثمار المدينة فيرجعوا بمن معهم عن القتال .. وأرسل ﷺ إلى السعدين لاستشارتهما في هذا الصلح ..

فقالا : يا رسول الله ! أمراً تُحبّه فنصنعه، أم شيئاً أمرك الله به لا بدّ لنا من العمل به، أم شيئاً تصنعه لنا ؟ فقال رسول الله ﷺ : « بل شيء أصنعه لكم، والله ما أصنع ذلك إلّا لأنني رأيت العرب قد رمتكم عن قوس واحدة، وكالبوكم من كل جانب، فأردت أن أكسر عنكم من شوكتهم إلى أمرٍ ما ».

فقال له سعد بن معاذ ﷺ : يا رسول الله! قد كنا نحن وهؤلاء القوم على الشرك بالله وعبادة الأوثان لا نعبد الله ولا نعرفه، وهم لا يطمعون أن يأكلوا منها ثمرة إلّا قِرىً أو بَيْعاً، أفَحِين أكرمنا الله بالإسلام، وهدانا له، وأعزّنا بك وبه نعطيهم أموالنا ؟! والله ما لنا بهذا من حاجة، والله لا نعطيهم إلّا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم، فقال رسول الله ﷺ : « فأنت وذاك »، فتناول سعد بن معاذ ﷺ الصحيفة فمحا ما فيها من الكتاب، ثم قال : ليجهدوا علينا.[2]

ألا ما أكرم هذه المواقف البطوليّة، وإنها لمواقف نابعة من ثقة الصحابة الكرام بوعد الله والحبّ العظيم للإسلام، وإن سعداً حقاً لَزَين الرجال.

واشتدّ حصار المشركين، ودنا أجل سعد بن معاذ ﷺ .. وآن لنا أن نودّع البطل المغوار ..

فقد دفع اليأس المشركين إلى محاولة اقتحام الخندق .. ويترامى الفريقان بالنبل فيُصاب سعد بن معاذ ﷺ بسهم يقطع منه الأَكْحَل[3]، رماه به رجل من قريش .. فلما رأى سعد ما حلّ به، دعا ربه : اللهم ! إن كنت أبقيت من حرب قريش شيئا فأبقني لها، فإنه لا قوم أحبّ

---

(١) سورة الأحزاب (١٠).

(٢) انظر: سيرة ابن هشام (ج٢/٢٢٢-٢٢٣).

(٣) الأَكْحَل: عرق في وسط الذراع يكثر فصده، فإذا قطع في اليد لم يرقأ الدم.

إليّ أن أجاهدهم من قوم آذوا رسولك وكذّبوه وأخرجوه، اللهم ! وإن كنت قد وضعت الحرب بيننا وبينهم فاجعله لي شهادة، ولا تُمِتني حتى تقرّ عيني من بني قريظة .. فاستمسك

وبلغ رسول الله ﷺ ما حلّ بسعد ﷺ فقال لأصحابه : « اجعلوه في خيمة رُفيدة حتى أعوده من قريب »، وكانت رُفيدة، رضي الله عنها، قد جعلت لها خيمة في المسجد لتداوي فيها الجرحى وتخدم المرضى والمصابين .. فكان النبي ﷺ يدخل عليه إذا حلّ المساء فيسأله : « كيف أمسيت ؟ » .. وإذا أصبح يسأله: « كيف أصبحت ؟ » ..

وكان الصحابة يعودونه .. تقول السيدة عائشة، رضي الله عنها: والذي نفس محمّد بيده إني لأعرف بكاء أبي بكر من بكاء عمر وإني لفي حجرتي، وكانوا كما قال الله عزّ وجلّ : ﴿ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ﴾ ..[1]

ثم ارتفع الحصار .. وعادت الأحزاب صاغرة خاسرة من حيث أتت .. وكان لا بد من محاسبة يهود بني قريظة على غدرهم وخيانتهم .. فحاصرهم النبي ﷺ حتى استسلموا وطلبوا منه أن يحكم في أمرهم (سعد بن معاذ) ظناً منهم أنه سيكون بهم رحيماً .. وذلك لأن سعداً ﷺ كان حليفهم في الجاهلية.

فأرسل النبي ﷺ إلى سعد ﷺ وهو في خيمة رفيدة، فحمله أصحابه على دابّة وجاء بنو قريظة وهم يقولون : يا أبا عمرو ! أحسِن في مواليك .. فلما أكثروا عليه قال ﷺ : لقد آن لسعد ألّا تأخذه في الله لومة لائم ..

فلمّا وصل سعد ﷺ إلى رسول الله والمسلمين قال النبي ﷺ : « قوموا إلى سيّدكم فأنزلوه » ..

وأصغى الناس إلى حكم سعد ﷺ في يهود بني قريظة، قال سعد :

فإني أحكم فيهم أن تُقتل الرجال، وتُقسم الأموال، وتُسبى الذّراري والنساء، وتكون

---

(١) سورة الفتح (٢٩)، وانظر الخبر في تاريخ الطبري (ج٣/٥٨).

الدّيار للمهاجرين دون الأنصار. فتألّق وجه النبي عليه الصلاة والسلام قائلاً : « لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبعة أرقعة[1] ».[2]

ولم يلبث جرح سعد ﷺ أن انفجر بعد أيام قليلة، فأسرع إليه رسول الله ﷺ واعتنقه، وهو يجود بنفسه، ودم سعد ينضح في وجهه ﷺ ولحيته .. وكلما حاول أحد من أهله أن يقي رسول الله الدم ازداد ﷺ منه قرباً وهو يقول : « جزاك الله خيراً من سيّد قوم، فقد أنجزت الله ما وعدته ولَيُنْجِزَنَّكَ الله ما وعدك .. اللهم إن سعداً قد جاهد في سبيلك، وصدّق رسولك وقضى الذي عليه فتقبّل روحه بخير ما تقبّلت به روحاً » .. ففتح سعد ﷺ عينيه فكان وجه الحبيب المصطفى هو آخر ما رأته عيناه فقال : السلام عليك يا رسول الله، أما إني أشهد أنك رسول الله ..[3]

وفي جوف تلك الليلة نزل جبريل عليه السلام فقال : يا محمّد ! مَن هذا العبد الصالح الذي فُتحت له أبواب السماء واهتزّ له العرش ؟

وعرف النبي عليه الصلاة والسلام أنه سعد، فهُرع إليه يجرّ ثوبه وما في البيت إلّا سعد مُسجّى، فأخذ النبي ﷺ يتخطّى ثم جلس عنده ساعة ثم خرج ..

لم يكن ﷺ وحده عند سعد، كانت هناك الملائكة أيضاً فلما خرج ﷺ من عنده قال : « ما قدرت على مجلس حتى قبض لي ملك من الملائكة أحد جناحيه فجلست .. هنيئاً لك أبا عمرو، هنيئاً لك أبا عمرو، هنيئاً لك أبا عمرو » ..[4]

وسار الناس في جنازة سعد ﷺ، وشاركهم النبي ﷺ في حمله حتى خرج به إلى مثواه في البقيع .. وما حملوا أخفّ منه ﷺ ..[5]

---

(١) أي سموات.

(٢) انظر: سيرة ابن هشام (ج٢/٢٣٩-٢٤٠).

(٣) انظر: طبقات ابن سعد (ج٣/٤٢٦-٤٢٩).

(٤) انظر: طبقات ابن سعد (ج٣/٤٢٨).

(٥) كانت الجنازة خفيفة رغم أن سعداً كان طويلاً جسيماً ثقيلاً، وذلك لمشاركة الملائكة في حمله.

ونزل أبو سعيد الخدري ﷺ يشارك في حفر القبر فحدّث المسلمين مرة عن خبر سعد عند دفنه فقال : كنت أنا مِمّن حفر لسعد قبره بالبقيع وكان يفوح علينا المسك كلما حفرنا نزة من تراب حتى انتهينا إلى اللحد ! ..[1]

فلما دُفن قال لهم النبي عليه الصلاة والسلام : « هذا الذي تحرّك له العرش وفُتحت له أبواب السماء وشهده سبعون ألفاً من الملائكة لقد ضُم ضمّة ثم فُرج عنه ».. [2] وقال أيضاً : « إنّ للقبر ضغطة، لو كان أحد ناجياً منها لنجا منها سعد بن معاذ » ..[3]

ورجع الصحابة مع رسول الله ﷺ وسعد ﷺ ليس معهم هذه المرة ..

كان رسول الله ﷺ يمشي ودموعه تحادر على لحيته..[4] وأبو بكر ﷺ يقول: واانكسار ظهراه .. فنهاه النبي ﷺ، وكان عمر يردّد : إنا لله وإنا إليه راجعون ..[5] فما كان أحد أشدّ فقداً على المسلمين بعد رسول الله ﷺ وصاحبيه من سعد بن معاذ ﷺ ..[6]

وأخذت أم سعد تَرثيه باكية :

ويلُ أُمِّ سعدٍ سعدا صرامة وحدّا

وسؤدداً ومجـدا وفارساً معـدّا

فقال ﷺ : « كل نائحة تكذب إلّا أمّ سعد »[7]، ثم قال لها : « ألا يرقأ دمعك، ويذهب حزنك، فإن ابنك أول من ضحك الله إليه واهتزّ له العرش ».[8]

وظلّ الرسول ﷺ يذكر سعداً ويُثني عليه .. وقد رأى الناس مرّة جُبّة من ديباج منسوجاً بالذهب فجعلوا ينظرون إليها ويمسحونها فقال النبي ﷺ : « أتعجبون مِنْ هـذه

---

(١) انظر: طبقات ابن سعد (ج٣/٤٣١).

(٢) سنن النسائي (ج٤/١٠١).

(٣) مسند الإمام أحمد (ج٦/٥٥).

(٤) مجمع الزوائد (ج٩/٣٠٩).

(٥) أسد الغابة (ج٢/٢٩٨).

(٦) انظر: طبقات ابن سعد (ج٣/٤٣٣).

(٧) انظر: طبقات ابن سعد (ج٣/٤٢٨)، وأسد الغابة (ج٢/٢٩٨).

(٨) المستدرك (ج٣/٢٠٦).

الجُبّة ؟! »، فقالوا : يا رسول الله ! ما رأينا قط أحسن منها، قال : « فوالله لمناديل سعد بن معاذ في الجنة أحسن مما ترون » ..[1]

ثم توفي النبي الأعظم ﷺ ومضى عصر النبوة .. وسجّل الصحابة مواقف بطولية جديدة ولكن سعداً ﷺ ظل في ذاكرتهم .. يبكونه كلما عرض ذكره أوصفة من صفاته .. فها هو ذا شاب من أعظم الناس وأطولهم قامة يدخل على أنس بن مالك ﷺ .. فيسأله أنس : من أنت؟ فيقول : أنا واقد بن عمرو بن سعد بن معاذ .. فقال أنس : إنك بسعد لشبيه .. وبكى حتى أكثر البكاء. ثم قال : يرحم الله سعداً، كان سعد من أعظم الناس وأطولهم.

رضي الله عن سعد ..

لقد عاش في الإسلام ست سنوات فقط، لكنه عطّرها بأعماله العظام .. فمن مثل سعد ؟ ..

لقد بكاه الصحب ..

والعرش اهتزّ لموته .. والربّ ضحك إليه ..

---

[1] انظر: طبقات ابن سعد (ج٣/٤٣٦).

أبو أيّوبٍ الأنصاريّ رضي الله عنه

مُضيفُ رسول الله ﷺ

أبو أيّوب – خَالدُ بنُ زَيْد

ابن كليب النجاري الخزرجي

لعلّك قرأت عن دار على جبل الصفا في مكة المكرمة، اسمها دار الأرقم بن أبي الأرقم، كانت هذه أول دار للدعوة الإسلامية، حيث استخفى رسول الله ﷺ وأصحابه الكرام .. حتى دُعيت (دار الإسلام).

فهل قرأت عن دار في المدينة المنورة قريبة جداً من المسجد النبوي هي دار خالد بن زيد المعروف بأبي أيوب الأنصاريّ ؟! هذه الدّار لا تقِل شأناً أبداً عن دار الأرقم .. فكِلا الدّارين احتوت الدعوة في بداية نشأتها فكانتا مركز انطلاق وإيواء ..

لنبحث أولاً عن صاحب الدار .. عن أبي أيوب الأنصاري ﷺ بين هذه الجموع الكثيرة .. ها هو ذا واقف على أسوار يثرب ينتظر رسول الله ﷺ .. يحمله على الانتظار المتكرر الطويل شوق عظيم للرسول ﷺ ورغبة صادقة في نصرة الدعوة الجديدة .. ولعلّه أثناء انتظاره كان يستعيد في ذاكرته صورة النبي ﷺ المشرقة، وعهداً قطعه في بيعة العقبة الثانية هو والأنصار (الثلاثة والسبعون) الذين كانوا معه يوم التقوا الرسول ﷺ فبايعوه على السّمع والطّاعة في المنشط والمكره، والعسر واليسر [1]، ولعلّه كان يتذكّر قول رسول الله ﷺ : « أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم » [2]، فبايعوه ثم عادوا إلى المدينة ينتظرون هجرته عليه الصلاة والسلام إليها، على حين بدأ مسلمو مكة يهاجرون إلى المدينة أرْسَالاً [3] بأمر منه عليه الصلاة والسلام.

وطال انتظار الصحابة على مشارف المدينة، فكانوا يخرجون كل يوم مع بزوغ الفجر مُذ سمعوا بخروج النبي ﷺ من مكة، ما يردّهم إلى بيوتهم إلّا حَرّ الظهيرة. وفي يوم مبارك رجعوا إلى بيوتهم فإذا رجل يصيح بأعلى صوته أن قد وصل النبي ﷺ .. فأسرَع إليه

---

(١) انظر: مسند الإمام أحمد (ج٣/٢٢٢).

(٢) سيرة ابن هشام (مج١/٤٤٢).

(٣) جماعات بعضهم في إثر بعض.

المهاجرون والأنصار، وارتجّت الأرض بالتكبير.

وأشرقت يثرب كلها بحلول النبي ﷺ فيها، وسرى السرور إلى القلوب، فما رُؤي أهل المدينة فرحوا بشيء فرحهم برسول الله ﷺ .. ومن ذلك اليوم سُمّيت يثرب بالمدينة المنوّرة.. كيف لا ؟! وقد دخلها السِّراج المنير صلوات الله وسلامه عليه ..

وتسابق الأنصار الكرام .. كُلّهم يسعى إلى أن يكون له شرف إقامة النبي ﷺ في داره.. كلهم يقول له راجياً في ذلك : أقم عندنا في العدد والعدّة والمنعة، واختلطت أصوات الجود والكرم : عندنا يا رسول الله .. بل عندنا يا رسول الله .. وناقة النبي ﷺ تسير بين دُور الأنصار بإذن من الله، والنبي ﷺ يقول : « خلّوا سبيلها، فإنها مأمورة ! » .. ولم تزل الناقة سائرة به عليه الصلاة والسلام حتى أتت حيَّ بني النجار فبَرَكَت، فنزل عليه الصلاة والسلام.. وبنو النجار هم أخوال جدّه عبد المطلب، وقد قدّر الله تعالى أن يكون ذلك الموضع هو مكان بناء مسجد النبي ﷺ وبيته.[1]

ثم قال عليه الصلاة والسلام : « أي بيوت أهلنا أقرب ؟ » .. هنا أقبل أبو أيوب ﷺ فرِحاً مستبشراً شاكراً ربه الذي اختاره لهذا القدر المبارك، فقال : أنا يا نبي الله هذه داري وهذا بابي، وحمل رحل النبي ﷺ إلى بيته تُسابقه أشواقه ولهفته الشديدة لخدمة النبي عليه الصلاة والسلام. ولنستمع لقصة الضّيافة المباركة:

قال أبو أيوب ﷺ : لما نزل عليّ رسول الله ﷺ في بيتي نزل في السفل، وأنا وأم أيوب في العلو .. فانتبه ﷺ ليلة فقال : نمشي فوق رأس رسول الله ﷺ ! فتنحّوا فكانوا في جانب. وبات أبو أيوب الليل ساهراً يكره أن يأتي النبي ﷺ في الليل فيستأمره في التحويل، فلم يزل ساهراً حتى أصبح، فأتى النبي ﷺ فقال : يا نبي الله ! بأبي أنت وأمي، إني لأكره أن أكون فوقك وتكون تحتي، فاظهر أنت فكن في العلو، وننزل نحن فنكون في السفل. فقال : « يا أبا أيوب ! السفل أرفق بنا وبمن يغشانا[2] ».

---

(١) انظر: سيرة ابن هشام (مج١/٤٩٥).

(٢) يمن يغشانا : يمن يدخل علينا من الصحابة.

قال أبو أيوب : فكان رسول الله في سفله، وكنا فوقه في المسكن، فانكسر حُبٌّ[1] لنا فيه ماء، فقمت أنا وأم أيوب بقطيفة لنا، مالنا لحاف غيرها، نُنشّف بها الماء خوفاً أن يقطر على رسول الله ﷺ منه شيء فيؤذيه، فنزلْت إلى رسول الله ﷺ، وأنا مُشفق فقلت : لا أعلو سقيفة أنت تحتها !! .. ولم يزل يتضرّع إليه ويرجوه حتى أمر النبي ﷺ بمتاعه القليل فنُقل إلى العلو.[2]

لم يطب لأبي أيوب ﷺ المقام في أعلى الدار ونبيّه الكريم في السفل .. هذا شيء يسير من أدب وتهذيب الصحابة رضي الله عنهم مع النبي عليه الصلاة والسلام .. وهذا الأدب هو الذي فتح لهم أبواب الرضا والقبول.

ويُتابع أبو أيوب ﷺ حديثه عن مزيد من ذكريات الصُّحبة والضِّيافة المباركة، فيقول : كنا نصنع لرسول الله ﷺ العَشاء، ثم نبعث به إليه، فإذا ردّ علينا فضله تيمّمْت أنا وأم أيوب موضع يده فأكلنا منه، نبتغي بذلك البركة، حتّى بعثنا إليه ليلة بعَشائه، وقد جعلنا له بصلاً أو ثوماً، فردّه رسول الله ﷺ ولم أر ليده فيه أثراً، فجئته فزعاً، فقلت : يا رسول الله بأبي أنت وأمي، رددت عشاءك ولم أر فيه موضع يدك، وكنت إذا رددته علينا تيمّمت أنا وأم أيوب موضع يدك، نبتغي بذلك البركة ؟ فقال ﷺ : « إني وجدتُ فيه ريح هذه الشجرة وأنا رجل أناجي، فأمّا أنتم فكُلُوه »، فقلت : فأكلناه. ولم نضع له تلك الشجرة بعد.[3]

ومكث النبي ﷺ سبعة أشهر في دار أبي أيوب ﷺ ريثما بُني المسجد النبوي الشريف وحجرات أزواجه حوله فانتقل إليها ..

سبعة أشهر قضاها أبو أيوب ﷺ مع النبي ﷺ في دار واحدة، يتنزّل فيها الوحي، زوّارها خير الناس بعد رسول الله إما مهاجرون أو أنصار .. أو ملائكة كرام .. فيها كان عليه الصلاة والسلام يناجي ربه، وفيها كان يرسم أُسس المجتمع الجديد، ويخطّط لبناء دولة الإسلام.. كل ذلك يشهده أبو أيوب ﷺ في بيته المتواضع ..

---

(١) الحُب : الخابية (مثل الجرة).

(٢) انظر: سيرة ابن هشام (مج١/٤٩٨-٤٩٩)، وصحيح مسلم (ج٣/١٦٢٣).

(٣) انظر: سيرة ابن هشام (مج١/٤٩٩)، والمستدرك (ج٤/١٣٥).

كانت تلك أشهُراً كافية حقاً لتجعل أبا أيوب ﷺ شعلةً متّقدةً من الحماسة والفداء والعطاء والحب والسعادة، فهذه اليد التي بايعت رسول الله يوم العقبة هي نفسها اليد التي حملت سيفاً ونذرت روحها للجهاد ونصرة دين الله وحماية محمّد ﷺ .. وتلك هي بدايات أبي أيوب، فقد حضر بدراً وأُحُداً والخندق وسائر الغزوات والمشاهد ..

وبقي ﷺ شديد الحرص على رسول الله، دائم الخوف والتيقّظ خشية أن يصيبه أذى أو مكروه؛ فحين رجع رسول الله ﷺ من غزوة خيبر ومعه أم المؤمنين صفية، رضي الله عنها .. باتا في خيمة ضُربت للنبي ﷺ، وبات أبو أيوب ﷺ تلك الليلة كلها مُتوشّحاً سيفه يحرس رسول الله ﷺ ويطوف بقبته ! فلما أصبح رسول الله ﷺ ورأى مكانه، قال : « مالك يا أبا أيوب ؟ »، قال : يا رسول الله ! خفت عليك من هذه المرأة وكانت امرأة قد قتلتَ أباها وزوجها وقومها، وكانت حديثة عهد بكفر، فخفتها عليك .. فدعا له ﷺ : « اللهم ! احفظ أبا أيوب كما بات يحفظني ».[1]

وظلّ أبو أيوب ﷺ يحرص على حماية رسول الله ﷺ من أدنى أذى .. ففي مكة المكرمة، وبعد الفتح المبين، قام رسول الله ﷺ يطوف بين الصفا والمروة، فأصاب لحيته الشريفة شيء، فابتدره أبو أيوب فأخذه، فقال له النبي ﷺ : « لا يصيبك السّوء يا أبا أيوب ».[2]

وعلى مثل ما كان أبو أيوب يحمي المصطفى ﷺ في حياته ظلّ يحمي دينه الذي جاء به بعد مماته، فلم تفُته غزوة بعده ..

وبينما كان مع الجيش المُتوجّه إلى القُسْطَنْطِينِيَّة[3] لحرب الرُّوم، مرض في الطريق مرضاً شديداً، فلما حضره الموت دعا أصحابه وأوصاهم قائلاً :

إن أنا متّ فاحملوني .. فإذا صافقتم العدو فادفنوني تحت أقدامكم، فلنطأ الخيل على قبري حتى يستوي فلا يُعرف مكانه، فإذا رجعتم فأخبروا الناس أن نبي الله ﷺ أخبرني أنه :

---

(١) سيرة ابن هشام (مج٢/٣٤٠).

(٢) انظر: الإصابة في تمييز الصحابة (ج١/٤٠٥).

(٣) القسطنطينية : هي نفسها اسطنبول .. وغزوة القسطنطينية كانت سنة ٥٠ وقيل ٥٢ للهجرة.

« لا يدخل النار أحد قال لا إله إلّا الله » ..[1] هذه كانت وصيته : أن يُدفن في أرض المعركة غير بعيد عن جند الفتح الإسلامي وجهادهم وأخبار انتصارهم.

ثم فاضت روحه، ونفّذ أصحابه الوصيّة، فحملوا جثمانه ثم دفنوه تحت أسوار القسطنطينية .. فكان أبعد المسلمين مدفناً عن المدينة المنورة .. هكذا توزّعت قبور الصحابة الكرام لتشهد على عالمية الإسلام.

ويُروى أنه بعد أن دفن الصحابة أبا أيوب ﷺ جاء أهل القسطنطينية مع شروق الصباح فقالوا : يا معشر العرب قد كان لكم الليلة شأن .. فقال يزيد بن معاوية وكان قائد الجيش : مات رجل من أكابر أصحاب نبيّنا محمّد ﷺ .. فبنوا عليه قبة بيضاء وأسرجوا عليه قنديلاً، وصاروا يتعاهدون قبره ويزورونه [2]، وإذا قحطوا كشفوا عن قبره فمُطروا !! ولما حكم العثمانيون تركية بَنوا على قبره مسجداً جميلاً، بُويع فيه كل خلفاء آل عثمان ..

لقد حفظ الله قبره .. مثلما كان يرعى ويحفظ رسوله الكريم عليه الصلاة والسلام ..

فإذا قمت برحلة إلى تركية اليوم لا تنس أن تذهب إلى قلب اسطنبول أو على الأصح (إسلام بول) أي مدينة الإسلام، وتسأل عن أبي أيوب الأنصاري ﷺ لتُسلّم عليه .. فهو راقد هناك تحت قُبة كبيرة، حولها قناديل كثيرة تُنير ما فوق الأرض، لكن باطنها أكثر نوراً من ظاهرها ! ..

ولتطب نفس أبي أيوب ﷺ ..

لم يعد يسمع وقع الخيول وأقدام الرجال ..

لقد وصل صوت الإسلام إلى مثوى أبي أيوب الأخير ..

---

(١) انظر: مختصر تاريخ ابن عساكر (ج٧/٣٤٢).

(٢) سير أعلام النبلاء (ج٢/٤١٢).

مُعَاذُ بنُ جَبَـل رضي الله عنه

إمامُ العلماء

مُعاذُ بنُ جَبَل

ابن عمرو بن أوس الجُشَميّ الخزرجيّ

مُعاذ بن جبل رضي الله عنه وأرضاه ..

جبل راسخ شامخ في الفقه والإفتاء والقرآن والعلم والأخلاق ..

قد يتبادر إلى الأذهان ونحن نذكر تلك الصفات صورة شيخ شائب جليل .. متّكئ على عصاه، لكنّ الحقيقة أنّ معاذاً لم يكن كذلك البتّة .. بل كان شاباً فتيّاً يافعاً وسيماً .. من خِيرة شباب الأنصار .. وأحسنهم وجهاً وأفضلهم خلقاً وأسمحهم كفّاً، لم يكن قد تجاوز الثامنة عشرة من عمره حين وقف يبايع النبي ﷺ بيعة العقبة الثانية ..

ولم يعِش معاذ ﷺ كثيراً، لكن عمله كان عظيماً .. فماذا عن ذلك العمل العظيم ؟

بعد بَيعة العقبة الثانية هاجر النبي ﷺ إلى المدينة المنورة دار الإيواء والمَنَعَة والنصرة .. طَيبة المطيبة، فآخى بين الأنصار والمهاجرة .. وكان حظّ معاذ بن جبل من الإخاء عظيماً فقد آخى الرسول ﷺ بينه وبين حَبر وفقيه من الصحابة الأكابر .. إنه عبد الله بن مسعود، رضي الله عنهما ..

وانطلق معاذ ﷺ مع موكب الإيمان .. مستجيباً لربه، سعيداً بدينه الجديد ونبيّه الجليل ﷺ .. يحطّم الأصنام، ويدعو إلى الله، ويشهد الغزوات كلّها مع النبي ﷺ ما يتخلف عن مشهد قط ..

وحين كانت الحرب تضع أوزارها، كنت تراه جالساً بين الناس .. يُعلّم ويُفتي، شأنه شأن القلّة الذين كانوا يُفتون على عهد النبي ﷺ .. أمثال عمر وعثمان وعليّ .. وأُبيّ بن كعب ﷺ، ولم لا يفعل وقد حظي معاذ ﷺ ببشائر وشهادات رفيعة المستوى من الصادق الأمين ﷺ فقد قال لصحبه الكرام يوماً : « معاذ بن جبل يُحشر يوم القيامة بين يدي العلماء » ..[1]

---

(١) مسند الإمام أحمد (ج١/١٨).

وفي مجلس من مجالس النبي ﷺ، والصّحب الكرام حوله .. راح عليه الصلاة والسلام يمتدحهم .. ويصنف أعمالهم، ويُوضّح مكانتهم في الدولة الإسلامية الأولى .. فكان لمعاذ بينهم منزلة عظيمة وشأن، فقد قال ﷺ : « أرحم أمّتي بأمّتي أبو بكر، وأشدّهم في أمر الله عمر، وأصدقهم حياء عثمان، وأفرؤهم لكتاب الله أُبيّ بن كعب، وأفرضهم زيد بن ثابت، وأعلمهم بالحلال والحرام معاذ بن جبل، ألا إنّ لكلّ أمّة أميناً، وإنّ أمين هذه الأمّة أبو عبيدة ابن الجرّاح » ..[1]

ذلك تكامل الدّعوة الكاملة والدولة الرّاشدة .. تكامل يُهيّئ لكل فرد فيها عملاً ودوراً .. والقائد فيها يعرف قيمة كل فرد .. ويعرف مكامن المواهب فيهم فيكشفها ويُوجّه أصحابها إلى العمل المبدع المخلص في سبيل الله ليصوغ منهم المجتمع الرشيد .. وبهذا كان الصحابة كالبنيان المرصوص يُكمّل بعضهم بعضاً فيشتدّ العمران ويثبت، وينهض مجتمع كريم فيه من كل طاقة وموهبة .. تفوّق أبناؤه بالتقوى ووضوح المبدأ والعقيدة والهدف ..

كان معاذ ﷺ إذنْ أعلم مَنْ في ذلك المجتمع الكريم بالحلال والحرام .. وقد شارك في جمع القرآن الكريم على عهد رسول الله ﷺ مع أُبيّ بن كعب وزيد بن ثابت .. حتى كان أحد الأربعة الذين أرشد النبي ﷺ صحبه ليأخذوا القرآن منهم فقال : « خذوا القرآن من أربعة : من عبد الله بن مسعود، وسالم، ومعاذ، وأبيّ بن كعب ».[2]

فإن شِئنا المزيد من أخباره ﷺ ومنزلته عند رسول الله ﷺ فلنستمع إلى ما يقوله لنا : أخذ رسول الله بيدي ثم قال : « يا معاذ ! والله إنّي لأحبّك »، فقلت له : بأبي وأمي يا رسول الله ! وأنا والله أحبّك !! فقال : « أُوصيك يا معاذ لا تدعنّ في دبر كل صلاة أن تقول: اللهم أعنّي على ذِكرك وشُكرك وحُسن عبادتك »[3]، وصية خاصة لرجل أحبه النبي ﷺ .. وهي وصيّة من بعد لكل محب متبع لرسول الله إلى أن تقوم الساعة ..

ويحدّثنا أنه دخل مرة على النبي ﷺ فبادره ﷺ بهذا السؤال : « كيف أصبحت يا

---

(١) سنن الترمذي (ج٥/٦٢٣).

(٢) صحيح البخاري (ج٤/١٩١٢).

(٣) انظر: المستدرك (ج٣/٢٧٣-٢٧٤).

معاذ ؟ »، فأجابه : أصبحت مؤمناً بالله تعالى، فقال ﷺ : « إنّ لِكلّ قول مصداقاً ولكلّ حقّ حقيقة، فما مصداق ما تقول ؟ »، قال : يا نبي الله ! ما أصبحت صباحاً قط إلّا ظننت أني لا أمسي، وما أمسيت مساء قط إلّا ظننت أني لا أُصبح، ولا خطوت خطوة إلّا ظننت أني لا أتبعها أخرى، وكأني أنظر إلى كل أمة جاثية تُدعى إلى كتابها، معها نبيُّها وأوثانها التي كانت تعبد من دون الله، وكأني أنظر إلى عقوبة أهل النار وثواب أهل الجنّة، قال ﷺ : « عَرَفْتَ فالزم »..[1]

هذا هو الإيمان الراسخ الذي يُهيّمن على القلب والفكر والسلوك، ويفتح الضمائر والبصائر .. فلا يرى العبد من الدنيا إلّا الصّراط المستقيم مضروباً بينه وبين الجنة .. يرى الدنيا بكل ما فيها ممرّاً، والآخرة مُستقرّاً معروضاً أمامه، بكل أحواله ومشاهده، كأنما يراه رأي عين.. وهكذا كان إيمان الصحابة ..

أما عن أخلاق معاذ ﷺ، فلا تسلْ عن جُوده وكرمه، فقد كان ينفق ولا يدّخر شيئاً حتى يكثر عليه الدّيْن، ويقصده الغرماء يريدون أموالهم، وليس معه مال .. فينطلقون به إلى رسول الله ﷺ قائلين : يا رسول الله خذ لنا حقّنا، فيتشفّع النبي ﷺ عندهم قائلاً : « رحم الله مَن تصدّق عليه » .. فيتصدق أناس راجين دعاء النبي ﷺ لهم بالرحمة، ويأبى آخرون .. فلا يجد النبي ﷺ بُدّاً من أن يخلع عن معاذ كل ما يملك ليوفي له دَيْنه .. حتى لم يبق معه شيء .. ويعطي النبي ﷺ المال للغرماء ليقتسموه بينهم فيُصيب ذلك خمسة أسباع حقوقهم ..

ويُشفق النبي ﷺ على معاذ ﷺ الذي بقي بلا مال ولا مأوى .. فالمال قوة تقهر عقبات الحياة، وترفع المرء عن ذُل المسألة والحاجة لغير الله عزّ وجلّ .. والإسلام علّمنا أن اليد العليا خير وأحبّ إلى الله من اليد السفلى .. فما تلبث رسالة أن تصل إلى رسول الله ﷺ من ملوك اليمن وذلك عند رجوعه ﷺ من غزوة تبوك يخبرونه بإسلامهم طائعين، ثم يطلبون منه أن يرسل إليهم من يُعلّمهم أمور دينهم ويقرأ عليهم القرآن، فاختار النبي ﷺ لذلك الرجل المناسب .. العالم بالحلال والحرام .. الجامع لكتاب الله .. المحبّ لله ورسوله .. معاذ بن جبل ومعه أبو موسى الأشعري ورجال.. وجعل معاذاً أميراً عليهم، رضي الله عنهم، وقال له

---

(١) انظر: حلية الأولياء (ج١/٢٤٢).

النبي ﷺ : « لعلّ الله يجبرك ويودّي عنك دينك »، ثم كتب ﷺ رسالة إلى ملوك اليمن يحمد الله فيها على إسلامهم، ويبيّن لهم أركان دينهم ثم يوصيهم بأصحابه : « أما بعد .. فإن رسول الله محمّداً النبي أرسل إلى زُرعة ذي يزن أنْ إذا أتاكم رسلي فأوصيكم بهم خيراً، معاذ ابن جبل، وعبد الله بن زيد ومالك بن عبادة، وعقبة بن نمر، ومالك بن مرّة، وأصحابهم، وإن أميرهم معاذ بن جبل فلا ينقلبن إلّا راضياً ».[1]

وقبل الرحيل دعا النبي ﷺ رسوله إلى اليمن معاذاً ﷺ، وجعل يوصيه وصاياه القيّمة قائلاً : « يسّر ولا تعسّر، وبشّر ولا تنفّر، وإنّك ستقدَم على قوم من أهل الكتاب، يسألونك ما مفتاح الجنّة؛ فقل : شهادة أن لا إله إلّا الله وحده لا شريك له ».[2]

ثم سأله عليه الصلاة والسلام : « كيف تصنع إن عرض لك قضاء ؟ »، قال معاذ ﷺ: أقضي بما في كتاب الله، قال النبي ﷺ : « فإن لم يكن في كتاب الله ؟ »، قال : فبسُنّة رسول الله ﷺ، قال : « فإن لم يكن في سنّة رسول الله ﷺ ؟ »، قال : أجتهد رأيي لا آلو[3]، فضرب النبي ﷺ صدر معاذ ﷺ وقال : « الحمد لله الذي وفّق رسولَ رسولِ الله لما يُرضي رسول الله ».[4]

ثم وجّه ﷺ وصيته القيّمة الثانية إلى معاذ وأبي موسى الأشعري، رضي الله عنهما، معاً قائلاً : « يسّرا ولا تعسّرا، وبشّرا ولا تنفّرا، وتطاوعا ».

فلما حان وقت الفراق .. وتهيّأ معاذ ﷺ للسفر وركب راحلته .. قام النبي ﷺ يمشي تُرب الرّاحلة يُذكّره ويوصيه ويدعو له : « حفظك الله من بين يديك، ومن خلفك، وعن يمينك، وعن شمالك، ومن فوقك، ومن تحتك، ودرأ عنك شرور الإنس والجن »[5].. ثم قال : « يا معاذ ! إنّك عسى ألّا تلقاني بعد عامي هذا، أو لعلّك أن تمرّ بمسجدي هذا .. أو

---

(١) وذلك في السنة التاسعة للهجرة، وزرعة ذو يزن هو أحد ملوك حِمْيَر باليمن.

(٢) انظر: سيرة ابن هشام (مج٢/٥٩٠).

(٣) لا أُقصّر، أبذل جهدي واستطاعتي.

(٤) سنن أبي داود (ج٥/٦٢٣).

(٥) الإصابة في تمييز الصحابة (ج٣/٤٢٧).

قبري .. »، فبكى معاذ لفراق رسول الله ﷺ ..

ولعلّ معاذاً ﷺ أوّل من نعى النبي عليه الصلاة والسلام نفسه إليه وأخبره بدنوّ أجله!.. ثم رقّ له النبي ﷺ فالتفت مقبلاً بوجهه نحو المدينة قائلاً : « إنّ أولى الناس بي المتقون، من كانوا وحيث كانوا ».[1]

واعتصر الألم قلب معاذ ﷺ لذلك الخبر الوجيع .. لكنه لم يقعد أبداً عن أداء واجبه تجاه الإسلام الحنيف .. ها هو ذا ﷺ ينطلق إلى اليمن ليُؤدّي الأمانة على أكمل وجه، فيُعلّم الناس ويُفقّههم في الدين، ويُقرئهم القرآن، ويقضي بينهم بالحقّ، ويبني مسجداً مشهوراً له بالجَنَد ..[2] فقد كانت الدعوة إلى الإسلام مسؤولية راسخة في أعماق الصحابة، لا تزعزعها الأفراح ولا الأتراح ..

أمْضى معاذ ﷺ في اليمن ثلاثة أعوام، أنشأ خلالها هناك مدرسة الإسلام الأولى في قلوب العباد .. وتحقّق له ما أخبره عنه النبي ﷺ .. فقد جبره الله إذ عمل بالتجارة، وكثر ماله، وقضى دَيْنه .. ثم رجع إلى المدينة المنورة فلم يلق النبي الحبيب عليه الصلاة والسلام .. مرّ بمسجده .. وقبره الشريفين وقلبه ﷺ كسير وجيع، ينزف ألماً ولوعة على فراق النبي الحبيب ﷺ .. طاب حيّاً وطاب ميتاً.

ولقد كانت عودته ﷺ في خلافة أبي بكر الصدّيق ﷺ ووافق ذلك شهر ذي الحجة، فاستعمله أبو بكر أميراً على الحجيج .. وفي يوم التروية بمنى لقي معاذٌ عمرَ بن الخطّاب، رضي الله عنهما، فاعتنقا بعد طول غياب، وعزّى كل واحد منهما صاحبه برسول الله ﷺ، ثمّ جلسا يتحدثان، فرأى عمر مع معاذ غِلماناً[3]، فقال : ما هؤلاء يا أبا عبد الرحمن ؟ قال : أصبتهم في وجهي هذا، قال عمر : أُذكرهم لأبي بكر، فقال معاذ : ما ذكري هذا لأبي بكر وإنما بعثني رسول الله ﷺ ليجبرني ؟!. فلما أبى عليه انطلق عمر إلى أبي بكر فقال : أرسِل إلى معاذ فخذ منه وخَلِّ له، فقال أبو بكر : ما كنت لأفعل، إنما بعثه رسول الله ﷺ ليجبره، فلست آخذاً منه شيئاً.. فلما أصبح معاذ انطلق إلى عمر فقال : ما أراني إلّا فاعل الذي قلتَ،

---

(١) مسند الإمام أحمد (ج٥/٢٣٥).

(٢) الجَنَد: اسم موضع (مكان) باليمن.

(٣) رقيقاً.

إني رأيت البارحة في النوم كأني على شفير النار وأنت آخذ بحجزتي. والتطلق إلى أبي بكر لك !! لا آخذ منه شيئاً، إني سمعت رسول الله ﷺ يقول : « لعل الله يجبرك ».[1]

وما كان عمر ليتّهم معاذاً ﷺ، ولكنه عصر المسابقة في الخيرات، عصرٌ كان يحكم فيه سلطان الورع .. وكان الصحابة الكرام يتسابقون إلى الكمال.

ولم يزل معاذ ﷺ يُفتي ويُفقّه الناس في عهد الصدّيق ﷺ على مثل ما كان يفعل في عهد الحبيب ﷺ، حتى رأى جيوش المسلمين تتجهّز لفتح الشام، فاستأذن الصديق لينضمّ إليهم، فأذِن له فترك المدينة وخرج إلى الشام ..

وكان عمر بن الخطّاب ﷺ يعلّق على خروجه قائلاً : لقد أحلّ خروجه بالمدينة وأهلها في الفقه وما كان يفتيهم به، ولقد كنت كلّمتُ أبا بكر، رحمه الله، أن يحبسه لحاجة الناس إليه، فأبى عليّ وقال : رجل أراد وجهاً يريد الشهادة فلا أحبسه ! فقلت : والله إنّ الرجل ليُرزق الشهادة وهو على فراشه !! ..

شهد معاذ ﷺ فتوح الشام .. وشهد الجابية في عهد عمر بن الخطّاب ﷺ، وفي ذلك اليوم خطب عمر الناس فقال : من كان يريد أن يسأل عن الفقه فليأت معاذ بن جبل ..[2] وكان عُمَر ﷺ يردد دائماً قوله : عجزت النساء أن يلدن مثل معاذ، ولولا معاذ لهلك عمر !![3]

فلما كان الفتح عاد معاذ ﷺ العالم الفقيه إلى مكانه بين الناس يُعلّم ويُدرّس .. بوقاره وطول صمته وعظيم هيبته وغزارة علمه .. وشبابه .. كذلك كان شأنه يتقلّب دائماً بين قضاء وجهاد.

يقول أبو إدريس الخولاني : دخلت مسجد دمشق، فإذا أنا برجل برّاق الثنايا، طويل

---

(١) انظر: طبقات ابن سعد (ج٣/٥٨٨)، ومختصر تاريخ ابن عساكر (ج٢٤/٣٧٦).

(٢) انظر: طبقات ابن سعد (ج٢/٣٤٨).

(٣) سير أعلام النبلاء (ج١/٤٥٢).

الصمت، وإذا الناسُ معه إذا اختلفوا في شيء أسندوه إليه وصدروا عن رأيه، فسألت عنه فقيل: معاذ بن جبل ﷺ ..

وعن أبي مسلم الخولاني : أنه دخل المسجد يوماً .. قال : فجلست مجلساً فيه نحو ستين وثلاثون كلّهم يذكرون حديثاً عن رسول الله ﷺ وفي الحلقة فتى شاب شديد الأُدْمَة[1]، حلو المنطق، وضيء، وهو أشبّ القوم سنّاً، فإذا اشتبه عليهم من أحاديث القوم شيء، ردّوه إليه فحدّثهم حديثهم ولا يُحدّثهم شيئاً إلّا أن يسألوه، قلت : من أنت يا عبد الله ؟ قال : أنا معاذ ابن جبل.[2]

ولقد أنطقَت تلك الحياة الموّارة[3] بالعطاء والحركة المقدّسة معاذاً ﷺ أنفع الكلام وأجمله، فمن ذلك قوله لابنه : يا بُنيّ، إذا صلّيت صلاة فصلّ صلاة مودّع، لا تظن أنك تعود إليها أبداً، واعلم يا بُنيّ أن المؤمن يموت بين حسنتين، حسنةٍ قدّمها وحسنة أخّرها ..

ومن ذلك مُناجاته لربه إذا قام من الليل متهجداً، فكان يقول : اللهم نامت العيون، وغارت النجوم، وأنت حيّ قيّوم. اللهم طلبي للجنّة بطيء، وهربي من النار ضعيف. اللهم اجعل لي عندك هدياً ... إنّك لا تخلف الميعاد ..[4]

وفي العام الثامن عشر للهجرة أصاب الطّاعون بلاد الشام، فكان أبو عبيدة ﷺ ممن أُصيب فاستخلف معاذاً وأقرّ عمر ﷺ ذلك .. ثم ما لبث أن أصيب معاذ ﷺ به فكان يغشى عليه. فإذا أفاق قال : اللهم غمّني غمّكَ .. فَوَعِزّتك إنّك لتعلم أني أحبّك، ثم يغشى عليه، فإذا أفاق قال مثل ذلك .. ولما حضره الموت قال : أعوذ بالله من ليلة صباحها إلى النار .. مرحباً بالموت، مرحباً زائرٌ حبيب جاء على فاقة، اللهم إنّي كنت أخافك، وأنا اليوم أرجوك، إنّي لم أكن أحبّ الدنيا وطول البقاء فيها، لكَرْيِ[5] الأنهار ولا لغرس الأشجار، ولكن لظمأ الهواجر ومكابدة الساعات، ومزاحمة العلماء بالركب عند حَلَقِ الذكر.[6]

---

(١) السُّمرة.

(٢) انظر: حياة الصحابة (ج٣/٣٢٨).

(٣) الموّارة: السريعة، السهلة السير.

(٤) مجمع الزوائد (ج١٠/١٨٥).

(٥) كَرَيْتُ نهراً: أي استحدثت له حفرة.

(٦) أسد الغابة (ج٤/٣٧٧-٣٧٨).

توفي معاذ رحمه الله، وعادت الروح إلى بارئها، ودُفن إمام العلماء بالأردن ..

ولن نجد وصفاً ننعي به معاذاً ﷺ أجمل وأبلغ مما قاله ابن مسعود ﷺ .. قال فروة بن نوفل الأشجعي : قال ابن مسعود : إنّ معاذ بن جبل كان أمّة قانتاً لله حنيفاً، ولم يك من المشركين!! فقلت : غلط أبو عبد الرحمن، إنما قال الله: ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾[1]، فأعادها عبد الله بن مسعود فقال : إنّ معاذ بن جبل كان أمّة قانتاً لله حنيفاً ولم يك من المشركين !! فعرفتُ أنّه تعمّد الأمر تعمّداً، فسكتُ. فقال : أتدري ما الأمّة ؟ وما القانت ؟ فقلت : الله أعلم !

فقال : الأمّة : الذي يُعلّم الناس الخير، والقانت : المُطيع لله ولرسوله، وكذلك كان معاذ !! كان يعلّم الناس الخيرَ، وكان مطيعاً لله ولرسوله .. لذا كنّا نشبّه معاذاً بإبراهيم ..[2]

فسلام من أمّة محمّد ﷺ إلى فقيه الأمة .. وإمام العلماء .. وصاحب رسول الله ﷺ .. معاذ بن جبل ﷺ ونسأل المولى القدير أن يقبلنا طلبة علم، وعلماء فقهاء، نسير في موكب معاذ ﷺ يوم الحساب .. تحت لواء سيد المرسلين، صلوات الله وسلامه عليه.

---

(١) سورة النحل (١٢٠).

(٢) انظر: طبقات ابن سعد (ج٢/٣٤٩)، والإصابة في تمييز الصحابة (ج٣/٤٢٧).

كَعْبُ بنُ مالك رضي الله عنه

توبةٌ خلّدها القرآن

كَعْبُ بنُ مالِك

ابن عمرو بن القَيْن بن كعب بن سواد السَّلَمي الجُشَمي الخزرجي

كانت أوّل مشاهِده التي حضرها بَيعة العقبة الثانية .. وكان يفخر بشهودها ويقول : لقد شهدت مع النبي ﷺ ليلة العقبة حين تواثقنا على الإسلام، وما أُحبّ أن لي بها مشهد بدر، وإن كانت بدرٌ أذكَرَ في الناس منها ..[1]

وحُقَّ لكَعْب ﷺ أن يقول ذلك .. ففي ذلك اليوم حمّلهم رسول الله ﷺ أمانة حماية الرسالة.. فامتدّت أيدي الأنصار تُبايع وتُعاهد رسول الله ﷺ .. والله تعالى يسمع ذلك البيع ويشهده .. ومن تلك العهود والمواثيق انطلق صوت الإسلام فيما بعد فبلغ مشارق الأرض ومغاربها وتردّدت أصداؤه في الآفاق ..

وحين قدم عليه الصلاة والسلام مهاجراً إلى يثرب، وآخى بين الأنصار والمهاجرين، ليجعل صلة العقيدة أساس الارتباط الذي ستُبنى عليه الحياة في هذا المجتمع الإسلامي الناشئ .. تآخى كعب مع طلحة بن عُبيد الله، رضي الله عنهما ..

وقام الصحابة كلّ منهم يُسخّر ما أكرمه الله به من قُدرات ومواهب في غايات فُضلى وأهداف عُليا، ويوجّهها التّوجيه الملائم لنصرة هذا الدين، وكانت إحدى مواهب كعب هي نَظْم الشعر .. فراح يخوّف الأعداء بشعره .. حتى ساهمت بعض أشعاره في إسلام قبيلة دَوس .. فقد بلغها قول كعب ﷺ :

قضينا من تِهامة كل وَتْرٍ[2] ... وخيبرَ ثم أغمدنا السيوفا

تخيرنا ولو نطقت لقالت ... قواطعهنَّ دوساً أو ثقيفاً !!

قالوا : خذوا لأنفسكم لا ينزلْ بكم ما نزل بثقيف ..[3]

لقد كان الشعر في ذلك العصر من وسائل الإعلام التي وجّه الرسول صَحبه إلى أهميتها

---

(١) صحيح البخاري (ج٤/١٦٠٣).

(٢) الوَتْر هنا الثأر.

(٣) انظر: الإصابة في تمييز الصحابة (ج٣/٣٠٢).

في الحرب النفسية على المشركين حتى اتخذ لنفسه شعراء ثلاثة منهم كعب ﷺ .. وقد تنوّعت أساليب كل من هؤلاء الثلاثة ﷺ في تلك الحرب النفسية كما وصف ابن سيرين حين قال : كان شُعراء المسلمين حسّان بن ثابت وعبد الله بن رواحة وكعب بن مالك؛ فكان كعب يُحوّفهم الحرب، وعبد الله يُعيّرهم بالكفر، وكان حسّان يقبل على الأنساب ..

وقد جعل كعب ﷺ شِعره أحد سلاحيْه في الدفاع عن الإسلام فلم يترك مُناسبة إلّا قال فيها الشعر .. فقد علّمه رسول الله ﷺ أن جهاد اللسان كجهاد السّنان .. كلاهما أمر به المسلم ما استطاع إليه سبيلاً ..

وإنّا لنقرأ في كُتب السيرة شِعراً كثيراً لكعب ﷺ في الغزوات : في بدر مع أنه لم يشهدها.. وفي أُحُد .. وفي بئر مَعُونة .. وفي الخندق وغيرها ..

وها هو ذا في أُحُد يردّ على شاعر المشركين الذي شمت بمقتل بعض المسلمين، يذكّره بيوم بدر ويعلمه بأن المسلمين لا يأبهون بالموت :

ويوم بـــدر لقِيناكـــم، لنا مـــددٌ ... فيه مع النصر ميكالُ وجبريـــلُ
إنْ تقتلونا فدينُ الحقِّ فطرتُنـــا ... والقتلُ في الحقِّ عند الله تفضيـــلُ
وإن تروا أمرَنا في رأيكم سَفَهـــا ... فرأيُ من خالف الإسلامَ تضليلُ

وقال ﷺ بعد انسحاب الأحزاب في غزوة الخندق :

لقد عَلِمَ الأحزابُ حينَ تألّبوا ... علَيْنـــا ورامُوا دينَنـــا مـا نُوادِعُ
إذا غايَظونا في مقـامٍ أعانَنـــا ... على غيْظِهم نصْرٌ من الله واسِعُ
وذلك حِفْظُ الله فينا وفضْلُـه ... علَيْنا ومن لم يحفظِ اللهُ ضائِعُ

ولم تكن عدّة هذا الصحابي الجليل في الدفاع عن الإسلام - كما ذكرنا - الشعر فقط .. بل شارك في الغزوات، وله في غزوة أُحُد موقف بطولي لا يقفه إلّا محب عظيم المحبة لله ورسوله ..

فحين خالف الرُّماة أمرَ نبيّهم ﷺ، ونزلوا من الجبل، وكرّ خالد والكفار معه على المسلمين من خلف الجبل .. رأى كعب رسول الله ﷺ فقال : هذا رسول الله ﷺ .. فأشار

النبي ﷺ بيده أن اسكت .. كي لا يعرفه المشركون .. ثم ألبسه لأُمّته وليس لأمة كعب[1]، فظنّ المشركون أن كعب بن مالك هو رسول الله ﷺ فضربوه يومئذٍ حتى جُرح بضعة وعشرين جرحاً ..[2] وهو في مُنتهى السعادة أنه فدى رسول الله ﷺ.

ولقد شارك كعب ﷺ في بقيّة الغزوات بعد أُحُد ما عدا تَبُوك .. وله فيها قصة تهزّ الضمير حقّاً .. وتحمل من العِبَر شيئاً كثيراً .. وها هو ذا ﷺ يحدّثنا عن قصّته يوم تبوك ..

قال كعب ﷺ : ما تخلّفت عن رسول الله ﷺ في غزوة غزاها قط، غير أني كنت قد تخلّفت عنه في غزوة بدر، وكانت غزوة لم يعاتب الله ولا رسوله أحداً تخلّف عنها، وذلك أن رسول الله ﷺ إنما خرج يريد عير قريش حتى جمع الله بينه وبين عدوّه على غير ميعاد .. وكان من خبري - حين تخلّفت عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك - أنّي لم أكن قط أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عنه في تلك الغزوة، والله ما اجتمَعَتْ لي راحلتان قط حتى اجتمعتا في تلك الغزوة، ولقد غزاها رسول الله ﷺ في حرّ شديد، واستقبل سفراً بعيداً، واستقبل غزو عدوّ كثير، فجلّى للناس أمرهم ليتأهّبوا لذلك أهبته، وأخبرهم خبره بوجهه الذي يريد، والمسلمون من تبع رسول الله ﷺ كثير، وغزا رسول الله ﷺ حين طابت الثمار، وأُحبّت الظلال فالناس إليها صُعُر[3]. فتجهّز رسول الله ﷺ وتجهّز المسلمون معه، وجعلتُ أغدو لأتجهّز معهم فأرجع ولم أقض حاجة، فأقول في نفسي : أنا قادر على ذلك إذا أردت، فلم يزل ذلك يتمادى بي حتى شمّر بالناس الجدّ، فأصبح رسول الله ﷺ غادياً والناس معه، ولم أقض من جهازي شيئاً، فقلت : أتجهّز بعده بيوم أو يومين، ثم ألحق بهم، فغدوت بعد أن فصلوا[4] لأتجهّز، فرجعت ولم أقضِ شيئاً، ثم غدوت فرجعت ولم أقضِ شيئاً، فلم يزل ذلك يتمادى بي حتى أسرعوا وتفرّط الغزو[5]، فهمَمْت أن أرتحل وأُدرِكهم وليتني فعلت، فلم أفعل.

---

(١) فتبادلا لباس الحرب.

(٢) انظر: مجمع الزوائد (ج٦/١١٢).

(٣) أي إليها تميل.

(٤) أي خرجوا من المدينة.

(٥) فات وقته وتقدم.

لقد ظلّ كعب ﷺ يؤجل ويسوّف جَهازه، حتى خرج الجيش، ولكنه دفع فيما بعد ثمن التسويف والتردّد غالياً ..

ونتابع مع كعب ﷺ قصّته، يقول : وجعلت إذا خرجت في الناس بعد خروج رسول الله ﷺ فطفت فيهم، يَحزنني أني لا أرى إلّا رجلاً مغموصاً عليه في النفاق [1]، أو رجلاً ممّن عذر الله من الضعفاء، ولم يذكرني رسول الله ﷺ حتى بلغ تبوك، فقال وهو جالس في القوم بتبوك : « ما فعل كعب بن مالك ؟ »، فقال رجل من بني سلمة : يا رسول الله ! حبسه بُرداه والنّظر في عِطْفَيْه[2]، فقال له معاذ بن جبل : بئس ما قلت، والله يا رسول الله ما علمنا منه إلّا خيراً، فسكت رسول الله ﷺ ..

فلما بلغني أن رسول الله ﷺ قد توجّه قافلاً من تبوك حضرني بثّي [3]، فجعلت أتذكّر الكذب وأقول : بماذا أخرج من سخطة رسول الله ﷺ غداً ؟ وأستعين على ذلك بكل ذي رأي من أهلي .. فلما قيل لي إن رسول الله قد أظلّ قادماً زاح عني الباطل وعرفت أني لا أنجو منه إلّا بالصدق، فأجمعت أن أصدُقه، وصبّح رسول الله ﷺ المدينة، وكان إذا قدم من سفر بدأ بالمسجد فركع فيه ركعتين ثم جلس للناس، فلما فعل ذلك جاءه المخلّفون فجعلوا يحلفون له ويعتذرون، وكانوا بضعة وثمانين رجلاً، فيقبل منهم رسول الله ﷺ علانيّتهم وأيمانهم ويستغفر لهم ويكِل سرائرهم إلى الله تعالى، حتى جئت فسلمت عليه، فتبسّم تبسُّم المُغضب، ثم قال لي : « تعاله ! »، فجئت أمشي حتى جلست بين يديه، فقال لي: « ما خلّفك ألم تكن ابتعت ظهرك ؟ »، قلت : إني يا رسول الله، والله لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أني سأخرج من سخطه بعذر، لقد أُعطيت جدلاً، ولكنْ والله لقد علمت لئن حدّثتك اليوم حديثاً كذباً لترضينّ عني وليوشكن الله أن يسخطك عليّ، ولئن حدّثتك حديثاً صدقاً تجد علي فيه إني لأرجو عقباي من الله فيه، ولا والله ما كان لي عذر، والله ما كنت أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عنك، فقال رسول الله ﷺ : « أما هذا فقد صدق، فقم

---

(١) مطعوناً في دينه متهماً بالنفاق.

(٢) جانبيه وهو في الإنسان من لدن رأسه إلى وركه.

(٣) بثي : حزني.

حتى يقضي الله فيك » ...

فقُمت وثار معي رجال من بني سلمة، فاتّبعوني، فقالوا لي : والله ما علمناك كنت أذنبت ذنباً قبل هذا، ولقد عجزت ألّا تكون اعتذرت إلى رسول الله ﷺ بما اعتذر به إليه المخلّفون، قد كان كافيك ذنبك استغفار رسول الله ﷺ لك، فوالله ما زالوا بي حتى أردت أن أرجع إلى رسول الله ﷺ فأكذّب نفسي، ثم قلت لهم : هل لقيَ هذا أحد غيري ؟ قالوا : نعم، رجلان قالا مثل مقالتك، وقيل لهما مثل ما قيل لك، قلت : من هما ؟ قالوا : مُرارة بن الربيع من بني عمرو بن عوف، وهلال بن أمية الواقفي، فذكروا لي رجلين صالحين فيهما أسوة، فصمتّ حين ذكروهما لي. ونهى رسول الله ﷺ عن كلامنا نحن الثلاثة مِن بين مَن تخلّف عنه، فاجتنبَنا الناس وتغيّروا لنا، حتى تنكّرَت لي نفسي والأرض فما هي بالأرض التي كنت أعرف، فلبثنا على ذلك خمسين ليلة، فأما صاحباي فاستكانا وقعدا في بيوتهما، وأما أنا فكنت أشبّ القوم وأجلدهم، فكنت أخرج وأشهد الصلوات مع المسلمين، وأطوف بالأسواق، ولا يكلّمني أحد، وآتي رسول الله ﷺ فأسلّم عليه وهو في مجلسه بعد الصلاة، فأقول في نفسي : هل حرّك شفتَيْه بردّ السّلام علي أم لا ؟ ثم أُصلّي قريباً منه، فأُسارقه النظر، فإذا أقبلت على صلاتي نظر إليّ، وإذا التفتُّ نحوه أعرض عني، حتى إذا طال ذلك عليّ من جفوة المسلمين مشيت حتى تسوّرت جدار حائط أبي قتادة وهو ابن عمي وأحبّ الناس إلي، فسلّمت عليه، فوالله ما رد علي السلام ! فقلت : يا أبا قتادة ! أنشُدك الله هل تعلم أني أحب الله ورسوله ؟ فسَكَتَ، فعُدت فناشدته، فسكتَ عني، فعدت فناشدته، فسكتَ عني، فعدت فناشدته، فقال: الله ورسوله أعلم، ففاضتْ عيناي، ووثبت فتسوّرت الحائط، ثم غدوت إلى السوق، فبينا أنا أمشي بالسوق وإذا نَبَطِيٌّ يسأل عني من نبط الشام ممن قدم بالطعام يبيعه بالمدينة، يقول : مَن يدل على كعب بن مالك ؟ فجعل الناس يُشيرون له إلي، حتى جاءني فدفع لي كتاباً من ملك غسّان، يقال : إنه جَبَلَة بن الأيْهَم، في سَرَقة من حرير [1]، فإذا فيه : أما بعد، فإنه قد بلغنا أن صاحبك قد جفاك ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مَضْيَعة، فالْحَق بنا نواسِكَ، فقلت حين قرأته: وهذا من البلاء أيضاً، قد بلغ بي ما وقعت فيه أن طمع فيّ رجل من أهل الشرك،

(١) أي قطعة من جيّد الحرير.

فعمدت بها إلى تنور فسجرته[1] بها ..

فأقمنا على ذلك حتى إذا مضَت أربعون ليلة من الخمسين إذا رسول رسولِ الله يأتيني فقال : إن رسول الله ﷺ يأمرك أن تعتزل امرأتك، قلت : أطلّقها أم ماذا ؟ قال : لا بل اعتزلها ولا تقربها، وأرسل إلى صاحبيّ بمثل ذلك، فقلت لامرأتي : الحقي بأهلك، فكوني عندهم حتى يقضي الله في هذا الأمر ما هو قاض ..

وجاءت امرأة هلال بن أمية رسول الله ﷺ، فقالت له : يا رسول الله ! إن هلال بن أمية شيخ كبير ضائع لا خادم له، أفتكره أن أخدمه ؟، قال : « لا، ولكن لا يَقْرَبَنَّك »، قالت: والله يا رسول الله ما به من حركة إلي، والله ما زال يبكي منذ كان من أمره ما كان إلى يومه هذا، ولقد تخوّفت على بصره. قال كعب : فقال لي بعض أهلي : لو استأذنت رسول الله لامرأتك فقد أذن لامرأة هلال بن أمية أن تخدمه، قلت : والله لا أستأذنه فيها، ما أدري ما يقول رسول الله ﷺ لي في ذلك إذا استأذنته فيها، وأنا رجل شاب ..

قال : فلبثنا في ذلك عشرَ ليال، فكمل لنا خمسون ليلة من حينَ نهى رسول الله ﷺ المسلمين عن كلامنا، ثم صلّيت الصبح صبح خمسين ليلة على ظهر بيت من بيوتنا على الحال التي ذكر الله منا، قد ضاقت علينا الأرض بما رحبت وضاقت عليّ نفسي، قال : وما من شيء أهم إليّ من أن أموت فلا يصلّي عليّ النبي ﷺ، أو يموت رسول الله ﷺ فأكون من الناس بتلك المنزلة فلا يكلّمني أحد منهم ولا يصلّي عليّ ..

وقد كنت ابتنيت خيمة في ظهر سَلْع[2]، فكنت أقيم بها النهار صائماً، وآوي إلى داري في الليل، إذ سمعت صوت صارخ أوفى على ظهر سَلْع، يقول بأعلى صوته :

يا كعب بن مالك! أبشِر، قال : فخررت ساجداً، وعرفت أن قد جاء الفرج، وكان الله قد أنزل توبتنا على نبيّه ﷺ حين بقي الثلث الآخر من الليل، ورسول الله ﷺ عند أم سلمة، وكانت أم سلمة محسنة في شأني، معنية في أمري، فقال رسول الله ﷺ : « يا أم سلمة ! تيب

---

(١) سجرته : أضرمته.

(٢) جبل بالمدينة.

على كعب »، قالت: أفلا أرسل إليه فأبشّره ؟ قال: « إذاً يحطِمكم الناس[1]، فيمنعونكم النوم سائر الليلة »... حتى إذا صلّى رسول الله ﷺ صلاة الفجر آذن[2] الناسَ بتوبة الله علينا، فذهب الناس يبشروننا، وذهب نحو صاحبيّ مبشرون، وركض رجل إليّ فرساً، وسعى ساعٍ من أسلم حتى أوفى على الجبل، فكان الصوت أسرع من الفرس، فلما جاءني الذي سمعت صوته يبشّرني نزعت ثوبيّ فكسوتهما إيّاه بشارة، ووالله ما أملك يومئذ غيرهما، واستعرت ثوبين من أبي قتادة فلبستهما، ثم انطلقت أتيمّم رسول الله ﷺ، وتلقّاني الناس يبشّرونني بالتوبة، ويقولون : لِتَهْنِك توبة الله عليك، حتى دخلت المسجد ورسول الله ﷺ جالس حوله الناس، فقام إليّ طلحة بن عبيد الله فحياني وهناني - فكان كعب لا ينسى ذلك لطلحة - قال فلما سلّمت على رسول الله ﷺ قال لي ووجهه يبرق من السرور : « أبشِر بخير يوم مرَّ عليك منذ ولدَتْك أمّك »، قلت: أمِن عندك يا رسول الله أم مِن عند الله ؟ قال : « بل من عند الله »، فأخذت يده فقبّلتها، قال : وكان رسول الله ﷺ إذا استبشر كأنّ وجهه قطعة قمر، وكنا نعرف ذلك منه، فلما جلست بين يديه قلت : يا رسول الله ! إن مِن توبتي إلى الله عزّ وجلّ أن أنخلع من مالي صدقة إلى الله وإلى رسوله، فقال رسول الله ﷺ : « أمسِك عليك بعض مالك فهو خير لك »، قلت : إني ممسك سهمي الذي بخيبر، وقلت : يا رسول الله ! إن الله قد نجّاني بالصدق، وإن من توبتي إلى الله ألّا أحدّث إلّا صدقاً ما حييت ..

قال كعب : والله ما أعلم أحداً من الناس أبلاه الله في صدق الحديث منذ ذكرت لرسول الله ﷺ ذلك أفضل مما أبلاني، والله ما تعمّدت من كذبة منذ ذكرت ذلك لرسول الله ﷺ إلى يومي هذا، وإني لأرجو أن يحفظني الله فيما بقي ..

وأنزل الله تعالى: ﴿ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ

---

(١) يدوسونكم ويزدحمون عليكم.

(٢) آذن : أعلم.

وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه ثم تاب عليهم ليتوبوا إن الله هو التواب الرحيم ﴾[1] ..

قال كعب : فوالله ما أنعم الله علي نعمة قط - بعد أن هداني للإسلام - كانت أعظم في نفسي من صدقي رسول الله ﷺ يومئذ، ألا أكون كذبته فأهلك كما هلك الذين كذبوا، فإن الله تبارك وتعالى قال في الذين كذبوه حين أنزل الوحي شرّ ما قال لأحد، قال : ﴿ سيحلفون بالله لكم إذا انقلبتم إليهم لتعرضوا عنهم فأعرضوا عنهم إنهم رجس ومأواهم جهنم جزاء بما كانوا يكسبون يحلفون لكم لترضوا عنهم فإن ترضوا عنهم فإن الله لا يرضى عن القوم الفاسقين ﴾[2].

لقد كان صدق كعب ﷺ وصبره يومذاك منجاة له .. وكانت الآية التي تلت آيات التوبة هي قوله تعالى: ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين ﴾[3] ..

وعمّق ذلك الحدَث صدق ولاء كعب ﷺ ومحبته لله ولرسوله ﷺ ولمجتمعه الإسلامي رغم تضييق صحْبِه وأهله عليه، وتنكّرهم له، حتى بدا غريباً فيهم .. وصمد ﷺ أمام الإغراء فلم يُؤثِر عليهم القُربَ من ملك غسان ولا المنزلة الرفيعة عنده .. لا ولم يشعر لحظة بسخط على الجماعة المؤمنة، ولا انتابته خواطر سوء، أنهم ما عرفوا قدره .. وما أسهل الولاء في اليسر وما أصعبه في العسر .. لكن المؤمن الصادق لا يزيده البلاء إلّا إشراقاً ونوراً وهداية، كالمعدن الأصيل النبيل كلّما تأجّجت حوله النار ازداد توهجاً وتألّقاً .. وهذا شأن الصحابة الأكابر الكرام. كان الذّنب يزيدهم من الله قرباً، لأنهم كانوا كما قال القائل : يذنبون كما تُذنب لكنهم كانوا يتوبون إلى الله لا كما تتوب[4]، وذلك ما رأيناه في قصة كعب بن مالك ﷺ، فما أحرانا أن نقف طويلاً ونتأمّل كثيراً في هذه القصة للعِبرة والتأسي ..

عاش كعب ﷺ التائب الصادق بقية حياته محافظاً على العهد إلى أن توفي بالشام في

---

(١) سورة التوبة (١١٧-١١٨).

(٢) سورة التوبة (٩٥-٩٦)، وانظر الخبر في سيرة ابن هشام (مج٢/٥٣١-٥٣٧)، وصحيح البخاري (ج٤/١٦٠٣).

(٣) سورة التوبة (١١٩).

(٤) مختصر الجامع في السيرة (ج١/٢٠).

زمن معاوية ﷺ [1] سنة خمسين للهجرة، وكان قد فقد بصره.

وفي وداعه نُردّد أبياتاً من شِعره تلخّص مسيرته ومسيرة كل المؤمنين الذين سعدوا بصحبة النبي الكريم ﷺ وتنوّرت حياتهم باتّباعه :

فينا الرسولُ شِهاب ثم يتْبعــه ... نور مضيء له فضل على الشُّهُبِ

الحقُّ منْطِقه والعدلُ سيرَتُــه ... فمن يُجِبْهُ إليــه ينْجُ من تبــَبِ[2]

يمضي ويأمرنا من غير معصية ... كأنه البدرُ لم يُطبَع على الكـذِبِ

بــدا لنــا فاتّبعنــاه نصدّقــه ... وكذّبــوه فكنّــا أسـعَدَ العــربِ

---

(١) الإصابة في تمييز الصحابة (ج٣/٣٠٢).

(٢) التَّبب : الخسران.

أُبَيُّ بنُ كَعْبٍ رضي الله عنه

«إن الله أمرني أن أقرأ عليك القرآن»

(مِن كلام النبي ﷺ)

أُبَيُّ بنُ كَعْبٍ

ابن قيس بن عُبَيْد بن زيد النجاري الخزرجي

كُلّنا مدعو للتعرّف إلى العالم الحكيم والسيد الجليل ذي الهيبة والوقار .. مَنْ كان عمر ابن الخطاب ﷺ يسمّيه (سيّدَ المسلمين) .. فإذا رأيته رأيت رجلاً أبيض الشعر .. أبيض الثياب .. ليس بالطويل ولا بالقصير .. شاحبَ اللون، كأنما قدِم من سفر لكثرة زهده وانقطاعه عن الدنيا، ولن تملك نفسك هنالك عن أن تقبّل يمناه إكراماً وإعظاماً لهذه اليد المباركة التي خطّت حروف النور التي تنزّلت على رسول الله ﷺ، فأُبَيّ بن كعب ﷺ كان من كُتّاب الوحي ومن القراء الأربعة الخزرجيين الذين جمعوا القرآن في حياة رسول الله ﷺ، وكان أُبَيّ ﷺ يقول لعمر بن الخطاب ﷺ : إني تلقّيت القرآن ممن تلقّاه من جبريل وهو رَطْب.[1]

وحُقّ لأُبَي ﷺ أن يقول (رطباً) فلقد حفظ القرآن من النبي ﷺ عن جبريل عليه السلام، عن ربّ العزّة تبارك وتعالى .. فكان يحفظ الآيات وهي حديثة العهد بالتنزل من الله سبحانه. من أجل هذا أنت تجد اسمه ﷺ ضمن السّلسلة النّورانية في نهاية كل مصحف شريف، وعلى كل شهادةِ حفظٍ للقرآن العظيم ..

وحسبنا أن النبي ﷺ قال عنه : « أقرؤهم لكتاب الله أُبَيّ بن كعب »[2]، وحسبنا أنه ﷺ طلبه يوماً فقال له : « يا أبا المنذر .. إني أُمرت أن أقرأ عليك القرآن » .. فقال أُبَي : بالله آمنت، وعلى يديك أسلمت، ومنك تعلّمت، فردّد النبي عليه الصلاة والسلام القول، فقال أُبَيّ بدهشة : يا رسول الله ! وذُكِرتُ هناك ؟! قال ﷺ : « نعم باسمك ونسبك في الملأ الأعلى »، فذرفت عينا أُبَيّ وقال : فاقرأ إذاً يا رسول الله ..[3]

يفرح أحدنا إذا ذكر بخير عند الصالحين، ويفرح إذا أحسّ أنه موضع ثقتهم.. فكيف بأُبَيّ ﷺ يذكره الله جلّ جلاله في ملئه الأعلى باسمه ونسبه ويوكل إليه أقدس مهمة وأشرفها !

---

(١) انظر: البداية والنهاية (ج٧/٩٩).

(٢) سنن الترمذي (ج٥/٦٢٣).

(٣) مجمع الزوائد (ج٩/٣١٢).

لقد كانت صلة الصحابة بالله متينة جداً .. يحبهم ويحبونه .. ويذكرهم ويذكرونه .. ويدعونه فيستجيب لهم .. ولكن رجلاً مثل أُبي ماذا عساه يطلب من ربه ؟!

ذات يوم قال رسول الله ﷺ لأصحابه وهم جلوس حوله : « ما من شيء يصيب المؤمن في جسده إلّا كفّر الله عنه به من الذنوب » .. فأسرع أُبي ورفع يديه يطلب من ربه قائلاً : اللهم إني أسألك أن لا تزال الحمّى مضارعة لجسد أُبي بن كعب حتى يلقاك، لا يمنعه من صيام ولا صلاة ولاحج ولا عمرة ولا جهاد في سبيلك !!

أرأيت إلى مسارعة أُبيّ ﷺ إلى ذلك الدعاء ؟! .. مادامت الحمّى ستكفّر ذنوبه .. فمرحباً بمكفّرات الذنوب !.. لقد كانت العافية أوسع له، لكن دعاءه وافق قدراً من الله!.

واستجاب الله دعاء أُبيّ ﷺ وأصابته الحمّى، فلم تفارقه حتى مات، وكان مع ذلك يشهد الصلوات ويصوم ويحجّ ويعتمر ويغزو !![1] ولقد شهد بدراً والمشاهد كلها بعدها فلم تفته غزوة ..

وتتالت أيام أُبي ﷺ، وتابع مسيرته في رحاب القرآن وفي ظلاله الوارفة .. فكان القرآن محور حياته الأول، وكان يختمه في ثماني ليالٍ ..[2] وذات مرّة قال رسول الله ﷺ لأُبيّ ﷺ : « ألا أعلّمك سورة ما أنزل في التوراة ولا في الإنجيل ولا في الزبور ولا في القرآن مثلُها ؟ »، قلتُ : بلى، قال ﷺ : « إني لأرجو ألّا تخرج من ذلك الباب حتى تعلّمَها »، فقام رسول الله ﷺ وقمتُ معه فجعل يحدّثني ويدي في يده، فجعلت أتباطأ كراهة أن يخرج قبل أن يخبرني بها، فلما دنوت من الباب قلت : يا رسول الله السورةَ التي وعدتني ؟ فقال ﷺ : « كيف تقرأ إذا قمت إلى الصلاة ؟ »، فقرأت فاتحة الكتاب، فقال ﷺ: « هي، وهي السبع المثاني التي قال الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴾[3] الذي أعطيتُ ».[4]

---

(١) انظر: مختصر تاريخ ابن عساكر (ج٤/٢٠١).

(٢) سير أعلام النبلاء (ج١/٣٩٨).

(٣) سورة الحجر (٨٧).

(٤) انظر: حياة الصحابة (ج٤/٧٥).

نعم سورة الفاتحة التي كثيراً ما نقرؤها في الصلاة ونحن ساهون ..

يقول الله تعالى في حديث قدسي : « قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين، ولعبدي ما سأل .. فإذا قال العبد: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ .. قال الله : حمدني عبدي، وإذا قال : ﴿ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ .. قال الله : أثنى علي عبدي، فإذا قال: ﴿ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾ .. قال الله : مجّدني عبدي، وإذا قال : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ .. قال الله : هذا بيني وبين عبدي ولعبدي ما سأل، فإذا قال : ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ ﴿ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾ .. قال تعالى : هذا لعبدي ولعبدي ما سأل ».(١)

ووراء هذه الصلة الوثيقة بالقرآن الكريم، وتلك الصلة المتينة بالله عز وجل .. صلة عميقة، وحب قديم لرسول الله ﷺ .. حب وُلد منذ اليوم الذي بسط فيه أُبيّ ﷺ يده لرسول الله ﷺ في بيعة العقبة الثانية .. ففي العقبة عاهد نبيّه ﷺ على السمع والطاعة، وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأن ينصره وينصر دينه وله الجنّة ..

وفي العقبة أيضاً عُقدت تلك الرابطة المقدسة مع النبي ﷺ، ووُلد هذا الحب المبارك في الله عز وجل .. ثم ظل هذا الحبّ دافعاً لأبيّ ﷺ إلى كل خير ..

جاء أُبيّ ﷺ إلى النبي ﷺ مرّة فقال لـه : يا رسول الله إني أُكثر الصلاة عليك فكم أجعل لك من صلاتي ؟ قال ﷺ : « ما شئت وإن زدت فهو خير »، قال : الربع ؟ قال ﷺ : « ما شئت وإن زدت فهو خير »، قال : أجعل النصف ؟ قال : « ما شئت وإن زدت فهو خير »، قال : الثلثين ؟ قال : « ما شئت وإن زدت فهو خير »، قال : أجعل لك صلاتي كلها (٢) ؟ قال: « إذاً تُكفى همَّك ويُغفر ذنبُك ».(٣)

وسأله ﷺ مرّة : « أبا المنذر ! أيّ آية في كتاب الله أعظم معك ؟ »، فقال أُبيّ: ﴿ ٱللَّهُ

---

(١) صحيح مسلم (ج١/٢٩٦).

(٢) أي دعائي كلّه صلاةً عليك.

(٣) انظر: سنن الترمذي (ج٤/٥٤٩).

لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ﴾ فضرب النبي صدره وقال : « ليهنك العلم أبا المنذر » ..[1]

إنها شهادة تَفَوّق علمي باسم أُبيّ ..لم تصدرها جامعة .. لكنها موثقة من مدرسة محمّد الصادق الأمين، شهادة راسخة في عقول وقلوب المسلمين جميعاً. ومنذ تسلّم أبيّ تلك الشهادة صار أحد أئمة العلم والفتوى والاجتهاد من الصحابة الكرام حتى في حياة رسول الله ﷺ .. فأُبيّ ﷺ هو الذي ابتدأ بسَنّ التراويح جماعة في المسجد .. فقد خرج رسول الله ﷺ على الناس في رمضان وهم يصلّون في ناحية المسجد فقال : « ما هؤلاء ؟ »، قيل لـه : هؤلاء نـاس ليس معهم قرآن وأُبيّ بن كعب يصلّي بهم وهم يصلّون بصلاته .. فقـال ﷺ : « أصابوا ونِعمّا صنعوا » ..[2]

حقاً ليهنك العلم أبا المنذر .. لقد أقرّ النبي ﷺ ما فعلت بل امتدحه. وها هو ذا عمر ابن الخطاب ﷺ في خلافته يخرج ليلة في رمضان إلى المسجد فإذا الناس أوزاع متفرقون يصلّي الرجل لنفسه فيصلي بصلاته الرهط، فيقول عمر ﷺ : إني أرى لو جمعت هؤلاء على قارئ واحد لكان أمثل، ثم عزم فجمعهم على أُبيّ بن كعب ﷺ فصار الناس يصلّون بصلاة قارئهم، قال عمر: نِعْمَ البدعة هذه !!.[3]

وتابع أُبيّ بن كعب ﷺ بعد وفاة الرسول ﷺ رحلته .. رحلة الجهاد والعلم. ففي عهد عمر بن الخطاب ﷺ شهد معه وقعة الجابية[4]، وكتب الصلح لأهل بيت المقدس .. وخطب عمر بن الخطاب بالجابية فقال : يا أيها الناس من أراد أن يسأل عن القرآن فليأت أُبيَّ بن كعب.[5]

وكان أُبيّ يطلب من ربّه كلّ شيء، ولا يسأل سواه .. وكان الله تعالى يستجيب له. فمرّة قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ لجيشه : اخرجوا بنا إلى أرضٍ في ديار قومنا .. يقول

---

(١) انظر: المستدرك (ج٣/٣٠٤).

(٢) انظر: حياة الصحابة (ج٣/٥٤٤).

(٣) صحيح البخاري (ج٢/٧٠٨).

(٤) الجابية : المكان الذي عقد فيه سيدنا عمر ﷺ الصلح مع أهل الشام وإيلياء.

(٥) سير أعلام النبلاء (ج١/٣٩٤).

ابن عبّاس : فخرجنا فكنت أنا وأُبيّ بن كعب في مؤخر الناس، فهاجت سحابة، فقال أُبيّ : اللهم اصرف عنّا أذاها .. فلحقناهم وقد ابتلّت رحالهم، فقال عمر: أما أصابكم الذي أصابنا؟ قلت : إن أبا المنذر دعا الله عزّ وجلّ أن يصرف عنا أذاها، فقال عمر معاتباً : ألا دعوتم لنا معكم ؟! .[1]

وفي خلافة عثمان بن عفان ﷺ كان أحد الصحابة الذين وُكلت إليهم مهمة جمع القرآن الكريم .. وصار يأوي إلى حَلَق علمه كثير من الصحابة والتابعين من شتى بقاع المسلمين .. ولا عجب فرجل عاش في رحاب كتاب الله فاستنار فكره وقلبه بآياته وصحبة رسول الله ﷺ، مثل هذا الرجل سيفيض علماً وحكمة .. وإن تَرِكة أُبيّ من الحكم والمواعظ كثيرة جداً نذكر منها قوله : المؤمن بين أربع : إن ابتُلي صبر، وإن أُعطي شكر، وإن قال صدق، وإن حكم عدل. ومرّة قال لـه رجل : أوصني يا أبا المنذر، قال : لا تعرضنّ فيما لا يعنيك، واعتزل عدوّك، واحترز من صديقك، ولا تغبطنّ حيّاً بشيء إلّا ما تغبطه به ميتاً، ولا تطلب حاجة إلى من لا يبالي ألّا يقضيها لك.[2]

وفي عام ثلاثين للهجرة .. هبّت على المدينة المنورة رياح مغبرّة حزينة تحمل في طياتها العزاء لأهل الأرض، والناس يموج بعضهم في بعض .. فقال رجل : مالي أرى الناس يموج بعضهم في بعض ؟ فقالوا : أما أنت من أهل هذا البلد ؟ قال : لا، قالوا : مات اليوم سيد المسلمين أُبيّ بن كعب.[3]

تذكّرْ أبيّ بن كعب ﷺ كلما تلوت آيات الكتاب المبين .. وكلما وقفت خلف الإمام في تراويح رمضان ..

وإذا رزقت يوماً بمولود لا يعرف قلبه سوى الفطرة .. فما رأيك أن تسميه أُبيّاً عسى أن يكون لـه من صاحب الاسم نصيب ..

---

(١) انظر: مختصر تاريخ ابن عساكر (ج٤/٢٠٣).

(٢) انظر: حياة الصحابة (ج٤/٣٥٣).

(٣) انظر: طبقات ابن سعد (ج٣/٥٠١).

لكن لا تنس أن تنشئه على حب الله، وحبّ رسوله، وحبّ القرآن .. المحاور الثلاثة المقدسة في حياة أُبيّ، بل حياة كل الصحابة الكرام ..

ولا تنس أن تحدّثه عن مكانة أُبيّ ﷺ وعظيم قدره إذا علّمته الفاتحة وآية الكرسي .. أو ردّدت أمامه الصلاة على النبي المصطفى ﷺ ..

٤٧

أُمُّ سُلَيمٍ بِنْتُ مِلْحَان رضي الله عنها

امرأةٌ مَهرُها الإسلام

أم سليم بنتُ مِلْحان

ابن خالد بن زيد النجارية الخزرجية

هل فكّرت وأنت تقرأ هذا الكتاب ماذا قدّمْت لدِينك ؟ وهل جهّزت جوابك إن سألك رسول الله عليه الصلاة والسلام : ماذا فعلت من بعدي ؟ وهل تخيّلت كيف ستقف يوم الحساب مع رجال ونساء قدّموا لهذا الدين كل ما يملكون ؟ فتُسأل كما يُسألون، وتوزن أعمالك بالميزان نفسه .. قد تقول : ولكني لا أملك مالاً ولا جاهاً ولا قوة ولا عِلْماً كما يملكون ..

فمِن أجل ألّا تفتر همّتك، ويضعف عزمك، نعرض عليك خبر امرأة مباركة من صحابة رسول الله ﷺ كانت لا تملك مالاً كثيراً، ولا جاهاً عريضاً، ولكنها جادت بما عجز عنه الرجال، ذلك أنها كانت تملك سرّاً لا يملكه كثير من الناس .. كان لديها الحب والإخلاص اللذان سلكا بها مسالك الهدى والتوفيق والرشاد.

إنها الصّحابية الجليلة أم سُليم بنت ملحان، الخزرجية الأنصارية من بني النجار، وأم سليم كنيتها التي اشتهرت بها، وكانت تسمى أيضاً الرُّمَيْصَاء، أو الغُمَيْصَاء.(١)

كانت متزوجة من ابن عمها مالك بن النَضر، وقد رزقت منه ولدها أنس بن مالك ﷺ .. فلما جاء خبر الإسلام إلى المدينة، أشرق نور الإيمان في قلبها وسارعت مع قومها للتصديق برسول الله عليه الصلاة والسلام ولم تبالِ ما قد يصيبها من أذى المشركين، أو ما قد تلقاه من زوجها الذي أبى الإسلام ..

ولما بلغ زوجها خبر إسلامها، قال : أصَبَوْتِ ؟! فأجابت في يقين وثبات : ما صبوت ولكني آمنت بهذا الرجل، فاشتدّ غيظه لمّا رأى ثباتها، وأنها راحت تلقّن ولدها أنس شهادة التوحيد وتقول له : قُل لا إله إلّا الله .. قُل أشهد أن محمّداً رسول الله. ففعَل، فقال مالك وقد بلغ به الغضب كل مبلغ : لا تفسدي عليّ ابني، فقالت بثقة المؤمن : إني لا أفسده، بل أعلّمه

---

(١) انظر: طبقات ابن سعد (ج٨/٤٢٤).

وأهدئه. فراح الزوج يتوعّدها أنه سيهجرها وولدها فلن تراه بعد ذلك اليوم، ثم خرج هائماً على وجهه، وضرب في الأرض، حتى لقيه أحد أعدائه فقتله.[1] وبلغ أم سُليم نبأ مقتله، فحزنت عليه أنْ لم يكن أكرمه الله بكرامة الإسلام فمات على الكفر.

ثم فرغت أم سُليم لولدها أنس، فكانت له الأم والأب، وعزمت ألّا تتزوّج حتى يكبر فيجلس مجالس الرجال، فكان أنس ﷺ يقول عنها : جزى الله أمي عني خيراً، لقد أحسنت ولابني.[2] ولعلّ من كمال إحسانها إليه ما فعلته لما هاجر المصطفى عليه الصلاة والسلام إلى المدينة، وكان لأنس من العمر ثماني سنين، فقد رأت ما قدَّم الأنصار رجالاً ونساءً للنبي عليه الصلاة والسلام والمهاجرين، فوقفت حائرة وهي تراهم يتنافسون تنافساً عجيباً ويثرون على مائدة العطاء بين يدي رسول الله كلّ غال ونفيس .. ورأت فقر حالها وعجزها عن البذل. لكن حيرتها لم تطل، فقد عزمت على أمر اطمأنّ له قلبها، فأتت إلى النبي الكريم صلوات الله وسلامه عليه مستبشرة، وقالت : يا رسول الله لم يبق رجل ولا امرأة من الأنصار إلّا وقد أتحفك بتحفة، وإني لا أقدر على ما أتحفك به إلّا ابني، فخذه فليخدمك ما بدا لك ..[3]

لم تشترط أم سُليم، رضي الله عنها، إذ قدَّمَتْ أنيسها شرطاً، ولم تبتغ على عملها من أجر غير القبول والرضوان من الله سبحانه. وقبِل المصطفى ﷺ هديتها، وأحبّ الغلام الصغير الذي أشرق وجهه وهو بين يدي أكرم الخلق ﷺ. وتشرّف أنس بخدمة النبي، وأمضى في صحبته عليه الصلاة والسلام عشر سنين .. فكان تلميذاً في مدرسة النبوة المباركة.

تُرى هل كان حبّ أم سليم، رضي الله عنها، لرسول الله ﷺ هو الدافع لأن تقدّم حبيبها وأنيسها ليخدمه ؟! أم كان حبها لابنها هو الدافع، إذ وضعته عند خاتم المرسلين لينال شرف الصحبة والخدمة .. أم أنها رأت أن تعطي الحبيب للحبيب ؟ ..

شبَّ أنس ﷺ على عين رسول الله، تحوطه العناية النبوية .. فلما اشتدَّ عوده وحضر المجالس مع الرجال، تقدّم أبو طلحة - من بني النجار- لخطبة أم سليم .. وكان من كبار

---

(١) انظر: طبقات ابن سعد (ج٨/٤٢٥).

(٢) انظر: طبقات ابن سعد (ج٨/٤٢٦).

(٣) انظر: سير أعلام النبلاء (ج٣/٣٩٨).

رجال المدينة وأكثرهم مالاً، ولكن ذلك لم يرفع مقامه عند أم سليم، رضي الله عنها، فقد كان الرجل مشركاً لم يؤمن بعد .. وبعث أبو طلحة يخطب الرميصاء ويعرض المهر الغالي، وكم أدهشه أن ترفض طلبه وتردّه قائلة : أما إني فيك راغبة، وما مثلك يُردّ، ولكنك رجل كافر وأنا مسلمة، وإنه لا ينبغي لي أن أتزوج مشركاً.

وكرّر أبو طلحة الطلب، طمعاً في قبولها .. ولم تفوّت الصحابية الكريمة رضي الله عنها فرصة هداية الرجل فقالت : يا أبا طلحة ! ألست تعلم أن إلهك الذي تعبد إنما هو شجرة تنبت من الأرض ؟! وإنما نجرها حبشي بن فلان ؟ قال : بلى، قالت : أما تستحي أن تسجد لخشبة تنبت من الأرض ؟! ثم شرطت شرطها وفرضت مهرها، فقالت : فهل لك أن تشهد أن لا إله إلّا الله وأن محمّداً رسول الله، وأزوّجك نفسي، لا أريد منك صَداقاً غيره ! ..[1]

ولم يلبث أبو طلحة أن شرح الله صدره للإسلام فانطلق إلى النبي عليه الصلاة والسلام ليعلن إسلامه، فقال المصطفى عليه الصلاة والسلام : « جاءكم أبو طلحة غرة الإسلام في عينيه ».

يقول ثابت بن قيس ﷺ : ما سمعت بامرأة قطّ كانت أكرم مهراً من أم سُليم، كان مهرها الإسلام.[2]

لقد كان هدف أم سليم، رضي الله عنها، واضحاً مذ بايعت نبيها عليه الصلاة والسلام وظلّ في ضميرها حاضراً لا يغيب، وقد كان موقفها من أبي طلحة ينبئ بقوة شخصيتها وتمسّكها بالمبدأ الذي صارت تعيش من أجله رضي الله عنها ..

ثم غدت أم سليم، رضي الله عنها، زوجاً للرجل الذي هداه الله على يديها، والتحق أبو طلحة ﷺ بركب الصحاب الكرام .. وتلاحقت الأيام ورزق الله تعالى الزوجين ولداً سمّياه أبا عمير .. فكان الصغير قرّة عين لهما، ولم يزل الرسول ﷺ مكرماً لتلك الأسرة فيداعب الصغير وكثيراً ما يمرّ به .. وقد مرَّ عليه الصلاة والسلام به يوماً فإذا هو يبكي على طائر كان

---

(١) انظر: طبقات ابن سعد (ج٨/٤٢٧).

(٢) سنن النسائي (ج٦/١١٤).

بابنٍ له قد مات، فسأل النبي الكريم الرحيم أم سليم قائلاً : « يا أم سليم ما شأني أرى أبا عمير ابنك حائر النفس ؟ »، فأخبرته خير الطير، فجعل الرحمةُ المهداةُ عليه الصلاة والسلام يمسح رأس الصغير ويقول لـه : « يا أبا عُمير ما فعل النُّغَيْر ؟ ».[1]

وكانت أم سُليم، رضي الله عنها، لا توفّر جهداً لخدمة رسول الله ﷺ كلما دعت الحاجة.. فكانت إذا تزوّج عليه الصلاة والسلام أسرعت لتعدّ طعاماً تبعثه مع أنس حتى يولمَ ويدعوَ أصحابه. وكان ﷺ يواصل أسرة أم سليم وزوجها فيزورهم ويَقيل عندهم، ويأكل من طعامهم، ويشرب من شرابهم ..[2] وكانت أم سليم تتتبّع بركة رسول الله، فكانت ترقبه حتى ينام عليه الصلاة والسلام ويعرق على بساط لهم، فتسرع لتجمع قطرات العرق الشريف.. وقد رآها عليه الصلاة والسلام يوماً تفعل ذلك فسألها، فقالت : آخذ هذه البركة التي تخرج منك .. نجعلها في طيبنا .. وهو أطيب الطيب.[3] حتى كان التابعون يستوهبون أم سُليم، رضي الله عنها، من الطيب فتعطيهم .. وبعضهم كان يحتفظ به حتى يجعله في أكفانه، فيلقى الله وبه من ريح الرسول عليه الصلاة والسلام أثر.

لقد تعطّرت حياة أم سليم، رضي الله عنها، حقّاً بطيب النبي ﷺ، فكانت كلّ مواقفها ممزوجة بالحبّ الكبير ..

وعلّمها الرسول ﷺ أن تحمل مع الحبّ سلاح الذكر والدعاء، فقال : « يا أمّ سُليم، إذا صلّيت المكتوبة فقولي سبحان الله عشراً، والحمد لله عشراً، والله أكبر عشراً، ثم سَلي الله ما شئت، فإنه يقال لك نعم نعم نعم ».[4] هنيئاً لأم سليم .. أية مكافأة قدّمها لها الرسول ﷺ ..

وشاء الله تعالى أن يمتحن أم سليم وزوجها، رضي الله عنهما، فقد مرض طفلهما الصغير المدلّل، وشُغلا به. وكان من عادة أبي طلحة أن يسأل عنه كلما عاد إلى الدار فلا

---

(١) انظر: طبقات ابن سعد (ج٨/٤٢٧).

(٢) انظر: طبقات ابن سعد (ج٨/٤٢٨).

(٣) انظر: سير أعلام النبلاء (ج٢/٣٠٨-٣٠٩)، وحلية الأولياء (ج٢/٦١).

(٤) انظر: طبقات ابن سعد (ج٨/٤٢٦).

يطمئن حتى يراه. فخرج ذات مرة .. فقُبض الصبي بين يدي أمه. واستسلمت الأم الصابرة لقضاء الله، وقامت فغسّلت الصبي وكفّنته وسجّته بثوب، ولسانها وقلبها يردّدان : إنّا لله وإنّا إليه راجعون. ثم التفتت إلى النساء حولها فقالت : لا يكون أحد يخبر أبا طلحة حتى أكون أنا الذي أخبره.[1]

ثم قامت فأعدّتْ لأبي طلحة عشاءه ... وجلست تنتظره، فلما جاء استقبلته كما تستقبله كل يوم، وسارع هو إلى السؤال عن ولده فقالت : هو أسكن ما يكون.

فلمّا تعشّى ... قالت الذكية التقية : ما رأيت ما صنع ناس من جيرتنا ؟! كانت عندهم عاريّة [2] فطلبوها فأبوا أن يردُّوها ! .. فقال : بئس ما صنعوا. فقالت : هذا أنت، كان ابنك عاريّة من الله وإن الله قد قبضه إليه ..[3] فحزن الوالد الشفيق ولكنه صبر واحتسب، فلما كان الصباح غدا على رسول الله فأخبره بما فعلت أم سليم .. فأُعجب المصطفى بصنيعها ... وقال عليه الصلاة والسلام : « اللهم بارك لهما في ليلتهما » ..

واستجاب الله تعالى دعاء المصطفى ﷺ فعوّض الأم الصابرة، إذ حملت ثم أنجبت ولداً .. وضعته ليلاً، وأبت أن ترضعه حتى يراه رسول الله ﷺ ويحنّكه. فحمّلته أخاه أنساً وبعثت معه بتمرات إلى النبي عليه الصلاة والسلام. فوضعه في حجره ومضغ له التمرات ثم وضعها في فمه وحنّكه بها، فجعل الصبي يتلمّظها، فتبسّم المصطفى عليه الصلاة والسلام قائلاً: « أبت الأنصار إلّا حبّ التّمرِ » .. ثم مسح على رأسه وسمّاه عبد الله. ولقد كبر الصغير وأصابته دعوة رسول الله، فكان من خيرة المسلمين، وأنجب سبعة أولاد، كلّهم كان من حملة القرآن.[4]

تلك هي أم سليم : عاشت لنصرة عقيدتها، فألهمها الله كيف تخرج من الأزمات، وكيف تذلّل العقبات، وتداوي بالصبر الملمّات .. رضي الله عنها وأرضاها. وإن امرأة جمعت

---

(١) انظر: طبقات ابن سعد (ج٨/٤٣١).

(٢) العارية : الشيء المستعار.

(٣) انظر: طبقات ابن سعد (ج٨/٤٣٤).

(٤) انظر: طبقات ابن سعد (ج٨/٤٣٣-٤٣٤).

ذلك إلى الحب والصبر والفهم والحكمة لهي امرأة تسبق الرجال.

يروي أنس ﷺ أن أمه ذهبت إلى النبي عليه الصلاة والسلام فقالت : يا رسول الله .. أخرج معك إلى الغزو، فقال : « يا أم سليم إن الله لم يكتب على النساء الجهاد »، فقالت : أداوي الجرحى وأعالج وأسقي الماء، فقال : « نعم ». فخرجت يوم أُحُد مع الجيش ..[1]

وحدثنا أنس ﷺ أنه رأى أمه والسيدة عائشة يومذاك مشمّرتين تنقلان القِرَب على متونهما ثم تفرغانه في أفواه القوم، ثم ترجعان فتملآنها ثم تجيئان فتفرغانها في أفواه القوم .. وكان ذلك قبل أن يُضرب الحجاب على نساء النبيّ عليه الصلاة والسلام.

ولم تكن تلك المرّةَ الوحيدة التي خرجت فيها أم سليم، رضي الله عنها، للجهاد، فقد خرجت أيضاً يوم حنين، وكانت حاملاً بولدها عبد الله. خرجت في ذلك اليوم مع زوجها أبي طلحة .. وفي المعركة التفت النبي ﷺ فرآها قد ركبت حملها وحزمت وسطها وتقلّدت خنجرها تريد القتال .. لم تخرج أم سليم هذه المرّة لمداواة الجرحى وسقاية العطشى فحسب، بل كانت متأهّبة للقتال إذا ما تولّى الرجال .. وقد باغت العدوّ المسلمين أول الأمر، وفرّ الناس عن رسول الله، وكانت أم سليم وزوجها مع الذين ثبتوا ..

ورأى أبو طلحة الخنجر مع أم سليم، رضي الله عنهما، فسألها عنه فقالت : أخذته معي إن دنا مني أحد من المشركين بعجته به، فالتفت أبو طلحة إلى النبي ﷺ فقال : ألا تسمع يا رسول الله ما تقول أم سليم ؟ فضحك عليه الصلاة والسلام ..[2]

لقد أنسى حبّ الإسلام ورسوله أمَّ سُليم، رضي الله عنها، آلامَ الحمل ووهنه، ونورُ الإيمان الذي أضاء قلبها أعطاها قوة الرجال.

فماذا حصدت أم سليم، رضي الله عنها، بعد حياة كلها بذل وفداء ؟ .. لقد صار ابنها أنس ﷺ من خيرة الصحابة المقربين، وغدا بعد وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام من أشهر رواة الحديث الثّقات .. كيف لا وهو الذي لازم المصطفى ﷺ، وواكب في صحبته

---

(١) انظر: مجمع الزوائد (ج٥/٣٢٤)، وطبقات ابن سعد (ج٨/٤٢٥).

(٢) انظر: تاريخ الطبري (ج٣/١٢٩)، وطبقات ابن سعد (ج٨/٤٢٤).

الأحداث العظام عشر سنين. وأمّا ابنها عبد الله فكان من الأبرار، وقد ربّى أتباعاً بررة بالنبي ﷺ ودعوته وكتابه العظيم.

أما حياتها فكانت في ظلال بركة النبي ﷺ ودعائه، فقد قالت رضي الله عنها : لقد دعا لي رسول الله حتى ما أريد زيادة.[1]

ولكن عند الله الحسنى وزيادة لكل من عمل فأحسن وأخلص .. فهذا رسول الله ﷺ يبشّرها بالجنة. يروي ابنها أنس ﷺ قول النبي ﷺ : « دخلت الجنة فسمعت خَشْفَة[2]، فقلت: ما هذا ؟، فقيل : الرُّميصاء بنت مِلْحَان ».[3]

انتقلت الرُّميصاء إلى جوار ربها راضية مرضية .. ومن يدري لعلّها أوصت أن يُعطر كفنها بطيب رسول الله ﷺ .. قطرات العرق الشريف الذي كانت تحتفظ به، لتلقى الله ومعها من أثر النبي المصطفى .. النبي الكريم الذي عطّر حياتها وحياة كلّ الصحب الكرام، عليه أزكى الصلاة وأعطر التسليم.

---

(١) انظر: الاستيعاب في معرفة الأصحاب (ج٤/١٩٤١).

(٢) الخَشْفَة : الصوت والحركة.

(٣) انظر: طبقات ابن سعد (ج٨/٤٣٠).

أُمُّ حَرامٍ بِنْتُ مِلْحان رضي الله عنها

شهيدةُ البحر

أمُّ حَرامٍ بِنتُ مِلْحان

ابن خالد بن زيد النجارية الخزرجية

لا تكاد تذكر غزوة البحر إلّا وتذكر أم حرام، رضي الله عنها .. فقد كانت أوّل مجاهدة وغازية في البحر، وأوّل صحابيّة تحظى بالشهادة عقب تلك الغزوة. ولكن قبل الحديث عن غزو البحر نعود إلى المدينة المنورة حيث وُلِدَت ونشأت هذه الصحابيّة الجليلة رضي الله عنها.

على مشارف المدينة، وفي قرية (قُباء) .. قُرب أول مسجد بُني في الإسلام، كانت تعيش أم حرام، رضي الله عنها. وفي تلك البقعة المباركة شهدت كل الأحداث العظام منذ أن وطئ تلك الأرض خير الأنام وخاتم المرسلين عليه الصلاة والسلام.

أم حرام، رضي الله عنها، من بني النجار أقرباء النبي ﷺ في المدينة وبقيَّة أهله فيها وهي إحدى خالاته ﷺ من جهة الرّضاع، زوجها الصحابي الجليل عُبادة بن الصامت ﷺ الذي كان من أهل العقبة وأحد نُقباء الأنصار. وآلُ مِلْحان أهلوها من الصحابة الأخيار والسابقين إلى الإسلام، وكان أخواها سليم وحرام من خيرة شباب المسلمين، وكانا مع جماعة من الصحابة يُعرَفُون بالقُرَّاء، يقرؤون القرآن في المسجد، فإذا أمسوا اتخذوا لهم ناحية في المدينة، فيتدارسون بالليل ويتعلّمون ويصلّون.

وأم حرام هي أخت أم سليم التي مضى ذكرها قريباً فهي خالة الصحابي المشهور أنس ابن مالك، رضي الله عنهما، الذي تشرّف بخدمة النبي عليه الصلاة والسلام في المدينة المنورة.

وقد جمعت أم حرام، رضي الله عنها، إلى هذا النّسب الانتماء للإسلام والتشرّف بصحبة النبي عليه الصلاة والسلام .. فقد رُوي أن رسول الله كان يأتي مسجد قباء كل سبت ماشياً أو راكباً فيصلي فيه ركعتين [1]، ويزور أم حرام في بيتها في قباء ويَقيل عندها ويصلّي أحياناً .. [2]

---

(١) صحيح البخاري (ج١/٣٩٩).

(٢) انظر: الاستيعاب في معرفة الأصحاب (ج٤/١٩٣١)، وأسد الغابة (ج٥/٥٧٤).

يقول ابن أختها أنس بن مالك ﷺ : دخل النبي ﷺ علينا، وما هو إلّا أنا وأمي وأم حرام خالتي، فقال : « قوموا فلأصلّي بكم » - في غير وقت صلاة - فصلّى بنا، ثم دعا لنا - أهلَ البيت - بكل خير من خير الدنيا والآخرة.[1]

كان عليه الصلاة والسلام يحبّ تلك الأسرة المجاهدة ويكرمها .. وقد سمحت تلك الصّلة برسول الله ﷺ لأم حرام أن تروِيَ من حديث المصطفى ﷺ، فقد روت عنه عدّة أحاديث رواها عنها كبار الصحابة والتّابعين.

ومضت الأشهر والأعوام وأم حرام، رضي الله عنها، تنعم بصحبة النبي عليه الصلاة والسلام وإكرامه. وفي السنة الرابعة للهجرة شاء الله أن يختار النبي صلوات الله وسلامه عليه أخويها سُليماً وحراماً مع جماعة من إخوانهم من (القُرّاء) للدعوة إلى الله ونشر الإسلام بين قبائل نجد. وانطلق ركب الصحابة الدعاة، ولكن ما إنْ وصلوا إلى (بئر معونة) حتى غدر بهم المشركون وقتلوهم، وكان الأخَوان سليمٌ وحرامٌ ممن استشهد، فاحتسبتهما عند الله ..

وكانت أم حرام شجاعة مقدامة تحبّ الجهاد، فكانت رضي الله عنها تتمنّى أن يكرمها الله بالشهادة. ولم تُخفِ الصحابية الكريمة حبّها للجهاد وشوقها للجنة، فقد سمعت النبي عليه الصلاة والسلام يوماً يقول : « أوّل جيش من أمتي يغزون البحر قد أوجبوا[2] »، فقالت أم حرام : يا رسول الله أنا فيهم ؟! قال : « أنت فيهم ».[3]

ولم تزل هذه الأمنيّة تكبر في قلبها حتى دخل عليها النبي ﷺ يوماً فأطعمته، ونام عليه الصلاة والسلام ثم استيقظ وهو يضحك، فقالت أم حرام : ما يضحكك يا رسول الله ؟ قال: « ناس من أمتي قد عُرضوا علي غُزاةً في سبيل الله، يركبون ثَبَجَ[4] هذا البحر، ملوكاً على الأسِرَّة أو مثل الملوك على الأسِرَّة ». فقالت : يا رسول الله، ادع الله أن يجعلني منهم، فدعا لها، ثم وضع رأسه فنام، ثم استيقظ وهو يضحك، فقالت رضي الله عنها : وما يضحكك يا

---

(١) صحيح مسلم (ج١/٤٥٨).

(٢) أي وَجَبَتْ لهم الجنة.

(٣) صحيح البخاري (ج٣/١٠٧٠).

(٤) وسط.

رسول الله ؟ قال : « ناس من أمتي عُرضوا علي غُزاة في سبيل الله .. » كما قال في الأول. فقالت : يا رسول الله ادع الله أن يجعلني منهم، فقال : « أنت من الأولين ».[1] هنالك اطمأنّت نفس أم حرام، رضي الله عنها، وباتت تنتظر تحقّق النبوءة.

مضى عصر التنزيل، وانتقل النبي صلوات الله وسلامه عليه إلى جوار ربه .. وحمل المسلمون الأمانة، ومضوا يفتحون البلاد لينشروا رسالة الحقّ والخير في أرجاء المعمورة. وكانت أم حرام ممن صدقوا الله فصدقهم، وظلّت رضي الله عنها تنتظر ركب الغزاة لتكون معهم.

فلما جاء عهد الخليفة عثمان ﷺ وأرضاه، اتسعت الفتوحات، ودخل الناس في دين الله أفواجاً .. ولكن دولة الإسلام كانت تواجه دولة من أقوى دول العالم حينذاك، دولةَ الروم التي اتخذت من جزيرة قبرص مركزاً لشنّ الهجمات على جيوش المسلمين مستخدمين أساطيل بحرية، فقرّر الخليفة خوض البحر وغزو قبرص.

ولكن جيش المسلمين لم يكن قد غزا البحر من قبل، فعقد الخليفة عثمان ﷺ مجلساً للشّورى، واستشار كبار الصحابة وقادة المسلمين، فقرّروا غزو الجزيرة، وشهد التاريخ ولادة (البحرية الإسلامية). ولم يلبث الخليفة أن أرسل معاوية بن أبي سفيان ﷺ على رأس ذلك الجيش .. فأبحر من الشام، وركب البحر مع جيش المسلمين، فغزا الجزيرة، وكتب الله النصر للإسلام، فاستسلمت قبرص ووقّعت عقد الصلح الذي فرضه المسلمون.[2]

وفي ذلك الرّكب الذي أبحر ليُعلي كلمة الله ويطهّر البر والبحر من الشرك والكفر كانت أم حرام التي طال شوقها للجهاد في سبيل الله؛ فقد خرجت في تلك الغزوة مع زوجها عبادة بن الصّامت، رضي الله عنهما .. فتحقّقت البشارة النبوية، وكانت رضي الله عنها مع المجاهدين الذين خاضوا غمار البحر ملوكاً على الأسرة .. وملوكاً قادوا البلاد إلى الهدى والرشاد.

---

(١) صحيح البخاري (ج٣/١٠٢٧).

(٢) غزوة قبرص سنة ٢٧ للهجرة.

ثم تحقّق لها الحلم الآخر حلم الشهادة فلم ترجع رضي الله عنها من ذلك الغزو، فقد صُرعت عن دابّتها حين خرجت من البحر. فكان ما تمنّته رضي الله عنها، أن تغزو في سبيل الله مع الذين (أوجبوا)، ثم تُقتل في سبيل الله .. ولم يزل قبرها في قبرص شاهداً أمام التاريخ على أن المرأة التي تشرّفت بتربية النبي عليه الصلاة والسلام قد ارتقت بفكرها وأهدافها وأمنياتها فوق نساء العالمين.

رحم الله أم حرام .. وصدق أبو نعيم في وصفه لها حين قال : حميدة البر، شهيدة البحر، التوّاقة إلى مشاهدة الجنان أم حرام، رضي الله عنها ..[1]

ولا بأس أن تسأل كل مسلمة اليوم نفسها .. تُرى لو أراد الناس أن يكتبوا عنها بعد رحيلها .. ماذا سيكتبون ؟!!.

---

(١) انظر: حلية الأولياء (ج٢/٦١).

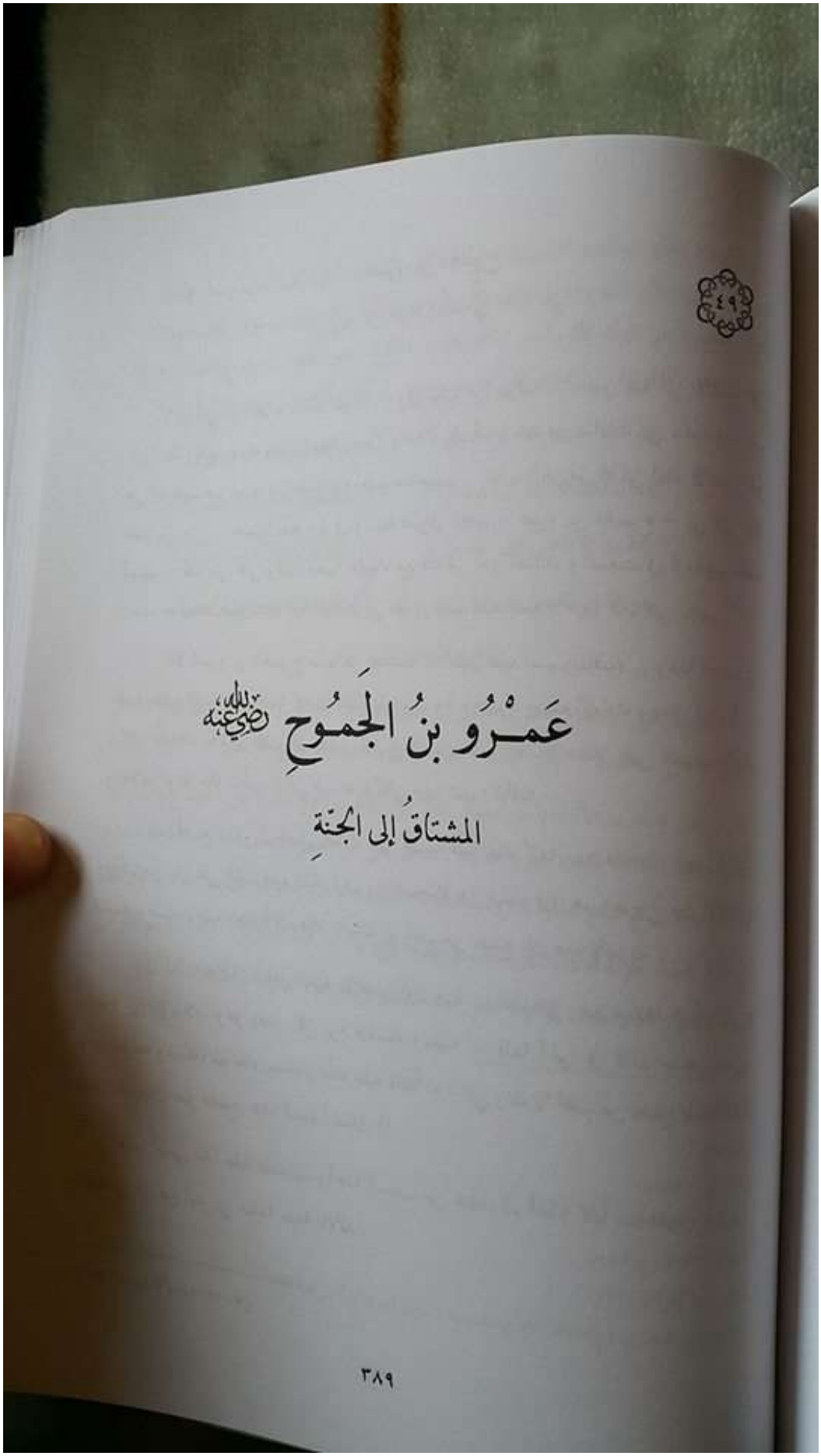

عَمْرُو بنُ الجَمُوحِ رضي الله عنه

المشتاقُ إلى الجنّةِ

عَمْرُو بنُ الجَمُوحِ

ابنُ زيد بن حرام الجُشَمي الخزرجي

في حيّ من أحياء المدينة المنورة .. وفي بيت من بيوتها .. جلس فتية من الأنصار ممن آمن بالله وبايع رسوله وهم : معاذٌ ومعوّذٌ وخلّادٌ ﷺ أبناء سيد من سادات بني سَلمة وشريف من أشرافهم هو عمرو بن الجموح ومعهم صاحبهم .. شاب آخر من أذكى أبناء الأنصار هو معاذ بن جبل .. جلسوا يفكرون في وسيلة تسُوق أباهم - عمرو بن الجموح - إلى النبي ﷺ ليُسلِم .. فقد بقيَ على وثنيّته مُصِرّاً عليها، مع قلّة من أهل المدينة، والْتَمعت في أذهانهم خُطة راشدة حكيمة، خطة تشبه خطة نفّذها نبي الله إبراهيم عليه السلام حين كان فتى مثلهم [1] ..

كان لعمرو بن الجموح صنم من خشب .. أطلق عليه اسم (مناف) .. ولهذا الصنم في نفسه عظيم القداسة .. فلما كانت الليلة الموعودة ودّع عمرو صنمه كعادته ودخل لينام ! .. وكان المُعاذان يترقّبان تلك اللحظات بفارغ الصبر، فلمّا اطمأنّا دخلا على الصنم الأصمّ وحملاه، ثم طرحاه منكّس الرأس في حفرة يُلقي فيها الناس الأقذار ..

فلما أصبح عمرو .. دخل كعادته على صنمه فلم يجده كما عهد فانتفض غضباً قائلاً: ويلكم من عدا على آلهتنا هذه الليلة ؟ ثم راح يبحث عن صنمه فإذا هو مطروحٌ بين الأقذار، فحمله وغسّله وطيّبه معتذراً إليه قائلاً : والله لو أعلم من يصنع بك هذا لأخزيته ..

وفي ليال متعاقبة .. فعل الفتية ما فعلوا أول مرة .. تحدُوهم رغبة صادقة في أن يهيء عمرو إلى الإسلام، وهو يغدو كل يوم فيغسّله ويطيّبه .. فلما ألحوا في ذلك ضحى عمرو واستخرجه وغسّله، ثم جاء بسيفه وعلّقه عليه قائلاً له : إني والله لا أعلم من يصنع بك ذلك! فإذا كان فيك خير فامتنع، هذا السيفُ معك !!

فلما أمسى عَدَا عليه المعاذان، وأخذا السيف من عنقه، ثم أخذا كلباً ميتاً فقرناه بحبل، وألقياه في بئر من آبار بني سلمة مليئة بالأقذار ..

---

(١) انظر: سورة الأنبياء (٥١-٧٠).

وغدا عمرو في اليوم التالي إلى صنمه .. فوجده مقروناً إلى كلب ميت وسط الأقذار.. فلما رآه على حاله تلك وقف لحظة يفكّر .. واستغلّ أُناس أسلموا من قومه تلك اللحظات وأقبلوا يحدّثونه عن محمّد ﷺ والنور الذي معه .. هنالك حضر رُشده .. وشرح الله صدره .. فأسلم ونطق بالشهادة .. وأنشد يحقّر صنمه ويحمد ربّه الذي أنقذه من شوهة الوثنية وذلّها ..

تالله لـو كنتَ إلهاً لم تكـن ... أنت وكلبٌ وَسْطَ بئرٍ في قَرَنْ[1]

أفٍّ لِمَلْقَـاكَ إلهاً مُسْتَـدَن[2] ... الآن فتّشناك عن سوء الغَبَنْ[3]

فالحمد لله العليِّ ذي المِنَـنْ ... الواهبِ الرَّزّاقِ ديّـان الدِّيَـنْ[4]

هو الذي أنقذني من قبل أن ... أكونَ في ظلمـةِ قبرٍ مُرْتَهَـن

بأحمد المهدي النبيّ المرتهنْ ..[5]

كم ارتقى الإسلام بعقول البشر .. فمِن عبادة الخشب والحجر .. إلى الإيمان بالله الأعلى الأجلّ .. الذي لا تخفى آيات وجوده وعظَمته سبحانه على مدّ النظر ..

ولئن اختفت الأصنام من حياة كثير من الأُمم وترفّع الناس عن الخضوع لحجر أو خشب، لقد اتخذت الوثنية اليوم أشكالاً أخرى لعلّ من أخطرها تعلّق القلب بالأهواء وبمتاع الأرض تعلّقاً يبلغ مبلغ العبودية، وقد حذّرنا الله سبحانه من العبودية للهوى بقوله : ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ۝﴾[6]، كما حذّرنا رسوله الكريم ﷺ من العبودية لمتاع الدنيا فقال ﷺ : « تعِس عبد الدّينار والدّرهم والقَطِيفَة والخَمِيصَة »[7].

---

(١) القَرَن : الحيل.

(٢) ذليل.

(٣) الغَبَن : السفه.

(٤) الدِّين : الأديان.

(٥) أسد الغابة (ج٤/٩٤).

(٦) سورة الفرقان (٤٣).

(٧) صحيح البخاري (ج٣/١٠٥٧). والخميصة : ثوب أسود أو أحمر له أعلام.

فما أحوج البشرية التي غرقت في عبادة أصنامها اليوم إلى مثل ذلك الجيل، ذي الهدف الواضح والمنطق الراشد والخُطط الحكيمة، يحطّم الأصنام، ثم يمضي بالعباد إلى رضا الله سبحانه والهدى والصلاح.

ونعود إلى عمرو بن الجموح الذي ارتدى حُلّة الإسلام الجديدة فزادته شرفاً على شرفه.. وسيادة فوق سيادته ..

فها هو ذا النبي ﷺ جالساً مع بني سَلَمة يسألهم : « من سيّدكم يا بني سَلَمة ؟ » ..

قالوا : الجَدّ بن قيس، ولكنّا نُبَخّله ..

فقال ﷺ : « وأيُّ داءٍ أدوأ من البخل ؟! ولكن سيّدكم عمرو بن الجموح »[1]، لقد كان عمرو يستحق السّيادة إذن بشهادة رسول الله عليه الصلاة والسلام. ولننظر ما يفعل الكرم والخلق النبيل بصاحبه، وما يفعل البخل ..

ويُقبل العام الثاني للهجرة .. وفيه يتجهّز المسلمون لملاقاة المشركين في بدر، ويهمّ عمرو للخروج مع جيش الإسلام .. فيعترضه أبناؤه الأربعة - وهم الذين لم يفُتهم مشهد مع رسول الله ﷺ - ليمنعوه، رحمة به، إذ كان أعرج شديد العرج، وقد رخّص الله سبحانه لأمثاله بقوله جلّ وعلا : ﴿ لَيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ ﴾[2]، فقعد عمرو مُرغماً ولم يشارك في بدر ..

فلما كانت غزوة أُحُد .. نهض ابن الجموح مُصرّاً على الخروج .. فحاول الأبناء منعه، فقال لهم : منعتموني الخروج إلى بدر، فلا تمنعوني الخروج إلى أُحُد، فقالوا : إنّ الله عزّ وجلّ قد عذرَك .. فجاء عمرو ومعه أبناؤه ﷺ يحتكمون إلى رسول الله ﷺ .. قال عمرو : إنّ بَنيّ يريدون أن يحبسوني عن هذا الوجه والخروج معك فيه، فوالله إنّي لأودّ أن أطأ بعرجتي هذه في الجنّة.. فقال له النبي ﷺ : « أمّا أنت فقد عذرك الله فلا جهاد عليك » .. ثم التفت

---

(١) مجمع الزوائد (ج٩/٣١٥).

(٢) سورة الفتح (١٧).

ﷺ إلى بنيه فقال لهم : « ما عليكم ألّا تمنعوه، لعلّ الله أن يرزقه الشهادة » ..[1]

واختار عمرو ﷺ لنفسه إذن النبي ﷺ له .. فحمل سلاحه وانطلق معهم .. وعلى مشارف أُحُد .. استقبل القبلة ودعا قائلاً : اللهم ارزقني الشهادة، ولا تردّني إلى أهلي خائباً..[2]

وبدأت المعركة، واحتدم القتال .. ولكن عَمْراً ﷺ لم يستسلم أبداً .. ولئن كان في جسده علّة فإنه صحيح العقيدة .. صادق الطلب. واستجاب الله الدعاء فلم يردّه خائباً بل اختاره إلى جواره شهيداً .. وكذا ابنه خلّاد ومولاه أيمن .. ووضعت الحرب أوزارها .. وجعل النبي ﷺ يمرّ على أصحابه القتلى فيقول : « لا تغسّلوهم .. فإنّ كلّ جرح، أو كلّ دم يفوح مسكاً يوم القيامة »[3]، ثم وقف عليه الصلاة والسلام عند عمرو بن الجموح فقال : « فإني أراك تمشي برجلك هذه صحيحة في الجنّة » ..[4]

ويمضي النبي ﷺ في سيره متفقداً بقية الشهداء .. وأبو بكر ﷺ معه فيقول ﷺ عن شهداء أُحُد : « هؤلاء أشهد عليهم »، ويسأله الصدّيق مستفهماً لم لا يشهد عليهم أيضاً ؟! فيقول: ألسنا يا رسول الله إخوانهم، أسلمنا كما أسلموا، وجاهدنا كما جاهدوا ؟! فقال ﷺ: « بلى، ولكن لا أدري ما تُحْدِثُون بعدي » .. فبكى أبو بكر ﷺ .. ثم بكى .. وقال : أئنا لكائنون بعدك ؟! ..[5] ألا كم يُشعل هذا الجواب النبوي نار القلق في نفس المؤمن إذ يرى رسوله يقول لأكرم جماعة عرفها التاريخ « لا أدري ما تُحْدِثُون بعدي »، وكم يبعثه إلى المزيد من الطاعات والصّحو والمراقبة لنفسه ليحافظ على الاستقامة على شرع الله .. وما أسرع ما تقفز الدموع من عينيه أيضاً وهو يسمع جواب أبي بكر ﷺ : أئنا لكائنون بعدك ؟ فكم تقبح الحياة بعد رحيل النبي الحبيب عليه الصلاة والسلام ..

---

(١) انظر: سيرة ابن هشام (مج٢/٩٠).

(٢) أسد الغابة (ج٤/٩٤).

(٣) مسند الإمام أحمد (ج٣/٢٩٩).

(٤) الإصابة في تمييز الصحابة (ج٢/٥٣٠).

(٥) موطأ الإمام مالك (ج٢/٤٦٢).

ويُشرف النبي ﷺ على دفن أصحابه .. ويأتي دور ابن الجموح ﷺ فيقول : « ادفنوا عبد الله بن عمرو وعمرو بن الجموح في قبر واحد، لما كان بينهما من الصفاء » .. « ادفنوا هذين المتحابّين في الدنيا في قبر واحد ».[1]

ليَهْنِهما الصفاءُ .. فإن الصفاءَ - كما قال القائل - رأسُ مال المتحابّين.

وبعد مُضي ست وأربعين سنة على دفنهما، يُكشف القبر بسبب سيل أصاب المكان .. فيراهما جابر بن عبد الله بن عمرو بن حرام .. كأنّهما نائمان .. وعليهما الأكفان لم يتغيّر من حالهما شيء .. واجتمع الصحابة ليحوّلوا قبرهما إلى مكان آخر، فأخرجوهما، فإذا هما كأنما دُفنا بالأمس .. رطبين يثنيان ..[2] ولا عجب فالشهداء أحياء عند ربّهم يرزقون .. فرحين بما آتاهم ربّهم .. لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ..

---

(١) انظر: طبقات ابن سعد (ج٣/٥٦٢). وكانت زوجة عمرو بن الجموح أخت عبد الله بن عمرو بن حرام ﷺ.

(٢) انظر: سير أعلام النبلاء (ج١/٢٥٥).

عبدُ اللهِ بنُ عَمْرِو بنِ حَرام رضي الله عنه

مَنْ كلّمهُ اللهُ كِفاحاً

أبو جابر – عبدُ الله بنُ عَمْرِو بنِ حَرام

ابن ثعلبة السلمي الخزرجي

قال الله تعالى في كتابه العزيز: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ [1] صدق الله العظيم ..

هل تفكرّت يوماً متى نزلت هذه الآية الكريمة ؟ وهل خطر ببالك أن سبب النزول لم يكن حدثاً جرى على الأرض .. بل لقاءً خلف أستار الغيب في مقعد صدق عند مليك مقتدر.. حواراً في عِلّيين بين ربّ العزّة تبارك وتعالى وبين عبد من عباده الصالحين ..

ذلك عبد الله بن عمرو بن حرام ﷺ، صحابي فريد .. فريد في صِدقه وإقباله، وفريد في مُسارعته وفَوزه .. شَهيدٌ بَكاه الأهل في الأرض، وفُتحت له الجِنان أبوابها، وكلّمه ربه كِفاحاً [2].

في تلك الليلة المباركة التي بايع فيها وفد الأنصار رسول الله عند العقبة، كان عبد الله ابن عمرو بن حرام على موعد مع قدره العظيم .. فقد خرج مع قومه إلى الحج، وهو لا يزال على الشّرك .. لكنه لم يلبث إلّا قليلاً حتى أصبح صحابياً، مُبايعاً، نقياً .. ولنستمع إلى كعب ابن مالك ﷺ يروي لنا ما حدث :

يقول كعب ﷺ : ثم خرجنا إلى الحج، وواعدَنا رسولُ الله ﷺ العقبة من أوسط أيام التشريق، قال : فلما فرغنا من الحج وكانت الليلة التي واعدَنا رسولُ الله ﷺ لها، ومعنا عبد الله ابن عمرو بن حرام أبو جابر سيّد من ساداتنا وشريف من أشرافنا، أخذناه معنا، وكنا نكتم مَن معنا من قومنا من المشركين أمرنا، فكلّمناه وقلنا له : يا أبا جابر إنك سيّد من ساداتنا وشريف من أشرافنا وإنّا نرغب بك عما أنت فيه أن تكون حطباً للنار غداً، ثم دعوناه للإسلام وأخبرناه بميعاد رسول الله ﷺ إيّانا العقبة، قال : فأسلم وشهد معنا العقبة وكان

---

(١) سورة آل عمران (١٦٩).

(٢) كِفاحاً : مواجهة.

نقياً.[1]

في ليلة واحدة قطع عبد الله ﷺ أشواطاً في رحلة الإيمان ربما قطعها غيره في سنوات .. وكذا كانت حياته بعد الإسلام .. سباقاً إلى الله، ومُسارعة إلى الخير، وجهاداً تكلّل بالشهادة..

فمُنذ ذلك اليوم الذي وضع فيه يده في يد رسول الله ﷺ مُبايعاً أصبح عبد الله بن عمرو بن حرام في عِداد الأنصار الذين فتحوا قلوبهم لهذا الدين، ووضع كلّ ما يملك في خدمته ونصرته، مُبرهناً على صدق إيمانه ومحبّته لله ورسوله.

وبعد هجرة رسول الله ﷺ إلى المدينة المنورة وإرساء قواعد الدولة الجديدة .. نزل الإذن بالقتال .. وانضوى الأنصار تحت راية رسول الله ﷺ وهم يرَون الجهاد باباً من أبواب الجنة، فكانت غزوة بدر الكبرى في السنة الثانية للهجرة، وكان عبد الله بن عمرو بن حرام ﷺ في صفوف المجاهدين، شأنه في ذلك شأن سائر الأنصار والمهاجرين الذين استبسلوا وقاتلوا بعزم وإيمان .. وفي تلك المعركة أكرم الله المؤمنين بنصر عزيز ..

وفي أُحُد في السنة الثالثة جاءت قريش بجيش جرّار، وأقسمت على الثأر والانتقام لقتلاها في بدر .. وخرج المسلمون بقيادة رسول الله ﷺ، وخرج معهم عبد الله بن عمرو بن حرام ﷺ ..

وكان ﷺ قبل خروجه دعا ابنه جابراً فقال : يا بني إني لا أراني إلّا مقتولاً في أول من يُقتل، وإني والله لا أدَعُ بعدي أحداً أعزّ عليّ منك غيرَ نفس رسول الله ﷺ، وإنّ عليّ ديناً، فاقض عني دَيني، واستوص بأخواتك خيراً.[2]

ونشب القتال .. وفي الساعات الأولى، بينما كانت تباشير النصر تلوح، وقبل أن يخالف الرماة أمر نبيهم وتنقلب الموازين، كانت روح عبد الله ﷺ قد وصلت إلى عِلّيين حيث سبقته أشواقه. وتفيد الروايات أنه كان أول من قُتل في أُحُد .. ألم نقل إن حياته كانت

---

(١) انظر: سيرة ابن هشام (مج١/٤٤٠-٤٤١).

(٢) أسد الغابة (ج٣/٢٣٢).

سباقاً إلى الله ..

فلما انتهت المعركة راح المسلمون يتفقّدون القتلى والجرحى، وكانت عِدّة من استشهد تقارب بضعة وسبعين. وهُرع جابر إلى أبيه، رضي الله عنهما، وكان المشركون قد مثّلوا به أبشع تمثيل .. وراع جابراً المنظر فصار يبكي ﷺ ورسول الله إلى جانبه .. يقول جابر : قُتل أبي يوم أُحُد، وجُدِع أنفه، وقُطعت أذناه، فجعلت أكشف عن وجهه وأبكي، وجعل أصحاب رسول الله ﷺ ينهوني وهو لا ينهاني، وجعلت عمّتي فاطمة تبكيه .. فقال النبي ﷺ: « تبكين أو لا تبكين ما زالت الملائكة تُظلّله بأجنحتها حتى رفعتموه ».[1]

ودُفن عبد الله مع أخيه في الله عمرو بن الجموح، رضي الله عنهما، كما وصى النبي عليه الصلاة والسلام، فالأخوّة الإيمانيّة ممتدّة باقية .. والحبّ في الله لا ينتهي بالموت.

وعاد جابر ﷺ يعتصر قلبه الحزن والهمّ .. الحزن على فراق أبيه، والهمّ مما خلّفه أبوه من العيال والدَّيْن ..

يقول ﷺ : نظر إليّ رسول الله ﷺ فقال : « مالي أراك منكسراً مهتمّاً[2] »، قلت : يا رسول الله، قُتل أبي، وترك دَيْناً وعيالاً، فقال : « ألا أخبرك ؟ » .. واستمع جابر إلى النبي عليه صلاة الله وسلامه يحدّثه عن كرامة اختُص بها أبوه عبد الله .. كرامة لم تكن لأحد غيره.

قال عليه الصلاة والسلام : « ما كلّم الله أحداً قطّ إلّا من وراء حجاب، وإنه كلّم أباك كِفاحاً، فقال : يا عبدي تمنّني أُعطِك، قال : أسألك أن تردّني إلى الدنيا فأُقتل فيك ثانية، قال: إنه قد سبق منّي أنهم لا يرتدّون إليها ولا يرجعون، قال : يا ربّ أبلغ مَن ورائي، فأنزل الله تعالى: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ۝ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝ ﴾ ».[3]

---

(١) صحيح البخاري (ج١/٤٢٠).

(٢) أي مُغتماً.

(٣) سورة آل عمران (١٦٩-١٧٠)، والخبر في أسد الغابة (ج٣/٢٣٢).

ومسحت كلمات النبي ﷺ عن قلب جابر ﷺ الأسى والهمّ، وأوقدت فيه العزم من جديد .. وانقلب الحزن غبطة وسروراً.

أما الدَّين فقد تكفّل به المصطفى عليه الصلاة والسلام ..[1]

ذلك نبأ أبي جابر، وتلك هي عقيدة الصحابة رضوان الله عليهم .. لقد أدركوا جميعاً أن حياة الشّهيد لا تنتهي بالموت .. والآية الكريمة صارت مِفتاحاً يُفسّر لنا تسابق المجاهدين على الشهادة، في عصر النبوة، وفي العصور كلها ..

لقد فتح المسلمون قسماً عظيماً من العالم تحت راية التوحيد .. وأعادوا صياغة الدنيا من جديد، حققوا ذلك كله لأنهم حملوا مفتاح الانتصار : حب الموت .. لا لأنهم أرادوا أن يموتوا بل لأنهم أرادوا الحياة ! حياة القلوب بعقيدة التوحيد .. وإعمار الحياة الرشيدة السعيدة تحت لواء الحقّ والخير .. وآثروا الدار الآخرة في حوار الحيّ الذي لا يموت، إذ هي الحياة الحقيقية، وما الحياة الدنيا إلّا متاع الغرور.

سلام الله على روح أبي جابر ..

وعلى روح كلّ شهيد أقبل على الموت من أجل الحياة ..

---

(١) سير أعلام النبلاء (ج١/٣٢٧).

خُبَيْبُ بنُ عَدِيّ رضي الله عنه

بَطلٌ في الحبّ والوفاء

خُبَيْبُ بنُ عَديّ

ابن مالك بن عامر الأَوْسيّ

ما رأيك في بيت مبني على أرض تربتها الزعفران، وحصباؤها اللؤلؤ والياقوت، وملاطها المسك، تحيط به الأشجار قطوفها دانية وعطاؤها دائم .. يجاوره نهرٌ من عسل مصفّى .. أو نهرٌ من لبن .. أو خمر لذّة للشاربين .. والسقف فوقك عرش الرحمن ..

ولا تخش رحيلاً أو زوالاً فأنت خالد مُخلّد هنا .. في بيت بناه الله عزّ وَجلّ في الجنّة.. بل ويمكنك أن تشتريه الآن إن شئت، فثمنه لا يتجاوز اثنتي عشرة ركعة فقط من غير الفريضة.. هكذا قال رسول الله ﷺ : « ما من عبد مسلم يُصلّي لله كلّ يوم اثنتي عشرة ركعة تطوّعاً غير فريضةٍ إلّا بنى الله له بيتاً في الجنّة » ..[1]

لكن رويداً فليس الأمر بهذه البساطة .. فالطريق إلى بيتك في الجنّة ليس سهلاً مفروشاً بالورود .. بل هو وعْر شاقّ محفوف بالمكاره .. مليء بالمواقف والامتحانات .. كما قال سبحانه وتعالى : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ ﴾[2]..

ولكلٌّ إلى بيته في الجنة نمط من السير، وربما يعجبك سير خُبيب بن عدي إلى الجنّة فتحذو حذوه .. فهاك قصته:

خُبَيْب بن عدي ﷺ .. رجل بطل بكلّ ما تحمله صفات الرجولة من الإقدام والشجاعة والمروءة .. صحابي أنصاري بكل ما تعنيه هذه الكلمة من مكارم الأخلاق الإسلامية .. والحبّ والولاء والنصرة لهذا الدين العظيم ..

شهيد يحمل على صدره وساماً عظيماً .. هو وسام غزوة بدر ..

لكنّ حبيباً رحمه الله لم يستشهد في بدر، بل إن لاستشهاده قصة .. فقد كان واحداً

---

(١) صحيح مسلم (ج١/٥٠٣).

(٢) سورة آل عمران (١٤٢).

من العشرة الذين لبّوا نداء النبي ﷺ حين أرسلهم لمعرفة أخبار قريش واستكشاف مخططاتها وذلك في السنة الرابعة للهجرة .. فكان أولئك العشرة عيون النبي ﷺ على المشركين ..

خرج الرَّهط، وعليهم أميرهم عاصم بن ثابت ﷺ حتى وصلوا إلى (الهَدْأة) بين عُسفان ومكة فاحتبؤوا هناك، وتناولوا طعامهم، وما هو إلّا تمرات، فعرف أمرهم حيٌّ من بني هُذَيْل يقال لهم بنو لحيان فنفروا لهم بقريب من مئة رجل، وتتبّعوا آثارهم حتى وجدوا نوى تمر على الطريق، فعرفوا أنها نوىً من تمر يثرب .. فلحقوا بالنّوى الملقى على الدرب حتى وصلوا إلى الرهط العشرة. هنالك أحسّ بهم أمير الركب عاصمٌ بن ثابت فلجأ مع أصحابه إلى جبل مرتفع قليلاً، لكن ما يفعل عشرة لا يحملون سوى سلاح الراكب وهم يواجهون مئة من الفرسان مسلّحين ..

وساومهم الرُّماة فقالوا : انزلوا وأعطوا بأيديكم ولكم العهد والميثاق ألّا نقتل منكم أحداً .. لكن عاصماً الأمير استنكر هذه الفكرة فقال : أما أنا فوالله لا أنزل في ذِمّة كافر .. اللهم أخبر عنّا نبيّك .. فلما وجد الرماة إصرار القوم على موقفهم رَمَوهم بالنبل فاستشهد عاصم ولحق به ستة من أصحابه ﷺ .. ولم يبق سوى ثلاثةٍ شهدوا مصرع سبعة من خيرة أصحاب رسول الله ﷺ ..

واستجاب الله دعاء عاصم ﷺ، فعرف النبي ﷺ أمرهم فأخبر أصحابه، وكان ناس من قريش رغبوا أن يتقدموا من عاصم إذ كان قد قتل منهم يوم بدر رجلاً عظيماً، فأرسلوا من يُمثّل بجسده، أو يأخذوا من جسده شيئاً يُعرف، لكن الذي يحمي دين الله أول النهار، يحمي الله جسده آخر النهار، فما استطاعوا أن يصلوا إلى جسد عاصم فقد أرسل الله عزّ وجل جنوداً تحميه: ظلةً من الدَّبر[1] ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾[2] ..فلم يقدروا على عاصم..[3]

ونادى الرماة المشركون المسلمين الثلاثة الباقين وأعطَوهم العهد والميثاق مرّة أخرى فنزلوا، فلما استمكنوا منهم حلّوا أوتار قِسيّهم[4] فربطوهم بها وأسروهم، فقال عبد الله بن

---

(١) أي النحل.

(٢) سورة المدثر (٣١).

(٣) انظر: أسد الغابة (ج٢/١٠٣- ١٠٤).

(٤) جمع قوس.

طارق : هذا أول الغدر ! وأبى أن يصحبهم وعالجوه على أن يصحبهم فلم يفعل، وقال لهم : والله لا أصحبكم .. إنّ بهؤلاء لأسوة - مشيراً إلى الشهداء السبعة - فقتلوه، ثم أخذوا خُبَيباً وزيداً، رضي الله عنهما، أسيرين إلى مكة. هنالك أقبل بنو الحارث يغمرهم الحقد والرَّغبة في الثأر فاشتروا خبيباً ليقتلوه ثأراً لأبيهم الحارث، وكان خبيب قتله يوم بدر .. وحبسوه في بيت ماويّة مولاة حُجَيْر بن إهاب [1] ريثما تنقضي الأشهر الحرم فيقتلوه وقد حاولوا أن يذيقوه عذاباً نفسياً قبل قتله فأخبروه بمقتل زيد بن الدَّثِنَّة، فما زاده ذلك إلّا ثباتاً.

وتُحدّثنا ماويّة عمّا بقي من قصته العجيبة فتقول : والله ما رأيت أحداً خيراً من خُبَيْب، لقد اطّلعت عليه من صير الباب [2] وإنه لفي الحديد ما أعلم في الأرض حية عنب تؤكل، وإنّ في يده لَقِطْفَ [3] عنب مثل رأس الرجل يأكل منه، وما هو إلّا رزق الله ! وكان خبيب يتهجد بالقرآن، فكان يسمعه النساء فيبكين ويرققن عليه، فقلت له : يا خبيب هل لك من حاجة ؟ فقال : لا إلّا أن تسقيني العذب، ولا تطعميني ما ذُبح على النُّصُب وتخبريني إذا أرادوا قتلي. فلما انسلخت الأشهر الحرم، وأجمعوا على قتله، أتيته فأخبرته، فوالله ما رأيته اكترث لذلك، وقال : ابعثي إلي بحديدة أستصلح بها، فبعثت إليه بموسى مع ابني حسين، فلما ولّى الغلام قلت : أدرك والله الرجل ثأره، أي شيء صنعتُ ؟! بعثت هذا الغلام بهذه الحديدة فيقتله ويقول : رجل برجل. فلما أتاه ابني بالحديدة تناولها منه، ثم قال ممازحاً له : وأبيك إنك لجريء، أما خَشِيَتْ أمّك غدري، حين بعثت معك بحديدة وأنتم تريدون قتلي ؟ قالت ماويّة: وأنا أسمع ذلك، فقلت : يا خُبيب إنما ائتمنتك بأمان الله، وأعطيتك بإلهك، ولم أعطك لتقتل ابني، فقال خبيب : ما كنت لأقتله، وما نستحلّ في ديننا الغدر. قالت : ثم أخبرته أنهم مخرجوه فقاتلوه بالغداة.[4]

(ما نستحل في ديننا الغدر) .. نعم هكذا كان أصحاب محمّد ﷺ .. وهكذا يجب أن

---

(١) وهو الرجل الذي اشتراه.

(٢) أي شق الباب.

(٣) عنقود.

(٤) انظر: طبقات ابن سعد (ج٨/٣٠١-٣٠٢)، وسيرة ابن هشام (مج٢/١٧٢-١٧٣).

يكون كل مسلم.

وفي صبيحة اليوم التالي أخرجت قريش البطل مُكبّلاً بالحديد من حرم مكة إلى حلّها في منطقة التنعيم .. وقد أعدُّوا له صليباً خشبياً كبيراً ليثبّتوه فوقه ثم يقتلوه وهو مصلوب.

ورأى حبيب ﷺ الصليب فلم يجزع، ولكنه قال : إن رأيتم أن تدعوني حتى أركع ركعتين فافعلوا .. فتركوه فركع ركعتين، ثم قال : أما واللهِ لولا أن تظنّوا أني إنما طوّلت جزعاً من القتل لاستكثرت من الصلاة .. ثم أوثقوه بالحبال الغليظة على الصليب .. فكان حبيب أول من صلب في ذات الله تعالى وأوّل من سنّ الصلاة لكل مسلم قُتل صَبْراً[1] .. ونظر إليهم خُبَيْب فرأى نظرات الحقد تملأ عيونهم ثم نظر إلى السماء وقال : اللهم أحصهم عدداً، واقتلهم بدداً، ولا تغادر منهم أحداً .. ثم أنشد يناجي الله تعالى :

فلست أبالي حين أقتل مسلماً ... على أي جنب كان في الله مصرعي
وذلك في ذات الإله وإن يشأ ... يبارك على أوصال شِلوٍ مُمَزَّع

فاغتاظ كبار قريش وأقبلوا إليه يحاولون إضعافه، والعبث بمبادئه، فقالوا : أتحبّ أنّ محمّداً مكانك ؟ فردّ خُبَيْب : لا والله العظيم، ما أحبّ أن يفديني بشوكة يُشاكها في قدمه .. وراع أبا سفيان جوابه فصاح : ما رأيت من الناس أحداً يحبّ أحداً كحبّ أصحاب محمّد محمّداً ! ..

لقد كان هذا الحبّ هو الذي يصنع الأبطال ويرفعهم إلى صنع المعجزات .. وتحرّكت مشاعر حبيب ﷺ وهو على الجذع الخشبي أمام عيون مليئة بالعداوة، وخفق قلبه بالغربة والرهبة، فاستقبل القبلة بوجهه وقال: اللهم إنّا قد بلّغنا رسالة رسولك، فبلّغه الغداةَ ما يصنع بنا، اللهم إني لا أحد من يبلّغ رسولك مني السلام فبلّغه عني .. وتطايرت سهام المشركين تمزّق جسد البطل الشهيد، يقطر منها دمه الطاهر .. لكن روحه حلقت عالياً إلى ربها راضية مرضية ..

أما سلام حبيب فقد حملته ريح الصبا إلى رسول الله ﷺ وهو في المسجد .. فدخلت

---

(١) أي قتل أسراً.

قلبه الشريف .. وسمع الصحابة رسول الله يقول : « وعليك السلام، خُبَيْب قتلته قريش ».[1]

وما كان رسول الله ﷺ ليترك قريشاً تعبث بجسد خبيب، فنادى المقداد بن عمرو والزبير بن العوام، رضي الله عنهما، وأرسلهما لإنزال خبيب عن خشبته .. فأسرعا المسير حتى وصلا إلى التنعيم .. فأنزلاه وحمله الزبير على فرسه وهو رطب لم يتغير منه شيء، فأحسّ بهم المشركون فلحقوهم، فلما لحقوهم قذفه الزبير فابتلعته الأرض، فسُمي بليع الأرض ..[2] ولقد بحثوا عنه طويلاً بعد ذلك فلم يجدوا له أثراً .. كأنما حَنَتْ عليه الأرض فأخفته في ثراها.

ثم مرّت سنوات طويلة .. وتسلّم أمير المؤمنين عمر ﷺ الخلافة .. فاستعمل سعيد بن عامر الجُمَحيّ[3] ﷺ على حمص، فكانت تصيبه غَشية وهو بين ظهري القوم .. فشكاه بعضهم إلى عمر وقيل إن الرجل مصاب .. فسأله : يا سعيد، ما هذا الذي يصيبك ؟ فقال : والله يا أمير المؤمنين، ما بي من بأس، ولكني كنت فيمن حضر خُبَيْب بن عَدِيّ حين قُتل وسمعت دعوته، فوالله ما خطَرَت على قلبي وأنـا في مجلس قطّ إلّا غُشي عليّ.[4] لقد شهد سعيد مصرع خبيب قبل إسلامه، شهده على الصليب فلم يفعل شيئاً .. وظل شعوره بالذنب يطارده طيلة حياته ..

واليوم وقد مرّت قرون طويلة .. وقع المسجد الأقصى في الأسر، ولم يزل أسيراً .. وهناك على أرض فلسطين كلّ يوم يُقتل عشرات مثل خبيب وتبتلعهم الأرض .. فهل هناك مَنْ تصيبه غَشية كغشية سعيد بن عامر ﷺ .. خوفاً من الله وخجلاً ؟!! .. أم أنّ الرجال أمثال سعيد بن عامر ولّوا إلى غير عودة ؟! ..

رحم الله خبيب بن عدي .. وسعيد بن عامر ..

وكل الذين ربّاهم محمّد عليه الصلاة والسلام ..

---

(١) انظر: سيرة ابن هشام (مج٢/١٧٣)، وحياة الصحابة (ج٢/١١٠).

(٢) الإصابة في تمييز الصحابة (ج١/٤١٩).

(٣) تقدمت قصته.

(٤) انظر: سيرة ابن هشام (مج٢/١٧٣-١٧٤).

ثابتُ بنُ قَيْس رضي الله عنه

خطيبُ النبي ﷺ

ثابتُ بنُ قَيْس

ابن شَمّاس بن عَمْرو الخزرجي

ثابت بن قيس أحد الخاصّة الذين استظلّوا بظلال النبوة الوارفة .. حتى أُضيف اسمه إلى اسم رسول الله ﷺ، فهو خطيب رسول الله ﷺ .. وكان ذلك هو دوره المتميّز في الدولة الإسلامية الوليدة ..

والخَطابة عند العرب كانت وما زالت من أهم ضروب البيان .. لذا كانت معجزة النبي ﷺ (القرآن الكريم) : خِطاباً من الله تعالى إلى أهل الأرض .. كلمات من نور تأخذ بلبّ من يسمعها ويقرؤها .. وقد قال ﷺ : « إنّ من البيان لَسِحراً »[1]. ولاشك أن فن الخطابة بما يحويه من منطق حكيم وأسلوب بديع في الإقناع، كان ولم يزل سبباً في هداية أفراد وأقوام .. وكم من عبد رجع وتاب إلى ربه بسبب حوار مقنع، وخطاب رباني من قلب صادق، من أجل هذا جاء أمر الله لنبيّه ﷺ : ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ﴾[2]..

وصاحبنا (ثابت بن قيس) ﷺ سيّد من سادات الخزرج، ووجه من وجوه يثرب .. أسلم قبل دخول النبي ﷺ المدينة المنورة، فارتفع قدره بالانضمام إلى صفوف الإسلام .. ومن كان يذكر ثابت بن قيس لولا الإسلام !!

وفي صحيفة أعمال ثابت بن قيس ﷺ - خطيب رسول الله ﷺ - هداية وقد بأكمله، هو وفد من بني تميم لا يقِل عن ثمانين رجلاً دخلوا على رسول الله ﷺ في السّنة التّاسعة للهجرة. فقام خطيبهم (عُطارِد بن حاجِب) فقال : الحمد لله الذي له علينا الفضل والمنّ، وهو أهله، الذي جعلنا ملوكاً، ووهب لنا أموالاً عظاماً نفعل فيها المعروف، وجعلنا أعزّ أهل المشرق، وأكثره عدداً وأيسره عُدةً، فمَن مثلنا في الناس ؟ ألسْنا برؤوس الناس وأولي فضلهم، فمَن فاخرنا فليَعْدُدْ مثل ما عَدَدْنا، وإنّا لو نشاء لأكثرنا الكلام، ولكنّا نحيا من الإكثار فيما

---

(١) صحيح البخاري (ج٥/١٩٧٦).

(٢) سورة النحل (١٢٥).

أعطانا، وإنا نُعرف بذلك، أقول هذه لأن تأتوا بمثل قولنا، وأمرٍ أفضلَ من أمرنا، ثم جلس .. فقال رسول الله ﷺ لثابت بن قيس : « قم فأجب الرجل في خطبته » .. فقام ثابت ﷺ وقد كان حاضر البديهة، رائع البيان، جهير الصوت، إذا خطب أسر السامعين فقال :

الحمد لله الذي السماوات والأرض خلقه، قضى فيهنّ أمره، ووسع كرسيّه علمه، ولم يكُ شيء قطّ إلّا من فضله، ثم كان من قدرته أن جعلنا ملوكاً، واصطفى من خير خلقه رسولاً أكرمه نسباً، وأصدقه حديثاً، وأفضله حسباً، فأنزل عليه كتابه وائتمنه على خلقه، فكان خيرة الله من العالمين، ثم دعا الناس إلى الإيمان به فآمن برسول الله المهاجرون من قومه وذوي رحمه، أكرمُ الناس حسباً، وأحسن الناس وجوهاً، وخير الناس فعالاً، ثم كان أول الخلق إجابة، واستجاب لله حين دعاه رسول الله نحن .. فنحن أنصار الله ووزراء رسوله، نقاتل الناس حتى يؤمنوا بالله، فمن آمن بالله ورسوله منع منّا ماله ودمه، ومن كفر جاهدناه في الله أبداً، وكان قتله علينا يسيراً، أقول قولي هذا وأستغفر الله لي وللمؤمنين والمؤمنات والسلام عليكم ..

فقام سيد الوفد (الأقْرَع بن حابس) فقال : وأبي[1] إنّ خطيبهم أخطب من خطيبنا ..

لقد كانت الكلمة تأسر العربي، وكان الخطيب في عرفهم بمثل قومه .. ولقد تفتّحت عقولهم وقلوبهم لكلمات ثابت ﷺ، فأسلم القوم كلهم.[2]

هنيئاً لك يا ثابت .. فقد قال رسول الله ﷺ : « لأن يُهدى بك رجلٌ واحدٌ خير لك من حُمْرِ النَّعَم »[3] .. فكيف وقد هدى الله بخطبتك هذه ثمانين رجلاً ..

وإنّ المتأمل في كلمات ثابت بن قيس ﷺ يجد أن فخره لم يكن بما اعتادت العرب أن تفخر به، فقد بدأ خطبته بحمد خالق السماوات والأرض، ثم عرّف نبيّه الكريم ﷺ، وامتدح المهاجرين والأنصار بجهادهم وكريم فعالهم ودفاعهم عن الدين .. ولقد تحدث ﷺ بعزّة المؤمن

---

(١) أي أقسم بأبي.

(٢) انظر: سيرة ابن هشام (مج٢/٥٦١-٥٦٢)، وطبقات ابن سعد (ج١/٢٩٤).

(٣) صحيح البخاري (ج٣/١٠٧٧).

المستمدة من الانتساب للإسلام ..

هذا الكلام البليغ الذي أجراه الله على لسان ثابت بن قيس ﷺ لم ينبعث من رجاحة عقله أو مواهبه الفذّة فقط، بل انبعث من إيمان عميق استقرّ في قلب تنوّر بمشكاة النبوة .. وما من شك في أن الكلام الذي يخرج من قلب متحرّق لنصرة الإسلام يدخل إلى قلوب السامعين ..

ولقد كانت لثابت ﷺ صُحبة مع كتاب الله تبارك وتعالى، يقرؤه بتدبّر .. فلا يَمرّ بآية إلّا ويسلّط نورها على زوايا نفسه، ليُزكّيها عملاً بقوله تعالى: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴾ [1].. وحين نزل قول الله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ [2]، اشتدّت هذه الآية عليه، فأغلق عليه بابه وطفق يبكي .. فافتقده رسول الله ﷺ أياماً فأرسل إليه فجاءه، وقد أعمّته شدّة محاسبته نفسَه، فقال: يا رسول الله لقد خشيت أن أكون قد هلكت، قال ﷺ: « ولِمَ ؟ » قال : نهانا الله أن نُحبّ أن نُحمَد بما لم نفعل وأحدني أُحبّ الحمد، ونهانا عن الخُيلاء وأحدني أحبّ الجمال .. فهدّأ النبي ﷺ من روعه وبشّره قائلاً : « يا ثابت ألا ترضى أن تعيش حميداً، وتقتل شهيداً، وتدخل الجنّة ؟ »، فأشرق وجه ثابت بهذه البشرى وقال: بلى يا رسول الله .. [3]

وحين نزل قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ وَلَا تَجْهَرُوا۟ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾ [4]، تجنّب ثابت ابن قيس ﷺ مجالس رسول الله ﷺ برغم شدّة حبّه له .. فافتقده النبي عليه الصلاة والسلام وقال : « مَن يعلم لي علمه ؟ [5]»، فقال رجل : يا رسول الله أنا أعلم لك علمه، فأتاه فقال له : ما شأنك ؟ فقال ثابت : شرّ ..

---

(١) سورة الشمس (٩).

(٢) سورة لقمان (١٨).

(٣) انظر: المستدرك (ج٣/٢٣٤).

(٤) سورة الحجرات (٢).

(٥) أي من يأتيني بخبره.

لقد كان ثابت ﷺ جهير الصوت يرفع صوته فوق صوت النبي ﷺ فخشي أن يكون من أهل النار. فأتى الرجل النبي ﷺ فأخبره، فقال ﷺ : « اذهب إليه فقل له إنك لست من أهل النار، ولكنك من أهل الجنّة ».[1]

هكذا كان ثابت ﷺ دائم البحث عن صلاح قلبه، شديد المحاسبة لنفسه، شأن الصحابة جميعاً. وبهذه المحاسبة الدقيقة سجلهم التاريخ في صفحاته وسوّدهم على العالم، وجعلهم قدوةً لمن بعدهم ..

ومضت سنوات .. وتحققت بشرى رسول الله ﷺ فقد عاش ثابت حميداً وقُتِل شهيداً، وكما أبدع ثابت في خطبه وعذب كلامه، أبدع في جهاده في سبيل الله .. فقد شهد أحداً والمشاهد بعدها جميعاً .. ثم استشهد ﷺ في خلافة أبي بكر الصديق في موقعة اليمامة .. وهي المعركة التي دارت بين المسلمين ومسيلمة الكذاب حين ارتد وقومه عن الإسلام وادعى النبوة.

كانت وقعة اليمامة معركة رهيبة وكان له فيها شأن عظيم فقد كان يومئذ أميراً لجند الأنصار بقيادة خالد بن الوليد رضي الله تعالى عنهما .. فخاف أن يخالط الوهن قلوب المقاتلين المسلمين فقام وحنّط نفسه[2] استعداداً للموت ثم لبس أكفانه وقال للناس : يا معشر المسلمين ما هكذا كنّا نقاتل مع رسول الله ﷺ، بئس ما عوّدتم أعداءكم من الجرأة عليكم وبئس ما عودتم أنفسكم من الانخذال لهم ..

ثم صاح : اللهم إني أبرأ إليك مما جاء به هؤلاء - يقصد جيش مسيلمة الكذاب - وأعتذر إليك مما صنع هؤلاء - يقصد تراجع بعض جنود المسلمين - .[3]

ثم استبسل في قتاله .. وكان معه متاعه من هذه الدنيا الزائلة : حنُوطه وأكفانه .. وقد حفر لنفسه حفرة كي يرقد فيها إذا قُتل .. ثم أخذ يشحن قلوب المسلمين حميّة وعزماً، ويملأ أفئدة الكفار رعباً، ليس بخطبه وكلماته هذه المرّة بل بأفعاله ..

---

(١) صحيح البخاري (ج٤/١٨٣٤).

(٢) حمل مادة الحنوط على جسده كناية عن إرادة الموت.

(٣) انظر: حياة الصحابة (ج٢/١٢١).

ولم يزل كذلك حتى سقط في ساحة القتال .. شهيداً فرحاً مستبشراً بوعد النبي الصادق « لكنك من أهل الجنّة » .. وانتصر المسلمون في هذه المعركة على عدوهم، وطهّروا أرض اليمامة من مسيلمة الكذاب وأتباعه.

ولكن حكاية ثابت بن قيس ﷺ لم تنته باستشهاده ؟!.. بل بقي فيها مشهد عجيب .. فبينما رجل من المسلمين نائم .. أتاه ثابت بن قيس في منامه فقال : إني أوصيك بوصيّة فإيّاك أن تقول هذا حلم فتضيّعه .. إنّي لما قُتلت بالأمس مرّ بي رجل من المسلمين فأخذ مني درعاً وإن منزله في أقصى الناس، وعند خبائه فرس يستنّ [1] في طِوَله[2]، وقد أكفأ على الدرع بُرْمة[3]، وجعل فوق البرمة رَحلاً، فائت خالد بن الوليد فليبعث إلى درعي فليأخذها، فإذا قدمت على خليفة رسول الله فأعْلِمه أن عليَّ من الدَّيْن كذا وكذا، ولي من المال كذا وكذا، وفلان من رقيقي عتيق، وإياك أن تقول هذا حلم فتضيعه !! ..

فاستيقظ الرجل وقد تملّكه العجب والفضول، فأتى خالدَ بنَ الوليد ﷺ وقصّ عليه ما رأى، فأرسل خالد من يأتي بالدرع فوجدها كما ذكر تماماً ! وقدم على أبي بكر ﷺ فأخبره، فأنفذ أبو بكر وصيته ..[4] فلم تنجز وصيّة ميت بعد موته إلّا وصية ثابت بن قيس !!

انتهت قصة ثابت بن قيس ﷺ.. قصة حقيقية لم يتخلّلها شيء من الخيال، فاحفظها .. وإذا أتيت مضجعك لتنام هذه الليلة فاقرأ دعاء النوم كما وصى نبيّك الكريم عليه الصلاة والسلام، وتذكّر خطيبه ثابت بن قيس، ثم نم قرير العين لعلّ ثابتاً يأتيك في المنام يوصيك بشيء ! ..

---

(١) استنّ : أفلت.

(٢) الطِوَل: وهو الحبل الذي يُربط به الخيل ويطول لها لترعى.

(٣) أكفأ على الدرع بُرمة : أي قلب على الدرع قدْراً ليخفيها.

(٤) انظر: أسد الغابة (ج١/٢٢٩-٢٣٠)، والإصابة في تمييز الصحابة (ج١/١٩٥-١٩٦).

أسماءُ بِنْتُ يَزيد رضي الله عنها

وافدةُ النِّساء

أسماءُ بنتُ يَزيد

ابن السَّكَن بن رافع بن امْرِئ القَيْس الأَوْسيّة

شَرُفت المدينة بهجرة النبي عليه الصلاة والسلام إليها، وأشرقت بأنواره، وبدأ بإرساء قواعد دولة الإسلام الأولى، وأقبل الأنصار يبايعونه رجالاً ونساءً .. وكانت في النساء امرأة فصيحة جريئة، قامت تبايع بصدق، وتعاهد بعزم .. امرأة فريدة بين نساء الأنصار، اسمها أسماء بنت يزيد.

ولما اقتربت رضي الله عنها من الرسول عليه الصلاة والسلام رأى في يديها سوارين كبيرين من ذهب .. تقول أسماء : فبصر بِيَ بصيصهما وقال : « ألقي السوارين يا أسماء ! أما تخافين أن يسوِّرك الله بأساور من نار ؟ ». لم يكن التزيّن بالذهب يوماً محرّماً في الإسلام على النساء، ولكن لا يجوز إظهار الزينة أمام الرجال .. وكان النبي عليه الصلاة والسلام يربّي نموذجاً فريداً من النساء، انصرَفن عما يشغل المرأة إلى نصرة العقيدة والدين الجديد .. وسارعت أسماء بنت يزيد، رضي الله عنها، فنزعت السوارين وألقتهما.[1]

وظلّت رضي الله عنها من المسارعات إلى الخير .. فتوجّهت إلى طلب العلم والتفقّه في الدين، حتى أصبح شغلها الشاغل، فكانت تسمع حديث النبي ﷺ بوعي المؤمنة وتسأل عن دقائق الأمور زيادة في الحرص. ولم يمنعها حياؤها من التفقّه .. فقد سألت النبي عليه الصلاة والسلام يوماً عن تطهّر المرأة من الحيض لكي تعلّم باقي نساء المسلمين ..

ثم إنها صارت لشدّة إقبالها على طلب العلم وحرأتها في طلبه ورجاحة عقلها نائبة النساء لدى رسول الله ﷺ، فقد دخلت عليه يوماً فقالت : يا رسول الله ! إني رسول مَنْ ورائي من جماعة نساء المسلمين، كلّهن يقلن بقولي، وهُنّ على مثل رأيي : إنّ الله بعثك إلى الرجال والنساء فآمنّا بك واتّبعناك، ونحن - معاشرَ النساء - مقصوراتٌ محذرات، قواعد بيوت، ... وإن الرجال فُضلوا بالجُمُعات وشهود الجنائز والجهاد، وإذا خرجوا للجهاد حفظنا لهم أموالهم، وربّينا أولادهم، أفنشاركهم في الأجر يا رسول الله ؟

---

(١) انظر: حلية الأولياء (ج٢/٧٦).

لقد كانت رضي الله عنها تبحث عن أبواب الخير وكسب الأجر فرأتها قد فُتحت للرجال دون النساء، فسألت عن نصيب النساء منها، وأعجب النبي عليه الصلاة والسلام بكلامها إذ رآه جزلاً فصيحاً صادقاً، وسُرّ لرغبتها ورغبة النساء في الثواب، فالتفت إلى أصحابه فقال : « هل سمعتم مقالة امرأة أحسن سؤالاً عن دينها من هذه ؟ » .. فقالوا : لا يا رسول الله .. ثم أقبل عليها فقال : « انصرفي يا أسماء، وأعلمي من وراءك من النساء أن حُسن تبعّل إحداكن لزوجها، وطلبها لمرضاته، واتّباعها لموافقته، يَعدِل كلّ ما ذكرت للرجال » .. فانصرفت رضي الله عنها مهلّلة مكبّرة مستبشرة بما قاله عليه الصلاة والسلام.(١) فقد طمأن الرسول ﷺ النساء إلى يوم القيامة أن أجرهن محفوظ مادمن يؤدين الواجب .. وأن ليس القيام على أمور البيت والزوج بالأمر الرخيص عند الله، فلقد جعله النبي ﷺ يوازي الجهاد ! .. ولا عجبَ، فمراعاة الزوج وطاعته يحتاجان إلى مجاهدة، والله لا يضيع عمل عامل منّا من ذكر أو أنثى .. وعادت سفيرة النساء إلى أخواتها المؤمنات تبشّرهن بجواب النبي عليه الصلاة والسلام.. وكانت رضي الله عنها تلقّب بخطيبة النساء.

ثم تتالت السنون وأسماءُ، رضي الله عنها، في مدرسة النبوة تنهل من علومها وتعلّم النساء.. ولكن نفسها ظلّت تتوق إلى الجهاد .. وظلّت رضي الله عنها تتطلّع إلى المشاركة في الغزوات، لكن أحوالها على عهد رسول الله لم تسمح لها بذلك .. فلمّا مضى عصر النبوة، وبدأت الفتوحات العظيمة فتح الله تعالى لأسماء بنت يزيد باب الجهاد على مصراعيه، وقرّت عينها في معركة اليرموك.

كانت اليرموك كُبرى معارك الفتح في الشام، وكان الروم قد حشدوا جيوشاً هائلة للدفاع عن أمجادهم ودولتهم التي آذن الله بزوالها. وقد انطلق مع جيش المسلمين عدد كبير من النساء لخدمة الجند ورعاية الجرحى والمصابين .. فخرجت أسماء، رضي الله عنها، برفقة الجيش الذي تجمّع بقيادة خالد بن الوليد ﷺ. كان خالد ﷺ يعرف أن المعركة ستكون شديدة الضراوة فأراد أن تسهم النساء في الجهاد، فالمسلمون بحاجة لكلّ عون، فدعا ﷺ نساء المسلمين وأمرهن بالوقوف خلف الصفوف قائلاً لهن : من يولّي هارباً، اقتلنه !.. وقالت

(١) انظر: الاستيعاب في معرفة الأصحاب (ج٤/١٧٨٨).

النساء في اليرموك من وراء الرجال أشدّ القتال ..[1] وكانت أسماء، رضي الله عنها، معهن يومئذٍ، تناول السلاح، وتسقي الماء، وتضمد الجراح، وتستقبل مع النساء من انهزم من الرجال، فيضربنهم بالخشب والحجارة. فلمّا حمي الوطيس واشتدّ القتال لم تتمالك أسماء عن أن تجاهد فراحت تبحث عن سلاح تقاتل به أعداء الله، فلم تجد إلا عمود الخيمة فحملته وشقّت طريقها بين الصفوف تضرب به الروم .. حتى قَتلت بعمود فسطاطها يومئذٍ تسعة من الروم ! ..[2] وخرجت رضي الله عنها من المعركة مُثقلة بالجراح، لكنها قريرة العين، فرحة بنصر الله المبين..

عاشت رضي الله عنها بعد المعركة سنوات طويلة .. وكان التّابعون يقصدونها ليسمعوا منها حديث رسول الله ﷺ، فقد روت عنه أكثر من ثمانين حديثاً ..

فإذا تفاخرت النساء بملبس وحُلِي ومسكن، فإن أسماء، رضي الله عنها، تفخر بإسهامها في حركة التعليم في دولة الإسلام الأولى وبانضوائها إلى صفوف المجاهدين في سبيل الله.

توفيت رضي الله عنها سنة ثلاثين للهجرة وقبرُها في دمشق ..[3]

رحم الله أسوة النساء في ميادين العلم والجهاد .. خطيبة النساء .. أسماء بنت يزيد ..

---

(١) انظر: البداية والنهاية (ج٧/٨).

(٢) انظر: الإصابة في تمييز الصحابة (ج٤/٢٣٥).

(٣) سير أعلام النبلاء (ج٢/٢٩٧).

سَلْمانُ الفارِسيّ رضي الله عنه

«سلمان منّا آل البيت»

(مِن كلام النبي ﷺ)

سَلْمان الفَارِسي

هذا الذي ركب بحور البحث عن الحقيقة، وصبر طويلاً على أمواجها المتلاطمة مترقّباً أن يرسوَ يوماً على برّ الأمان .. حتى كان له ما أراد، فعند مرفأ المصطفى ﷺ رست سفينة سلمان الفارسي ﷺ، بعد طول ترحال.

ونترك الحديث للصحابي الجليل سلمان ﷺ، يحدّثنا عن رِحلة الأعماق وعن غرائب الأسفار والأقدار، وعن طول جهاده وعجيب إصراره في سبيل الوصول إلى الحقّ المبين.

قال سلمان ﷺ : كنت رجلاً فارسيّاً من أهل أصبهان ... وكان أبي دِهقان[1] قريته، وكنت أحبّ خلق الله إليه، لم يزل به حُبّه إيّاي حتى حبسني في بيته كما تحبس الجارية، واجتهدت في المجوسية حتى كنت قَطْن النّار[2]، الذي يوقدها لا يتركها تخبو ساعة !

قال : وكانت لأبي ضيعة عظيمة ... فخرجت أريد ضيعته، فمررت بكنيسة من كنائس النصارى، فسمعت أصواتهم فيها وهم يُصلّون. وكنت لا أدري ما أمْرُ الناس لحبس أبي إيّاي في بيته، فلما سمعت أصواتهم دخلت عليهم أنظر ما يصنعون، فلما رأيتهم أعجبني صلاتهم، ورغبت في أمرهم وقلت : هذا والله خير من الدين الذي نحن عليه، فوالله ما برِحْتهم حتى غَرَبت الشمسُ، وتركت ضيعة أبي فلم آتها، ثم قلت لهم : أين أصل هذا الدين؟ قالوا : بالشام فرجعت إلى أبي وقد بعث في طلبي، وشغلته عن عمله كلّه، فلما جئته قال : أي بنيّ ! أين كنت ؟ أولم أكن عهدت إليك ما عهدت ؟ قال : قلت : يا أبتِ ! مررت بأناس يصلّون في كنيسة لهم، فأعجبني ما رأيت من دينهم، فوالله ما زلت عندهم حتى غربت الشمس، قال: أي بني ! ليس في ذلك الدين خير، دينك ودين آبائك خير منه، قال: قلت له : كلّا، والله إنّه لخير من ديننا، قال : فخافني، فجعل في رجلي قيداً، ثم حبسني في بيته، قال : وبعثتُ إلى النصارى فقلت لهم : إذا قدم عليكم ركب من الشام فأخبروني بهم، فقدم عليهم ركب من الشام تجّار من النصارى فأخبروني بهم، فقلت لهم : إذا قضوا حوائجهم وأرادوا الرجعة إلى

---

(١) الدهقان : رئيس القرية، وأصل الكلمة فارسي.

(٢) قطن النار : خادمها.

بلادهم فآذنوني بهم، فلما أرادوا الرجعة إلى بلادهم آخروني بهم، فألقيت الحديد من رجلي، ثم خرجت معهم حتى قدمت الشام، فلما قدمتها قلت : من أفضل أهل هذا الدين علماً ؟ قالوا : الأسقف في الكنيسة، فجئته، فقلت له : إني قد رغبت في هذا الدين فأحببت أن أكون معك، أخدمك في كنيستك فأتعلّم منك، وأصلّي معك.

قال : ادخل، فدخلت معه، قال : وكان رجل سوء، يأمر بالصدقة ويرغبهم فيها، فإذا جمعوا إليه شيئاً منها اكتنزه لنفسه ولم يعطه المساكين ! حتى جمع سبع قِلال من ذهب وورِق، قال : فأبغضته بغضاً شديداً لما رأيته يصنع؛ ثم مات ...

وجاؤوا برجل آخر فجعلوه مكانه، فما رأيت رجلاً لا يصلّي الخمس[1] أرى أنه كان أفضل منه، وأزهد في الدنيا ولا أرغب في الآخرة، ولا أدأب ليلاً ولا نهاراً منه، قال : فأحببته حبّاً لم أحبّه شيئاً قبله .. فأقمت معه زماناً، ثم حضرته الوفاة .. فقلت له : يا فلان ! إني قد كنت معك، وأحببتك حبّاً لم أحبّه شيئاً قبلك، وقد حضرك ما ترى من أمر الله تعالى، فإلى من توصي بي ؟ وبم تأمرني ؟ قال : أيْ بني ! والله ما أعلم اليوم أحداً على ما كنت عليه، فقد هلك الناس، وبدّلوا، وتركوا أكثر ما كانوا عليه إلّا رجلاً بالمَوْصِل، وهو فلان، وهو على ما كنتُ عليه فالحق به .

فلما مات وغُيّب لحقت بصاحب المَوْصِل، فقلت له : يا فلان ! إن فلاناً أوصاني عند موته أن ألحق بك، وأخبرني أنك على أمره، فقال لي : أقم عندي، فأقمت عنده، فوجدته خير رجل على أمر صاحبه، فلم يلبث أن مات، فلما حضرته الوفاة قلت له : يا فلان ! إنّ فلاناً أوصى بي إليك، وأمرني باللحوق بك، وقد حضرك من أمر الله ما ترى، فإلى من توصي بي ؟ وبمَ تأمرني ؟ قال : يا بني ! والله ما أعلم رجلاً على مثل ما كنا عليه إلّا رجلاً بنَصيبين، وهو فلان فالحق به ..

فلما مات وغُيّب لحقت بصاحب نَصيبين، فأخبرته خبري، وما أمرني به صاحبه، فقال : أقم عندي، فأقمت عنده، فوجدته على أمر صاحبيه، فأقمت مع خير رجل، فوالله ما

---

(١) أي غير مسلم.

لبث أن نزل به الموت، فلما حضر قلت له : يا فلان ! إن فلاناً كان أوصى بي إلى فلان ثم أوصى بي فلان إليك، فإلى من توصي بي ؟ وبم تأمرني ؟ قال : يا بني ! والله ما أعلمه بقي أحدٌ على أمرنا آمرك أن تأتيه إلّا رجلاً بعَمّورية من أرض الروم، فإنّه على مثل ما نحن عليه، فإن أحببت فأته، فإنّه على أمرنا ..

فلما مات وغُيّب لحقت بصاحب عمّورية، فأخبرته خبري، فقال : أقم عندي فأقمت عند خير رجل على هَدي أصحابه وأمرهم، واكتسبت حتى كانت لي بقرات وغنيمة، ثم نزل به أمر الله، فلما حُضِر قلت له : يا فلان ! إني كنت مع فلان، فأوصى بي إلى فلان، ثم أوصى بي فلان إلى فلان، ثم أوصى بي فلان إليك فإلى من توصي بي ؟ وبمَ تأمرني ؟

قال : أي بني ! والله ما أعلمه أصبح اليوم أحد على مثل ما كنّا عليه من الناس آمرك به أن تأتيه، ولكنّه قد أظلّ زمان نبيّ، وهو مبعوث بدين إبراهيم عليه السلام، يخرج بأرض العرب، مهاجَره إلى أرض بين حَرّتين بينهما نخل، به علامات لا تخفى، يأكل الهديّة، ولا يأكل الصّدَقة، وبين كتفيه خاتم النبوّة، فإن استطعت أن تلحق بتلك البلاد فافعل ..

قال : ثمّ مات وغُيّب فمكثت بعمّورية ما شاء الله أن أمكث، ثم مرّ بي نفر من كَلْب[1] تجّار، فقلت لهم : احملوني إلى أرض العرب أعطيكم بقراتي هذه وغنيمتي هذه، قالوا: نعم، فأعطيتهموها وحملوني معهم، حتى إذا بلغوا وادي القُرى ظلموني، فباعوني من رجل يهودي عبداً، فكنت عنده، ورأيت النخل، فرجوت أن يكون البلد الذي وصف لي صاحبي، ولم يحقّ[2] في نفسي. فبينا أنا عنده إذ قدم عليه ابن عمّ له من بني قريظة من المدينة فابتاعني منه، فاحتملني إلى المدينة، فوالله ما هو إلّا أن رأيتها فعرفتها بصفة صاحبي فأقمت بها .. وبُعِث رسول الله ﷺ فأقام بمكة ما أقام لا أسمع له بذكر، مع ما أنا فيه من شغل الرقّ. ثم هاجر إلى المدينة، فوالله إنّي لفي رأس عَذْق[3] لِسيّدي أعمل فيه بعض العمل .. وسيدي جالس تحتي، إذ أقبل ابن عمّ له، حتى وقف عليه، فقال : يا فلان ! قاتل الله بني قَيْلة، والله

---

(١) من قبائل العرب.

(٢) أي لم يكن على يقين.

(٣) نخلة.

إنهم الآن يجتمعون بقُباء على رجل قدم عليهم من مكة اليوم، يزعمون أنه نبي، قال سلمان : فلما سمعتها أخذتني العُرَواء[1] حتى ظننت أني سأسقط على سيدي، فنزلت عن النخلة، فجعلت أقول لابن عمّه ذلك : ماذا تقول ؟ فغضب سيدي، فلكمني لكمة شديدة ثم قال : ما لك ولهذا ؟ أقبِل على عملك، قال : قلت : لا شيء إنما أردت أن أستثبته عمّا قال ..

وقد كان عندي شيء قد جمعته، فلما أمسيت أخذته ثم ذهبت به إلى رسول الله ﷺ وهو بقُباء، فدخلت عليه فقلت له : إنّه قد بلغني أنك رجل صالح، ومعك أصحاب لك غرباء ذوُو حاجة، وهذا شيء قد كان عندي للصدقة، فرأيتكم أحقّ به من غيركم، قال : فقرّبته إليه، فقال رسول الله ﷺ لأصحابه : « كلوا »، وأمسك يده فلم يأكل، قال : فقلت في نفسي: هذه واحدة !

قال : ثم انصرفت عنه فجمعت شيئاً، وتحوّل رسول الله ﷺ إلى المدينة، ثم جئت به، فقلت له : إني قد رأيتك لا تأكل الصدقة، فهذه هديّة أكرمتك بها، قال : فأكل رسول الله ﷺ منها وأمر أصحابه فأكلوا معه، فقلت في نفسي : هاتان ثنتان !!

قال : ثم جئت رسول الله ﷺ فوجدته ببقيع الغرقد قد تبع جنازة وحوله أصحابه، وعليه شملتان، فسلّمت عليه، ثم استدرت أنظر في ظهره هل أرى الخاتم الذي وصف لي صاحبي، فلمّا رآني رسول الله ﷺ استدبرته عرف أني أستثبت في شيء وُصف لي، قال : فألقى رداءه عن ظهره فنظرت إلى الخاتم فعرفته .. فانكببت عليه أقبله وأبكي، فقال لي رسول الله ﷺ : « تحوّل[2] »، فتحوّلت فجلست بين يديه، فقصصت عليه حديثي، فأعجَبَ رسول الله ﷺ أن يسمع ذلك أصحابه.[3]

ذلك ما كان من خبر سلمان ﷺ .. ونتساءل : أية أشواق تلك التي أخرجت سلمان طائعاً مختاراً من الثراء والنعيم إلى عالم مجهول .. ليضرب في الأرض بحثاً عن الحق المبين .. حتى ينتهي به الأمر إلى العبودية والرق فلا يبالي .. وكأن نور الهدف الذي يسعى إليه كان

---

(١) الرعدة من البرد والانتفاض.

(٢) أي اجلس أمامي.

(٣) انظر: سيرة ابن هشام (مج١/٢١٤-٢٢٠)، وطبقات ابن سعد (ج٤/٧٥-٧٩).

أقوى من كل شيء حوله ..

وتُذكّرنا رحلة سلمان ﷺ بحثاً عن الحق بأبي الأنبياء إبراهيم الخليل عليه السلام الذي كان لا يحب الآفلين [1].. فكم من نجم أفل في حياته .. وهو ينتقل من أصبهان.. إلى الشام .. إلى المَوْصِل .. إلى نَصِيبين .. إلى عَمّورية .. حتى وجد الحقّ في المدينة المنورة .. فوجّه هنالك وجهه للذي فطر السماوات والأرض حنيفاً، بين يدي خاتم المرسلين محمّد صلوات الله وسلامه عليه ..

لم يكن وصوله إلى المدينة المنورة ﷺ مصادفة، لكنه القدر الإلهي الذي ساقه ليسكن ويقرّ بعد طول بحث وعناء فيقول : أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أنك أنت محمّد رسول الله.

جاء سلمان الفارسي ﷺ إلى الإسلام وفي جعبته رصيد كبير من المعرفة والعلم .. حصيلة أسفاره الكثيرة وسماعه .. وقراءاته المتنوعة لكتب الفرس والروم واليهود .. ولقد عُرِف عنه أنه كان لبيباً، عاقلاً، حازماً ..

وفي المدينة آخى النبي ﷺ بينه وبين أبي الدرداء، رضي الله عنهما .. فكانت أُخُوّة صادقة في الله لرجلين على مستوى رفيع من العلم والحكمة وصدق المناصحة لله عزّ وجلّ ..

فلقد قال النبي ﷺ في أبي الدرداء : « هو حكيم أمّتي »، وقال في أبي عبد الله (سلمان الفارسي) : « لقد أُشْبِعَ سلمان عِلْماً » [2] .. ورسائلهما [3] التي كانا يتبادلانها شواهد صدق على ذلك ..

ولما استقرّ الرسول ﷺ في طَيبة الحبيبة .. وتمّ بناء المسجد النبوي الشريف .. وتوثيق الأخوة بين المهاجرين والأنصار .. ابتدأت تعبئة جيش المسلمين .. فكانت أفراح النصر في بدر، ثم دروس الطاعة في أُحُد، أما سلمان ﷺ فكان عاجزاً عن المشاركة لأنه كان عبداً مملوكاً.

---

(١) انظر قصة سيدنا إبراهيم في سورة الأنعام (٧٤-٨١).

(٢) انظر: طبقات ابن سعد (ج٤/٨٥).

(٣) سيرد ذكرها.

ثم شاء الله تعالى له أن يتحرّر من العبودية، وها هو ذا يروي لنا ﷺ قصة تحرره فيقول: قال لي رسول الله ﷺ : « كاتِب يا سلمان [1] »، فكاتبت صاحبي على ثلاثمئة نخلة أحييها له بالفقير [2] وأربعين أوقيّة فقال ﷺ لأصحابه : « أعينوا أخاكم »، فأعانوني بالنخل، الرجل بثلاثين وديّة [3]، والرجل بعشرين وديّة، والرجل بخمس عشرة وديّة، والرجل بعشر، يعين الرجل بقدر ما عنده، حتى اجتمعت لي ثلاثمئة وديّة فقال لي رسول الله ﷺ : « اذهب يا سلمان ففقّر لها [4]، فإذا فرغت فأتني أكن أنا أضعها بيدي »، قال : ففقّرت وأعانني أصحابي، حتى إذا فرغت جئته فأخبرته، فخرج ﷺ معي إليها، فجعلنا نقرّب إليه الودّي ويضعه رسول الله ﷺ بيده حتى فرغنا، فوالذي نفس سلمان بيده ما ماتت منها وديّة واحدة، فأدّيت النخل، وبقي عليّ المال، فأتي رسول الله ﷺ بمثل بيضة الدجاجة من ذهب من بعض المعادن، فقال : « ما فعل الفارسي المكاتب ؟ »، فدعيت له، فقال : « خذ هذه فأدّها مما عليك يا سلمان »، قلت : وأين تقع هذه يا رسول الله مما عليّ ؟ قال : « خذها فإنّ الله عزّ وجلّ سيؤدّي بها عنك »، قال سلمان : فأخذتُها، فوزنت لهم منها، والذي نفس سلمان بيده أربعين أوقيّة !! فأوفيتهم حقّهم وعُتقت.[5]

ومنذ ذلك اليوم انضم سلمان ﷺ إلى قافلة المجاهدين .. فشهد مع رسول الله ﷺ الغزوات كلها فلم يفته مشهد قط .. وكان أول مشهد شهده مع رسول الله ﷺ (غزوة الخندق) وذلك في السنة الخامسة للهجرة. والناس حتى يومنا هذا لا يذكرون الخندق إلّا ويذكرون سلمان معه لأنّه ﷺ هو الذي أشار على النبي ﷺ بحفره .. فقد بلغ الرسول ﷺ أن جيشاً من قريش وغطفان وغيرهم قد اتفقوا على قتال المسلمين، وتهيّئوا للخروج إلى المدينة وهم يتحرّقون شوقاً للقضاء على المسلمين وكان عددهم نحو عشرة آلاف مقاتل. واستشار رسول الله ﷺ أصحابه فقال سلمان : يا رسول الله ! إنّا كنّا بفارس إذا حوصرنا خندقنا علينا،

---

(١) اتفق مع سيدك لعتقك.

(٢) الحفرة التي تغرس فيها الفسيلة.

(٣) الودّي : صغار النخل.

(٤) أي احفر لها موضعاً تغرس فيه.

(٥) مسند الإمام أحمد (ج٥/٤٤٣) باختصار يسير.

فأعجب ذلك الرسول والصحابة الكرام وكانت خطّة حكيمة حقاً أخذ بها الرسول ﷺ، فكان ذلك من الأدلّة النيّرة على مرونة الإسلام وتقبّله لكل إبداع وارد أو ابتكار جديد مادام يعود على المسلمين بالخير..

وأمر النبي عليه الصلاة والسلام بحفر الخندق من جهة الشمال لأن المدينة كانت محمية البنيان والبساتين ومحاطة بالحَرّات[1] من كل جانب سوى الشمال .. ووقف عليه الصلاة والسلام فقال : « بسم الله وبه هُدينا[2]، ولو عبدنا غيره شقِينا، فأحِبَّ ربّاً وأحبّ دينا »[3]، وهبّ الصحابة الكرام .. يحفرون الأرض بأدواتهم البسيطة .. والنبي ﷺ معهم .. يحفر وينقل التراب .. وينظر إليهم نظرة الأب الحاني وهم منهمكون مثابرون في إنجاز عملهم، فيدعو لهم ويقول: « اللهم إنّ العيش عيش الآخرة .. فاغفر للأنصار والمهاجرة »، وتدخل دعوته المباركة قلوب الصحابة المجاهدين .. فتحفزهم على العمل .. وتملأ أرواحهم غبطة وسروراً فيجيبونه :

نحن الذين بايعوا محمّداً على الجهاد ما بَقِينا أبداً ..[4]

وكان سلمان ﷺ رجلاً قويّاً يعمل عمل عشرة رجال، وكان النبي ﷺ قد وكّل بكل جانب من الخندق مجموعة من الصحابة، فاختلف المهاجرون والأنصار في سلمان حُبّاً به وإعظاماً .. فقال المهاجرون : سلمان منّا .. وقال الأنصار : لا بل سلمان منّا .. فحسم النبي ﷺ الخلاف قائلاً : « سلمان منّا - أهلَ البيت - »[5]، فكان هذا هو النسب الجديد والشرف الذي حَظي به سلمان ﷺ .. الانتساب لآل بيت النبي عليه الصلاة والسلام.

وتابع الصحابة الكرام الحفر .. وفي ناحية من نواحي الخندق كان سلمان ﷺ يضرب الأرض، فاعترضته صخرة كبيرة، وصعبت عليه رغم قوته .. يقول سلمان : ضربت في ناحية

---

(١) أراض بركانية.

(٢) وفي رواية بدينا أو ابتدأنا.

(٣) انظر: دلائل النبوة للبيهقي (ج٣/٤١٤).

(٤) صحيح البخاري (ج٤/١٥٠٤).

(٥) انظر: طبقات ابن سعد (ج٤/٨٣).

من الخندق فغلظت عليّ صخرة، ورسول الله ﷺ قريب منّي، فلما رآني أضرب ورأى شدّة المكان عليّ نزل فأخذ المعول من يدي، فضرب به ضربة لمعت تحت المعول برقة، قال : ثم ضرب به ضربة أخرى فلمعت تحته برقة أخرى، قال : ثم ضرب به الثالثة فلمعت تحته برقة أخرى، قال : قلت : بأبي أنت وأمي يا رسول الله ! ما هذا الذي رأيتُ لمع تحت المعول وأنت تضرب ؟ قال ﷺ : « أوَ قد رأيت ذلك يا سلمان ؟ »، قال : قلت : نعم، قال : « أمّا الأولى فإنّ الله فتح عليّ بها اليمن، وأمّا الثانية فإنّ الله فتح عليّ بها الشام والمغرب، وأمّا الثالثة فإنّ الله فتح عليّ بها المشرق ».[1]

إنها بشارات بالفتح المبين لمعت أنوارها تحت صخرة سلمان .. سلمان الذي جاب الآفاق وطاف تلك البلاد، الآن يطرب بسماع البشارة بفتحها : عما قريب سوف تعلو في سمائها رايات التوحيد ..

وأُنجز العمل العظيم في ستة أيام، وتم حفر الخندق قبل أن يصل جيش الأحزاب إلى مشارف المدينة .. ولمّا وصلوا أرادوا اقتحام المدينة فحال بينهم وبينها خندق سلمان ﷺ كما حال الموج بين فرعون وموسى عليه السلام .. وكان الخندق مفاجأة عظيمة لهم فقالوا : والله إنّ هذه لمكيدة ما كانت العرب تكيدها، فقيل لهم : إنّ معه رجلاً فارسياً أشار عليه بذلك.

لم يكن رجلاً فارسياً فحسب .. بل كان كما قال ﷺ : « سلمان سابق فارس ».[2]

وانتهت المعركة وانهزم الأحزاب، وكان الخندق عاملاً هاماً من عوامل النصر .. وحمد سلمان الفارسي ربه على هذا التوفيق .. وما النصر إلّا من عند الله ..

عاش سلمان ﷺ حياة طويلة جدّاً .. شهد فيها لمعات النور تحت معول النبي ﷺ تضيء الآفاق : مفاتيح الشام وقصورها الحمر .. مفاتيح اليمن وأبواب صنعاء .. مفاتيح فارس وقصر المدائن الأبيض .. بل صار ﷺ والي المدائن المسلمة وأميراً عليها !!

وباعدت بين الصحابة المسافاتُ بسبب خروجهم من الجزيرة مجاهدين فاتحين ..

---

(١) سيرة ابن هشام (مج٢/٢١٩).

(٢) انظر: طبقات ابن سعد (ج٤/٨٢).

وسجّل التاريخُ أخبار رسائلَ بين الصحابة الذين تفرّقوا في الشام والعراق كُتِبَت بقلم العلم والحبّ في الله .. بعضها ثمرة المواخاة بين سلمان وأبي الدرداء، رضي الله عنهما ..

فممّا كتبه سلمان إلى أبي الدرداء، رضي الله عنهما : إن العلم كالينابيع يغشاهنّ الناس، فيختلجه [1] هذا وهذا، فينفع الله به غيرَ واحد، وإنّ حكمةً لا يُتكلم بها كجسد لا روح فيه، وإنّ علماً لا يخرج ككنز لا يُنفق منه، وإنما مثل العالم كمثل رجل حمل سراجاً في طريق مظلم يستضيء به من مرّ به، وكل يدعو له بالخير !! .. [2]

وممّا كتبه أبو الدرداء إلى سلمان، رضي الله عنهما : هلمّ إلى الأرض المقدسة .. فردّ عليه سلمان: إن الأرض لا تقدّس أحداً، وإنما يقدّس الإنسانَ عملُهُ، وقد بلغني أنك جُعِلت طبيباً - يقصد قاضياً - فإن كنت تبرئ فنعمًا لك، وإن كنت متطبباً [3] فاحذر أن تقتل إنساناً، فتدخلَ النار.. فكان أبو الدرداء إذا قضى بين اثنين ثم أدبرا عنه، نظر إليهما، وقال : متطبِّبٌ والله، ارجعا إليّ، أعيدا عليّ قصتكما !! .. [4]

وجاء إلى سلمان ﷺ رجلان فسلّما عليه ثم قالا : جئناك من عند أخ لك بالشام، فقال : من هو ؟ قالا : أبو الدرداء، قال : فأين هديته التي أرسل بها معكما ؟ قالا : ما أرسل معنا هديّة، قال : اتّقيا الله وأدّيا الأمانة، ما جاءني أحد من عنده إلّا جاء معه بهديّة، قالا : لا يرفع علينا هذا [5]، إنّ لنا أموالاً فاحتكم بها. قال : ما أريد أموالكما، ولكني أريد الهديّة التي بعث بها معكما، قالا : والله ما بعث معنا بشيء إلّا أنّه قال لنا : إنّ فيكم رجلاً كان رسول الله ﷺ إذا خلا به لم يبغ أحداً غيره، فإذا أتيتماه فأقرئاه مني السلام، قال : فأيّ هدية كنت أريد منكما غير هذه، وأي هدية أفضل من السلام تحية من عند الله مباركة طيبة .. [6]

---

(١) خلجت الشيء من يده أي نزعته.

(٢) انظر: مختصر تاريخ ابن عساكر (ج١٠/٥٠).

(٣) متطبب : يتعاطى علم الطب وهو لا يعرفه معرفة جيدة.

(٤) انظر: مختصر تاريخ ابن عساكر (ج١٠/٥١).

(٥) أي نخشى أن ينتشر بين الناس أننا لا نؤدي الأمانة.

(٦) انظر: حياة الصحابة (ج٣/١٨٦).

ورغم فضل سلمان العظيم في الإسلام، وعلمه الواسع الغزير، وصحبته النبيَّ ﷺ وقربه منه، وتوليه المدائن .. فقد ظل يحمل نفساً متواضعة، ليّنة الجانب، فكان ﷺ يتصدق بخراجه .. ويأكل من كسب يده فيعمل الخوص [1] ..

ويُروى عن تواضعه ﷺ أن رجلاً اشترى مرّة علفاً لفرسه، فقال لسلمان وهو لا يعرفه: تعال فاحمل، فحمل سلمان واتّبعه، فجعل الناس يسلّمون على سلمان، فقال الرجل : من هذا ؟ قالوا : سلمان الفارسي .. فقال : والله ما عرفتك، أعطني ! فقال سلمان : لا، إني أحتسب بما صنعت خصالاً ثلاثاً : أمّا إحداهن فإني ألقيت عني الكبر، وأمّا الثانية فإني أعين رجلاً من المسلمين على حاجته، وأمّا الثالثة فلو لم تسخّرني لسخّرت من هو أضعف مني، فوقيته بنفسي!! .. [2]

ذلك من نبأ أخلاق سلمان ﷺ، ولم يزل بعدُ في أخلاقه جانب آخر ساطع أيضاً إنه حبّه للإسلام وشدّة اعتزازه به، لا يعتزّ بشيء سواه أبداً .. قيل له يوماً : انتسب يا سلمان .. فقال : ما أعرف لي أباً في الإسلام، ولكنّي سلمان ابن الإسلام، فحين بلغ ذلك عمر ﷺ قال: لقد علمت قريش أن الخطّاب كان أعزهم في الجاهلية، وأنا عمر ابن الإسلام أحو سلمان ابن الإسلام .. [3]

ولقد قال سلمان ﷺ عن نفسه : كرمي ديني، وحسبي التراب، ومن التراب خُلقت وإلى التراب أصير، ثم أُبعث وأصير إلى الموازين، فإن ثقلت موازيني فما أكرم حسبي وما أكرمني على ربي يدخلني الجنّة .. وإن خفّت موازيني فما ألأم حسبي وما أهونني على ربي، ويعذّبني إلّا أن يعود عليّ بالمغفرة والرحمة على ذنوبي .. [4]

فلما تقدّم العمر بسلمان ﷺ وقرب من أبواب الآخرة، لقي عبد الله بن سلام ﷺ يوماً فقال أحدهما لصاحبه : أيْ أخي، إن لقيت ربّك قبلي فأخبرني ماذا لقيت منه، فقال أحدهما

---

(١) يعمل بالنسج.

(٢) انظر: مختصر تاريخ ابن عساكر (ج١٠/٤٨-٤٩).

(٣) انظر: مختصر تاريخ ابن عساكر (ج١٠/٤٥-٤٦).

(٤) المصدر السابق.

لصاحبه : أو يلقى الأحياءُ الأمواتَ ؟ قال : نعم ! أما المؤمنون، فإنّ أرواحهم في الجنّة، وهي تذهب حيث شاءت ..[1]

ولم يلبث سلمان ﷺ أن مرض .. فعاده أصحابه فبكى .. فقيل له : ما يبكيك ؟ قال: أما والله ما أبكي جزعاً من الموت .. ولا حرصاً على الرجعة، ولكن إنّما أبكي لأمر عهده إلينا رسول الله ﷺ أخشى ألّا نكون حفظنا وصيّة نبيّنا؛ إنّه قال لنا : « ليكن بلاغ أحدكم من الدنيا كزاد الراكب ».[2] ثم قال لامرأته : ما فعلتِ بالمسك الذي جئنا به من بَلَنْجَر[3] .. فقالت : هو ذا، قال : ألقيه في الماء، ثم اضربي بعضه ببعض، ثم انْضَحِي[4] حول فراشي، فإنه الآن يأتينا قوم ليسوا بإنس ولا جنّ ..[5]

وانتقل سلمان إلى جوار ربه راضياً مرضياً في السنة السادسة والثلاثين للهجرة .. ثم جاءت روحه بعد ذلك تزور عبد الله كما قال سلمان .. فقال ابن سلام : بينما أنا ذات يوم قائل بنصف النهار فأغفيت إغفاءة إذ جاء سلمان فقال : السلام عليك ورحمة الله، فقلت : السلام عليك ورحمة الله أبا عبد الله، كيف وجدت منزلك ؟ قال : خيراً، وعليك بالتوكّل .. فنعم الشيء التوكّل، توكّل وأبشر فلم أرَ مثل التوكّل قطّ ..[6] تلك كانت وصية سلمان ﷺ .. ولا عجب .. ألم تكن رحلته في طلب الحق كلها جهاداً متواصلاً، مع تسليم وتوكّل على الله الذي ساقه لأعظم الأقدار ..

رحل سلمان ﷺ عن الحياة، أمّا ذكره فسيبقى خالداً .. ما دمنا نصلّي ونسلّم على النبي وآله وصحبه الطيبين الطاهرين .. وما دمنا نذكر غزوة الخندق .. ونرفد ديننا بكل مفيد إلى يوم الدين .. وما دمنا نسافر من إيران إلى الشام إلى العراق إلى تركيا إلى المدينة .. نجوب العالم حاملين قصة سلمان ﷺ في قلوبنا، نبحث عن الحقّ والخير في نفوس الناس أجمعين ..

---

(١) انظر: مختصر تاريخ ابن عساكر (ج١٠/٥٦).

(٢) انظر: طبقات ابن سعد (ج٤/٩١).

(٣) اسم مدينة ببلاد الخزر.

(٤) رُشّي.

(٥) انظر: مختصر تاريخ ابن عساكر (ج١٠/٥٥). ويقصد الملائكة التي تقبض الأرواح.

(٦) انظر: حياة الصحابة (ج٤/٤٩٨).

حَبيبُ بنُ زَيْد رضي الله عنه

ثَباتٌ حتى النهاية

حَبيبُ بنُ زَيْد

ابن عاصم المازني النجاري الخزرجي

في بيعة العقبة الثانية .. وقفت أسرة من أُسَر الأنصار تُبايع النبي ﷺ .. أُسرة أصيلة الجذر .. طيّبة الفرع .. مُباركة الثَّمَر .. الأب فيها زيد بن عاصم من أوائل الأنصار السابقين.. والأم غنيّة عن التعريف .. مشهورة باسمها وكنيتها معاً .. هي نُسيبة بنت كعب .. أو (أم عمارة) !! معهما ولداهما الصغيران عبد الله .. وحَبيب ..

جاؤوا من يثرب جميعاً ليشهدوا هذا الموقف العظيم .. حاملين على عاتقهم مهمة نصرة الدين الجديد، وحماية النبي ﷺ وأصحابه المهاجرين .. رضي الله تعالى عنهم أجمعين ..

يومئذٍ امتدّت يد الطفل الصغير (حبيب) تُبايع مع الرجال .. فصافحه النبي ﷺ مثلما صافح الكبار .. ليكون له شأن فيما بعد ..

لقد زرع اهتمام الرسول ﷺ في أعماق الطفل حبيب في ذلك الموقف الجادّ الخطير سرّاً عظيماً، لم يزل يكبر به حتى تحوّل سريعاً إلى عالم الرجال .. وأعانه على ذلك التحوّل تربيةُ أبويه المباركين اللذين رسخت في قلوبهما عقيدة التوحيد ومحبّة الرسول ﷺ حتى لم يتخلّفا عن مشهد معه قط .. فكان حبيب ﷺ يستنشق عندهما عطر المحبة المُقدّس، وعبق الجهاد العظيم.. كان يرى أمه تخرج مع المسلمين في غزوهم لتُضمّد جراحهم، فإذا دعاها داعي الجهاد إلى حمل السلاح لَبّت ..

ولعلّ أروع مشاهد البطولة التي ظهرت في هذه الأسرة المباركة ما كان منها يوم أُحُد.. ففي ذلك اليوم خرج زيد وزوجه ومعهما عبد الله، وقد خلّفوا حبيباً إذ كان لا يزال صغيراً .. فقاتلوا أعداء الله .. فلما انهزم المسلمون وطوّقهم المشركون .. وانكشف رسول الله وهو في وجه العدو .. انطلق عبد الله بن زيد يقاتل دون رسول الله ﷺ، فطُعن وبدأ الدم ينزف من عضده، فأقبلت أمّه نسيبة وربطت جرحه بعصابة كانت قد أعدّتها لمداواة الجرحى.. لكنها لم تعفه عن متابعة القتال فقالت : انهض يا بُنيّ فضارب القوم .. لقد كان حُبّ الله وحُبّ رسوله يفوقان في نفس الأم العظيمة حُبّ الولد .. وتلك علامة الإيمان

والتصديق لقول النبي ﷺ : « والذي نفسي بيده، لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحبّ إليه من والده وولده »[1].

هنالك ناداها رسول الله ﷺ : « من يطيق ما تطيقين يا أم عمارة » .. ثم قال لأصحابه : « ما التفتّ يميناً ولا شمالاً إلّا وأنا أراها تقاتل دوني » ..[2] وقد خرجت نسيبة يوم أُحُد باثني عشر جرحاً ما بين طعنة برمح أو ضربة بسيف ! ..

ذلك هو المحضن الذي نشأ فيه حبيب ﷺ .. وليس عجيباً أن يضرب أروع مثال للبطولة والفداء من كانت أمه نسيبة وأبوه زيد ! ..

وتتلاحق الأعوام سريعاً .. ويأتي عام الوفود في السنة التاسعة للهجرة .. ويَقدَم على رسول الله ﷺ وفد بني حنيفة الذين يسكنون منطقة اليمامة في شرق الجزيرة العربية .. ليشهدوا بوحدانية الله سبحانه ورسالة نبيّهم ﷺ .. وكان معهم رجل اسمه مُسَيْلَمَةُ بنُ حبيب الذي سمّاه النبي ﷺ فيما بعد بمُسيلمة الكذّاب، ولم يُعرف بعد ذلك باسم سواه، ذلك أن مُسيلمة هذا أعلن إسلامه مع قومه لكنه حين رجع إلى اليمامة غيّر وبدّل فارتدّ .. وادّعى النبوة ! ..

وكان النبي ﷺ في هذه الأثناء قد رأى في منامه أن في يديه سوارين من ذهب فقال : « فأهمّني شأنهما، فأوحي إليّ في المنام أن أنفخهما، فنفختهما فطارا، فأوّلتهما كذّابَيْن يخرجان بعدي »[3].

وصدَق رسول الله ﷺ .. فهاهو ذا مسيلمة يكذّب ويدّعي النبوة في أرض اليمامة .. والأسودُ العَنْسي يفعل مثله في اليمن ..

وبلغ من سُخف عقل مسيلمة وجُرأته على الله أن راح يَسْجَع الأساجيع ويَنْظِم من كلام الكُهّان والمنجمين مضاهاةً للقرآن الكريم .. ثم وضع عن قومه الصلاة وأحلّ لهم الخمر

---

(١) صحيح البخاري (ج١/١٤).

(٢) انظر: طبقات ابن سعد (ج٨/٤١٣، ٤١٥).

(٣) صحيح البخاري (ج٣/١٣٢٦)، وانظر: سيرة ابن هشام (مج٢/٥٩٩).

والزّنى !! فتبِعَه قومه وأطاعوه ..

فلما كَثُرَ أتباعه كتب إلى رسول الله ﷺ رسالة فيها : من مسيلمة رسول الله إلى محمّد رسول الله. سلام عليك، أما بعد؛ فإني قد أُشركت في الأمر معك، وإن لنا نصف الأرض، ولكن قريشاً قوم يعتدون. وبَعَث بالكتاب مع رجلين من قومه، فلما قُرئ الكتاب على رسول الله ﷺ قال لهما : « فما تقولان أنتما ؟ »، قالا : نقول كما قال، قال : « أتشهدان أني رسول الله ؟ »، فقالا : نشهد أن مسيلمة رسول الله، فقال النبي ﷺ : « أما والله لولا أن الرُّسل لا تقتل لضربت أعناقكما ».

وردّ عليه النبي ﷺ بكتاب قال فيه : « بسم الله الرحمن الرحيم، من محمّد رسول الله إلى مُسَيْلَمةَ الكذّاب، السّلام على من اتبع الهدى، أمّا بعد؛ فإنّ الأرض لله يورثها من يشاء من عباده، والعاقبة للمتّقين ». (١)

واختار عليه الصلاة والسلام لإيصال الرسالة إلى مسيلمة الكذاب في اليمامة الشاب المقدام .. سليلَ الأبوين البطلين الماجدين .. حبيبَ بن زيد .. فانطلق ﷺ حاملاً رسالة النبي ﷺ في جُعبته .. وحاملاً عقيدته في قلبه ..

ووصل حبيب ﷺ إلى مُسيلمة فقرأ الكتاب .. فتوجّه مسيلمة إليه بسؤال : أتشهد أن محمّداً رسول الله ؟ فقال حبيب بثقة مطلقة : نعم.

فسأل مسيلمة : أتشهد أنّي رسول الله ؟

قال حبيب : لا أسمع !!!

فغضب مسيلمة أشدّ الغضب، وقرّر قتل حبيب خارقاً كل الأعراف السياسية والإنسانية التي كانت تعرفها العرب .. وراح يُقطّع أعضاءه عضواً عضواً وفي كل مرّة يُكرّر السؤال : أتشهد أن محمّداً رسول الله ؟ فيجيب حبيب بثقة لا تتزعزع : نعم. أتشهد أني رسول الله ؟ فيكرر حبيب إجابته : لا أسمع .. ولم يزل حبيب على ثباته لا يضعف، إذا ذُكر له نبيّه الكريم أعلن إيمانه به وصلّى عليه .. وإذا ذُكر مسيلمة قال لا أسمع، لا يزيد على ذلك.. حتى تقطّع جسده المبارك بين يدي الكذّاب أعضاء وأشلاء متفرّقة .. ولفظ أنفاسه

---

(١) انظر : سيرة ابن هشام (مج٢/٦٠٠-٦٠١).

الأخيرة وهو يشهد للمصطفى ﷺ بالنبوة والرسالة ..[1]

أيُّ ثبات هذا ؟! رضي الله عنه وأرضاه .. ثباتٌ والله لا يقوم في الخيال ! .. وإزاء تلك الثقة العظيمة والإيمان المشرق بالله سبحانه يصبح الجسد أهون شيء يُقدّمه المرء ثمناً لإيمانه وبُرهاناً عليه، وتَضْمَحِل قُوة الشِّرك المزيفة وتفنى ..

أما نسيبةُ فقد احتسبت حبيباً، رضي الله عنهما، عند الله فهي التي ربّته لِمثل هذا الموقف الذي لا يصمد أمامه إلّا أبطالٌ تربّوا في مدرسة الإسلام وفي ظلال النبوة ..

ذلك ما كان من نبأ حبيب ﷺ، فهل كان من نبأ عظيم بعد وفاته لتلك الأسرة المباركة ؟

نعم، فقد تفاقم أمر مسيلمة بعد انتقال النبي صلوات الله وسلامه عليه إلى جوار ربه، فأخذ يجمع الجموع ويتهيّأ لقتال المسلمين .. فجهز له الخليفة أبو بكر الصدّيق ﷺ جيشاً بقيادة خالد بن الوليد ﷺ ..

وانضمت الأم المجاهدة كعهدها إلى جيش المسلمين ومعها ابنها عبد الله، رضي الله عنهما .. وأصابتها الجِراح .. وفي فرحة النصر ومقتل مسيلمة على يد وحشي وابنها عبد الله نسيت جراحها ..[2] فقد طُهّرت أرض اليمامة من شر الكذّاب وفُجوره ..

أما ولدها حبيب ﷺ فلئن رحل عنها إلى الدار الآخرة، إنها مطمئنة أن ستكون معه هناك في الجنة، في مقعد صدق عند مليك مقتدر ..

رضي الله عنهم آلَ بيتٍ محبّين طاهرين مجاهدين ..

---

(١) انظر: الإصابة في تمييز الصحابة (ج٤/٤١٨).

(٢) انظر: سيرة ابن هشام (مج٢/٧٢).

أَنسُ بنُ مالك رضي الله عنه

خُوَيْدِمُك يا رسولَ الله !

أنسُ بنُ مالك

ابن النَضْر بن ضَمْضَم بن زيد بن حَرام النجاري الخزرجي

هانحن أولاء نرى الأنصار يدخلون تباعاً يسلّمون على رسول الله ﷺ .. مُرحّبين بقدومه مهاجراً إلى مدينتهم المنورة .. وهاهي ذي أم سُليم بنت مِلحان تدخل مع الداخلين ممسكة يد ابنها أنس الذي لم يتجاوز العاشرة بعد .. قائلة : يا رسول الله إن رجال الأنصار ونساءهم قد أتحفوك، غيري، وإني لم أجد ما أتحفك به إلّا ابني هذا فتقبّله مني يخدمك ما بدا لك ..[1] تلك هي هدية أم سليم لرسول الله ﷺ !! ابنُها أحبُّ الناس إليها تقدّمه إلى من هو أحبّ إليها منه. وبذلك حظي أنس بالعيش في كنف النبوة .. ينهل من معينه الصافي فامتاز عن أترابه أيَّ امتياز .. ويحدّثنا أنس ﷺ عن هذه النشأة المباركة في البيت النبوي الشريف وعن أخلاق النبي ﷺ قائلاً : فخدمته عشرَ سنين فما ضربني، ولا سبّني، ولا عبس في وجهي.[2] وكان ﷺ يمازح أنساً فيقول له : « يا ذا الأذنين »[3]، وإذا دعاه قال له تحبّباً : « يا أنيس »[4]..

وفي جعبة أنس ﷺ الكثير من التوجيهات النبوية الكريمة الخاصة به، فإذا أضفنا إليها ما حصّله من المعرفة لطول ملازمته للمصطفى ﷺ عرفنا سرّ بلوغه تلك المكانة العظيمة في العلم والحديث عن رسول الله ﷺ .. ولْنسمعه يحدّثنا عن بعض تلك التوجيهات النبوية المباركة التي وعتها ذاكرته الغضّة ﷺ .. قال : قال لي رسول الله ﷺ : « يا بنيّ إذا دخلت على أهلك فسلّم، يكون بركة عليك وعلى أهل بيتك ».[5]

وقال لي رسول الله ﷺ : « يا بُني إيّاك والالتفات في الصلاة، فإن الالتفات في الصلاة هَلَكة »[6] .. « يا بُني إن قدرت أن تصبح وتمسي وليس في قلبك غشّ لأحد فافعل »، ثم قال

---

(١) انظر: حياة الصحابة (ج٣/٢٣٣).

(٢) مجمع الزوائد (ج١/٢٧١).

(٣) انظر: سنن الترمذي (ج٥/٦٤٠).

(٤) انظر: صحيح مسلم (ج٤/١٨٠٥).

(٥) سنن الترمذي (ج٥/٥٦).

(٦) سنن الترمذي (ج٢/٤٨٤).

لي : « يا بُني وذلك من سنّتي ومن أحيا سنّتي فقد أحياني، ومن أحياني كان معي في الجنة ».[1]

ولقد خدمت رسول الله ﷺ يوماً، حتى إذا رأيت أني قد فرغت من خدمته، قلت : يَقيل النبي ﷺ، فخرجت من عنده، فإذا غِلْمة يلعبون، فقمت أنظر إلى لعبهم، فجاء النبي ﷺ فانتهى إليهم فسلّم عليهم، ثم دعاني فبعثني في حاجة، فكأنه في فيّ [2] حتى أتيته، وأبطأت على أمّي، فقالت : ما حبسك ؟ قلت : بعثني رسول الله ﷺ إلى حاجة. قالت : ما هي؟ قلت: إنه سرّ للنبي ﷺ. فقالت : إحفظ على رسول الله ﷺ سرّه، فما حدّثت بتلك الحاجة أحداً من الخلق.[3]

وسأل أنسٌ ﷺ رسول الله ﷺ : يا رسول الله متى يُترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؟ قال : « إذا ظهر فيكم ما ظهر في بني إسرائيل قبلكم »، قلت : وما ذاك يا رسول الله؟ قال : « إذا ظهر الإرْهَاق[4] في خياركم، والفاحشة في شراركم، وتحوّل المُلْك في صغاركم، والفِقه في رُذالكم[5] ».[6]

هكذا شبَّ سيدنا أنس ﷺ في هذا الجو الإيماني والمناخ الصالح .. فحمل الأمانة منذ صغره.. ولمّا يتجاوز العاشرة وتلك سِنّ اللعب واللهو لدى الأقران، لكنه رضوان الله عليه وعى معنى مسؤوليةِ خدمة رسول الله وأدرك مفهوم الأمانة على حداثة سنّه، فكان موفّقاً كلّ التوفيق ..

وكان تلميذاً نجيباً في مدرسة رسول الله .. حريصاً على التزوّد من العلم النافع .. شغوفاً بمعرفة المزيد .. خبيراً بفن التلقّي عن رسول الله ﷺ.

---

(١) سنن الترمذي (ج٥/٤٦).

(٢) أي في فمي والمراد : السّر.

(٣) انظر: حياة الصحابة (ج٣/١٩٥).

(٤) الإرهاق : التهمة والإثم.

(٥) رذالكم جمع رذل وهو الخسيس. وفي روايات أخرى : «... في أرذالكم».

(٦) انظر: حياة الصحابة (ج٤/٥٣).

فهلمّ نتعلم منه ذلك الفن العظيم .. يقول ﷺ : كنا قُعوداً مع نبي الله ﷺ - قرابة ستين رجلاً - فيحدّثنا الحديثَ، ثم يدخل لحاجته، فنراجعه بيننا، هذا ثم هذا، فنقوم كأنما زُرع في قلوبنا.[1]

ورغم حرصه ﷺ على حفظ حديث رسول الله، فإن ورعه كان يفزعه عندما يحدّث عن رسول الله ﷺ خشية أن يخطئ في حرف منه .. فكان إذا حدّث عن رسول الله حديثاً ففرغ منه قال : أو كما قال رسول الله ﷺ ..[2]

وبقي أنس ﷺ ملازماً رسول الله ﷺ فشهد معه ثماني غزوات ..[3]

بذلك كله كان ﷺ أهلاً لينال بركة دعاء رسول الله ﷺ في الدنيا وشفاعته في الآخرة، فها هي ذي أم سُلَيم تقدّم على النبي ﷺ، فتقول: يا رسول الله، أنس ادع له .. فقال النبي ﷺ: « اللهم أكثر ماله وولده، وأدخله الجنة » ..

قال أنس بعد ذلك : قد رأيت اثنتين وأنا أرجو الثالثة .. ولقد سألت رسول الله ﷺ أن يشفع لي يوم القيامة .. قال : « أنا فاعل »، قلت : فأين أطلبك يوم القيامة يا نبي الله ؟ قال : « اطلبني أوّلَ ما تطلبني على الصراط »، قلت : فإذا لم ألْقَك على الصراط ؟ قال : « فاطلبني عند الميزان »، قلت: فإن لم ألقك عند الميزان ؟ قال : « فاطلبني عند الحوض، فإني لا أخطئ هذه الثلاث مواطن ».[4]

ولم يزل سيّدنا أنس ﷺ ذاك الخادم المخلص والتّلميذ النجيب لرسول الهدى حتى لحق عليه الصلاة والسلام بالرفيق الأعلى ..

ولم يأت على الصحابة مصابٌ أشدُّ ولا أفظع من مصابهم برسول الله حتىكان أحدهم إذا عزّى أخاه بمصيبة أصابته يقول له : اذكر يا أخي مُصابك برسول الله .. فيذكر

---

١) انظر: مجمع الزوائد (ج١/١٦١).
٢) انظر: حياة الصحابة (ج٤/٩٠).
٣) انظر: حياة الصحابة (ج١/٧١-٧٢).
٤) انظر سنن الترمذي (ج٤/٥٠٠).

ذلك فينسى مصابه ..

يصف سيدنا أنس ﷺ مدينة الرسول ذلك اليوم فيقول : لما كان اليوم الذي قُبِضَ فيه النبي ﷺ أظلم منها[1] كلُّ شيء، وما نفضنا عنه الأيدي من دفنه حتى أنكرنا قلوبنا .. وقال في حديث الهجرة : فشهدته يومَ دخل المدينة علينا، فما رأيت يوماً قطُّ كان أحسنَ ولا أضوأ من يوم دخل المدينة علينا، وشهدته يوم مات فما رأيت يوماً قط كان أقبح ولا أظلم من يوم مات.[2]

ورغم ثقل المصيبة ووطأة الحزن .. تجدُ صحابة رسول الله يصمدون جراح ألمهم ثم يحملون السلاح ويتابعون الجهاد لأداء الرسالة والأمانة التي تركها خاتم النبيين عُهدةً عليهم .. لقد كانوا رضي الله عنهم أسمعَ لنداء الواجب منهم لنداء الحزن وآلام الفراق .. من أجل ذلك لملموا مواجعهم سريعاً وانطلقوا إلى مشارق الأرض ومغاربها ليرفعوا فيها لواء الهدى والتوحيد ويقرّوا عين حبيبهم رسول الله ﷺ بنصر الإسلام.

وكان سيدنا أنس ﷺ مع الحاملين راياتِ التوحيد وهم يهدرون : (الله أكبر) .. وقد استعمله سيدنا أبو بكر ثم عمر، رضي الله عنهما، على عُمَالَةِ البحرين.[3] وما لبثت الحاجة أن ظهرت في تلك البلاد التي فتحها الصحابة الكرام إلى من يعلّم الناس فيها كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، فسكن أنس ﷺ بالبصرة يعلّم الناس فيها ما تعلّمه من رسول الله ﷺ ويجيبهم عن أسئلتهم ويدلّهم على هديه ﷺ ويحضهم على العمل به ..[4] فما رؤي أحد أشبهَ صلاةً برسول الله ﷺ من ابن أم سليم.

وسُئل مرّة عن صلاة رسول الله ﷺ من الليل فقال : كان لا تشاء تراه من الليل مصلياً إلا رأيته ولا نائماً إلا رأيته.[5]

---

(١) أي المدينة.

(٢) انظر: طبقات ابن سعد (ج١/٢٣٤).

(٣) البداية والنهاية (ج٩/٩٤). والعُمالة : رزق العامل الذي جُعل له على ما قُلّد من العمل.

(٤) انظر: الإصابة في تمييز الصحابة (ج١/٧١).

(٥) انظر: صحيح البخاري (ج٢/٦٩٦).

وقال ثابت بن أنس : كنت أمشي مع أنس بن مالك ﷺ بالزّاوية [1]، إذ سمع الأذان، ثم قارب الخطا حتى دخل المسجد، ثم قال: أتدري يا ثابت لم مشيت بك هذه المِشية ؟ قلت: الله ورسوله أعلم، قال : ليكثر عدد الخطا في طلب الصلاة.[2]

وكان ﷺ يقول : تعلّموا من العلم ما شئتم، فوالله لا تؤجروا بجميع العلم حتى تعملوا [3]، ولم يزل أنس ﷺ كذلك حتى صار الناس يلتمسون منه البركة والدعاء .. وهذا ثابت يقول لأنس : هل مسَّت يدك كفّ رسول الله ﷺ ؟ قال : نعم، قال : فأعطنيها أُقبّلها.[4]

وقال أيضاً : كنت مع أنس فجاء فَهْرُمَانُه[5] فقال : أبا حمزة، عطشت أرضنا .. فقام أنس فتوضأ وخرج إلى البرية فصلّى ركعتين ثم دعا .. فرأيت السحاب تلتئم .. ثم أمطرت حتى ملأت كلّ شيء، فلما سكن المطر بعث أنس بعض أهله فقال : انظر أين بلغت السماء، فنظر فلم تَعْدُ أرضه إلّا يسيراً وذلك في الصيف.[6]

وقيل له : إن إخوانك أتوك من البصرة ـ وهو يومئذ بالزاوية ـ لتدعوَ الله لهم، قال : اللهم اغفر لنا، وارحمنا، وآتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة، وقنا عذاب النار، فاستزادوه، فقال مثلها، فقال : إن أوتيتم هذا فقد أوتيتم خير الدنيا والآخرة.[7]

وحين كانت أشواقه ﷺ لرسول الله ﷺ تتأجّج بسبب الفراق .. كان سلوانه ﷺ أنه يراه كل يوم في منامه، وكان يقول ﷺ : ما من ليلة إلّا وأنا أرى فيها حبيبي، ثم يبكي .. [8] وأمّا أمنيّته العظيمة فكان يعلن عنها إذ يقول : إني لأرجو أن ألقى رسول الله ﷺ فأقول : يا

---

(١) الزاوية : موقع قرب البصرة.
(٢) انظر: حياة الصحابة (ج٣/٥٠٠).
(٣) انظر: حياة الصحابة (ج٤/٩٢).
(٤) البداية والنهاية (ج٩/٩٥).
(٥) المسؤول عن زراعة الأرض.
(٦) انظر: الإصابة في تمييز الصحابة (ج١/٧٢).
(٧) انظر: حياة الصحابة (ج٤/١٨٠).
(٨) انظر: حياة الصحابة (ج٣/٤٦).

رسول الله خُويدمُك.[1]

وظلّ هذا الصحابي الجليل على وفائه لنبي الرسالة ولدين الله حتى آذنت ساعة الرحيل.. فكانت ساعةً لطالما انتظرها سيدنا أنس بشوق وشغف .. وتوفي ﷺ بالبصرة وله من العمر إحدى وتسعون أو ثلاثٌ وتسعون[2]، فكان آخر من توفي من الصحابة ..[3] وقد سُئل ﷺ : أنت آخر من بقي من أصحاب رسول الله ﷺ ؟ قال : قد بقي قوم من الأعراب أما من أصحابه فأنا آخر من بقي .. وقيل له في مرضه : أندعو لك طبيباً ؟ فقال : الطبيب أمرضني، وجعلَ يقول : لقّنوني لا إله إلّا الله، فلم يزل يقولها حتى قُبض. وكانت عنده عُصَيّة من رسول الله ﷺ فأمر بها فدُفنت معه.[4]

ولما مات قال مؤرق العجلي : ذهب اليومَ نصفُ العلم. قيل له : وكيف ذاك يا أبا المُعْتمر ؟ قال : كان الرجل من أهل الأهواء إذا خالفونا في الحديث عن رسول الله ﷺ قلنا لهم: تعالَوا إلى من سمعه منه.[5]

رحل ﷺ عن الدنيا مستبشراً للقاء حبيبه، راجياً أن يُقبل عليه قائلاً : يا رسول الله خويدمك .. فرضوان الله على أنس، مَن رفعته خدمة رسول الله ﷺ مكاناً علياً.

---

(١) مجمع الزوائد (ج٩/٣٢٥). والخويدم : تصغير الخادم. يصغرها تواضعاً لرسول الله ﷺ.

(٢) انظر: الإصابة في تمييز الصحابة (ج١/٧٢).

(٣) البداية والنهاية (ج٩/٩٧).

(٤) المصدر السابق، والعُصَيّة: تصغير العصا.

(٥) المصدر السابق.

زَيْدُ بنُ ثابتٍ رضي الله عنه

جَامعُ القرآن

وتَرْجمانُ دولةِ الإسلام

زَيْدُ بنُ ثابت

ابن الضحاك بن زيد بن لوذان بن عمرو النجاري الخزرجي

ماذا أنت فاعل لو كُلّفت مهمةً عظيمةً، وعرفت أن مصير الناس متعلّق بحسن قيامك بها.. وتخلّفك عنها أخطر من قبولها ؟! ..

زيد بن ثابت ﷺ كان من أولئك الذين تصدَّوا لعظائم الأمور .. من الذين حملوا على كاهلهم أمانة تنوء بحملها الجبال.

نشأ زيد بن ثابت ﷺ في المدينة يتيماً، فقد قُتل أبوه يوم بُعاث [1] وكان له من العمر ستُ سنين.[2] وعندما هاجر النبي الكريم صلوات الله وسلامه عليه إلى المدينة كان الفتى زيد بين الصفوف التي احتشدت لاستقبال الضيف العظيم الذي حلّ في القلوب قبل الديار .. وربما كان من الصّبية الذين تراكضوا في الطرقات يصيحون بفرح شديد : الله أكبر جاء رسول الله.. جاء محمّد ! جاء محمّد ! ..

وقف الفتى الذي كان في الحاديةَ عشرةَ من عمره يتطاول بين الجموع ليرى نبيّه الكريم ﷺ .. وقف مع الأنصار الذين بايعوا على السمع والطاعة، وعلى إيواء النبي ﷺ ونصرته وبذل المهج دونه ودون دعوته .. ولقد أدرك زيدٌ ما معنى تلك البيعة فلما كانت السنة الثانية للهجرة وأذّن المؤذن بالنفير إلى بدر لمواجهة أعداء الدعوة، تسابق زيد مع مجموعة من الفتية إلى الانضمام إلى الجيش، وراح يتطاول لعلّ النبي عليه الصلاة والسلام يأذن له بالخروج مع المجاهدين .. لكن رسول الله ﷺ ردّهم جميعاً لحداثة أعمارهم ..[3] فعاد زيد يجرّ سيفه الذي يكاد يساويه في الطول خائباً حزيناً ! لكن الله سبحانه ما كان ليُضيعَ شوقه للجهاد فأثابه به خيراً ومَغْنَماً من غير قتال؛ ذلك أن المسلمين كانوا قد أسروا فيها سبعين أسيراً من العدو وجعل رسول الله ﷺ فداء الأسير الذي لا يملك المال ويحسن القراءة والكتابة

---

(١) معركة قامت بين الأوس والخزرج قبيل الإسلام.

(٢) انظر: الاستيعاب في معرفة الأصحاب (ج٢/٥٣٧).

(٣) انظر: أسد الغابة (ج٢/٢٢٣).

أن يعلّم عشرة من أولاد المسلمين الكتابة، فإذا أجادوها فهو فداؤه .. فكان زيد بن ثابت ﷺ ممن فاز بغنيمة العلم ليتأهّل للانضمام إلى ركب العلماء ويتسلّم مهماتِه الجليلة ..

ولكن الفتى المقدام ظلّ يرنو ببصره إلى ساحات الجهاد، فلما كانت موقعة أُحُد أراد أن يخرج مع المقاتلين فردّه النبي عليه الصلاة والسلام ثانية إذ كان لا يزال صغيراً ..[1] ورغم الحزن الذي كان يملأ قلبه الصغير ظل يبحث عن موطن آخر يخدم فيه نبيّه ﷺ وينصر دعوته، فكان ذلك الموطن في رحاب كتاب الله .. فقد اجتهد ﷺ في التّلاوة والحفظ حتى حفظ سبعَ عشرةَ سورة .. وجاء به أهلُه إلى رسول الله ﷺ فقالوا له : هذا من بني النجار وقد قرأ مما أُنزل عليك سبع عشرة سورة .. يقول زيد : فقرأت عليه فأعجبه ذلك ..[2]

سُرّ النبي صلوات الله وسلامه عليه بالفتى النبيه زيد، ورأى فيه علائم النبوغ والتفوق، ثم نظر في كتابته فسرّ بها أيضاً وقال لزيد : « تعلّم كتاب اليهود[3]، فإني والله ما آمَنُ اليهود على كتابي[4] » .. يقول زيد : فما مضى لي نصف شهر حتى حذقته، وكنت أكتب لرسول الله ﷺ إذا كتب لهم.

أجل .. خلالَ نصف شهر لا غيرُ تعلم زيد اللغة العبرية !![5]

ووثق النبي ﷺ بقدرات الفتى الأنصاري ففتح له أبواب العلم .. وتحقّق حلم زيد بخدمة النبي ودعوته، فقد جعله عليه الصلاة والسلام من كُتّاب الوحي الذين كانوا يواكبون نزول القرآن ويكتبون الآيات الكريمات فور نزولها ..[6] وبذلك صار زيد ﷺ من المجاهدين بالقلم، وأما جهاده بالسيف فقد بدأ مع غزوة الخندق ..

وظلّ النبي ﷺ يكلّفه المزيد من المهام إذ رأى مهارته اللغوية وتفوّقه فيها .. فقد قال له

---

(١) انظر: طبقات ابن سعد (ج٢/٢٢).

(٢) انظر: الإصابة في تمييز الصحابة (ج١/٥٦١).

(٣) أي كتابة اليهود.

(٤) أي كتبه التي يرسلها إليهم .

(٥) انظر: طبقات ابن سعد (ج٢/٣٥٨-٣٥٩)، والإصابة في تمييز الصحابة (ج١/٥٦١).

(٦) انظر: الاستيعاب في معرفة الأصحاب (ج٢/٥٣٨).

ذات يوم : « إني أكتب إلى قوم فأخاف أن يزيدوا عليّ أو ينقصوا فتعلّم السّريانية » .. يقول زيد : فتعلّمتها في سبعةَ عشرَ يوماً !!

وقد رُوي أيضاً أنه تعلم الفارسية في مدة وجيزة [1]، حتى صار يحقّ (تَرْجَمان الدولة الفتية) ..

تُرى أي جامعة تُخرّج من يجيد لغة في نصف شهر، ويتعلّم أخرى في سبعة عشر يوماً سوى جامعةٍ عميدُها رسول الله ﷺ، وكتابها القرآن، والحبّ لغتها، والصدق شرعتها ..

وتتالت السنوات وزيد ﷺ مع النبي ﷺ يقرأ ويكتب، أو في ساحات القتال يجاهد .. فلما كانت غزوة تبوك في السنة التاسعة للهجرة كانت راية بني النجار مع عُمارةَ بنِ حَزْمٍ فأخذها رسول الله ﷺ منه ودفعها إلى زيدِ بنِ ثابتٍ، فقال عمارة بجزع : يا رسول الله بلغك عني شيء؟ قال : « لا ولكنّ القرآن مُقَدَّم، وزيد أكثر أخذاً للقرآن منك ». [2]

وهكذا عاش زيد ﷺ عيشة راضية في رحاب القرآن .. فكان يشهد تنزيل الآيات مفرّقة منجّمة تواكب الأحداث، وتخاطب الضمائر .. تحقّ الحقّ، وتبطل الباطل .. تبشّر المؤمنين وتنذر الكافرين .. كان يشهد التنزيل، ويحفظ الآيات مع كتّاب الوحي في الصدور قبل أن يكتبها معهم في السطور.

وكما شهد ﷺ تنزل القرآن العظيم، شهد انقطاع الوحي بوفاة المصطفى ﷺ .. وبكى زيد رحيل النبي عليه أزكى الصلاة والسلام، وبكى انتهاء عصر التنزيل وانقطاع خبر السماء.. ولكن خدمته للقرآن العظيم لم تنته، وبدأت مهمته الجليلة الفريدة في عهد الصدّيق أبي بكر ﷺ، فقد كان زيد طالباً متفوّقاً في جامعة المصطفى ﷺ، وقد أدرك أبو بكر وعمر، رضي الله عنهما، ذلك، ومن أجل هذا وقع الاختيار عليه لحمل تلك الأمانة العظيمة وأداء المهمة الجليلة التي يرتبط بها مصير الإسلام والمسلمين ! مهمة جمع القرآن الكريم.

كان القرآن يتنزّل على رسول الله ﷺ فيتلقّاه الصحابة بالحفظ، ويسارع الكَتَبَة إلى

---

(١) انظر: الإصابة في تمييز الصحابة (ج١/٥٦١)، وطبقات ابن سعد (ج٢/٣٥٨).

(٢) انظر: أسد الغابة (ج٢/٢٢٣).

تدوين الآيات على ما يتيسّر لهم من قطع الجلد وسَعَف النخيل[1] .. فكانت للآيات الكريمات نُسختان : نُسخةٌ في الصّدور ونُسخة في السّطور، وكان عدد الحفّاظ الذين جمعوا القرآن كبيراً، ولكن حروب الردّة ومعركة اليمامة خاصّة حصدت أعداداً كبيرة من حملة القرآن، فجزع عمر بن الخطاب ﷺ وخاف أن يذهب القتل ببقيّة القرّاء، فأشار على أبي بكر ﷺ بجمع القرآن .. فتردّد بعض الشيء وقال : كيف أفعل شيئاً لم يفعله رسول الله ﷺ ؟ فأصرّ عمر قائلاً : هو والله خير .. فلم يزل يراجعه حتى شرح الله صدره لذلك.

ولكن مَن لهذه المهمّة الجسيمة ؟ المهمّةِ التي تحتاج إلى كاتب للوحي عاصر تنزّل القرآن وأجاد القراءة والكتابة .. إنه زيد بن ثابت ﷺ فهو الذي شهد له النبي عليه الصلاة والسلام بالإتقان .. والمهمة تحتاج إلى دقة عظيمة وإتقان بالغ، وقبل ذلك إلى صدق وورع شديدين .. وكذلك كان زيد. قال له الصدّيق : إنك رجل شاب عاقل لا نتهمك، وقد كنت تكتب الوحي لرسول الله ﷺ، فتتبّع القرآن فاجمعه. يقول زيد : فوالله لو كلّفوني نقل جبل من الجبال ما كان أثقلَ علي مما أمرني به من جمع القرآن !! ..[2] فتردّد أول الأمر كتردّد أبي بكر وقال للشّيخين[3] : كيف تفعلان شيئاً لم يفعله رسول الله ﷺ ؟ فقال أبو بكر: هو - والله - خيرٌ.. وبقي يراجعه حتى شرح الله صدره للذي شرح له صدر أبي بكر وعمر، رضي الله عنهما.

ومضى زيد ﷺ يُنفّذ المهمة الجليلة مستعيناً بالله الذي أنزل الآيات البيّنات وفيها قوله تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾[4].. وكان ﷺ واثقاً أن الله تعالى هو الذي تكفّل بحفظ الكتاب المبين، فتوكّلَ عليه .. وبدأ يجمع الآيات بدقّة بالغة وحذر شديد .. ولم يُثبِتْ شيئاً من القرآن إلّا إذا كان مكتوباً بين يدي رسول الله ﷺ ومحفوظاً من الصحابة. ولم يقبل من أحد شيئاً مكتوباً إلّا إذا جاء معه شاهدان يشهدان أن ما معه كُتب بين يَدَيِ النبي عليه الصلاة والسلام.

---

(١) سَعَفُ النخيل : أغصانه، جمع سَعَفَة.

(٢) صحيح البخاري (ج٤/١٩٠٦).

(٣) أبو بكر وعمر، رضي الله عنهما.

(٤) سورة الحجر (٩).

وجُمعت الآيات ورُتّبت كما أشار رسول الله عليه الصلاة والسلام، ووُضعت الصحف التي جمع فيها القرآن عند أبي بكر حتى توفّاه الله، ثم عند عمر حتى توفّاه الله، ثم عند أم المؤمنين السّيدة حفصة بنت عمر، رضي الله عنهم أجمعين.

ولما تسلّم عمر ﷺ الخلافة، فرّق الصحابة في الأمصار لإدارة شؤونها، ولكنه أبقى زيداً إلى جانبه في المدينة ليُفتيَ أهلَها .. فزيد ﷺ كان - إلى مهارته بالقرآن - بارعاً في الفقه والفتوى، متقناً عِلم الفَرائض [1] كذلك شهد له رسول الله ﷺ بقوله: « أَفْرَضُ أُمّتي زيد بن ثابت ».[2] وكذلك حاز زيد على ثِقَة أمير المؤمنين عمر، رضي الله عنهما، حتى كان يستخلفه على المدينة إذا سافر للحج أو غيره ..

وفي خلافة عثمان ﷺ كان زيد على موعد مع مُهِمّة جديدة .. وكان لابد لحامل القرآن أن يواصل مَهامّهُ المباركة في ظلال كتاب الله ..

كانت الفتوحات قد اتّسعت، ودخل الناس من بلاد شتى في دين الله أفواجاً .. وبدأ الناس يختلفون في قراءة القرآن .. فتنازع أهل الشام وأهل العراق، وصارت كل جماعة ترى أنها على حقّ .. وخطّأ الناس بعضُهم بعضاً .. وكان ممن رأى ذلك الخلافَ حذيفةُ بن اليمان ﷺ، فغضب وأقسم أن يسير إلى أمير المؤمنين ليبلغه الأمر .. فجاء فزعاً إلى المدينة، ولم يدخل بيته حتى دخل على عثمان فقال له : يا أمير المؤمنين أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا في الكتاب اختلافَ اليهود والنصارى. [3]

لقد أدرك الصحابة أنه لابد أن يُردّ القرآن إلى نسخة واحدة مُوَثّقة تُعَمَّمُ في الأمصار - وهي النسخة التي عند أم المؤمنين حفصةَ - فأرسل الخليفة إلى أم المؤمنين حفصة أن أرسلي إلينا بالصّحف ننسخها في المصاحف. ومرة أخرى وقع الاختيار على زيد بن ثابت ﷺ الذي وُصف بأنه (أكتبُ الناس)، ومع زيد كان الصحابي القُرشي سعيد بن العاص ﷺ الذي كان من أفصح الناس ..

---

(١) علم المواريث.

(٢) انظر: طبقات ابن سعد (ج٢/٣٥٩).

(٣) صحيح البخاري (ج٤/١٩٠٨).

ولم يلبث أن انضم إليهما اثنان من الصحابة .. وبعون الله تبارك وتعالى وفضله تمّ ردّ القرآن إلى نسخة واحدة، ثم نسخ منها عدّة مصاحف ووُزّعت في الأمصار.[1] هنالك تبيّن أن زيداً رجل المُهمّات الصعبة، وأنه أهل للمسؤوليات الجسام التي أُلقيت على كاهله ﷺ.

وفي خلافة عثمان ﷺ ظلّ زيد ﷺ في المدينة يُفتي، وكان عثمان يستخلفه إذا غاب أيضاً.. وقد رُوي أن عمر وعثمان، رضي الله عنهما، ما كانا يقدّمان على زيد أحداً في الفرائض والفتوى والقراءة والقضاء. ولعلمه الغزير في أهل عصره كانوا يصفونه بأنه (من الراسخين في العلم)[2].

ولاشك أن رجلاً عاش في رحاب القرآن، وحاز على ثقة المصطفى عليه الصلاة والسلام وخلفائه من بعده لجدير بكل وصف محمود. لقد كان زيد ﷺ حقّاً مَفْخَرة للصحابة والتابعين، بل للأمة جميعاً ..

رُوي أن ابن عباس، رضي الله عنهما، كان يقود له ركاب راحلته مرة وزيد ينهاه ويقول : تَنحَّ يا ابن عم رسول الله .. فأجابه ابن عباس، رضي الله عنهما، مفتخراً : لا .. هكذا نفعل بالعلماء والكبراء.[3]

وبرغم هذه المواهب الكثيرة .. وبرغم تلك المنزلة العظيمة التي نالها ظلّ ﷺ شديد التواضع جمّ الأدب .. وقد عُرف عنه الحلم وكريم المعشر حتى قيل إنه كان من أفكه الناس إذا خلا إلى أهله، وأصمتهم إذا جلس مع القوم. وكيف لا يكون رفيع الخلق وهو الذي تربّى في ظلال كتاب الله منذ كان غلاماً صغيراً.

ثم شارف العمر المبارك على الانتهاء، وفي العام الخامس والأربعين للهجرة توفي ﷺ، ودفن في المدينة المنورة، فكان لموته وقع أليم في قلوب الصحابة .. قال أبو هريرة ﷺ : اليوم مات حَبْر هذه الأمة ولعلّ الله أن يجعل في ابن عباس منه خلفاً.[4]

---

(١) انظر: الاستيعاب في معرفة الأصحاب (ج٢/٥٣٩).

(٢) انظر: طبقات ابن سعد (ج٢/٣٦٠).

(٣) انظر: الإصابة في تمييز الصحابة (ج١/٥٦١).

(٤) انظر: طبقات ابن سعد (ج٢/٣٦٢).

أما ابن عباس، رضي الله عنهما، فقد قال بلوعة : هكذا ذهاب العلم، لقد دُفن اليوم علم كثير.[1]

فلا تنس زيد بن ثابت ﷺ كلما كُلّفت بمُهمة أو تحمّلت أمانة، واحرص على حياة مليئة بالنجاح والتفوق كحياة زيد .. واعلم أن قيمتَك قيمةُ ما أنت مشغول به ! ..

وحين تُمسك المصحف الشريف بين يديك، أنيقَ الطباعة، واضح الحروف، حسن الزخارف .. فارفع يديك وقل اللهم ارحم زيد بن ثابت .. جامعَ القرآن رضي الله تعالى عنه.

---

(١) انظر: طبقات ابن سعد (ج٢/٣٦٢).

أبو الدَّرْدَاء رضي الله عنه

حكيمُ الأمة

أبو الدَّرْدَاء – عُوَيْمِرُ بنُ مالكٍ

ابن زيد بن قيس الحارثيّ الخزرجيّ

بدأنا الحديث عن ابن رواحة بذكر أخيه أبي الدّرداء .. والآن نبدأ قصة أبي الدرداء في رحاب الصحبة العميقة التي انعقدت بين الرجلين .. تلك الصحبة التي انعقدت قبل الإسلام ثم جاء الإسلام العظيم ليجعلها أخوّة في الله في الدنيا، وشفاعة ولقاءً على منابرَ من نور في الآخرة .. يقول الله تعالى في حديث قدسي : « المتحابّون في جلالي، لهم منابر من نور، يغبطهم النّبيّون والشهداء ».[1]

في رحاب تلك الصحبة كان إسلام أبي الدرداء .. أبو الدرداء الذي تأخر إسلامه قليلاً وظلّ متعلقاً بصنمٍ له يقدّسه ويعتقد نفعه وضرّه. ولطالما كان عبد الله بن رواحة يدعوه إلى الإسلام منذ أكرمه الله به فيأبى .. لكنّ ابن رواحة ﷺ ما كان ليترك صاحبه تائهاً في ظلمة الشرك، فانتظره يوماً قرب داره ريثما عطّر صنمه ووضع عليه منديلاً وودّعه. فلما رآه عبد الله بن رواحة قد خرج خالفه، فدخل بيته وأعجل امرأته فقال لها : أين أبو الدرداء ؟ قالت : خرج أخوك آنفاً، فدخل الغرفة التي كان فيها الصنم، ومعه فأس، فجعل يكسّره ويقدّده ويقول: ألا كُلُّ ما يدعى مع الله باطلُ .. ثم خرج تاركاً وراءه حُطاماً من الأخشاب .. وحطاماً من جاهلية أبي الدرداء .. وزوجته تدعو ويلاً وتقول : أهلكتني يا ابن رواحة !! .. وجلستْ قرب الصنم المتناثر تبكي شفقاً من زوجها أبي الدرداء، حتى دخل عليها وهي قاعدة على هذه الحال .. فقال لها : ما شأنك ؟ قالت : أخوك عبد الله بن رواحة دخل عليّ فصنع ما ترى .. فغضب غضباً شديداً للحظات .. ثم أخذ يفكّر .. ويهمس بينه وبين نفسه: لو كان عند هذا الصنم خيرٌ لدفع عن نفسه، فكانت هذه الكلماتُ أوّلَ محاكمة صحيحة نطق بها أبو الدرداء.. وخرج من فوره ملبّياً داعيَ الحقّ الذي يتردّد صوته في عقله وقلبه .. انطلق مجيباً لصوت الفطرة وندائها .. انطلق إلى عبد الله بن رواحة ليأخذه إلى رسول الله ﷺ فيُسمعه في رحابه وحِماه كلماتٍ من نور : أشهد أنْ لا إله إلّا الله .. وأشهد أنّ محمّداً عبده

---

(١) سنن الترمذي (ج٤/٥١٥).

ورسوله..

ومنذ تلك اللحظة التي أسلم فيها عويمر بن مالك .. أبو الدرداء .. انضم إلى صفوف المسلمين .. فكان رجلاً فذّاً .. رجلاً تجرّد عن أمور الدنيا حتى المباحاتِ منها .. وأقبل على العبادة والخلوة .. فأذاقه الله حلاوة القرب، وفجّر على لسانه ينابيع العلم والحكمة .. حتى قال عنه رسول الله ﷺ : « هو حكيم أمتي ».(١)

كان عويمر ﷺ تاجراً مرموقاً، قبل مبعث النبي ﷺ، فلما أسلم أراد أن يجمع بين التجارة والعبادة فلم يستقم له ذلك فترك التجارة زهداً في الدنيا، وتفرّغ للعبادة رغبة في الآخرة .. وحين سُئل عن ذلك قال: إنّه يخاف شدّة الحساب وهول الموقف حين يُسأل يومئذ عن النعيم، فرضي بالقليل من الدنيا، وتلخّصت نظرته للحياة بنظرة غريب أو عابر سبيل لا عين قرير مقيم ..

ولعلّ انصرافه الشديد للعبادة كان مبعث دهشة الصحابة أنفسهم؛ فلقد آخى النبي ﷺ بين سلمانَ الفارسي وأبي الدرداء، فزار سلمان أبا الدّرداء، فرأى أم الدرداء متبذّلة فقال لها : ما شأنك ؟ قالت : أخوك أبو الدرداء ليس له حاجة في الدنيا .. فجاء أبو الدرداء فصنع له طعاماً، فقال له : كُلْ فإني صائم، قال : ما أنا بآكلٍ حتى تأكلَ، فأكل، فلما كان الليلُ ذهب أبو الدرداء يقوم فقال له : نم، فنام، ثم ذهب يقوم فقال : نم، فلما كان من آخر الليل قال سلمان : قم الآن .. فصلّيا، فقال له سلمان : إن لربك عليك حقاً ولنفسك عليك حقاً، ولأهلك عليك حقاً، فأعط كلّ ذي حقّ حقّه، ثم أتى النبي ﷺ فذكر ذلك له، فقال النبي ﷺ: « صَدَق سلمان » ..(٢)

وهذا نهج الإسلام في الحياة .. توازن ووسطيّة واعتدال في الأمور كلّها، نهج حلّده سلمان ﷺ بقوله .. وصادقه عليه النبي ﷺ.

ولا شك أنّ أبا الدرداء ﷺ قد أعاد النظر في حقوق نفسه وأهله بعد ذلك .. لكنّ حق

---

(١) انظر: الإصابة في تمييز الصحابة (ج٣/٤٥).

(٢) صحيح البخاري (ج٢/٦٩٥).

ربه عليه ظلّ يطغى في كل حين على حقوق راحته .. وظلّ يرغب في الخلوة والعزلة، وكان يردّد دائماً : نِعْمَ صومعة الرجل المسلم بيته؛ يكفّ فيه نفسه وبصره وفرجه، وإيّاكم واغماس في السّوق فإنها تُلهي وتُلغي [1].

ومن هذه الصومعة .. ومن رحاب العبادة والذكر والمناجاة خرج إلى الدنيا بحِكَم قيمة حذيرة بأن تكون مُؤلّفاً وحدها .. فمن روائع أبي الدرداء ﷺ : ما قاله في التقوى : لأن أستيقن أن الله قد تقبّل لي صلاة واحدة أحبُّ إليّ من الدنيا وما فيها، لأنَّ الله يقول: ﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾.[2]

وقوله في خوفه وخشيته من سؤال الآخرة: إنّما أخشى من ربي يوم القيامة أن يدعوَني على رؤوس الخلائق، فيقول لي : يا عُويمر، فأقول : لبّيك ربِّ، فيقول : ما عملت فيما علمت ؟

وقوله مرغّباً في الصمت والتفكّر يقول : تعلّموا الصمت كما تَعلّمون الكلام، فإن الصمت حلم عظيم، وكن إلى أن تسمع أحرص منك إلى أن تتكلّم، ولا تتكلّم في شيء لا يعنيك، ولا تكن مضحاكاً من غير عجب، ولا مشّاء إلى غير إرب.[3]

وحين سُئلت أم الدرداء : ما كان أفضل عمل أبي الدرداء ؟ قالت : التفكّر والاعتبار.. لذا كان ﷺ يقول : من الناس مفاتيحُ للخير مغاليقُ للشر، وهم بذلك أحر، ومن الناس مفاتيح للشر مغاليق للخير، وعليهم بذلك إصْر، وتَفكُّرُ ساعة خيرٌ من قيام ليلة ..[4]

وفي الترغيب في الذكر والاستغفار يقول : طوبى لمن وجد في صحيفته نَبْذٌ [5] من الاستغفار. ولقد أتاه رجل فقال له : أوصني، فأجابه أبو الدرداء ﷺ : اذكر الله عزّ وجلّ في

---

(١) تلغي : تُوقع في اللغو.

(٢) سورة المائدة (٢٧)، والخبر في حياة الصحابة (ج٣/٣٠٨).

(٣) انظر: حياة الصحابة (ج٣/٣٢٣).

(٤) انظر: حياة الصحابة (ج٣/٣١٧-٣١٨).

(٥) النَبْذ : الشيء اليسير.

السرّاء يذكرّك في الضرّاء، فإذا أشرفت على شيء من الدنيا فانظر إلى ماذا يصير ! .[1]

وفي حثّه للعلم وتوقير العلماء يقول : كن عالماً، أو متعلّماً، أو محبّاً، أو متبعاً ولا تكن الخامس فتهلك، قال : قلت للحسن : وما الخامس ؟ قال : المُبتدِع ..[2]

وقال ﷺ : من رأى الغُدُوَّ والرَّواح إلى العلم ليس بجهاد فقد نَقَصَ عقله ورأيه، ألا تعلّموا وعلّموا فإن العالم والمتعلّم في الأجر سواء، ولا خير في الناس بعدهما.[3]

وقال أيضاً : لولا ثلاث خلال لأحببت ألّا أبقى في الدنيا، قالوا : وما هنّ ؟ فقال : لولا وُضوعُ وجهي للسجود لخالقي في اختلاف الليل والنهار يكون تقدمة لحياتي، وظمأ الهواجر، ومُقاعدةُ أقوام ينتقون الكلام كما تُنتقى الفاكهة ..[4]

ومن مواعظه العامة : اعبدوا الله كأنكم ترونه، وعدُّوا أنفسكم من الموتى واعلموا أنّ قليلاً يغنيكم خيرٌ من كثير يلهيكم واعلموا أن البرّ لا يبلى وأنّ الإثم لا يُنسى.[5]

وكان يقول : ليس الخيرَ أن يكثر مالك وولدك، ولكنّ الخيرَ أن يعظم حلمك، ويكثر عملك، وأن تباري الناس في عبادة الله عزّ وجلّ، فإن أحسنت حمدت الله تعالى، وإن أسأت استغفرت الله عزّ وجلّ.[6]

إنّ أبا الدرداء ﷺ يدعونا إلى مباراة شريفة ميدانُهـــا العبادة ﴿ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ﴾[7]، فلماذا لا نجرّبُ مع الأصحاب السبقَ إلى الصدقات والصلاة وحفظ القرآن وفعل الخيرات .. أليس ذلك خيرٌ وأبقى من التباهي بالدنيا وزيفها الزائل ؟!

---

(١) انظر: حلية الأولياء (ج١/٢٠٩).

(٢) انظر: حياة الصحابة (ج٤/١٥).

(٣) المصدر السابق.

(٤) انظر: حلية الأولياء (ج١/٢١٢).

(٥) المصدر السابق.

(٦) المصدر السابق.

(٧) سورة المطففين (٢٦).

تلك بعض الحِكَم والمواعظ المضيئة التي نطق بها أبو الدرداء ﷺ فلنقرأها، ولنتأمل كيف يفعل الإسلام بأتباعه. فمِنْ ضيق الجاهلية وعبادة الحجر إلى سعة الإسلام وإشراق الروح وإلى قلب يفيض بالحكمة والمعرفة. لقد تجرّد ﷺ عن حظوظ النفس ومتع الدنيـا فأكرمه الله وأراه من آياتـه العجيبة في الكون .. فبينما أبو الدرداء يوماً يوقد تحت قِدْر لـه، وسلمان ﷺ عنده، إذ سمع أبو الدرداء في القدر صوتاً، ثم ارتفع الصوت بتسبيح كهيئة صوت الصبي ! ثم سقطت القدر فانكفأت، ثم رجعت إلى مكانها لم ينصبّ منها شيء فجعل أبو الدرداء ينادي: يا سلمان، انظر إلى العجب، انظر إلى ما لم تنظر إلى مثله أنت ولا أبوك، فقال سلمان : أما لو سكتنا لسمعنا من آيات الله الكبرى ..[1]

ولم لا تسبِّح القِدْر ؟! أليس الله تعالى يقول: ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾[2].. لكن الله تعالى أذن لأبي الدرداء ﷺ أن يسمع التسبيح دوننا ..

وتتابعت أيام أبي الدرداء ﷺ المشرقة .. ولم يمنعه عزوفه عن الدنيا من الجهاد في سبيل الله، بل إن عبداً يعيش للآخرة مثلَه لابد أن يكون في طليعة المجاهدين، وهكذا كان الأمر، فقد شارك ﷺ في كل الغزوات وأبلى بلاء حسناً حتى قـال عنه ﷺ يوم أُحُد: « نِعم الفارسُ عويمر »[3]..

وظلّ عويمر ﷺ يجاهد طيلة عصر النبوة المبارك .. ثم من بعده في عهد الصدّيق أبي بكر ﷺ ..

وجاء عهد الفاروق عمر ﷺ، فأتـاه أبو الدرداء يستأذنه في أن يرحل إلى الشام، فقال عمر: لا آذن لك إلّا أن تعمل، قال : فإني لا أعمل، قال عمر: فإني لا آذن لك، قال أبو الدرداء : فأنطلقُ، فأعلّم الناس سنّة نبيّهم ﷺ وأُصلّي بهم، فأذن له عمر ﷺ .. فرحل أبو الدرداء وتسلّم القضاء في دمشق، وعاش فيها بقية حياته. وكانت دمشق في ذلك الزمان أغنى المدن وأبهاها، لكن ذلك لم يغيّر من زهد أبي الدرداء وتواضعه بل كان ينصح أهل دمشق فيقول : يا معشر أهل دمشق، ألا تستحيون ؟ تجمعون ما لا تأكلون، وتبنون ما لا تسكنون،

---

(١) انظر: حلية الأولياء (ج١/٢٢٤).

(٢) سورة الإسراء (٤٤).

(٣) انظر: المستدرك (ج٣/٣٨٠).

وتأملون ما لا تبلغون، قد كان قبلكم من القرون من يجمعون فيُوْعون، ويأملون فيطيلون، ويبنون فيوثقون، فأصبح جمعهم بُوراً وأملهم غروراً وبيوتهم قبوراً، هذه عاد[1] قد ملأت ما بين عدن إلى عُمَان أموالاً وأولاداً فمن يشتري مني تَرِكة آلِ عادٍ بدرهمين ؟! .[2]

ولقد أتاه يزيد بن معاوية وهو ابن الخليفة في دمشق، صاحب المال والجاه يريد أن يخطب ابنته الدرداء فردّه، ثم جاء رجل من عامة المسلمين فخطبها فزوّجه إياها .. فسار ذلك في الناس أن يزيد خطب إلى أبي الدرداء فردّه، وخطب إليه رجل من ضعفاء المسلمين فأنكحه، فقال أبو الدرداء : إني نظرت للدّرداء، ما ظنكم بالدرداء إذا قامت على رأسها الخدم !! ونظرت في بيوت يلتمع فيها بصرها، أين دينها منها يومئذ ؟! ..[3]

ولقد جمع ﷺ إلى الزهد والحكمة الرحمة .. فكان يشفق على المذنبين. فقد مرّ يوماً على رجل قد أصاب ذنباً، فكان الناس يسبّونه، فقال : أرأيتم لو وجدتموه في قَلِيب[4] ألم تكونوا مستخرجيه ؟ قالوا : بلى، قال : فلا تسبّوا أخاكم، واحمدوا الله الذي عافاكم، فسألوه: أفلا تبغضه ؟ قال : لا، إنما أبغض عمله فإذا تركه فهو أخي ..

ولّما انقضت مدة على إقامته بالشام اشتاق أبو الدرداء لأخيه سلمان رضي الله عنهما فكتب إليه رسالة فيها نصائح تصلح لكل مسلم كلّ حين :

يا أخي، اغتنم صحتك وفراغك قبل أن ينزل فيك من البلاء ما لا يستطيع العباد ردّه، واغتنم دعوة المبتلى، ويا أخي ليكن المسجد بيتك فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إنّ المساجد بيت كلّ تقيّ »، وقد ضمن الله عزّ وجلّ لمن كانت المساجد بيوتهم بالرّوح والراحة، والجواز على الصراط إلى رضوان الربّ عزّ وجلّ.

ويا أخي ارحم اليتيم، وأدْنِهِ منك، وأطعمه من طعامك، فإني سمعت رسول ﷺ يقول

---

(١) المقصود قوم عاد المذكورون في القرآن الكريم، وهم قوم النبي هود عليه السلام، وكانوا يعيشون في أطراف الجزيرة العربية.

(٢) انظر: حلية الأولياء (ج١/ ٢١٧-٢١٨).

(٣) انظر: حلية الأولياء (ج١/ ٢٢٤).

(٤) القَليب : البئر.

حين أتاه رجل يشتكي قساوة قلبه : « أتحبّ أن يلين قلبك ؟ »، فقال: نعم، قال : « أدنِ اليتيم منك، وامسح رأسه، وأطعمه من طعامك، فإنّ ذلك يلّين قلبك، وتقدر على حاجتك ».

ويا أخي لا تجمع ما لا تستطيع شكره، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول : « يُجاء بصاحب الدنيا يوم القيامة الذي أطاع الله تعالى فيها وهو بين يدي ماله، وماله خلفه، كلما تَكَفّأ[1] به الصراط، قال له مالـــه: امض فقد أدّيت الحق الذي عليك، قال : ويُجاء بالذي لم يُطع الله ومالُه بين كتفيه، فيُعثّره ماله ويقول لـــه : ويلك هلّا عملت بطاعة الله عز وجل فيّ، فلا يزال كذلك حتى يدعو بالويل ».

يا ليتنا نقارن بين ما كتبه أبو الدرداء لصاحبه رضي الله عنهما بما نكتبه لأصحابنا وأحبابنا .. ويا حبّذا أن نزيّن كلماتنا المرسلة إليهم بشيء من المواعظ كمواعظ أبي الدرداء الصادقة المشرقة التي تدخل القلوب، فكل ما يصدر عن القلب يدخل إلى القلب. ولنقرأ الآن خاتمة رسالة الصحابي الجليل..

ويا أخي مَن لي ولك بأن نوافي يوم القيامة ولا نخاف حساباً ؟ ويا أخي لا تَعزّنّ بصَحابة[2] رسول الله ﷺ، فإنّا قد عشنا بعده دهراً طويلاً، والله أعلم بالذي أصبنا بعده ..[3]

فلنتأمل في عظيم محاسبة الصحابة الكرام لأنفسهم ونُصح بعضهم بعضاً، وهم الذين تشرّفوا بصحبة النبي عليه الصلاة والسلام وملازمته، وكانوا على قدر عظيم من الإيمان والتقوى .. أفليس الأحرى بنا نحن أن نكون أشد محاسبة لأنفسنا لنبقى على العهد مهما تبدّلت الأحوال .. لقد خاف أبو الدرداء ﷺ من الدنيا التي أصابها .. فانظر الآن إلى دنياه تلك : جاء الخليفة عمر ﷺ إلى الشام زائراً، يريد أن يطمئن على أهلها .. فقيل له : إن الناس هناك يفترشون الديباج والحرير، ويعلّقون المصابيح .. وإذا استأذنت على أحد، لا يدخلك حتى يعلمَ من أنت .. فطرق عمر ﷺ أبواباً كثيرة فوجد الناس كما وُصفوا له، فنهاهم عن ذلك، حتى وصل إلى باب من الأبواب .. فقال عمر : السلام عليكم، فردّ الصوت : وعليكم

---

(١) تكفّأ : مادَ ومالَ.

(٢) صُحبة.

(٣) انظر: حلية الأولياء (ج١/ ٢١٤- ٢١٥).

السلام، قال عمر: أأدخل ؟ قال : ادخل، فدفع عمر الباب فإذا ليس له غلق ودخل من عتمة الليل إلى عتمة الدار .. فالبيت مظلم، فراح عمر ﷺ يتلمّس الجدار حتى وقع على شيء .. فنزل يتلمّسه .. فإذا هي وسادة خشنة تشبه الكساء الذي يُلقى على ظهر الدواب .. وتحسّس الفراش .. فإذا هو الأرض !!

تلك دار أبي الدرداء ﷺ .. وسأل أبو الدرداء في العتمة: من هذا ؟ أمير المؤمنين ؟ فقال عمر: نعم، فقام أبو الدرداء متشوّقاً لرؤيته قائلاً : والله لقد استبطأتك منذ العام .. فردّ عمر شفقاً على حال أبي الدرداء : رحمك الله يا عويمر، ألم أُوسّع عليك ؟ ألم أفعل بك ؟! فصمت أبو الدرداء لحظات .. وعادت به الخواطر إلى ذكريات مضيئة أنارت البيت وفرشته بما هو خير من الديباج والحرير .. فقال : أتذكُر حديثاً حَدَّثناه رسول الله ﷺ يا عمر ؟ قال : أيّ حديث ؟ قال : « إنما يكفي أحدكم من الدنيا كزاد الراكب »[1]، قال : نعم ..

قال أبو الدرداء : فماذا فعلنا بعده يا عمر ؟! ماذا فعلنا بعده يا عمر ؟! لم يُجِبْ عمر ولم يتكلم أبو الدرداء ﷺ بعد ذلك لأنهما ظلاّ يتحاوبان بالبكاء حتى طلع عليهما الصباح !!..[2]

في السنة الثانية والثلاثين للهجرة مرض أبو الدرداء ﷺ فدخل عليه أصحابه يعودونه فقالوا : ما تشتكي يا أبا الدرداء ؟ قال : أشتكي ذنوبي، قالوا : فما تشتهي ؟ قال : أشتهي الجنّة، قالوا : ألا ندعو لك طبيباً ؟ قال : هو الذي أضجعني[3].

واشتاق له الطبيب الجليل .. وعلم أن الجنّة دواؤه وشفاؤه .. وصعدت روح أبي الدرداء الطاهرة إلى بارئها .. لتحلّق مع أرواح الأحبة .. عبدِ الله بن رواحة .. وسلمانَ الفارسي .. وعمرَ .. وسواهم من الصحب الميامين رضي الله عنهم أجمعين .. وفي مقبرة (باب الصغير) بدمشق يوارِي التراب الطاهر حكيمَ الأمة، أبا الدرداء رضي الله عنه وأرضاه.

---

(١) مجمع الزوائد (ج١٠/٢٥٤).

(٢) انظر: حياة الصحابة (ج٢/٢٥٣-٢٥٤).

(٣) يعني الله سبحانه وتعالى.

أُمُّ وَرَقَةَ الأنصارية رضي الله عنها

إمامةُ النساء

أمُّ وَرَقَةَ الأنصارية

بنت عبد الله بن الحارث بن عُوَيْمر

في قلب المدينة التي تنوّرت بقدوم النبي ﷺ، وفي دار من دور الأنصار وقفت امرأة جليلة تَؤُمُّ جماعة من المؤمنات، اصطففن معها لأداء الصلاة بين يدي الله الذي أكرمهن بهذا الدين ..

تلك المرأة هي الصحابية الكريمة أم ورقة الأنصارية، رضي الله عنها .. صحابية ارتقت في سماء العبادة والتقى .. فقد عُرفت بطول قيامها، وكثرة صيامها، وشدّة شغفها بكتاب الله، فكانت دائمة التلاوة والحفظ له حتى حفظته في عهد النبي ﷺ، وفهمت معانيَه، فعُرِفت بالحافظة.[1]

من أجل ذلك رشّحها الرسول ﷺ للإمامة، فأمرها أن تؤمّ أهل دارها[2] ففعلت .. ثم استأذنته عليه الصلاة والسلام أن تتخذ في بيتها مؤذّناً .. فأذِن لها[3]، ولم يَخُصَّ النبيُ ﷺ غيرَها من الصحابيات بمثل هذا ..

كانت أم ورقة، رضي الله عنها، من المؤمنات اللواتي تشرّفن بمبايعة النبي عليه الصلاة والسلام .. كما تشرّفت أيضاً بالرواية عن رسول الله صلوات الله وسلامه عليه.[4]

ولاشك أن صحابية جليلة مثل أم ورقة، جعل النبي ﷺ بيتها مسجداً للمؤمنات، ستحظى بالإكرام منه ﷺ .. فكان يخصّها بالزيارة بين الحين والآخر.

اشتهرت رضي الله عنها بكُنيتها (أم ورقة) .. ولكن لها لقباً آخر حبيباً إلى قلبها أطلقه عليها النبي عليه الصلاة والسلام، فقد كان يقول : « انطلقوا نزور الشّهيدة ».[5]

---

١) التأريخ الدقيق لإسلام أم ورقة غير معروف.

٢) انظر: سنن أبي داود (ج١/٣٩٧)، والمستدرك (ج١/٢٠٣).

٣) انظر: صفة الصفوة (ج٢/٣٩).

٤) انظر: طبقات ابن سعد (ج٨/٤٥٧).

٥) مسند الإمام أحمد (ج٦/٤٠٥)، وانظر: المستدرك (ج١/٢٠٣).

أما خبر ذلك فهو أنه لما دعا داعي الجهاد إلى غزوة بدر، وتسابق المسلمون للظفر بشرف الجهاد مع النبي ﷺ .. جاءت أم ورقة، رضي الله عنها، ووقفت بين يدي النبي عليه الصلاة والسلام فقالت : تأذن لي فأخرج معك، أداوي جرحاكم، وأمرّض مرضاكم، لعلّ الله يُهْدِي لي شهادة .. وكان هناك من النساء من يفعلن ذلك، ولكن النبي عليه الصلاة والسلام قال لأم ورقة : « إن الله مُهدٍ لكِ شهادة »[1]. لقد أراد لها ﷺ أن تتابع وظيفتها في إمامة النساء، ولكنه وعدها بالشهادة ما دامت تطلبها بصدق..

وقرّت أم ورقة، رضي الله عنها، في بيتها تنتظر ما بشّرها به النبي ﷺ، فهي على يقين أنه لا ينطق عن الهوى. ومرّت الأيام وأم ورقة في مسجدها تصلّي أو هي مع كتاب الله تتلو وتحفظ وتؤمّ النساء إلى أن توفي رسول الله ﷺ وهو راضٍ عنها. وظلّت ترجو الشهادة وتسأل الله أن يرزقها إياها حتى اشتهرت بين الصحابيات بهذا الطلب ..

وتتالت الفتوحات وتكرّر النصر، ولكن أم ورقة، رضي الله عنها، لم تخرج مع المجاهدين، ولم تساهم في المعارك كبعض الصحابيات، وظلّت على العهد .. فقرّت في بيتها كما أمرها نبيها عليه الصلاة والسلام ..

فلما كان عهد عمر بن الخطاب ﷺ، رزقها الله تعالى نوعاً من أنواع الشهادة .. فقد كان لأم ورقة، رضي الله عنها، غلام وجارية، وكانت قد وعدتهما بالعِتق بعد موتها .. فخشيا أن تطول الحياة بها وسوّل لهما الشيطان قتلها. فلما جاءت ليلة السُّوء، قاما إلى صحابية رسول الله فغمّاها ثم قتلاها وهربا ..

كانت رضي الله عنها تُحيي ليلها بتلاوة القرآن الذي أحبّته وحفظته وعاشت في رحابه، وكان من عادة عمر بن الخطاب ﷺ أن يسمع قراءتها كلّ ليلة، لكنّه لم يسمع صوتها في تلك الليلة .. فلما أصبح قال : والله ما سمعت قراءة خالتي أم ورقة البارحة، فدخل دارها فلم ير شيئاً ولم يسمع صوتاً، فدخل البيت فإذا هي ملفوفة في قطيفة في جانب البيت، فأدرك عمر ﷺ ما حدث، وقام في الناس، فقال بلَوْعَة وغضب : إن أم ورقة غمّها غلامها وجاريتها

---

(١) انظر: طبقات ابن سعد (ج٨/٤٥٧)، وحلية الأولياء (ج٢/٦٣).

فقتلاها وإنّهما هربا، ثم أمر بطلبهما، فأُدركا، وأُتي بهما فسألهما، فأقرّا أنهما قتلاها .. فأمر بهما فصُلِبا، فكانا أول مصلوبين بالمدينة المنورة. هناك قال عمر ﷺ : صدق رسول الله ﷺ حين كان يقول : « انطلقوا بنا نزور الشّهيدة ».

رحم الله .. العابدة .. الحافظة ..

رحم الله .. الراوية .. المبايعة ..

رحم الله الشهيدة .. الأنصارية .. أم ورقة ..

وصدق رسول الله ﷺ حين قال : « من سأل الله الشهادة بصدق، بلّغه الله منازل الشهداء، وإن مات على فراشه ».[1]

---

(١) صحيح مسلم (ج٣/١٥١٧).

٦٠

رُفَيْدَةُ الأَسْلَمِيّة رضي الله عنها

أوّلُ مُمَرِّضة في الإسلام

رُفَيْدَةُ الأسْلَمِيّة الأنصارية

لما وصل الهادي البشير صلوات الله وسلامه عليه إلى المدينة تسابقت نساء الأنصار إلى خدمته وخدمة دعوته بحسب طاقة كل منهنّ، وبقدر الفرح الكبير الذي غمرهنّ، والحب العظيم الذي ملأ حياتهنّ وحياةَ أهل المدينة جميعاً لحلول خاتم المرسلين في ديارهم؛ فمنهنّ المبايعات[1] السابقات .. ومنهنّ من جعلت بيتها نُزُلاً لرسول الهدى وضيوفه الكرام .. ومنهنّ من كانت تصنع الطعام وتُعِدُّه للنبي عليه الصلاة والسلام وأضيافه .. ومنهنّ من أكبَبْن على العلم والحفظ فعاشت في رحاب القرآن، تتعلّم وتُعلّم .. ومنهنّ من شهدت الأحداث الكبرى وشاركت فيها .. ومنهنّ من خرجت إلى الجهاد فدافعت عن الإسلام، وقاتلت دون النبيّ عليه الصلاة والسلام.

وإذا ما تصفّحنا السّيرة النّبوية العطرة، وتاريخ الجهاد والفداء فستَلْمَح اسماً لامرأة من الأنصار يمرّ به التاريخ مروراً عابراً، دون تهويل أو تسليط للأضواء .. ولكن دورها لم يكن صغيراً ولا عابراً .. تلك هي رفيدة الأسلمية، رضي الله عنها.

يظهر اسم رُفَيْدَة في معرض الحديث عن غزوة الخندق وإصابة سعد بن معاذ ﷺ .. يقول ابن هشام : وكان رسول الله ﷺ قد جعل سعد بن معاذ في خيمة لامرأة من أسلم يُقال لها رفيدة في مسجده، كانت تداوي الجرحى، وتحتسب بنفسها على خدمة من كانت به ضَيْعَةً من المسلمين.[1]

قد تحدّثنا عن سعد بن معاذ هذا سيّد قومه .. وكم كان النبي عليه الصلاة والسلام يحبّه ويخاف عليه .. وأنه ﷺ كان هو الذي أشار على أهله أن يمرّضوه في خيمة رفيدة، فقد قال عليه الصلاة والسلام : « اجعلوه في خيمة رُفَيْدَةَ حتى أعودَه من قريب » ..[2]

كان رسول الله ﷺ يثق بعناية رفيدة، رضي الله عنها، ومهارتها في الطب، وكانت خيمتُها قربَ حُجُرات الرسول، وبذلك يَسْهُلُ عليه الاطمئنان على سعد ﷺ ..

---

(١) سيرة ابن هشام (مج٢/٢٣٩).

(٢) المصدر السابق.

لم تذكر كتب السيرة والتراجم عن هذه الصحابية أكثر من ذلك، لكن المتأمل في هذه السطور القليلة يقرأ المعانيَ الأعمق التي تدلّ على مشاركة المسلمة في قضايا الناس والمجتمع. لقد كانت الصّحابيات يخرجن إلى المعارك لخدمة المقاتلين ومداواة الجرحى، نعم .. لكن رفيدة كانت صاحبة أوّل مشفى متحرّك - إن صحّ التعبير - ، وكانت تُكرّس وقتها لهذا العمل في الحرب والسّلم، ويُستغاث بها في الأوقات العصيبة فتحبس نفسها لخدمة من احتاج إلى العناية والمداواة كما تفيد الروايات.

وحَسْبُ السيدة رفيدة، رضي الله عنها، سعادة وسروراً أنها كانت تقوم بذلك في مسجد رسول الله، عليه الصلاة والسلام، وقرب بيته، فكان يمرّ على خيمتها صباحَ مساءَ ليتفقّد أصحابه المصابين .. وحسبها أنه كان راضياً عن عملها يأمنها على أصحابه وأحبابه .. وحسبها أنها كانت صاحبة أول مشفى في الإسلام.

فإذا تفاخرَت الأمم الأخرى بأول ممرّضة وأوّل مهتمّة بذوي الحاجات، فَلَنا أن نتفاخر بالصحابية الأنصارية رفيدة فقد كانت من الرائدات في الخدمة العامة ..

رحم الله رفيدة الأنصارية، الممرضة المسلمة التي كانت تعمل في صمت ..

لم تأت المصادر على ذكرها كثيراً، لكنَّ صنيعَها ظل محفوراً في ذاكرة المجاهدين، واسمُها عند الله في سجل العاملين المخلصين ..

لقد كانت من السابقات إلى نُصرة الدعوة ودعمها حين كانت أحوج ما تكون إلى النصير في ذلك الوقت العصيب.

المصادر والمراجع

اسم الكتاب	اسم المؤلف	التحقيق والطبعة ودار النشر
المصـــــادر :		
كتب التفســـــير		
مختصر تفسير ابن كثير	الإمام الجليل الحافظ عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن كثير	محمد علي الصابوني ١٤١٠ هـ - ١٩٨٩م دار النمير - دمشق دار القلم - حلب
كتب الحديث وشروحهـا		
سنن ابن ماجه	محمد بن عبد الله بن يزيد القزويني	محمد فؤاد عبد الباقي ومصطفى الذهبي الطبعة الأولى ١٩٩٨م دار الحديث - القاهرة
سنن أبي داود ومعه كتاب معالم السنن للخطابي	الإمام أبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني	عزت عبيد الدعاس وعادل السيد دار الحديث - القاهرة
السنن الكبرى	الإمام أبو بكر أحمد ابن الحسين بن علي البيهقي	الطبعة الأولى ١٣٤٤هـ دار صادر - بيروت
سنن الترمذي	الإمام محمد بن عيسى ابن سَورة الترمذي	كمال يوسف الحوت دار الكتب العلمية بيروت - لبنان

اسم الكتاب	اسم المؤلف	التحقيق والطبعة ودار النشر
سنن النسائي بشرح الحافظ جلال الدين السيوطي وحاشية الإمام السندي	الإمام أحمد بن شعيب ابن علي النسائي	دار الكتاب العربي بيروت - لبنان
صحيح البخاري	الإمام أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري الجعفي	د. مصطفى ديب البغا التراث النبوي
صحيح مسلم	الإمام أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري	محمد فؤاد عبد الباقي دار إحياء التراث العربي بيروت - لبنان
فتح الباري بشرح صحيح البخاري	الإمام أحمد بن علي ابن حجر العسقلاني	عبد العزيز بن باز ومحمد فؤاد عبد الباقي ومحبي الدين الخطيب المكتبة السلفية
كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس	الإمام إسماعيل بن محمد العجلوني	الطبعة الثالثة دار الكتب العلمية
مجمع الزوائد ومنبع الفوائد	الحافظ نور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي	دار الريان للتراث - القاهرة دار الكتاب العربي - بيروت
المستدرك على الصحيحين وبذيله التلخيص للحافظ الذهبي	الإمام الحافظ أبو عبد الله الحاكم النيسابوري	دار الكتاب العربي بيروت - لبنان
مسند الإمام أحمد بن حنبل وبهامشه منتخب كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال	الإمام أحمد بن حنبل	مؤسسة قرطبة - مصر

اسم الكتاب	اسم المؤلف	التحقيق والطبعة ودار النشر
موطأ الإمام مالك	أبو عبد الله مالك بن أنس الأصبحي	محمد فؤاد عبد الباقي دار إحياء التراث العربي بيروت - لبنان
كتب السيرة النبوية		
دلائل النبوة ومعرفة أحوال أصحاب الشريعة	أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي	د.عبد المعطي قلعجي الطبعة الأولى ١٤٠٥ هـ-١٩٨٥م دار الكتب العلمية بيروت - لبنان
السيرة الحلبية من إنسان العيون في سيرة الأمين والمأمون	الإمام العالم علي بن برهان الدين الحلبي الشافعي	دار الفكر - بيروت
السيرة النبوية	أبو محمد عبد الملك ابن هشام	مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي الطبعة الثانية ١٩٥٥م مطبعة مصطفى الحلبي (تراث الإسلام) مصر
كتب التراجم		
الاستيعاب في معرفة الأصحاب	أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر النمري القرطبي	علي محمد البجاوي مطبعة نهضة مصر

اسم الكتاب	اسم المؤلف	التحقيق والطبعة ودار النشر
أسد الغابة في معرفة الصحابة	الشيخ العلامة عزّ الدين أبو الحسن علي ابن أبي أكرم الشيباني المعروف بابن الأثير	دار إحياء التراث العربي بيروت - لبنان
الإصابة في تمييز الصحابة	الإمام الحافظ ابن حجر العسقلاني	الطبعة الأولى ١٣٢٨ هـ دار إحياء التراث العربي
تذكرة الحفاظ	الإمام أبو عبد الله شمس الدين محمد الذهبي	
تهذيب التهذيب	الإمام الحافظ ابن حجر العسقلاني	الطبعة الأولى ١٣٢٥هـ مطبعة دائرة المعارف النظامية
حلية الأولياء وطبقات الأصفياء	الحافظ أبو نعيم أحمد ابن عبد الله الأصبهاني	الطبعة الرابعة ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م دار الكتاب العربي
سير أعلام النبلاء	الإمام شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي	الطبعة الأولى ١٤٠١هـ - ١٩٨١م مؤسسة الرسالة بيروت
صفة الصفوة	الإمام جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي (ابن الجوزي)	الطبعة الثانية ١٣٨٨هـ - ١٩٦٨م مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية حيدر أباد الدكن - الهند
الطبقات الكبرى	محمد بن سعد	دار صادر - بيروت

اسم الكتاب	اسم المؤلف	التحقيق والطبعة ودار النشر
كتب التاريخ		
البداية والنهاية	الإمام عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمر ابن كثير	الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م دار الكتاب العلمي بيروت - لبنان
تاريخ الطبري	أبو جعفر محمد بن جرير الطبري	روائع التراث العربي - مكتبة الخياط
تاريخ مدينة دمشق (الجزء ١٦)	أبو القاسم علي بن الحسن الشافعي المعروف بابن عساكر	د. محب الدين أبو سعيد عمر بن غلامة العمروي - دار الفكر
تاريخ مدينة دمشق (الجزء ٣١)	أبو القاسم علي بن الحسن الشافعي المعروف بابن عساكر	د. شكري فيصل مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق، ١٣٩٧هـ - ١٩٧٧م
مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر (٤)	الإمام محمد بن مكرم المعروف بابن منظور	إبراهيم الصالح الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ- ١٩٨٧م
مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر (٥)	الإمام محمد بن مكرم المعروف بابن منظور	مأمون الصاغرجي- أحمد حمامي الطبعة الأولى ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م
مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر (٨)	الإمام محمد بن مكرم المعروف بابن منظور	مأمون الصاغرجي الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م
مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر (٩)	الإمام محمد بن مكرم المعروف بابن منظور	د. نسيب نشاوي الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م
مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر (١٠)	الإمام محمد بن مكرم المعروف بابن منظور	رياض عبد الحميد مراد الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م

اسم الكتاب	اسم المؤلف	التحقيق والطبعة ودار النشر
مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر (١١)	الإمام محمد بن مكرم المعروف بابن منظور	روحية النحاس الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م دار الفكر - دمشق
مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر (١٤)	الإمام محمد بن مكرم المعروف بابن منظور	روحية النحاس الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م دار الفكر - دمشق
مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر (٢٤)	الإمام محمد بن مكرم المعروف بابن منظور	إبراهيم صالح الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م

المراجـــع :

حياة الصحابة	العلامة الكندهلوي	الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ - ١٩٨٧م دار الريان للتراث - القاهرة
دراسة في السيرة	د.عماد الدين خليل	
فقه السيرة النبوية	د.محمد سعيد رمضان البوطي	الطبعة العاشرة ١٩٩١م دار الفكر - دمشق
فقه السيرة	محمد الغزالي	دار الكتب الإسلامية
مختصر الجامع في السيرة النبوية	سميرة الزايد	الطبعة الأولى ١٤١٦هـ - ١٩٩٥م المطبعة العلمية
من نفحات الخلود	محمد صالح الفرفور	٢٠٠١م دار الفرفور
النفحات العطرية	د.نور الدين العتر	

فهرس

- المقدمة ٧
- مدخل تاريخي ١١

المهاجرون من أهل مكّة

١ - أم المؤمنين خديجة بنت خويلد ١٩
٢ - السيدة زينب بنت محمد ﷺ ٣١
٣ - زيد بن حارثة ٣٧
٤ - أم رومان ٤٥
٥ - سعد بن أبي وقاص ٥١
٦ - أبو عبيدة بن الجراح ٥٩
٧ - عبد الرحمن بن عوف ٦٩
٨ - خباب بن الأرت ٧٥
٩ - عبد الله بن مسعود ٨١
١٠- بلال بن رباح ٩١
١١- جعفر بن أبي طالب ١٠١
١٢- صهيب الرومي ١١١
١٣- زيد بن الخطاب ١١٧
١٤- سالم مولى أبي حذيفة ١٢١
١٥- مصعب بن عمير ١٢٩
١٦- أم المؤمنين أم سلمة ١٣٩
١٧- عبد الله بن حذافة السهمي ١٤٧
١٨- حمزة بن عبد المطلب ١٥٣
١٩- فاطمة بنت أسد ١٥٩

٢٠- الشفاء بنت عبد الله العدوية ١٦٥
٢١- السيدة فاطمة بنت محمد ﷺ ١٧١
٢٢- أسامة بن زيد ١٨٣
٢٣- عبد الله بن العباس ١٨٩
٢٤- سعيد بن عامر ١٩٧
٢٥- العباس بن عبد المطلب ٢٠٥
٢٦- خالد بن الوليد ٢١٣

المسلمون قبل الفتح (من غير أهل مكّة)

٢٧- الطفيل بن عمرو الدوسي ٢٢٩
٢٨- النعمان بن مقرن ٢٣٧
٢٩- أبو هريرة ٢٤٣
٣٠- عمران بن الحصين ٢٥١
٣١- أم المؤمنين صفية بنت حيي ٢٥٥

المسلمون بعد الفتح

٣٢- عكرمة بن أبي جهل ٢٦٥
٣٣- سهيل بن عمرو ٢٧١
٣٤- الخنساء ٢٧٩
٣٥- تميم بن أوس ٢٨٣

الأنصـــــار

٣٦- حذيفة بن اليمان ٢٩١
٣٧- عبادة بن الصامت ٢٩٩
٣٨- سعد بن الربيع ٣٠٥
٣٩- عبد الله بن رواحة ٣٠٩
٤٠- نسيبة بنت كعب ٣١٩
٤١- أسيد بن حضير ٣٢٥

٤٢- سعد بن معاذ ٣٣١
٤٣- أبو أيوب الأنصاري ٣٤١
٤٤- معاذ بن جبل ٣٤٧
٤٥- كعب بن مالك ٣٥٧
٤٦- أبي بن كعب ٣٦٧
٤٧- أم سليم بنت ملحان ٣٧٥
٤٨- أم حرام بنت ملحان ٣٨٣
٤٩- عمرو بن الجموح ٣٨٩
٥٠- عبد الله بن عمرو بن حرام ٣٩٥
٥١- خبيب بن عدي ٤٠١
٥٢- ثابت بن قيس ٤٠٧
٥٣- أسماء بنت يزيد ٤١٣
٥٤- سلمان الفارسي ٤١٧
٥٥- حبيب بن زيد ٤٢٩
٥٦- أنس بن مالك ٤٣٥
٥٧- زيد بن ثابت ٤٤٣
٥٨- أبو الدرداء ٤٥١
٥٩- أم ورقة الأنصارية ٤٦١
٦٠- رفيدة الأسلمية ٤٦٥

- المصادر والمراجع ٤٦٩